

تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م



ISSN: 2090 - 0449
Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ
تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر
مارس ٢٠٢٤ – شعبان ١٤٤٥

السنة السابعة عشرة
العدد الثالث والستون

https://kan.journals.ekb.eg

Historical Kan Periodical

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء

Kan Historique périodique

ISSN 0209-004X

@kanhistorique /historicalkan



دورية كان التاريخية.- س١٧، ع٦٣ (مارس ٢٠٢٤/ شعبان ١٤٤٥)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 17, no. 63 [Mar. 2024]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
Egyptian Knowledge Bank.
Information on this issue: https://kan.journals.ekb.eg

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠٢٣.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2023.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

أول دورية عربية إلكترونية محكمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

https://kan.journals.ekb.eg

أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة

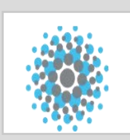




مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



معتمدة من مركز مؤشر - برلين:
المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالميًا.
https://indexpolls.de



المشرف العام

أ.د. عبد العزيز غوردو
أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة – المملكة المغربية

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام





حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المُحَكَّمة.

مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤.

مصنفة ضمن تخصص التاريخ الفئة الوسطى (Q3) في **معامل التأثير أرسيف**.

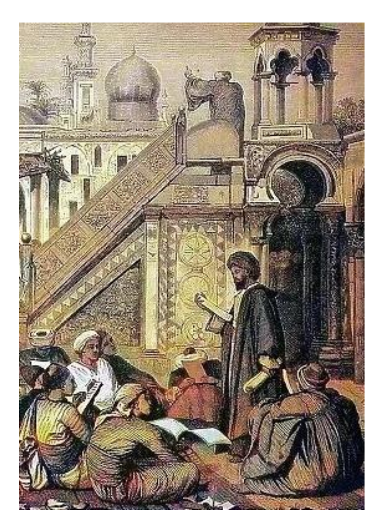
عضو في **الجمعية الدولية للمجلات العلمية** الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ مشارك تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



Arab University in Cairo, Egypt,
historical wood engraving, ca. 1880,
exact original date unknown.

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

historicalkan

groups/kanhistorique

kanhistorique

kanhistorique.blogspot.com

goodreads.com/kanhistorique



www.kan.nashiri.net



https://kan.journals.ekb.eg

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.

GO GREEN GO PAPERLESS

الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

أخلاقيات النشر والنزاهة العلمية

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهمّ محرري المجلاّت العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللاّزمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرّح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

كان التّاريْخية هي أول دورية عربية مُحكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التّاريْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية من متخصّصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسة أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكّمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكّمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدّم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكّمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنّية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية.
يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكّمين اثنين على الأقل ممّنْ لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكّمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكّمين أو طلبهم ألا يقوم محكّمون معينون بمراجعة أوراقهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.

C O P E

دَّورية كان التَّاريْخية هي دورية علمية عالمية مُحَكَمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة التَّاريْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

الأصالة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأً فادحًا في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعملهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقًا صحيحًا وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكّمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكّمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على أي محكّم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المُحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكّمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكّمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكّمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكّمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السريّة، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكّمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجّهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكّمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

شرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرة التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال/ دراسة/ ترجمة/ تقرير/ عرض كتاب/ عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال/ الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعون.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وبتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أجور المحكمين

- لا تعتمد دورية كان التاريخية أية رسوم مقابل المراجعة العلمية والتحكيم والمراجعة اللغوية والتنسيق والنشر والأرشفة وفهرسة المقالات والدراسات.
- يتعاون مع دورية كان التاريخية بصفة تطوعية هيئة من المراجعين والمحكمين من ذوي الخبرة البحثية والمكانة العلمية المتميزة. ولا تدفع الدورية أية مكافآت مالية مقابل عملية المراجعة والتحكيم وتقييم المقالات والدراسات المقدمة للنشر.

دَّورية كان التَّاريْخية مفهرسة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دّوريةُ كَان التَّاريْخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممَنْ عُرفِوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممَنْ أصدروا كتبًا أو أبحاثًا علميَّةً متميزة في تخصُّص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ العالم القديم.
- التراجم والأنساب.
- التاريخ المقارن.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- منهج البحث التاريخي.
- المستكشفون والرحالة.
- العمارة والعمران والمدن.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.

المُقيمّون والمُحكّمون

أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب
أ.د. إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق
أ.د. أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن
أ.د. أحمد عبد الله الحَّسُّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا
أ.د. أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق
أ.د. إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أ.د. أمين محمد علي الجبر	جامعة ذمار	اليمن
أ.د. أيمن وزيري	جامعة الفيوم	مصر
أ.د. بديع العابد	جامعة الإسراء	الأردن
أ.د. بشار محمد خليف	مركز حضارات المشرق العربي	سوريا
أ.د. بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د. حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. الحسن تاوشيخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب
أ.د. حسين صالح حسين العنسي	جامعة ذمار	اليمن
أ.د. حنيفي هلايلي	جامعة جيلالي ليابس	الجزائر
أ.د. خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. ذاكر محي الدين عبد الله العراقي	جامعة الموصل	العراق
أ.د. رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر
أ.د. سعاد يمينة شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د. سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ.د. شعيب مقنونيف	جامعة " أبوبكر بلقايد " تلمسان	الجزائر
أ.د. صالح محمد زكي اللهيبي	جامعة الجزيرة	الإمارات
أ.د. عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
أ.د. عبد الرحيم مراشدة	جامعة جدارا	الأردن
أ.د. عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية
أ.د. عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د. العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
أ.د. عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر
أ.د. عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق
أ.د. كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
أ.د. كمال السيد أبو مصطفى	جامعة الإسكندرية	مصر
أ.د. لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر
أ.د. مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب
أ.د. محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر
أ.د. مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب
أ.د. وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق

" حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

رسوم النشر

تلتزم دورية كان التاريخية بمجّانية النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلّفين من جميع رسوم النشر والمراجعة والتحكيم.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشرِ

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدَة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفة الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَّشَرِ

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

مكافآت الباحثين

لا تدفع دورية كان التاريخية أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما يُنشر في الدورية إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي عامة ومجال الدراسات التاريخية بصفة خاصة.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخِية أربع مرات في السنة: (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية
  https://www.facebook.com/historicalkan
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر عبر النظام الإلكتروني على موقع الدورية أو مباشرةً إلى رئيس التحرير:
  mr.ashraf.salih@gmail.com

مُحْتَوَيَاتُ الْعَدَدِ

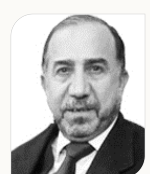
كُتَّابُ الْعَدَدِ

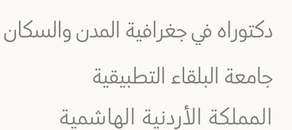


دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

أسماء الأماكن الجغرافيّة الواقعة على مسارات الطرق الواصلة بين خِربَة كُرْكُمَة وبلدة الهاشمية ودلالاتها المحليّة
دراسة نظرية تطبيقية في علم أسماء الأماكن "الطبونوميا"





أ.د. خليف غرايبة

دكتوراه في جغرافية المدن والسكان

جامعة البلقاء التطبيقية

المملكة الأردنية الهاشمية



د. سالم بني عطـا

دكتوراه في الإدارة التربوية والاشراف

مستشار تربوي في وزارة التربية والتعليم

المملكة الأردنية الهاشمية

مُلَخّصْ

تبحث هذه الدراسة في أسماء الأماكن الجغرافية الواقعة على مسارات الطرق الواصلة بين خِربَة كُرْكُمَة الواقعة بمستوى سطح البحر في الغور الأردني الشمالي، وبين بلدة الهاشمية (فَارَه سابقًا) الواقعة في منطقة شفا الغور وتبعد عنها (٨) كيلومترات. وترتبط كُرْكُمَة ببلدة الهاشمية بطريقين أحدهما جنوبي منحدر ولا يزال مسربًا ترابيًا ضيّقا وسالكًا بصعوبة، والآخر شمالي أقل انحدارًا واعتمده السكان غالبًا لنقل أمتعتهم ومعداتهم عند التنقّل والترحال وتم تعبيده حالياً، وتمّ اعتماد المنهج التاريخي، والدراسة الميدانيّة التي تعتمد المعرفة الشخصيّة للباحثَين بهذه الطرق ومعايشتها لفترة طويلة. أظهرت الدراسة أن مسرب الطريق الشمالي يشتمل على١٩ موقعًا جغرافياً، في حين يشتمل المسرب الجنوبي على١٥موقعًا، وتبيّن أنّ معظم هذه المواقع استمد اسمه من طبوغرافية المكان (المورفولوجيا)، وبعضها يعود لظاهرة نباتية في المكان، وبعضها يرجع إلى حدث تاريخي، وقليل منها استمد اسمه من حيوانات أو طيور اشتهر بها المكان. كما أظهرت الدراسة أنّ معدّل الانحدار العام لكلا الطريقين يصل إلى ٦٤ متر لكل كيلومتر مع تفاوت الانحدار من مكان إلى آخر. توصّلت الدراسة إلى نتائج وتوصيات يمكن أن تُساهم في توثيق أسماء الأماكن على هذه الطرق، كما يُمكن أن تُشكّل عاملاً مساعدًا لصانعي القرار في ترسيم وتثبيت هذه الطرق مستقبلاً.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٨ نوفمبر ٢٠٢٣

تاريخ قبـول النشـر: ٢٢ يناير ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

كُرْكُمَة؛ الهاشمية؛ الغور؛ شفا الغور؛ طبوغرافية المكان.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.353112 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

خليف غرايبة, سالم بني عطا. "أسماء الأماكن الجغرافية الواقعة على مسارات الطرق الواصلة بين خِربَة كُرْكُمَة وبلدة الهاشمية ودلالاتها المحلية: دراسة نظرية تطبيقية في علم أسماء الأماكن الطبونوميا".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة -العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ١٤ – ٢٨.

Corresponding author: khlaifgh@yahoo.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَة

لا توجد في العالم منطقة بدون اسم، فكلّها تحمل أسماء ذات دلالات، وهذه التسميات تكون مرتبطةً في الغالب بالتفاعلات التي تحدث بين الإنسان ومجاله البيئي، أو التاريخي، أو الاجتماعي، أو الاقتصادي. وبالنسبة للمجال الأردني بشكل عامٍّ، والعجلوني منه بشكل خاصٍّ، والشَفَاغوري منهما بشكل أخصٍّ فإنه يتضمن تنوّعًا كبيرًا فيما يتعلق بأسماء الأماكن (موضوع الدراسة)، منها ما يرجع إلى أصول تاريخية أو اقتصاديّة، لكنّ معظمها محليٌّ بحت، توارثه السكّان عمّن قبلهم.

و"علم أسماء الأماكن places name "، ومنه علم الأسماء الجغرافية الذي يعتمد المعطيات الطوبونيمية " Toponymique"، وعلم أسماء الأشخاص "Onomastique" هما من العلوم الحديثة من الناحية الأكاديميّة وخاصّة في جامعاتنا العربية، وقد سبقنا الغرب في إرساء هذه العلوم في جامعاتهم، مع أنّ الحضارة العربية والإسلاميّة زاخرة بأسماء الاشخاص والأماكن في كتب الرحالة والجغرافيين والمسلمين العرب أمثال: إبن بطوطة، وياقوت الحموي، والإدريسي، وابن جبير الأندلسي، وغيرهم الكثير(1).

وتأتي هذه الدّراسة علّها تُساهم ولو نسبيًا في تجديد ذاكرة الأجيال الحالية من ناحية، وتذكير الجامعات الأردنية والعربيّة بضرورة الاهتمام بالتراث العربي الإسلامي من خلال وضع تخصّصات في هذا المجال، أو إلحاق مقررات دراسيةٍ في تخصّصاتٍ التّاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا وغيرها من العلوم الاجتماعية في برامجها المستقبلية.

أولاً: الإطار المنهجي للدّراسة

١/١–منطقة الدّراسة

تتمثّل منطقة الدراسة بأسماء المواقع الجغرافية على مسارات الطرق الواصلة بين خربَة كُرْكُمَة الواقعة عند أقدام التلال Foot Hills (صورة رقم ١) لمنطقة الشَفَا في محافظة عجلون بالأردن، وبلدة الهاشمية (فَارَه سابقًا) (صورة رقم ٢) الواقعة على متوسط ارتفاع ٥٠٠ متر فوق سطح البحر، ويُقدّر طول كل طريق بحوالي ثمانية كيلومترات، وتمتاز هذه الطرق بانحدارها الشّديد، حيث إن معدل الانحدار ١:٦٣ أي بمعدل ٦٣ متر انحدار لكل كيلومتر، وتسهيلاً وتنظيمًا للدراسة تم تقسيم مسار كلّ طريق من هذين الطريقين صعودًا من كُرْكُمَة إلى الهاشمية إلى خمسة مراحل على النّحو التّالي:

الطريق الجنوبي		الطريق الشمالي	
الدّلّخوم	البياضة	كُرْكُمَة	أرض الجامع
البياضة	وادي المحفر	أرض الجامع	راس الخرابة
وادي المحفر	الحبيس	راس الخرابة	بداية طلوع القهاقير
الحبيس	سرب اللوز	طلوع القهاقير	روس الصفا
سرب اللوز	الصرار	روس الصفا	الهاشمية

٢/١–مُشكلة الدّراسة ومُبرّراتها وأهميّتها

من الجدير بالذّكر أنّ أسماء الأماكن في المنطقة الشَفَاغوريّة في تحوّلٍ مستمر مع مرور الزمن تبعًا للتطورات التاريخيّة والسياسيّة التي عرفتها هذه المنطقة، وليت الأمر كذلك، بل تعدّاه إلى أنّ ذاكرة الأجيال الحاليّة من أبناء شفا الغور الأردني لم تعد تهتم بالمكان ذاته فكيف باسمه؟!

وببساطة فإنّ هذه الأجيال ما عادت تهتم بهذه التسميات لتغيّر نمط حياتها، وتغيّر نمط اقتصادها فابتعدت عن اقتصاد الموقع (الذي يعتمد على الأرض ومواردها) واعتمدت على الاقتصاد الخدمي أو الوظيفي، لذا أصبح من الضرورة توثيق هذه الأسماء خوفًا عليها من الضياع، خاصّة وأنّ شفا غور عجلون يقع على حدود الكيان الصهيوني الذي يطمع في تغيير حدوده مع مرور التاريخ، هذا الكيان الذي استطاع أن يُجدّد نفسه بعد تشتت تاريخي تجاوز الأربعة عشر قرنًا من الزمن من خلالٍ تزوير معروفٍ في علمِي الطوبونيميا (Toponymy and Anthropology) والأنثروبولوجيا/الإناسة.

وتكمن مشكلة هذه الدراسة ومبرّراتها وأهميّتها في أنّ هذيْن العِلميْن السّابقيْن اللّذيْن يؤكدان على قُدسيّة الأرض والمكان، كما يشكلان حافزًا للإنسان في مختلف ميادِيْن حياته اليوميّة، فهما حافز لمعرفة الإنسان لهويته ووطنيّته وانتمائه، وبالتالي معرفته العقلانيّة العميقة لتاريخه ولحضارته اللّذان يتمسّك بهما كتمسكه بحياته، بل وربما أكثر، واستعداده التّام للتضحية بحياته في سبيلهما، لأنهما يُشكّلان مصدر فخره واعتزازه ووجوده، وهما دليل هوية وانتماء لا بُدّ من معرفته جيدًا من الأجيال الصاعدة والواعدة.

٣/١-الدّراسات السّابقة

رغم حداثة علم أسماء الأماكن عمومًا والأسماء الجغرافيّة خصوصًا، إلاّ أن الدّراسات السّابقة قليلة في هذا المجال، ومع ذلك استطاع الباحثان إدراج الدّراسات العربية التالية:

- دراسة فريحة، أنيس، التي صدرت عام ١٩٥٦، فهي من الدراسات الأولى، وهي بعنوان: أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، ومن منشورات كلية العلوم والآداب في الجامعة الأمريكية في بيروت، ويقع الكتاب في ٣٧٠ صفحة، وهو حافل بالتعريف والتفسير والتعليل عن القرى والمدن اللبنانيّة ودلالات هذه الأسماء[٢].
- دراسة المعاني، سلطان، وهو كتاب صدر عام ١٩٩٤، من منشورات لجنة التراث في جامعة مؤتة، بعنوان: أسماء المواقع الجغرافية في محافظة الكرك دراسة اشتقاقيّة ودلاليّة، ويقع الكتاب في ٨٨ صفحة، والكتاب يركّز على أسماء المواقع الجغرافية ويدرس دلالات هذه الأسماء[٣].
- دراسة الزقرطي، إبراهيم، وهو كتاب وحجمه ٦٢ صفحة فقط، صدر عام ١٩٩٧، بعنوان: أسماء الأسماء الجغرافية، ورغم صغر حجمه لكن فيه معلومات عن علم الأسماء الجغرافيّة، وهو موجه بشكلٍ خاصٍّ لطلاب الجغرافيا في الجامعات العربية، وطلاب المساحة في المعاهد المختصة[٤].
- دراسة الصاعدي، بعنوان: أسماء الأماكن في منطقة القصيم دراسة لغويّة، وهي رسالة دكتوراه في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة لعام ٢٠١٥، تدخل هذه الرسالة ضمن (علم اللغة الاجتماعي)؛ فهي تتناول من مجتمع اللغة أمرا لصيقا بالإنسان، ألا وهو المكان، فتدرس الأعلام الموضوعة له دراسة لغوية تحليلية. واختيرت أسماء أماكن منطقة القصيم عينة لهذا البحث، حيث تناول الباحث تلك الأسماء بالدراسة والتحليل اللغوي، وقد خرج البحث بنتائج، أهمها: كثرة الظواهر الصوتية في عينة البحث، وأصالتها عند اللغويين، وتنوع تصريفات تلك الأسماء وقياسية جلها. ودقة وتمييز واضعي تلك الأسماء للدلالة على هيئة المكان أو من ينتمي إليه.
- دراسة الشويري، صدرت عام ٢٠١٨، وهو كتاب بعنوان: علم أسماء الأماكن، يُشكل مرجعًا أساسيًا لكل من يكتب في علمي الطوبونومي والأونوماستيك، واحتوى كمًا كبيرًا من المعلومات في هذيْن العِلميْن[٦].
- دراسة رحيم، نشرت في مجلة لارك العراقية عام ٢٠١٩، بعنوان: أسماء الأماكن بين المؤابية والعبرية دراسة مقارنة، يتناول هذا البحث دراسة أسماء الاماكن والمدن الواردة في نقش ميشع المؤابي حيث تم كشف تسعة عشر اسمًا وموقعًا جغرافيًا.[٧]
- دراسة السلامين والقنانوة، الذي صدر عام ٢٠٢١، وهو كتاب بعنوان: الطوبونيميا النبطيَّة: دراسة في أسماء المواقع الجغرافيَّة في ضوء المصادر التاريخيَّة ومخطوطات البحر الميِّت، وهو دراسة لغوية تاريخية لأسماء المواضع الجغرافية الواردة في الكتابات النبطيّة (النقوش والبرديّات)، بالإضافة إلى الأسماء المنسوبة إلى مواضع جغرافية، والواردة أيضًا في الشواهد الكتابية النبطيّة، والأسماء الجغرافية وأسماء الشعوب والقبائل التي وُسِمت بالنبطيّة، أو اتّصلت بالأنباط بصورة أو بأخرى، في المصادر والكتابات التاريخية الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية).[٨]
- دراسة القحطاني لمنطقة عسير، وهو كتاب صدر عام ٢٠٢١، بعنوان: أسماء الأماكن في منطقة عسير، حيث درس أرض، ونباتات وحيوانات منطقة عسير، كما درس بالتفصيل أسماء الأماكن فيها، وكشف عن سماتها اللغوية التي حافظت عليها عبر الحقب المتتابعة، وقد فنّدت الدراسة بالأدلة رأي من ادّعى

عبريّة بعض أسماء المنطقة[٩]، وأنّها كانت موطن بني إسرائيل، وأثبتت الدراسة أنّ تلك الأسماء عربيّة، لم تزل تحمل معانيها[١٠].

وتأتي الدّراسة الراهنة لتُكون الأولى من نوعها في الأردن، وتُشكّل إضافةً نوعيّة في "علم أسماء المكان"، هذا العلم الّذي يُخلّد فيه المكان عبَر الزّمان بعيدًا عن عبث العابثين وطمع الطّامعين.

٤/١-أهداف الدّراسة

تسعى هذه الدّراسة إلى تحقيق الهدف العام التالي: حصِّر أسماء المواقع الجغرافية على مسارات الطرق الواصلة بين خِربَة كُرْكُمَة وبلدة الهاشمية وتفسير معانيها ودلالاتها، وحصر أسماء الأماكن الواقعة على جوانب هذه الطُرق وآفاق هذه المسارات القريبة والبعيدة.

كما تسعى الدّراسة إلى تحقيق العديد من الأهداف الفرعية أبرزها:

- كتابة نبذة مختصرة عن كُلٍّ من خِربَة كُرْكُمَة وبلدة الهاشمية.
- كتابة وصف طبوغرافي موجز عن معالم أسماء الأماكن الجغرافية الواقعة على هذه الطرق وتفسير معاني دلالات أسمائها.
- محاولة تكوين وبناء إطار نظري لدراسة موضوع علم أسماء الأماكن، والذي يُعاني من نقصٍ في بنائه النظري، وذلك على المستوى العربي والأردني بشكلٍ عامٍ، وبدرجات متفاوتةٍ بين مناطقه بشكلٍ خاص، ويُمكن أن تستفيد من هذه المحاولة دراساتٌ لاحقةٌ على المستويَين العربي والمحلي (لكل دولة)، دراساتٌ تكون أكثر تعمّقًا سواء على مستوى علم أسماء الأماكن بصفة عامة، أو على مستوى علم أسماء الأماكن لكل دولة أو محافظة أو منطقة على حدة.

٥/١-منهجيّة الدّراسة

ولتحقيق الهدف العام السّابق، والأهداف الفرعية لهذه الدراسة اعتمد الباحثان مناهج تتقارب وتتكامل مع بعضها، وهذه المناهج هي:

المنهج التحليلي التّصاعدي التّتبعي[١١] Analytical Vertical Treatment Approach: وتم اعتماده أثناء تتبّع خط سيِّر مسارات الطرق، ابتداءً من خِربَة كُرْكُمَة، وصعودًا حتى بلدة الهاشمية، وتوقيع أسماء الأماكن على خريطة كروكية بهدف التوصّل إلى رسْم خريطةٍ عامّةٍ لمسارات الطرق.

المنهج التاريخي الاجتماعي[١٢] Social Historical Approach: وتمّ مزج هذيْن المنهجيْن في اعتماد المتوارث عبر الأجيال في توثيق أسماء الأماكن الجغرافيّة على مسارات الطرق الواصلة بين خِربَة كُرْكُمَة وبلدة الهاشمية.

منهج التحليل المكاني[١٣] Spatial Analysis Approach: يساهم هذا المنهج في إعطاء صورة واضحة ودقيقة عن معالم الظواهر الجغرافيّة، وقد تم اتّباعه (وبشكلٍ وصفيٍ تفصيلي) في وصف الظاهرات الجغرافية على مسارٍ الطريقيْن المذكوريْن، ووصف الظواهر الجغرافيّة المجاورة، أو تلك التي تبدو في الآفاق.

اعتمد الباحثان أسلوب الدّراسة الميدانيّة Field Study في هذا البحث لتثبيت الاسم في موقعه الجغرافي الصّحيح على كلّ مسارٍ منها، كما تمّ الرّجوع إلى كبار السّنّ من المعمّرين Elderly centenarians (الذّكور والإناث) في تفسير دلالات ومعاني هذه الأسماء[١٤].

٦/١-مجالات الدّراسة

التزم البحث في تحقيقه لأهدافه ومحتواه أربعة مجالاتٍ أساسيةٍ هي:

المجالُ البحثيّ: التزم الباحثان بشكلٍ رئيسي بما تحتويه مسارات الطرق المذكورة من أسماء ومعالم جغرافية بهدف تفسير دلالاتها، وبما يجاور هذه المسارات من أسماء، علاوة على أسماء الأماكن الواقعة في آفاق هذه الطرق.

المجال التاريخي (الزماني): يتمثّل بالدرجة الأولى في أقدم الفترات الزمنية المتوارثة عن الآباء والأجداد، وتُقدّر بما يزيد عن قرنيْن ونصف من الزمن، وتحديدًا منذ منتصف القرن الثامن عشر(١٧٥٠م).

المجال الجغرافي (المكاني): ويشمل مسارات الطرق، وجوانبها، وآفاقها القريبة، والّتي تُقدّر بحوالي ٦٠ كم^{٢}، علاوة على آفاقها البعيدة المُتمثلة في كلٍّ من جبال نابلس

غربًا، ومناطق بحيرة طبريا ومدينة بيسان والأجزاء السهلية الواسعة الواقعة في شمالها الغربي.

المجال البشري (السّكّاني): ويتمثّل في العشائر الّتي سكنت خِربَة كُرْكُمَة وبلدة الهاشمية خلال الفترة الزمنيّة الواقعة بيْن (١٧٥٠م – ٢٠٢٣م).

١/٧-مفاهيم ومصطلحات الدراسة

علم أسماء الأماكن/ الطبونومي Toponymy (place names): الطبونومي كلمة لاتينية، وهو من العلوم التي لا تُحدّ في مكانٍ وزمانٍ مُعيّنَين، فهو مُرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بحركة تنقّل الشّعوب الدّائمة، حاملة تُراثها ولغاتها وعاداتها معها أينما حلّت واستوطنت، لذلك لا تقتصر دراسة علم أسماء الأماكن على رقعةٍ مُحدّدة محدودة، بل تتّسع دائرة البحثِ لتشمل الأقاليمِ كافّة، المجاورةِ والبعيدةِ والنائية فتنتقل الأسماء طبيعيًّا من المحليّ Local إلى الإقليميّRegional وحتّى العالمي Universal، وذلك تماشيًا مع دورة الحضارات وأزمنتها، ومن هنا تأتي أهميّة دراسة علم أسماء الأماكن الّذي يهمّ المحلي كما الإقليمي، كما يهم كلّ باحث في مجال الحضارات والثقافات المُتنوّعة للشّعوب[١٥].

علم الأسماء الجغرافية[١٦]/ الطبونوميك Toponymique: وهو العلم الذي يدرس علم الأسماء الجغرافية حسب المُعطيات الطبوغرافية Topography أو المورفولوجية Morphology، ويندرج تحت هذا العلم علومٌ فرعيّةٌ عديدة منها:

- الهيدرونيميا Hydronyme: وهي دراسة كل ما يتعلّق بأسماء الأماكن الّتي لها صلة بوحدة مكانيّة تتضمّن عنصر الماء (مجاري مياه، شلالات، بحيرات، أنهار...الخ).
- الأورونيميا Oronyme: وهي دراسة كل وحدة مكانيّة تتضمّن ملامح التّضاريس (قمم، وديان، سهول، هضاب، تلال...الخ).
- الميكروطوبونيميا Microtoponyme: وهي دراسة وحدات مكانيّة تتعلّق بأشكال تجمّعات السّكن (خِربَة، قرية، بلدة، مدينة...الخ).

علم أسماء الأشخاص[١٧]/الأونوماستيك Onomastique: هو العلم الذي يهتم بدراسة أسماء الأعلام لجنسٍ معيّن وينقسم إلى قسميْن: الأول العَلم المفرد مثل أحمد؛ والثاني العلم المركّب والي ينقسم بدوره الى ثلاثة أقسام وهي: المركب الإضافي، نحو عبد الله، والمركب المزجي، نحو بيت لحم، والمركب الإسنادي، نحو تأبط شرًا. من جهة أخرى يمكن تقسيم اسم العلم إلى قسمين وهما: الكنية، وهي الأسماء التي تبدأ بأب أو أم، نحو أبي يوسف وأم عامر، واللقب، وهو الاسم المتضمن لمعنى المدح أو الذم.

علم الإنسان/ الأنثروبولوجيا Anthropology: إن علم أسماء الأماكن يُشكّل في النّهاية دراسة أنثروبولوجيّة وإثنولوجيّة Ethnology ويشمل التّقاليد البشريّة في كلّ زمانٍ ومكانٍ، ويدرس الأسماء من خلال دراسة عددٍ كبيرٍ من العاداتٍ والطّقوس والتّقاليد[١٨].

ثانيًا: الإطار النظري

تعريف موجز بكلٍّ من[١٩]:

٢/١-خربَة كُرْكُمَة

تُعتبر كُرْكُمَة إحدى عِزَب سُكان بلدة فاره، وكانوا يسكنونها طيلة فصول الخريف والشتاء والرّبيع، أمّا في الصيف فكانوا على الأغلب يسكنون فَارَه، وبعد الانتهاء من موسم الحصيدة مباشرة.

تقع كُرْكُمَة عند مستوى سطح البحر تقريبًا، وسط مجموعة من التلال الصغيرة الّتي تُشكّل أقدام (Foot Hillsمنطقة جبال عجلون مع الغور، ويحيط ببيوتها المتواضعةِ مجموعةٌ واسعةٌ من السهولِ المستويةِ ذات التربة الزراعية الحمراء والصفراء الخِصْبَتان، ومن هنا جاء اسمها (كُرْكُمَة) من (الكُركُم) ذي اللون الأصفر. وحسب كبار السن من سكان المنطقة فإن هذه السهول الخصبة كانت تزرع بأشجار العنب (الكرمة)، وما يدلل على ذلك وجود البد (الجرن) المقطوع من الحجر (صورة رقم ٣)، والذي كان يستخدم لعصر العنب لصناعة النبيذ في العصور البيزنطية والرومانية.

يحد كُرْكُمَة من الشمال وادي كُرْكُمَة القادم من وادي الزقيق، غرب بلدة حلاوة ليمرّ من وادي اليابس ويصب في نهر الأردن أخيرًا، ويحدها من الغرب وادي اليابس، ومنطقة مقام الصحابي الجليل (شرحبيل بن حسنة)،

ونهر الأردن، أما من الجنوب فيحدها خِربَة السّبيّرة، وقود حامد، ويحدها من الشرق بلدة فاره.

تتوزع بيوت كُرْكُمَة بشكل عشوائي حسب ملكية الأرض، ولكنها تتركّز في مُجملها في المنطقة الشمالية والشمالية الغربية للبلدة، وقد شيدت جميع هذه البيوت من الحجر المأخوذ من منطقة وادي المحفر، والطين الجيري المأخوذ من منطقة الحفيرة، وتمّ تغطية سقوفها بالأخشاب والقُصيّب والطين أيضًا، ويرتكز الواسع منها على بعض الأعمدة الحجرية الأسطوانية الشكل، ويتكوّن معظم هذه البيوت من جزأين إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول المخصص للبشر، والثاني لحفظ الحيوانات وحمايتها من المطر والوحوش، والثالث لتخزين القمح والتبن للحيوانات، ويكاد لا يخلو أيّ بيتٍ فيها من وجود الطابون أو الفرن المُخصّص للخبز واستعمالات بيتيّة أخرى، كذلك لا يخلو أي بيتٍ من مُلحقات من البيوتات الصغيرة التي يُطلق عليها اسم (خِشاش) ومفردها خُشّة لإيواء صغار الأبقار، والأغنام، ودواب النّقل (صورة رقم ٤).

وسكن خِربَة كُرْكُمَة معظم عشائر بلدة الهاشميّة (فاره) وهم: بنو عطا، والرّبابعة، والقواقنة، والزعارير، أما عشائر الغرايبة، وآل حداد فكانت أعدادهم أقل، لأن تمركزهم كان في عِزْبَة أخرى لبلدة فاره تقع إلى الجنوب من كُرْكُمَة وهي خِربَةُ السّبيّرة (صورة رقم ٥)، وهذه الخِربَة تقع وسط تجمع من الوديان بالقرب من عين ماء كانت جارية سابقًا يطلق عليها عين السّبيّرة، وبيوتها متواضعة تشبه بيوت خِربَة كُرْكُمَة إلى حد كبير مبنية من الحجر والطين (صورة رقم ٦). وأخيرًا كان يوجد البعض من عشيرة السحاحلة من بلدة حلاوة المجاورة كما أفاد كبار السن، ويوجد مغارة شمال خِربَة كُرْكُمَة يطلق عليها اسم :(مغارة سُحّيْلُو) نسبة لهذه العشيرة.

ولفهم أعمق لأجزاء خِربَة كُرْكُمَة، وأراضيها، ومناطقها، سيتم توثيق المعالم والمشاهد للطريق من طرفها الغربي باتجاه بلدة فاره صعودًا، فإذا بدأ المسافر، من الطرف الغربي أو الجنوب الغربي لعزبة أو قرية كُرْكُمَة فسيكون خلفه مباشرة أرض زراعيّة منبسطة نسبيًا تسمى (اللبة الشمالية)، وهي أرض زراعية منبسطة، ومنطقة أخرى زراعية بعضها منبسط والآخر صخري تسمى(أبو الغيلان)، والمرجّح أنّ سبب هذه التسمية يعود للميثولوجيا الشعبية التي تذكر وتتداول ظهور(الغُولة) وجمعها(غِيلان) في هذه المنطقة حسب روايات كبار السن من السكان.

أما إلى يمين المسافر فتقع أرض منبسطة نسبيًا تمتدّ إلى الشرق تسمى (خَلّة البركة) وربما يعود سبب التسمية إلى جودة الأرض زراعيًا وإنتاجها الوفير، أمّا إلى يساره فنجد كلاً من منطقتي: الزوايا وخَلّة أبو نجاد على التوالي، ويرجّح أنّ سبب تسمية منطقة الزوايا عائد إلى كون المنطقة ذات شكل مستطيل بزواياه الواضحة، أما خَلّة أبو نجاد فيعود سبب التسمية إلى صاحب هذه الأرض أو مالكها.

ومنطقتا الزوايا وخَلّة أبو نجاد فهما عبارة عن سهليْن منبسطيْن واسعيْن تربتهما حمراء زراعية خصبة، وقد كانتا وعبر تاريخ المنطقة والحضارات والتجمعات السكانية المتعاقبة التي قطنت خِربَة كُرْكُمَة سلة الغذاء لتلك الحضارات والتجمعات التي سكنت المنطقة لزراعة القمح والذرة والعدس والشعير والقطانة (الكَرسنّة)، أمّا حديثًا فقد بدأ الفلاحون بزراعتها بالباميا والقثاء والحمّص وأحيانًا بالبطيخ لعمق هذه الأراضي وخصوبتها العالية.

وإلى الشرق منهما توجد منطقة الدبة الغربية، وهي تلةٌ صغيرة الحجم ذات تربة ناعمة تميل إلى اللون الرمادي الغامق، ويلي هذه الدبة من جهة الغرب والشمال الغربي منطقة صخرية نسبيا تسمى الفران، وهذه المنطقة تحتوي على عدد من المغارات والحفر المتناثرة، وتنتشر هنا وهناك قطع وشظايا من الفخار والزجاج الأثري القديم، ولهذا يعتقد أن هذه المنطقة كانت مكانًا لصناعة وشوي الفخّار والزجاج في كُرْكُمَة خلال فترة البيزنطيين والرومان وبدايات الحضارة الاسلامية.

ويلي الدبة الغربية من الجهة الشمالية والشمالية الغربية أرض منبسطة زراعية أخرى تسمى (الذْخَيرة)، وربما يعود الاسم إلى كون هذه الأرض كانت مستودعًا للأسلحة والسيوف والخناجر والمسكوكات والمصنوعات الأخرى كونها تحيط بمنطقة الفران الآنفة الذكر، وحديثًا وعند عمليات الحفر من قبل الفلاحين في تلك

الأرض تبيّن وجود قبور مطمورة تحت التراب تعود للحضارتين الرومانية والبيزنطية اللتين قطنتا هذه الخربَة، ومن هنا فإن كُرْكُمَة كانت جزءًا من تحالف مدن الديكابوليس Decapolis.

أما من الجهة الشمالية فتقع منطقة زراعية منبسطة أخرى تسمى(السّماط)، ومعنى كلمة السماط في المعجم الوسيط هو الجانب أو المسافة ما بين صدر الوادي ومنتهاه، وبالفعل فهذه المنطقة تمتد من بداية وادي القَنطَرة الى نهايته وهذا سبب التسمية على الأرجح.

ومن طرف هذا السهل من الجهة الغربية فكانت هناك طريق ترابية أخرى يسلكها سكان كُرْكُمَة بدوابهم في رحلة إحضار الماء من وادي كُرْكُمَة والذي يبعد عنها حوالي أربعة كيلو مترات باتجاه بلدة (كفر أبيل) في لواء الكورة، وهذا الوادي هو امتداد لسيل المياه القادم من عين الزقيّق شمال غرب بلدة حلاوة، ومن هذه الطريق كانت تتفرع طريق أخرى باتجاه الغرب للقاصدين وادي اليابس ونهر الأردن، وكانت هذه الطريق تمر من مناطق تابعة لخربَة كُرْكُمَة، أولها منطقة (السد) الى يمينها والذي يعود اسمه لقربه من وادي كُرْكُمَة، أما المنطقة الثانية فيطلق عليها اسم (رأس القصر) وهي تلة متوسطة الارتفاع تحتوي على أكوام من الحجارة المستطيلة والأسطوانية الشكل التي تؤكد وجود قصر كان قد شُيد هناك إلى يسارها لأحد الأمراء أو المُتنفذين.

ثم تمرّ الطريق أمام مغارة متوسطة الحجم يطلق عليها اسم مغارة (العَبدة) نسبة إلى الميثولوجيا الشعبية التي تروي وجود(غُولة) على شكل أنثى سوداء البشرة كانت تظهر للمارة في هذا الطريق وخصوصًا في الليل، ثم تتواصل الطريق نزولاً ليجد المسافر نفسه في بداية وادي اليابس في مخيم سكني قديم يطلق عليه (كَمّ الطليان) ويعني مخيم الطليان Italian Camp، وهو مُجمّع سكني بمباني متواضعة على نمط البناء الأوروبي (الهرمي) كان يسكنه مجموعة من أفراد الشركة الإيطالية التي أسست وشيدت قناة الغور الشرقية (قناة الملك عبدالله حاليًا). وحديثا تم انشاء منطقة سكنية بجانب هذا المخيم خصصت للمزارعين في تلك المنطقة.

ونعود ثانية إلى خربَة كُرْكُمَة، فإلى الشرق منها توجد الدّبة الشرقية وهي تشبه الدبة الغربية من حيث الحجم وطبيعة ولون التربة، وقد تم إزالتها مع توسعة الشارع الرئيس حديثًا وبذلك تنتهي بيوت خربَة كُرْكُمَة.

بعد ذلك وإلى اليسار توجد منطقة سهلية أخرى تسمى أبو اللزّيق، ويعود هذا الاسم لكون المنطقة تشتهر بوجود عشبة (اللُزّيق) التي تلتصق بالملابس بشدة كالمغناطيس ولا تنفصل عنها بسهولة، ويليها الى الشمال الشرقي وادي القَنطَرة، وأُطلق عليه هذا الاسم بسبب وجود القَنطَرة الحجرية التي شُيدت فوق هذا الوادي لتمكين المياه القادمة من وادي كُرْكُمَة وبالتحديد من (منطقة الرشراش) غرب عين الزقيق وبلدة حلاوة من الوصول الى خربَة كُرْكُمَة لغايات الشرب والزراعة عبر أنابيب فخارية رومانية أو بيزنطية بحجم ماسورة ال(٤) إنش، ومع مرور الزمن ونشاط عوامل التعرية الطبيعية والعوامل البشرية اختفت هذه الأنابيب والقَنطَرة أيضًا.

وإلى الشمال الشرقي منها يوجد جبل عالٍ نسبيًا يُسمّى (رأس المِنطار)، وهذا الجبل يحوي بعض أشجار البلوط العقابي، والبطم الضخم المعمّر ويُشرف ويُطل على خربَة كُرْكُمَة وعلى مناطق غور الأردن وأراضي مناطق طوباس وبيسان وجنين في فلسطين المحتلة، ويطل على المناطق الشرقية والشمالية أيضًا، وربما يكون هذا الجبل قد أخذ هذا الاسم (المِنطار) من الفعل(نطرَ، ينطرُ، نِطارة، منِطار) كما ورد في المعجم الوسيط بمعنى السهر والرعاية والحراسة، وعليه فقد يكون هذا الجبل بسبب موقعه وارتفاعه كان يستخدم لحراسة خربَة كُرْكُمَة من الغزاة ولمراقبة وانتظار القادمين من الضفة الغربية أو من جهة بلدة فَارَه أو حلاوة باتجاه المنطقة.

بعد ذلك تُوجد منطقة متوسطة الحجم تحوي في وسطها عدة أكوام من الحجارة المتوسطة الحجم الى الكبيرة يطلق عليها اسم (المَصَرّة أو الرجوم) وتنتهي بتلّة متوسطة الارتفاع تسمى (قطعة المسد)، ومع نهايتهما توجد منطقة المطلّ أو التي يطلق عليها أيضًا اسم (الدّلّخُوم)، وهذا الاسم ربما يعود الى اسم الشخص الذي كان يملك هذه الأرض على الأرجح.

٢:٢ بلدة الهاشميّة (فَارَه سابقًا)

تقع بلدة (فَارَه) قديما والهاشمية حاليًا على تلتين متوسطتي الحجم، يحدّها من الشمال منطقة العريض وبلدة حلاوة، ومن الغرب خربتي(عِزبتي): كُرْكُمَة والسِّبّيِّرة، ومن الجنوب يحدّها بلدة الوهادنة ودير الصمادية الشمالي والجنوبي، ويحدها من الشرق (وادي النوم) ومنطقة القطاطين. بُنيت بيوت فَارَه القديمة من الحجر والطين وسُقفت بالخشب والقُصّيّب والطين عدا بعض البيوت القليلة التي بنيت من الحجر النظيف ومنها المسجد الغربي (المسجد القديم) (صورة رقم ٧).

وكانت معظم البيوت تتركز في المنطقة التي تقع إلى الغرب والجنوب الغربي لمبنى بلدية الهاشمية والمركز الصحي الحالي، أما البعض الآخر فكان يوجد إلى الشرق أو الجنوب الشرقي للمقبرة الإسلامية للبلدة، وكانت هناك بعض البيوت القليلة المنتشرة هنا وهناك.

أما سكان فَارَه وعشائرها وعائلاتها فكانت هي نفس عشائر وعائلات عِزبتيّها (كُرْكُمَة والسِّبّيِّرة)، وهذه العشائر هي: بنو عطا، والغرايبة، والزعارير، والقواقنة، والربابعة وآل حداد، وعوائل أخرى سكنتها في فترةٍ متأخّرةٍ.

وكان لبلدة فاره قديمًا عدة طرق توصلها بالمناطق المجاورة لها، وأول هذه الطرق كما أسلفنا سابقًا وهو الطريق الّذي يربطها مع عزبتيّها(كُرْكُمَة والسِّبّيِّرة) ومنهما إلى وادي اليابس ووادي الأردن وإلى الضفة الغربية، أما الطريق الثانية فكانت إلى (بلدة الوهادنة)، والطريق الثالثة إلى(ديري الصمادية الشمالي والجنوبي)، أما الرابعة فكانت إلى حاضرة المنطقة والجبل (مدينة عجلون) من خلال (وادي النوم) مرورًا بمنطقة الصوّان مقابل قلعة عجلون، والطريق الخامسة تتمثّل بالطريق التي تربطها ببلدة أوصرة، ومنها إلى بلدات باعون وعرجان وجديتا، أما الطريق السادسة فكانت الى أقرب البلدات إليها وهي (حلاوة) الواقعة إلى شمالها.

أما في مجال التعليم فقد كان سكان البلدة من السباقين الى إرسال أبناءهم إلى الكتاتيب في البداية لتعلّم وحفظ القران الكريم، وإتقان القراءة والحساب، ثم بجهود سكان البلدة الحثيثة وتبرعهم السخي بدفع رواتب المعلمين وتأمين السكن لهم أُنشئت أول مدرسة ابتدائية حكومية للبنين في مطلع فترة تأسيس إمارة شرق الأردن، ولا زالت سجلات الطلبة شاهدة على ذلك (صورة رقم ٨).

ثالثًا: مقاطع مسارات الطرق الواصلة بين خِربَة كُرْكُمَة وبلدة الهاشمية ودلالاتها

٣/١–الطريق الجنوبي: ويُمكن تجزئتها إلى ما يلي:

(٣/١) ١–كُرْكُمَة — أرض الجامع:

من (منطقة الدّلّخُوم) الآنفة الذكر يتفرع الطريق إلى طريقين أو فرعين للوصول صُعودًا إلى (بلدة فَارَه) وهما: الطريق الجنوبي، والطريق الشمالي ولكل منهما ميزاته.

يبدأ الفرع الأول أو الجنوبي بالاتّجاه نحو اليمين من الطريق إلى (بلدة فَارَه) أو الهاشمية حاليًا، وهذا الفرع كان يستخدمه المسافرون على الأقدام في الأغلب لشدّة الانحدار وطوله التي تعجز عنها الدواب ليعبر المسافر من منتصف منطقة (أرض الجامع)، وهي أرض شبه منحدرة وذات صخور خفيفة وتربة تميل إلى اللون الرمادي، وهي أرض تتبع ملكيتها حاليا إلى وزارة الأوقاف والمقدسات الإسلامية ولذلك أُطلق عليها اسم أرض الجامع، وقد تم زراعتها حديثا بأشجار الزيتون.

(٣/١) ٢–أرض الجامع— رأس الخرابة:

ومن منطقة (أرض الجامع) يواصل المسافر طريقه صعودًا حادًّا إلى منطقة (الخرابة)، وهي أرض ذات انحدار شديد وتربة تميل إلى اللون الأصفر أو الأبيض، وهنا في وسطٍ منطقة (الخرابة) مباشرة توجد مغارة متوسطة الحجم تسمى (مغارة الخرابة)، ويعود اسم الخرابة الى شعور المسافر بأنه يعبر أرضًا موحشةً كأنها خرابة تخلو من الأشجار والحياة مع وجود بعض أكوام الحجارة المتناثرة التي تؤشر على وجود بيوت قديمة أو عمران ولكنها تهدمت وأصبحت خرابة، كما يوجد شجرة بطم ضخمة Huge Terebinth tree كان يرتاح تحتها المسافرون من وإلى فاره، وإلى يسار الخرابة يجري وادي أبو صفيد، وهو واد عميق نسبيًا يزيد من شعور الوحشة للمسافر، ومع نهاية الخرابة يوجد بقايا لمقبرة تعود للعصر الإسلامي الأول، وإلى الجنوب وفي الأفقٍ البعيد وفي منطقة جبلية تُسمّى (الحُروث) يوجد مقام

الصحابي الجليل عكرمة بن أبي جهل (صورة رقم ٩)، أحد القادة الذين استشهدوا في معركة اليرموك عام ٦٣٦م، وحدثت في الطرف الجنوبي لنهر اليرموك في حوض غور الأردن إلى الشمال من كُرْكُمَة بحوالي ١٥كم تقريبًا.

(١/٣) ٣-راس الخرابة – طلوع القهاقير:

وهنا يتنفس المسافر الصُعداء بعد هذا الطلوع الحاد ليتخلّص من الشعور بالملل والخوف والتعب ثم يواصل المسير بأرضٍ مستوية عبر مسلك ضيّق ليصل إلى منطقة ذات تربةٍ طباشيريّةٍ بيضاء تُسمّى (الوطية)، وربما جاء هذا الاسم من كون هذه المنطقة واطية أو هابطة قياسًا على الارتفاع الطويل والحاد من الشرق والجنوب، وفي منطقة الوطية يوجد مفترق الطُرق إلى عِزّبتي بلدة فاره (السّبّيّرة وكُرْكُمَة)، وفيها العديد من المغارات التي وجد فيها آثار لإنسان العصر الحجري Stone Ages، والّتي تطلّ على وادٍ سحيق وهو امتداد لوادي الحروث ذو الغابات البلوطيّة والبطم وبعض أشجار الزيتون.

وتجاور منطقة الوطية من جهتها الجنوبية منطقة (أم الجاموس)، وهي منطقة مشهورة بمراعيها وأعشابها البريّة المتنوّعة الطبية والعطرية Medicinal and aromatic herbs، وكثافة شجيراتها وخاصّة الرّتم الجميل بزهوره البيضاء ورائحته النّفاذة Beautiful Broom bushes وسُميت هذه المنطقة بأم الجاموس ربّما إلى اسم الشخص صاحب الأرض (جاموس) أو إلى كثرة تواجد أبقار الجاموس التي كانت ترعى في تلك المراعي الخصيبة في سالف الزمان.

(١/٣) ٤-طلوع القهاقير – روس الصفا

بعد عبور المسافر لمنطقة الوطية المنخفضة أو الهابطة نسبيًا عمّا يجاورها شرقًا، يجد شجرتين الأولى بلوط عقابي والأخرى سدرة دوم ضخمة، وكان لهاتيّن الشجرتيّن اللتان تتوسّطا الطريق أهميّة كبيرة لأنهما كانتا محطة استراحة أساسيّة، وفي ظلّ هاتيّن الشجرتيّن كان الناس المتنقليّن من فاره إلى الغور أو العكس يرتاحون من عناء الطريق. وإلى الشرق منهما يبدأ الطريق بالصعود التدريجي، وما يلفت النظر في هذه المنطقة وجود العديد من أكوام الحجارة الصغيرة أو المتوسطة الحجم التي رتبت فوق بعضها البعض بارتفاع يتراوح ما بين ٣٠-٦٠سم يُطلق عليها اسم (القهاقير) ومفردها قُهقار، وكان من الموروث الشعبي أن يقوم المسافر بعمل أو بناء قُهقار خاص به إلى جانب القهاقير الموجودة أصلا، ومع أنّ ذلك أصبح من الموروث الشّعبي إلاّ أنّ هذه القهاقير كانت من باب التّسلية والتّرفيه ولكسر حدّة السّفر والمُعاناة.

(١/٣) ٥-روس الصفا – الهاشمية

يمتاز مقطع القهاقير بانحداره الذي يقطع أنفاس المسافر لطوله الذي يعادل ٢٠% من طول الطريق وعنائها، وتضرُّس أرضه، وصعوبة وضيق وتعرُّج دربه، وبعد مسافة ٢كم من الوطية صعودًا توجد محطة استراحة بسيطة عند مقطع شجرات تُسمّى (العبهرStyrax)، بعدها تواصل الطريق ارتفاعها التدريجي، وظهورٍ واضحٍ وملفتٍ للنظر لسلاسل متتالية من الصخور الصلدة الممتدة لمسافاتٍ طويلة، ولهذا السبب أُطلق على المنطقة اسم (روس الصفا)، وهي جمع (صَفاة)، والصفاة هي الصخرة الملساء الممتدة التي لا يوجد فيها ثقوب. وما أن يتخطى المسافر هذه المنطقة، حتى يطلّ على (بلدة فَارَه) أو الهاشمية، وأول ما يصادفه منطقة يطلق عليها اسم (الحَورَة)، وربما أُطلق عليها هذا الاسم لبياض تربتها.

وفي هذه النقطة يتفرع الطريق الى فرعين: الفرع الأول يمتد مع استقامة الطريق حيث يكون إلى يسار المسافر منطقة(رأس الخلال)، وربما يعود سبب التسمية الى ان هذه المنطقة تكون نهاية مجموعة (خِلال) ومفردها (خَلّة) ممتدة من أسفل وتنتهي في هذا المرتفع أو الرأس، وهذه المنطقة زرعت حديثا بالأشجار الحرجية كالسّرو واللزاب وأصبح يطلق عليها اسم (مستنبت) الخلال، واذا واصل المسافر طريقه فإنه يعبر منطقة (الصرار)، وسُميت بذلك الاسم لكثرة حجارتها الصغيرة، وبعدها تأتي (منطقة الميسر) ذات أشجار الزيتون الرومانية المعمرة الانفة الذكر، ثم يصل الى المقبرة الإسلامية التي تقع في قلب بلدة فاره (الهاشمية).

أما الفرع الثاني من الطريق فيتجه إلى اليمين ليعبر وادي يحوي مجموعة من أشجار الزيتون المعمرة، ويكون

الى يمين هذا الطريق منطقة (جفيدون)، فإذا تعدى المسافر هذا الوادي يصل إلى شجرة الفقيرة (وهي من الأشجار المقدسة لدى سكان المنطقة، وكانوا يعلّقون عليها "التمائم" من قطع القماش)، وبعدها تأتي أرض الشكارة (منطقة صغيرة من الأرض تُزرع بالقمح)، وبعدها تأتي أرض المردمة (أرض هابطة تهدمت أو تردمت بفعل عوامل الانكسار الطبوغرافية)، بعدها يدخل المسافر الطرف الغربي لبلدة (فاره) أو الهاشمية.

٢:٣ الطريق الشّمالي

(٢/٣) ١-الدّلْخُوم – البَياضَة:

ذكرنا آنفا أنه في نهاية خِربَة كُرْكُمَة من جهة الشرق تقع منطقة الدّلْخُوم، ومنها يتفرع الفرع الأول الجنوبي إلى بلدة(فاره) إلى فرعين. أمّا الفرع الثاني وهو الشمالي للطريق من منطقة الدّلْخُوم فيتجه المسافر فيه يسارًا صعودًا إلى حفرة تسمى (الحفيرة) (صورة رقم ١٠)، وهي حفرة كبيرة الحجم ومتوسطة العمق كانت تستخدم قديمًا ليحصل السكان منها على التربة الجيرية البُنية أو البيضاء، ذات الجودة العالية أو الطين لصناعة (طوابين الخبز) من ناحية، ولتطيين جدران وسطوح البيوت الحجرية في خِربَة كُرْكُمَة قديما قبل اكتشاف الإسمنت.

وإلى يسار منطقة الدّلْخُوم توجد تلة متوسطة الارتفاع تسمى (الدوير)، وهذه المنطقة يوجد بها بعض آثار البيوت القديمة وحجارة البناء والأعمدة الحجرية المتناثرة والتي يرجح أن تكون بقايا (دير) قديم للعبادة أثناء الحضارات الرومانية والبيزنطية، وربما قد حُرّف الاسم حديثًا من(دير) وأصبح الدوير تصغيرًا لكلمة دير.

وبعد الحفيرة تقع منطقة تسمى(البياضة) وهي ذات تربة جيرية، وهنا يتنفس المسافر الصعداء بعد طلوع حاد ليُلقي نظرة إلى يمينه ليشاهد (وادي أبو صفيد) والذي يعتليه من جهة الشمال الشرقي (عراق أبو صفيد)، وهو كهف كبير واسع جدا وعالٍ أيضًا كان يستخدم لإيواء الأبقار والأغنام والدواب من برد الشتاء لسكان خِربَة كُرْكُمَة، ويعود الاسم إلى شخص يُدعى أبو صفيد على الأغلب، ويليه إلى الجنوب الشرقي كهف كبير وربما أوسع منه أيضًا كان يستخدم أيضًا لنفس الغاية يسمى (عراق الموبرة).

(٢/٣) ٢-البياضة – وادي المَحْفَر

بعد الاستراحة البسيطة للمسافر في منطقة البياضة، يواصل طريقه صعودًا مرورًا بطرف الوادي النازل إلى وادي أبو صفيد بمنطقة تسمى (خَلّة الزريقيات)، وهي هضبة متوسطة الارتفاع ذات سلاسل طويلة ومنبسطة من الصخور، وأهم ما يميّز المنطقة وجود عدد من أشجار البلوط العقابي الكبيرة، بالإضافة إلى بعض أشجار البُطم والتي تُشكل بدايات ظهور للأشجار الحرجية بدايةً من شرق نهر الأردن وصولاً إلى هذا المكان عدا بعض أشجار السدر (الدوم) أو بعض شجيرات (الرُّبيّض) التي تشبه السدر ولكنها أصغر وأقل ارتفاعا منها، ويرجّح أنّ خَلّة الزريقيات سُميت بهذا الاسم لوجود طيور(الزريقي) ذات الريش الأزرق التي تعيش هناك وتضع أعشاشها على هذه الأشجار الكبيرة.

بعدها يعبر المسافر ممرًا ضيقًا يسمى (وادي المحفر)، ويعتلي هذا الوادي من اليسار كتل حجرية ضخمة يظهر من أشكالها أثر القطع والقص للأحجار التي استخدمت لبناء البيوت الحجرية في خِربَة كُرْكُمَة، وهذا سبب تسمية المنطقة بهذا الاسم، وأعلى هذه المقاطع الحجرية كان يوجد (حجر بَد) كبير الحجم، وهو قطع صخري دائري بارتفاع من ٢٠- ٤٠سم، ويوجد بمنتصفه حجر كبير يشبه العجلة كان يستخدم لدرس وطحن ثمار الزيتون لاستخراج الزيت منها، ومنها أيضًا ما كان يستخدم لدرس وطحن ثمار العنب لاستخلاص عصير العنب والشراب الذي كان سائدا خلال الحضارات الرومانية والبيزنطية في المنطقة.

(٢/٣) ٣-وادي المَحْفَر – الحَبِيّس

ومع نهاية وادي المحفر يتفرع الطريق أمام المسافر إلى فرعين:

الفرع الأول إلى اليسار للمسافرين إلى بلدة حلاوة مرورًا بمنطقة (معربا) ومثلث (الزقيّق) صعودًا إلى بلدة حلاوة التي تقع إلى الشمال من بلدة فاره.

أمّا الفرع الثاني فيكون باستقامة للمسافر إلى فاره ليصل إلى سهلٍ متوسط المساحة يسمى(الصيَر)، وربما جاء الاسم من كلمة الصيِرة وهي مكان لحجز الأغنام من الانفلات والهروب، وموقع منطقة الصيَر وجغرافيتها

تشكّل صيرًا طبيعية كونها منطقة سهلية ذات تربة حمراء تحيط بها عدة جبال وتلال متنوعة الأحجام من جميع الاتجاهات، وقديمًا كان سهل الصيَر يُزرع بالقمح والشعير والعدس شأنه شأن سهول كُرْكُمَة الأخرى، وربما زراعة أشجار العنب أو الزيتون لوجود حجر البد الذي ذُكر سابقًا، أما حديثًا فقد تم زراعة المنطقة بأشجار الزيتون، كما يوجد بها العديد من صير الأغنام.

وإلى اليمين من منطقة الصيَر يبدأ وادي أبو صفيد، ومع نهايتها يبدأ ممرٌ ضيقٌ على طرف الوادي ويكون إلى اليمين منه جبلٌ عالٍ جدًا يسمى (راس الطويل)، وربما جاء الاسم من شكل وحجم وطول هذا الجبل وامتداده إلى الجنوب والجنوب الشرقي. ويكمل المسافر مسيره بطرف الوادي ليصل إلى ملتقى واديين عميقين إثنين بنقطة ضيقةٍ وموحشة تسمى الحَبيس، ويُعتقد أن هذا الاسمَ جاء من طبيعة المنطقة الموحشة والمحجوبة عن أشعة الشمس والتي يشعر فيها المسافر أنه قد حُبس هناك عن البشر وأشعة الشمس.

(٢/٣) ٤-الحبيس – سرب اللوز

وبعد هذا الشعور بالخوف والملل للمسافر بسبب مروره بمنطقة الحبيس يواصل طريقه صعودًا مُتعرّجًا جدًا يطلق عليه اسم (حبلة الكواسر)، وتعود التسمية لحبلة الكواسر كما عَلِمْتُ مِنَ الأجداد إلى وجود الوحوش الكواسر القادمة من مكامنها في الجبال والكهوف المحيطة بالمنطقة، أو بسبب كثرة الدّواب (الحمير، والبغال، والخيول) التي كانت تعبر هذه الحبلة وهي محمّلة بشوالات القمح والشعير والتبن وغيرها من المحاصيل حيث تسقط أرضًا بسبب وعورة وتعرج الطريق فتتكسر أقدامها في رواية أخرى لتسمية المنطقة.

وإلى اليسار من حبلة الكواسر يمر وادي متوسط العمق، وعلى الضفة الأخرى لهذا الواد يوجد هناك ما يسمى بالعروسة (صورة رقم ١١)، وهي عباره عن صخره كبيرة الحجم تربض على باب مغارة متوسطة الحجم وعالية تشبه شكل أنثى أو عروسة جالسة على كرسي، وكان الشباب العُزّاب من المارة في الطريق يتبارون فيما بينهم لقذفها بالحجارة لمسافة لا تقل عن ثلاثمائة متر ومن يفلح بإصابتها يتفاءل بأنّه سيوفق في الزواج في وقت قريب جدا كجزءٍ من الموروث الشعبي.

ويستمر الطريق صعودًا حادًّا ليكون إلى يسار المسافر في الأفق منطقة تسمى الجِرُود، والجِرْد تعني الأرض الصخرية الصلَدة الخالية من النباتات والأشجار حتى يصل المسافر إلى نهاية الجبل، وهناك إلى يسار الطريق في منطقة مستويةٍ مفتوحةٍ توجد صخرة ضخمة جدًا كان يرتاحٍ فوقها المسافرون ليأخذوا قسطًا من الرّاحة يطلق عليها (حَجَر الدَن). وجاء هذا الاسم من الموروث الشعبي بأن هذه الصخرة عندما كان أحدهم يدق فوقها تُسمَع لها أصوات وترددات (دندنة)عالية بشكل غريب وملفت. وإلى يمين حجر الدن توجد هضبة متوسطة الانبساط وذات تربة زراعية أيضًا تسمى (مهراس الأمير)، ويُعتقد أن هذا الاسم يعود إلى أنّ هذه الأرض كانت تعود ملكيتها لأميرٍ ما من الأمراء خلال الحقب التاريخية المتعاقبة في المنطقة.

(٢/٣) ٥-سرب اللوز – الصرار

وبعد منطقة (حجر الدن) يواصل المسافر طريقه صوب بلدة (فاره) ليجد إلى يمينه هضبةً ممتدةً تُزيّنها أشجار اللوز البرية الجميلة تشبه السرب، تُسمى سرب اللوز، وتمتد الهضبة صعودًا ليصبح اسمها منطقة (الخلال)، وقد زُرعت ببعض أشجار الزيتون حديثًا، وفي هذه الأثناء يكون إلى يسار المسافر منطقةٌ منحدرةٌ تسمى (أبو القيقَان) ، ويعود سبب التسمية لهذه المنطقة بأبي القيقان ربما لتجمّع طيور القيقان ومفردها قاق أثناء رحلتها السنوية من وإلى أوروبا مرورًا بالمنطقة، وتطل هذه المنطقة على منطقة وادي التون، ويستمر المسافر حتى يصل إلى مَطَل تُرى منه بلدة فاره/ الهاشميّة، ويُسمّى هذا المطلّ (راس العَقَبة).

ومع تخطّي المسافر لراس العقبة يكون على عتبة (بلدة فاره)، وهنا يكون إلى يساره منطقة (وادي التون)، وهذا الوادي يمتد من الشرق إلى الغرب ليفصل بين بلدتي الهاشمية(فاره) و(حلاوة)، وربما جاء الاسم لهذا الوادي كما ورد في المعجم الوسيط من كلمة (التَتَاوُن) بمعنى المراوغة، و(تتاون الصياد) أي يراوغ يأتي عن اليمين مرة وعن الشمال مرة ليُضلّل طريدته ليسهل عليه عملية الصيد، وهو وادي واسع وطويلٍ ويحوي العديد من

الأشجار والطيور وأهمها طيور(الحَجَل Partridge birds).

ثم يواصل المسافر مسيره ليجد نفسه أمام مرجٍ أو حقلٍ طويلٍ جداً مُمتدٍ من الشرق إلى الغرب والجنوب الغربي يحوي أشجار الزيتون الرومانية المعمرة الضخمة التي تزيد أعمارها على ١٥٠٠عام، تسمى (منطقة الميّسر) (صورة رقم ١٢)، وأول جزء من هذه المنطقة يطلق عليه اسم (المِقطَنة)، وربما يعود سبب التسمية للميسر وفق المعجم الوسيط من الفعل لكلمة يُسرٌ، ويُسر الشخص كان في حالة يُسرٍ وغنى واتّسع عيشه لأن هذه المنطقة تحتوي على أرضٍ منبسطةٍ مستويةٍ ذات تربة حمراء زراعية فيها عشرات المئات من أشجارٍ الزيتون المِهراسي المُعمّر.

ويواصل المسافر طريقه ليصل إلى منطقة شبه مستوية كانت تسمى قديماً (جنينة شريم)، وكلمة جنينة مفردٌ مصغرٌ لكلمة الجنة وجمعها جنان أو جنائن بمعنى الحديقة الجميلة لأنها كانت مزروعة بأشجار العنب والتين والصبر واللوزيات قديماً، ولكنّها أصبحت الآن المقبرة الإسلامية لبلدة (فَارَه) الهاشمية، عندها يكون المسافر قد حطّ رحاله في فَارَه فيبادر إلى قراءة الفاتحة لأرواح الموتى، ويتجه بعدها الى منزله بعد رحلةٍ طويلةٍ شاقّةٍ محفوفةٍ بالمخاطر ليخلد إلى الراحة.

النتائج والتّوصيات

النتائج: تتمثّل أبرز النتائج التي توصلّت إليها الدّراسة بما يلي:

- أسماء الأماكن أو الأشخاص أبقى وأطول عُمراً في الوجود من أصحابها، ومن هنا تأتي أهميّة الحفاظ عليها ودراستها، والحرص على نقلها من جيلٍ إلى آخر.
- أنّ أسماء الأماكن عموماً في تحوّلٍ مستمرٍ مع مرور الزمن تبعاً للتطورات التاريخيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة الّتي تتعرّض لها المنطقة.
- شهدت منطقة الدراسة تنوّعاً كبيراً فيما يتعلق بأسماء الأماكن فيها، فمعظمها محليٌّ بحت توارثه السكّان عمّن قبلهم، ومنها يرجع إلى أصول اقتصادية أو تاريخية مثل: خَلّة البركة، راس القصر، راس الدوير (الدير)، وادي القَنطَرة، وراس المِنطار، أو لأصول طبوغرافية مثل: البياضة، وادي المحفر، وراس الخرابة، وراس العقبة. بينما بعض الأسماء جاءت متعلقة بالبيئة لأسماء الإنسان مثل: قود حامد والدّلّخُوم، والنباتية مثل: أبو اللُزّيق، شجرة الفقيرة، أرض الجامع،أ رض الشكارة، وسرب اللوز، أو الحيوانية مثل: أم الجاموس، حبلة الكواسر، الصبِر، أو الطيور مثل: خَلّة الزريقيات وأبو القيقان. وورد بعضها الآخر متعلّقاً بالميثولوجيا الشعبية مثل: أبو الغيلان، وكهف العروسة، وحجر الدن، ومغارة العبدة.
- اشتمل المسار الشمالي للطريق الواصل بين كُرْكُمَة والهاشمية على١٩موقعاً جغرافياً، في حين اشتمل المسار الجنوبي على١٥موقعاً.
- تمتاز مسارات الطرق بين خربَة كُرْكُمَة وبلدة الهاشميّة بانحدارها الشّديد باتّجاه الغور، ويزيد متوسّط الانحدار عن ٦٠ متر/كيلومتر، وفي بعض مقاطع الطريق يزيد الانحدار عن ١٥٠ متر/كيلومتر.

التّوصيات: يرى الباحثان بأنّ التوصيات التالية يمكن أن تُسهم في:

- تجديد ذاكرة الأجيال الحالية بأسماء الأماكن للبيئة المجاورة، وربطهم بالأرض وبماضيهم العريق من خلال الإعلام المرئي، والمسموع والمقروء.
- فتح تخصّصات جديدةٍ تهتم بالدراسات المكانيّة في التعليم العالي، أو إلحاق مقرراتٍ دراسية تهتم بدراسة علم أسماء الأماكن في التعليم العام، والعالي وخاصةّ في تخصّصات التّاريخ، والجغرافيا، والأنثروبولوجيا وغيرها من العلوم الاجتماعية.
- اعتبار الأجيال الحالية -ومع مرور الأيام-لأسماء الأماكن في مناطقهم مصادر فخرٍ واعتزازٍ، وحوافز لاكتشافهم تاريخهم وحضارتهم، وهويّتهم، وانتمائهم، ووطنيتهم.
- أنْ تُدرك الأجيال الحالية أنّ معرفتها بهويّتها، وتاريخها، وقوميّتها، وتعلقّها بأسماء أماكنها يزيدها عزمٌ وإرادة للدفاع عنها مهما كانت الظروف.

- أن تقوم بلديّة الشَفَا (التي تجمع بلدات الشَفَا الأربع: الهاشميّة، والوهادنة، وحلاوة، ودير الصماديّة) بكتابة أسماء الأماكن البارزة على مسار الطريق الشمالي الممهّد، والعمل على تمهيد وتعبيد المسار الجنوبي، والعمل على ترويج هذه المسارات سياحيًا، وذلك لتنوّعها الجغرافي طبوغرافيًا ونباتيًا ومُناخيًا.

الملاحق



صورة رقم (١)

صورة خِربَة كُرْكُمَة ويظهر فيها أقدام التلال ومنطقة بيسان وجنين في فلسطين المحتلة



صورة رقم (٢)

صورة كلية تبين بلدة الهاشمية ويظهر في الأفق مجموعة من جبال فلسطين المحتلة.



صورة رقم (٣)

صورة للبدّ الحجري

والذي كان يستخدم لعصر العنب لصناعة النبيذ.



صورة رقم (٤)

صورة لأحد البيوت الكبيرة في خِربَة كُرْكُمَة ويظهر فيها الأجزاء والملحقات التابعة لهذا البيت.



صورة رقم (٥)

صورة جزئية لخِربَة السِّبيّرِة.



صورة رقم (٦)

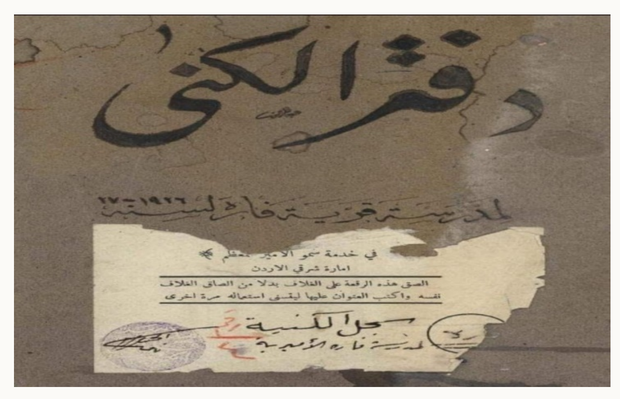
صورة لأحد البيوت الكبيرة في خِربَة السِّبيّرِة



صورة رقم (٧)
صورة لمسجد الهاشمية القديم
المبني من الحجر النظيف.



صورة رقم (١٠)
صورة لمنطقة الحفيرة
(تستخدم لتطيين البيوت ولصناعة الفخار)
بالقرب من خِربَة كُرْكُمَة



صورة رقم (٨)
صورة لسجل الطلبة (الكُنى) لمدرسة فَارَه الأميرية للبنين
تعود لعام ١٩٢٦م



صورة رقم (١١)
صورة لكهف العروس الواقع على مسار الطريق بين
خِربَة كُرْكُمَة وبلدة الهاشمية.



صورة رقم (٩)
صورة لضريح (مقام) الصحابي الجليل
عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه.



صورة رقم (١٢)
صورة لأشجار الزيتون المعمّرة في منطقة الميسر في بلدة
الهاشمية (عمرها ١٥٠٠ عام على الأقل).

الإحالات المرجعية:

(١) وللمزيد عن ذلك انظر:
- غرايبة، خليف (٢٠٠٩)، **الرحلات الجغرافية في التراث العربي الإسلامي في القرنين الرابع والخامس الهجريينْ**، دورية كان التاريخية، السنة الثانية، العدد الثالث.
- غرايبة، خليف (٢٠٠٩)، **المستقرات العربية الإسلامية في رحلة ابن جبير ٥٧٨ - ٥٨١ هـ**، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد ٣٧، العدد٤، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت.
-غرايبة، خليف (٢٠١٦)، **مدن وادي فرغانة ودورها الحضاري في العالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الهجريّة الأولى**، سلسلة بحوث جغرافية، نشرة ١١١، جامعة الملك سعود، الجمعية الجغرافية السعوديّة.
(٢) فريحة، أنيس (١٩٥٦)، **أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسر معانيها**، منشورات كلية العلوم والآداب، الجامعة الأمريكية، بيروت.
(٣) المعاني، سلطان، (١٩٩٤)، **أسماء المواقع الجغرافية في محافظة الكرك دراسة اشتقاقية ودلالية**، منشورات لجنة التراث/ عمادة البحث العلمي في جامعة مؤتة، الكرك.
(٤) الزقرطي، إبراهيم (١٩٩٧)، أسماء الأسماء الجغرافية، المركز الجغرافي الملكي الأردني، عمان.
(٥) الصاعدي، عبد الرزاق (٢٠١٥)، **أسماء الأماكن في منطقة القصيم دراسة لغويّة**، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربيّة، الجامعة الإسلاميّة، المدينة المنوّرة.
(٦) الشويري، فيفيان (٢٠١٨)، **علم أسماء الأماكن**، دار صادر، بيروت.
(٧) رحيم، هاشم (٢٠١٩). **أسماء الأماكن بين المؤابية والعبرية دراسة مقارنة**، لارك، المجلد ١، العدد ١٦، ص٤٢٢-٢٣٧.
(٨) السلامين، زياد، والقنانوة، إخلاص، (٢٠٢١)، **الطوبونيميا النبطيَّة: دراسة في أسماء المواقع الجغرافيَّة في ضوء المصادر التاريخيَّة ومخطوطات البحر الميِّت**، مطبعة السفير، عمان.
(٩) وهو بذلك يقصد دراسة المؤرّخ كمال الصليبي الموسومة: التوراة جاءت من جزيرة العرب، وللمزيد انظر: الصليبي، كمال (٢٠٠٧)، **التّوراة جاءت من جزيرة العرب**، مؤسسّة الأبحاث العربيّة، بيروت.
(١٠) القحطاني، فهد (٢٠٢١)، **أسماء الأماكن في منطقة عسير**، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت.
(١١) لمعرفة المزيد عن هذا المنهج انظر: غرايبة، خليف (١٩٩٨)، **الجغرافيا التاريخية للمنطقة الغربية من جبل عجلون**، مطبعة الروزنا، اربد، ص٢٧.
(١٢) وللمزيد عن هذه المناهج انظر: www.arabgeographers.net
(١٣) وللمزيد عن مناهج البحث بشكلٍ عامٍّ، انظر: سليمان، عبد الرحمن (٢٠١٤)، مناهج البحث، عالم الكتاب، جامعة عين شمس، القاهرة. - عليان، ربحي (٢٠٠١)، البحث العلمي أسسه مناهجه وأساليبه إجراءاته، بيت الأفكار الدولية، جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن.
(١٤) من هؤلاء المعمّرين من سّكّان كُرْكُمَة والهاشمية:
محمد صالح علي بني عطا.
ماجد حسن عقلة القواقنة.
حسين محمد الرحيل الغرايبة.
حسن رجا العبد الله الزعارير.
إبراهيم فريح عطالله الحداد.
حسين لافي صالح الربابعة.
(١٥) للاطلاع أكثر عن نشأة علم أسماء الأماكن، ومناهج تحليلها وتفسيرها، وعلاقتها بعلم اللغة انظر: الشويري، فيفيان، مرجع سابق، ص١٧، ص٣٩-ص٢٤٤.
(١٦) المرجع السّابق، ص. ٤٠-٤١.
(١٧) للمزيد عن دراسة عن الأشخاص انظر مجلة المعرفة على موقع: https://www.marefa.org
(١٨) للمزيد عن ذلك انظر: الشويري، فيفيان، مرجع سابق، ص٣٤.
(١٩) تمّ الاعتماد في توثيق أسماء الأماكن في كلٍّ من خِربَة كُرْكُمَة وبلدة الهاشميّة (فاره) على المعرفة الشّخصيّة للباحثيْن، وعلى كبار السنّ (ممّن انتقلوا إلى رحمته تعالى)، أو من بعض المعُمّريْن، وهم:
- المرحوم الحاج محمد محمود الرحيل الغرايبة (أبو محمود).
- المرحوم الحاج محمود احمد أبو داوود بني عطا (أبو صالح).
- المرحوم الحاج عبد الرحيم أحمد عبد الرحيم الربابعة (أبو بلال).
- المرحوم الحاج حسن العقلة العواد القواقنة (أبو ماجد).
- الحاج حسن العقاب محمد البرهم الزعارير(أبو فيصل).
- المرحومة الحاجة سعدى أحمد الأسعد الغرايبة (أم احمد).
- المرحومة الحاجة ريا حسين محمد الرحيل الغرايبة (أم خلف).
- المرحومة الحاجة صبحا أحمد محمود الرحيل الغرايبة (أم صالح).
- الحاج محمد مصطفى الابراهيم بني عطا (أبو منير).
- الحاج علي محمد عبد الرحمن العليان بني عطا (أبو حمزة).


مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

الأندلسيون في إدارة المرابطين
التوظيف السياسي والإيديولوجي



أ.د. محمد حقي

أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب

جامعة السلطان مولاي سليمان

بني ملال – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يدور المقال حول حضور موضوع الأندلسيين في إدارة المرابطين المركزية ودوافع استخدامهم على الرغم من حرصهم الشديد على تخصيص مناصبها لأبناء قبيلهم الصنهاجي عامة واللمتوني خاصة. وأسعفتنا المصادر المتوفرة؛ وخاصة منها كتب التراجم والتاريخ العام وبعض الدراسات المعاصرة، بكم مهم من المعطيات المتنوعة ساعدت على مناقشة الموضوع وتحليله وبالتالي حل هذه إشكالية. وقد مر تحليل الموضوع أولاً، بالتذكير بظروف دخول المرابطين الأندلس وضمها لدولتهم، وثانيًا، بالتوقف عند أهم الوجوه التي خدمت المرابطين مركزيًا في ميداني الكتابة الديوانية والاستشارة الفقهية وإبراز خصالها ومؤهلاتها، وثالثًا، بالبحث عن الأسباب التي جعلت المرابطين يتنازلون عن هذه المهام لهؤلاء الأندلسيين. وخلصنا في تحليلنا إلى أن هناك أسبابًا ظاهرة ومباشرة ترتبط بحاجة الدولة بعد توسعها وتضخمها وتشعب علاقاتها الدولية إلى كتاب ومفتين من مستوى عال يستجيبون للحاجيات الطارئة للدولة في المراسلة والفتوى، ودوافع خفية تتعلق بالرغبة في معرفة سير الأندلسيين عن قرب، وضمان خضوع السكان للدولة تقليدا لزعمائهم، وإشعار الأندلسيين بكون الدولة دولتهم وأنهم ليسوا غرباء فيها، مما سيضمن الاستقرار لحكمهم في الأندلس.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٨	يناير	٢٠٢٤
تـاريخ قبــول النشـــر:	١٦	فبراير	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الأندلس؛ المرابطون؛ يوسف بن تاشفين؛ علي بن يوسف؛ تاريخ الأندلس

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.261405 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد حقي، "الأندلسيون في إدارة المرابطين: التوظيف السياسي والإيديولوجي".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ٢٩ – ٤٠.

Corresponding author: haqimed211@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

في أواخر القرن (٥هـ/١١م) دخل المرابطون الأندلس استجابة لاستنجاد أهلها بهم نتيجة الهجوم الشرس للإسبان بزعامة قشتالة وعجز ملوك الطوائف عن مواجهتهم، لكن تطور الأحداث السياسية والعسكرية وإلحاح عامة السكان دفع المرابطين إلى إسقاط ملوك الطوائف وضم البلاد إلى إمبراطوريتهم. وفتح إدماج الأندلس في الدولة المرابطية الباب أمام الأندلسيين للمشاركة في تدبير شؤونها بدخول الإدارة ليس فقط على الصعيد المحلي، بل أيضا على الصعيد المركزي بالعاصمة مراكش. وتوفر المصادر الأندلسية والمغربية؛ وخاصة كتب التراجم، معطيات مهمة حول مجموعة من الشخصيات التي انضمت إلى المرابطين واشتغلت في جهازهم الإداري، وسنعمل على تحليل محتواها بحثا عن حل إشكالية الموضوع التي تتمحور حول إبراز حجم هذا الحضور الأندلسي وتحديد المبررات التي دفعت المرابطين إلى السماح للأندلسيين بمشاركتهم في إدارتهم المركزية ومخالفة قاعدة احتكار لمتونة وصنهاجة لها. وسنقارب الموضوع من خلال العناصر التالية:

–ضم المرابطين للأندلس

–مهام الأندلسيين في الإدارة المركزية المرابطية

–خلفية توظيف المرابطين للأندلسيين

أولاً: ضم المرابطين للأندلس

منذ أن ضم المغاربة بقيادة طارق بن زياد الأندلس إلى الدولة الإسلامية، تحملوا عبء حمايتها من الخطر المسيحي الآتي من الشمال بمرابطة القبائل البربرية/الأمازيغية بالثغور خاصة الثغر الأوسط كحاجز أمام هذا الخطر، أو بالانخراط في الجيش؛ كمرتزقة أو عناصر مجندة، في عهدي الإمارة والخلافة الأموية، أو بتنظيم حملات جهادية انطلاقا من المغرب خاصة في القرن (٤هـ/١٠م)، أو التحاق بعض المحتسبين المغاربة للمرابطة في الثغور الأندلسية[١]. ولما اشتد الخطر المسيحي في القرن (٥هـ/١١م) لم تجد الأندلس من سند غير المغرب الحليف والحامي التقليدي للبلاد.

وفي هذا الوقت كان المرابطون قد أوشكوا على استكمال توحيد المغرب فطارت سمعة قوتهم العسكرية في الآفاق، وظهروا بمظهر القوة الكبرى والأولى في الغرب الإسلامي، وتطلعت إليهم الشعوب، ورجا الجميع الانضمام إليهم أو؛ على الأقل، الاستفادة من مساعدتهم ودعمهم. وكانت الأندلس في هذا الوقت تمر بأصعب أوقاتها، حيث كانت تعيش بين سندان جور ملوك الطوائف الضعاف وتعسفهم ومطرقة قشتالة ألفونسو السادس التي لم تعد تقنع بالأتاوات التي فرضتها على كل ملوك الطوائف، بل أرادت أن تأخذ البلاد منهم بالكامل، لذلك كثفت من غاراتها النهبية التي يتضرر منه السكان قبل الحكام. وأمام هذا الوضع الصعب توجه الأندلسيون؛ سكانا وحكاما، لطلب النجدة والدعم من المرابطين.

وقد مرت علاقة الأندلس بالمرابطين بثلاثة مراحل رئيسة:

مرحلة الاستنجاد والاستجابة:

بدأت منذ (٤٧٤هـ/١٠٨١م) عندما وفد على يوسف بن تاشفين علماء وأعيان أندلسيون يشتكون من جور قشتالة وتكالبها عليهم وعجز ملوكهم عن رد عدوانها، فوعدهم بالمساعدة والدعم[٢]. وبعدهم؛ وخاصة بعد سقوط طليطلة بني ذي النون عام ٤٧٨هـ، كاتبه ملوك الطوائف يتقدمهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية والمتوكل على الله بن الأفطس صاحب بطليوس وعبد الله بن بلقين الزيري صاحب غرناطة[٣]. فاستشار يوسف زعماء المرابطين والعلماء وكاتبه عبد الرحمن بن أسباط فوافقوا كلهم على تقديم الدعم والمساعدة وفق شروط حددوها، لذلك استجاب لطلب الملوك الثلاثة وقرر الجواز بعد أن اتخذ الإجراءات الضرورية لذلك[٤].

مرحلة المساعدة العسكرية:

نفذ يوسف بن تاشفين وعده للأندلسيين واجتاز المضيق انطلاقا من سبتة عام (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) وواجه ألفونسو السادس في الزلاقة وانتصر عليه انتصارا كبيرا، وبعد ذلك عاد إلى المغرب وترك الأندلس بعدما أوصى ملوك الطوائف بالوحدة والتخلي عن صراعاتهم. لكن شوكة ألفونسو السادس لم تكسر تماما، فعاد إلى الإضرار بالأراضي الإسلامية في شرق الأندلس

انطلاقا من حصن لييط قرب لورقة الذي احتله وعمره بالرجال والسلاح وجعله منطلقا لغاراته التي عجز الأندلسيون عن التصدي لها، فعاد ملوك الطوائف للاستنجاد بيوسف واجتاز إليه المعتمد وفاوضه في ذلك، فوافق على تقديم الدعم مرة أخرى، وعبر المضيق مرة ثانية عام (٤٨١هـ/١٠٨٨م)[٥]. لكن حصار حصن لييط كشف عن أنانية ملوك الطوائف، واهتمامهم بمصالحهم الشخصية أكثر من اهتمامهم بمصير البلاد، واستمرار صراعاتهم الثنائية، وتواطؤهم مع العدو ضد يوسف بن تاشفين، فاضطر إلى فك الحصار والعودة بسرعة إلى مراكش غاضبا وحنقا عليهم[٦].

مرحلة ضم بلاد الأندلس:

بعد سنتين عاد يوسف إلى الأندلس عام (٤٨٣هـ/١٠٩٠م)، فاتجه رأسًا إلى الشمال وحاصر طليطلة وأفسد أحوازها بدون مشاركة ملوك الطوائف، ثم فك الحصار وعاد أدراجه. وعرج على غرناطة ومالقة فأخذهما ونفى عبد الله وتميم ابني زيري إلى المغرب. ثم ترك قائده سير بن أبي بكر ليضم باقي الممالك، وعاد إلى سبتة حيث ظل يتتبع أخبار ذلك عن قرب. بدأ أخذ المرابطين للبلاد بطريف وجيان في نهاية سنة ٤٨٣هـ. وفي السنة الموالية ضموا قرطبة وبياسة وأبذة وحصن البلاط والمدور وشقورة وقرمونة وإشبيلية ورندة ومارتلة والمرية وشلب ويابرة وبطليوس ومرسية ودانية وشاطبة، وبذلك صارت معظم الأندلس تحت سلطتهم، وقتل كثير من أمراء الطوائف، ونفي ابنا زيري والمعتمد بن عباد إلى المغرب، بينما فر أبو مروان معز الدولة ابن المعتصم بن صمادح إلى المغرب الأوسط لاجئا عند بني حماد[٧].

وفي عام (٤٩٥هـ/١١٠٢م) ضمت بلنسية على يد الأمير مزدلي، وفتحت حصون شرق الأندلس مربيطر والمنارة وسهلة بني رزين والبونت وشنتمرية[٨]. لقد ضم المرابطون كل الأراضي الإسلامية في الأندلس ولم يبق خارج سيطرتهم إلا إمارة سرقسطة التي بقيت تحت سلطة المستعين بن هود، وتركها المرابطون حاجزا بينهم وبين المسيحيين خاصة مملكة أراغون بتنسيق مع المستعين قبل أخذها من ابنه عبد الملك عماد الدولة خليفته بطلب من الفقهاء والسكان في نهاية عام (٥٠٣هـ/١١١٠م)[٩].

وقد لخص أحد الباحثين طبيعة ضم المرابطين للأندلس فقال: "هكذا كان ضم المرابطين للأندلس استجابة لنداء الشعب بإيعاز من الفقهاء لإنقاذ الأندلس من السقوط المحتم بيد الإسبان"[١٠]. لقد صارت الأندلس جزءا من المجال المرابطي، وأصبح الأندلسيون مواطنيها مما سيفتح أمامهم أبواب الدولة لخدمتها والمشاركة في تدبير شؤونها.

ثانيًا: الأندلسيون في إدارة المرابطين

تميزت إدارة المرابطين بالبساطة وقلة المناصب، فلم يتخذوا وزراء بالمعنى المعروف ولم يلقبوا به أحدا[١١]، وكاد الحديث في إدارتهم يقتصر على أمير المسلمين ومجلس صنهاجة وكاتب الأمير ومستشاريه من الفقهاء. واعتبر المرابطون الدولة مسألة قبلية وملك القبيلة المؤسسة، لذلك احتكرت الأعمال الإدارية ومعها العسكرية من قبل صنهاجة عامة ولمتونة وبني ورتنطق محور عصبيتها خاصة. فقد عين ولاة الأقاليم وقادة الجيش من لمتونة خاصة ومن صنهاجة عامة، وينطبق هذا الأمر على المغرب والأندلس على حد سواء[١٢]. ولم يخرج عن هذه القاعدة إلا الكتابة والشورى حيث فسح المجال لرجال من المغرب والأندلس لدخولهما، وغصا بوجوه قامت بهما أحسن قيام وأغنت التجربة المرابطية فيهما. فمن هي الوجوه الأندلسية التي شاركت في ديوان كتابة المرابطين ومجلس شوراهم؟

٢/١-كتاب الديوان الأندلسيون

أجمل عبد الواحد المراكشي الحديث عن حضور الأندلسيين في ديوان كتابة المرابطين بدقة كبيرة حينما كتب: "ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك" وأضاف: "اجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار"[١٣]. وعند تتبع الأسماء التي حضرت في ديوان الرسائل استنتج المعاصرون أن الأندلسيين سيطروا بالكامل على هذا الميدان واحتكروه بكل مكوناته (رؤساء ومساعدون)[١٤]. وعلى الرغم من حديث المصادر عن كثرة الأندلسيين في

هذا الديوان فلم نتعرف إلا على سبعة منهم ممن تولوا رئاسته، وهم:

عبد الرحمن بن أسباط: أندلسي من المرية، بدأ بداية بسيطة حيث احترف الكتابة بديوان المرية، ولما سمع بسيطرة يوسف بن تاشفين على المغرب اجتاز إلى العدوة واستقر بمراكش في عام (٤٧٢هـ/١٠٧٩-٨٠م) قبل ضم الأندلس بحوالي عقد من الزمان[١٥]. ودخل في خدمة زوجة الأمير زينب النفزاوية التي استكتبته، ولما توفيت ثبته يوسف واستخدمه فصعد نجمه ونال الشهرة والمجد[١٦]. ووصف ابن الخطيب ابن أسباط؛ على الرغم من سخريته من خطه وعباراته، بأنه "كان رجلا حصيفا، سكونا، عاقلا، محدي الجاه، حسن الوساطة، شهير المكانة"[١٧]، وأضاف عنان أنه كان يتقن الأمازيغية؛ التي لا يعرف يوسف غيرها، وأنه كان ناصحا أمينا للأمير في شؤون الأندلس وأحوال ملوك الطوائف فحظي بثقة كبيرة منه[١٨]. وكانت وفاته مفاجئة بسبتة عام (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)[١٩].

ابن القصيرة أبو بكر محمد بن سليمان الولبي الإشبيلي: عمل في ديوان المعتضد العبادي، ولما تولى المعتمد ولاه الوزارة والكتابة، وأرسله سفيرا إلى جيرانه من ملوك الطوائف، كما كان رسوله إلى يوسف بن تاشفين عندما استنجد به. ولما ضم المرابطون اشبيلية اعتزل العمل، وفوجئ في عام (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) باستدعاء يوسف بن تاشفين له إلى مراكش ليتولى ديوان الانشاء بعد وفاة كاتبه عبد الرحمن بن أسباط، وكان قد تعرف على مقدراته واختبره عندما جاءه سفيرا من المعتمد وفي بلاط إشبيلية. واستمر في مهمته حتى وفاة يوسف فثبته ابنه علي ليواصل عمله إلى أن وافته المنية عام (٥٠٨هـ/١١١٤م)[٢٠]. وابن القصيرة "أحد رجال الفصاحة، والحائز قصب السبق في البلاغة، كان على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب"[٢١]. وهو أيضا "من أهل الأدب البارع والتفنن في أنواع العلوم" و"رأس أهل البلاغة في وقته"[٢٢].

ابن الجد محمد بن عبد الله الفهري اللبلي الإشبيلي أبو القاسم: درس الفقه والحديث والأدب، وعينه المعتمد بن عباد وزيرا لابنه الراضي والي الجزيرة الخضراء ورندة، ولما أسقط المرابطون مخدومه وقتلوه عاد إلى بلده لبلة وتولى الشورى والفتوى بها[٢٣]، "إلى أن استدعاه أمير المسلمين فأجاب بحكم الطاعة وأناب، وأراه الغناء المستعظم والمناب بكتب تهزم الكتائب بأغراضها، وتروق العيون بإيماضها"[٢٤]. وكان استدعاؤه عام ٥٠٨هـ بعد وفاة ابن القصيرة، واستمر في الديوان حتى وفاته عام (٥١٥هـ/١١٢١م)[٢٥].

ابن أبي الخصال أبو عبد الله محمد بن مسعود الغافقي الشقوري: ولد عام (٤٦٥هـ/١٠٧٣م) من أسرة مغمورة بفرغليط إحدى قرى شقورة، وسكن قرطبة وأخذ عن رجالها. وتعلق في بدايته بأبي يحيى محمد بن الحاج والي يوسف بن تاشفين على قرطبة، ثم استكتبه الأمير علي بن يوسف؛ ربما، في عام ٥٠٣هـ[٢٦]. وقال عنه ابن بسام: هو "أحد أعيان كتاب الزمان، وحامل جملة الاحسان، بحر معرفة وتعبره السفن، ولو جرت بشهوتها السفن، وطود علم لا ترقى إليه الفطن، ولو سما بها الامساء والإصباح، وأدب لا تعبر عنه الألسن" و"له بيان لا يتعاطاه ناظم ولا ناثر". وقد نال عند علي بن يوسف مكانة "بحيث لا تشير الأصابع إلا إليه"[٢٧]. وقال المراكشي إنه كان أكبر كتاب علي بن يوسف مكانة "وحق له ذلك، إذ هو آخر الكتاب، وأحد من انتهى إليه علم الآداب، وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب، واليد الطولى"[٢٨]. وقد استغل نفوذه لتعيين أخيه أبي مروان معه في الديوان. واستمر على حاله حتى عام (٥٢٣هـ/١١٢٩م) عندما انهزم المرابطون في قلعة قليرة قرب جزيرة شقر شرق الأندلس، فطلب منه الأمير علي بن يوسف أن يوبخهم، فكتب رسالة أفحش فيها، فغضب منه علي وحنق عليه[٢٩]، لكن لا يبدو أنه عزله لأننا وجدناه في عام (٥٢٦هـ/١١٣١م) يكتب كتاب تولية تاشفين بن علي على قرطبة[٣٠]. وكانت وفاته بمراكش عام (٥٣٩هـ/١١٤٤م). أما أخوه أبو مروان فمات في السنة التي بعدها في قرطبة[٣١].

ابن عبدون عبد المجيد بن عبد الله أبو محمد الفهري اليابوري: من أهل يابرة غربي بطليوس، خدم المتوكل على الله ابن الأفطس، ورحل في بدايته إلى المعتمد لكنه لم يحظ بالقبول منه، فعاد إلى بلده واختص بالمتوكل في الحل والترحال وأكثر من مدحه إلى أن قتله المرابطون فرثاه[٣٢]. وبعد موت مخدومه لازم بلده يابرة[٣٣] قبل أن يلتحق بكتابة الأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين بإشبيلية، ثم استدعاه أمير المسلمين علي بن يوسف لديوانه[٣٤]. و"كان أديبا مقدما، شاعرا، عالما بالخبر والأثر ومعاني الحديث، أخذ الناس عنه"[٣٥]، ووصف ابن سعيد علو كعبه فقال: "منتهى البيان" و"نخبة العلاء، وبقية أهل الإملاء (...) فاق الأفراد والأفذاذ، ومشى في طرق الابداع والوخد والإغذاذ"[٣٦].

وتوفي بيابرة أثناء زيارة لأقاربه هناك في عام (٥٢٧هـ/١١٣٣م)[٣٧].

محمد بن سعيد بن عبد العزيز ابن القبطرنة: "أحد كتاب أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين"[٣٨]، وهو من حاشية المتوكل ابن الأفطس.

ابن عبد الغفور عبد الغفور بن محمد أبو محمد: إشبيلي خدم المعتمد بن عباد، وكان كاتبا بمراكش عام (٥٣١هـ/١١٣٧م). واتهمه ابن خاقان بالتقعير والتهور والحقد والحسد[٣٩]. هذه هي الوجوه الأندلسية الرئيسية التي تولت الكتابة في ديوان رسائل المرابطين على عهدي يوسف بن تاشفين وابنه علي، ويمكن أن نخرج من هذا العرض بمجموعة من خصائص الكتاب الأندلسيين في ديوان المرابطين وأهمها:

- انتماء هؤلاء الكتاب إلى كل جهات الأندلس التي خضعت للمرابطين (وسط-غرب-شرق-جنوب-شرق) وخاصة منها حواضر إشبيلية وبطليوس والمرية وقرطبة/ شقورة مع هيمنة للمدينتين الأوليين عاصمتي بني عباد وبني الأفطس.
- خمسة من هؤلاء خدموا المعتمد بن عباد (٠٣) والمتوكل ابن الأفطس (٠٢).
- اثنان منهم لم يسبق لهم أن خدموا ملوك الطوائف.
- خضوع معظم هؤلاء للتجربة في دواوين ولاة المرابطين وقوادهم بالأندلس قبل الالتحاق بديوان أمير المسلمين بمراكش.
- أغلب الكتاب من أسر مشهورة بالأندلس.
- بعض الكتاب من أسر مغمورة رفعها المرابطون وخاصة ابن أسباط وابن أبي الخصال.
- نبوغ الكتاب الأدبي نثرا وشعرا، ورقي بلاغتهم وفصاحتهم.
- الثقافة الواسعة للكتاب إذ شملت الشعر والنثر والتاريخ، والقرآن والحديث والفقه.

٢/٢-مستشارو المرابطين من الفقهاء الأندلسيين

وجه عبد الله بن ياسين؛ مؤسس دولة المرابطية وواضع تقليد خضوع المرابطين لأحكام الشرع، المرابطين نحو تقريب الفقهاء وتكريمهم وإخضاع معظم أمورهم لفتاويهم. وقد تحدث عن مكانة الفقهاء الرفيعة عندهم الأقدمون وبعدهم المحدثون، حيث كتب المراكشي: "اشتد إيثاره [يوسف بن تاشفين] لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمرًا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء (...) فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغًا عظيمًا"[٤٠]، وقال ابن الأثير: "يميل [يوسف بن تاشفين] إلى أهل الدين والعلم، ويكرمهم ويصدر عن رأيهم" ولما خلفه ابنه علي "ازداد في إكرام العلماء والوقوف عند إشارتهم، وكان إذا وعظه أحدهم خشع عند استماع الموعظة ولان قلبه لها، ويظهر ذلك عليه"[٤١]. وقد اعتمد المرابطون في استشاراتهم في بداية أمرهم على فقهاء من المغرب، ولما ضموا الأندلس دخل الأندلسيون إلى هذه الدائرة، وصار لهم نفوذ أكبر من نظرائهم المغاربة[٤٢]. وقد ركز المرادي في توجيهه لأبي بكر بن عمر على أهمية المستشار وخطورة دوره وضرورة حسن اختياره وفق شروط دقيقة تحافظ على حق المستشير والمستشار[٤٣]. واحتفظت المصادر ببعض الأسماء الأندلسية التي كان لها ثقل في توجيه بعض قرارات الدولة الحاسمة، ومنها ابن حمدين وابن رشد الجد وأبي بكر ابن العربي ومالك بن وهيب.

ابن حمدين محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي أبو عبد الله: قرطبي من بيت علم وجاه ونفوذ ونباهة وفضل. "كان من أهل التفنن في العلوم والافتنان بها وبمذاكرتها. وكان حافظًا ذكيًا فطنًا، أديبًا شاعرًا لغويًا أصوليًا"[٤٤]. ولي قضاء قرطبة عام (٤٩٠هـ/١٠٩٧م) بسياسة محمودة مقرونة بحزم وصرامة حتى وفاته عام (٥٠٨هـ/١١١٥م)، وكانت ولادته عام

(٤٣٠هـ/١٠٣٩م)[٤٥]. وهو الذي حمل طلب فقهاء الأندلس إلى علي بن يوسف بشأن الحكم بمنع تداول كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي وإحراقه، ونجح في إقناعه بذلك، واستصدر أمره بإحراقه في قرطبة وفاس وكل حواضر المغرب[٤٦]. كما أنه طلب من يوسف بن تاشفين ترك يهود أليسانة وعدم إخراجهم منها والاكتفاء بما فرض عليهم من مال[٤٧].

ابن رشد الجد، محمد بن أحمد بن رشد المالكي القرطبي أبو الوليد: روى عن كثيرين وجمع علما كثيرا حيث "كان فقيها عالما حافظا للفقه، مقدما فيه على جميع أهل عصره، عارفًا بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه (...)، نافذا في علم الفرائض والأصول، من أهل الرياسة في العلم والبراعة والفهم، مع الدين والفضل والوقار والحلم". وله مؤلفات كثيرة منها "البيان والتحصيل"، ودرس بقرطبة.

تولى قضاء الجماعة والصلاة بقرطبة عام (٥١١هـ/١١١٧م)، واستعفى من القضاء فأعفي عام ٥١٥هـ بعد الهيج لسبب اختلف حوله[٤٨]. و"كان الناس يلجأون إليه، ويعولون في مهماتهم عليه" لحسن خلقه ولين جانبه وحبه لنفع خاصته وأصحابه[٤٩]. وهو الذي توسط لمحمد بن عبد الله بن محمد أبي جعفر الخشني المرسي عند علي بن يوسف، فأعفى الأمير أباه من المغارم ورفع الطلب عن أملاكه وأمر بالبر به[٥٠].

وسافر إلى مراكش في صفر من عام (٥٢٠هـ/١١٢٦م)؛ على الرغم من شيخوخته، "فتلقاه أمير المسلمين علي بن يوسف بالمبرة والكرامة" واستقبله عدة مرات شاوره خلالها في قضايا عديدة احتفظت المصادر بثلاثة منها[٥١]:

- معاقبة معاهدي غرناطة المتواطئين مع المسيحيين وإجلاؤهم عن الأندلس، فأجلاهم الأمير علي بن يوسف إلى المغرب إلى ناحيتي سلا ومكناس.
- عزل أخيه أبي الطاهر تميم عن الأندلس وتقديم غيره.
- تسوير مدينة مراكش للاحتماء من غارات المهدي ابن تومرت وأتباعه الموحدين.

وقد تجاوب أمير المسلمين مع هذه المشورات ونفذ مضمونها فورا لأنه كان "مقدما عند أمير المسلمين، عظيم المنزلة، معتمدا في العظائم أيام حياته"[٥٢].

وعاد ابن رشد إلى قرطبة في شهر جمادى الأولى فمرض مرض موته حيث توفي في شهر ذي القعدة. وكانت ولادته عام (٤٥٠هـ/١٠٥٨م)[٥٣].

أبو بكر ابن العربي محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي: من بيت شرف ونبل وولاية حيث كان أبوه مقربا من المعتمد بن عباد وعضوا في مجلسه وواليه على ولايات شريفة، وكان جده لأمه وزيرا للمعتضد. ولما سقطت إشبيلية في يد المرابطين رحل عبد الله ابن العربي الأب ومعه ابنه محمدًا هذا إلى المشرق عام (٤٨٥هـ/١٠٩٢م)[٥٤].

ولد أبو بكر عام٤٦٨ أو (٤٦٩هـ/١٠٧٧م)، ونشأ في أجواء إشبيلية المعتمد بن عباد وسط أبناء الحاشية الحاكمة[٥٥]، ورحل مع أبيه إلى المشرق، وانخرط في حلقات العلم متقلبا بين الشام (القدس) والعراق (بغداد) والحجاز (مكة-المدينة) ومصر (القاهرة) والإسكندرية، والتقى شيوخا كثرا جمع منهم علما واسعا[٥٦]. ولما توفي أبوه بالإسكندرية عام (٤٩٣هـ/١١٠٠م)، قرر العودة إلى الأندلس، ونزل بلده إشبيلية حيث استقبل بحفاوة[٥٧]. قدم أبو بكر إشبيلية بعلم كثير تقول المصادر إنه لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق، ويجمع كل من ذكروه على أنه "كان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، متقدما في المعارف كلها، متكلما في أنواعها نافذا في جميعها"[٥٨]. ونال شهرة في المغرب والمشرق حتى لقب بخزانة العلم[٥٩].

اشتغل أبو بكر ببلده وبقرطبة بتدريس الفقه والأصول والتفسير، وألف مؤلفات كثيرة وجيدة، وتولى الشورى بإشبيلية بلده، ثم قضاء جماعتها عام (٥٣٨هـ/١١٤٤م)، لكنه صرف عنه بعد وقت قصير لصرامته الشديدة واصطدامه مع العامة التي ثارت عليه ونهبت بيته، وتفرغ بعد ذلك لنشر العلم[٦٠]. وعلى الرغم من هذه الصرامة فقد قيل عنه إنه كان خلوقا، حسن العشرة، لين الكنف، وفيا بالعهد، قوي الاحتمال، كثير الملح في درسه[٦١]. ومات أبو بكر عام (٥٤٣هـ/١١٤٨م) قرب فاس عند عودته ضمن وفد بلده إشبيلية من مقابلة

الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي الكومي، ودفن بفاس[٦٢].

وقبل أن ننهي الحديث عنه يبدو لنا من الضروري الحديث عن سفارته إلى بغداد لحساب يوسف بن تاشفين، وما أثارته من نقاش. أكدت بعض المصادر أن يوسف بن تاشفين بعث ابن العربي الأب وابنه أبي بكر سفيرين إلى الخليفة العباسي ليطلبا توليته على البلاد التي استولى عليها في المغرب والأندلس بتوصية من علماء الأندلس، فما مدى مصداقية هذا الخبر؟ فابن خلدون يقول إنه "خاطب المستنصر العباسي الخليفة لعهده ببغداد، وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبي بكر، فتلطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس، فعقد له وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولاً في أيدي الناس، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما على نظره من الأقطار والأقاليم"[٦٣]. أما النويري فقال إن يوسف بعث قوما من أهله يطلب التولية من الخليفة العباسي[٦٤].

واختلف الباحثون المعاصرون حول مدى صحة بعث يوسف بن تاشفين لابني العربي في سفارة إلى خلافة بغداد العباسية، فمال المشارقة إلى تأكيدها وتأييد خبر ابن خلدون مدعمين كلامهم بالرسائل التي حملها أبو بكر ابن العربي إلى أمير المسلمين من الخليفة ومن أبي حامد الغزالي ومن أبي بكر الطرطوشي[٦٥]، أما المغاربة فاتخذوا موقفا نقديا ومنطقيا. فالكتاني يرى أن كلام ابن خلدون عن سفارة ابني العربي منقوض لأنهما إنما ذهبا إلى المشرق فرارا من يوسف مستدلا على ذلك بكون الوالد بقي في المشرق حتى موته، أما الابن فعاد بعده وتوجه إلى إشبيلية بلده وليس إلى مراكش، كما أن الدولة حجرت على أملاكهما مدة غيابهما ولم يسترجعها أبو بكر؛ بعد عودته، إلا بوساطة الحافظ أبي علي الصدفي[٦٦]. أما سعيد أعراب مؤلف كتاب "مع أبي بكر ابن العربي" فرفض ذلك ورأى أن الرحلة وسياقها لا يشيران إلى أن ابني العربي قد ذهبا إلى المشرق سفيرين ليوسف بن تاشفين[٦٧].

ويتضمن نص رحلة أبي بكر ابن العربي بعض الإشارات التي قد توضح هذا الأمر، فهو يقول[٦٨]:

"فدعت الضرورة إلى الرحلة، فخرجنا والأعداء يشمتون بنا" "وأرى أن التمكن من ذلك [طلب العلم] في جنب ذهاب الجاه والمال، وبعد الأهل بتغير الحال، ربح في التجارة" "فخرجنا مكرمين، أو قل مكرهين؛ آمنين، وإن شئت خائفين، ففررت منهم لما خفتهم". ويظهر من هذه الإشارات أن ابني العربي سافرا فرارا من المرابطين ودون رغبة منهما، ويبرر ذلك كون الأب عبد الله أحد رجال المعتمد بن عباد المقربين؛ وربما، كان من الرافضين للمرابطين والمتمسكين بولاء بني عباد. ويضاف إلى هذا دليل منطقي وهو مدة الرحلة التي قاربت عقدا من الزمان، وهذا يتعارض مع سفارات الملوك التي تتطلب الإسراع في تبليغ رسائلهم والعودة بأجوبتها وليس البقاء في المشرق لطلب العلم والتعمق فيه. فحركة ابني العربي لا توافق حركة السفير المستعجل. فكيف نبرر الرسائل التي عاد بها ابو بكر من المشرق؟

إن ابن العربي الأب قد خبر السياسة ودروبها وتعلم أساليب الملق والدهاء السياسيين، فعندما ضاقت به السبل في المشرق ولم يصل إلى مراده في استعادة مجده العبادي كما أكد ابن خاقان[٦٩]، بدأ يفكر في العودة إلى بلده الأندلس؛ وحتى يتجنب غضب المرابطين فكر في وسيلة لإرضائهم ووضع مخططا دقيقا لتحقيق غايته. وبدأ مخططه هذا بالدعاية ليوسف بن تاشفين بمكة في موسم حج عام (٤٨٩هـ/١٠٩٦م)[٧٠]؛ وهو يعلم علم اليقين أن هناك مغاربة وأندلسيين سيحضرون الموسم وسينقلون أقواله إلى المرابطين، ثم انتقل ثانية إلى بغداد ووجه رسالة إلى الخليفة العباسي يثني فيه على يوسف ويطلب مرسوما لتوليته على البلاد التي يحكمها بالمغرب والأندلس وهو ما حصل عليه بسهولة لأن الخلافة العباسية الضعيفة محتاجة إليه أكثر من يوسف بن تاشفين، ولم يكتف بذلك بل توجه إلى علماء مسلمين مشهورين في عصره فحصل منهم على فتاوي تؤيد عمل يوسف وحكمه للمغرب والأندلس وتوجهه في حكمه، وهما أبي حامد الغزالي وأبي بكر الطرطوشي[٧١]. وقد عاد ابن العربي بهذه الرسائل كحزام أمان يحتمي به إذا فكر المرابطون في البطش به، ولم يذهب لعرضها أولا،

بل ذهب إلى إشبيلية بلده حيث استقبل بحفاوة؛ وهذا سلاح آخر لمواجهة المرابطين، وبعد ذلك سافر إلى مراكش ليقدم ما جاء به ليوسف بن تاشفين ليمهد لنفسه السبيل لنيل المجد والحظوة عند السلطان، وهذا أمر معروف عنه حيث قيل عنه إنه "كان يدرس وبغلته عند الباب، ينتظر الركوب إلى السلطان"[٧٢].

وخلاصة الكلام إن ابني العربي لم يذهبا إلى المشرق سفيرين، ولكنهما حصل على التولية والفتاوي ليوسف تملقا وحماية لنفسيهما من غضبه وبحثا عن الحظوة عنده، وشاء القدر ألا يستفيد الأب من ذلك لينفرد الابن ببركته ومجده.

مالك بن وهيب: مالك بن يحيى بن وهيب بن أحمد بن عامر الأزدي أبو عبد الله، إشبيلي أصله من حصن لورة. ولد بإشبيلية عام (٤٥٣هـ/١٠٦١م) وتوفي بمراكش عام (٥٢٥هـ/١١٣٠م). وذكر ابن بشكوال أن له رواية يسيرة، وأن الدراية أغلب عليه من الرواية، وأنه "أحد رجال الكمال والارتسام بمعرفة العلوم على تفاريعها وأنواعها"[٧٣]. وأضاف ابن سعيد أنه "فيلسوف المغرب، ظاهر الزهد والورع"[٧٤]. استدعاه أمير المسلمين علي بن يوسف إلى مراكش واتخذه جليسا وأنيسا، وكلفه بمناظرة المهدي محمد بن تومرت[٧٥]. وهو الذي أوصى بسجنه بعد مناظرته عام (٥١٤هـ/١١٢٠م) وحذر من خطره، لكن الأمير لم يأخذ برأيه[٧٦].

بعد استعراض ملامح شخصيات مستشاري المرابطين من الفقهاء الأندلسيين يمكن أن نحدد أهم مميزاتهم كالتالي:

انحدار هم من قرطبة عاصمة العلم في الأندلس وإشبيلية التي نافستها في عهد بني عباد.

انتماؤهم لأسر ذات جاه ونفوذ وفضل وثروة وزعامة في مدنها.

معرفة واسعة بالعلوم الشرعية خاصة الفقه، والقدرة على الفتوى والمناظرة، والسمعة الواسعة في الأندلس والمغرب، بل وفي المشرق.

تولي أعلى مناصب القضاء (قضاء الجماعة)، وهو المنصب الذي يؤهل في الأندلس للزعامة السياسية.

لجوء الناس إليهم للتوسط لهم عند السلطة المرابطية ونجاحهم في تحقيق رغباتهم.

تقديم استشاراتهم للحكام المرابطين في قضايا خطيرة: منع "الإحياء" وإحراقه وقضية يهود أليسانة وإجلاء المعاهدين وتسوير مراكش وإعفاء أبي الطاهر تميم أخ أمير المسلمين من ولاية الأندلس وسجن ابن تومرت.

وتثبت كل هذه الخصائص أننا أمام شخصيات نافذة علميًا وسياسيًا واجتماعيًا.

ثالثًا: توظيف المرابطين للحضور الأندلسي في إدارتهم

اتضح أعلاه أن الأندلسيين سجلوا حضورهم في أجهزة الدولة المرابطية المركزية في ميدانين إثنين هما: الكتابة الديوانية والاستشارة الفقهية. فلماذا هذا الاختيار؟ وكيف وظفه المرابطون لصالحهم؟

إذا بدأنا بالكتابة الديوانية، وإذا عدنا إلى تاريخ الدولة الإسلامية، نجد أن ديوان الرسائل احتل موقعا مميزا في أجهزة الدولة منذ عهد الدولة الأموية وبلغ الأوج مع الخلافة العباسية، ونفس التطور عرفه في الأندلس مع الأمويين حيث اشتهر كتابهم بالبلاغة ورفعة الأسلوب ورقي المعاني، وانتقل ذلك إلى ملوك الطوائف فكثر الكتاب في عهدهم، وتنافسوا في رسائلهم، وتباهى بهم الأمراء وقربوهم وأغدقوا عليهم الأموال. وهذ هو الواقع الذي وجده المرابطون.

وقد حدد الكاتب المشهور عبد الحميد[٧٧] مكانة الكتاب في الدولة فقال: "جعلكم [الله] معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة، بكم ينتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم، لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون"[٧٨]. وحدد شروطا لمهنة الكتابة أهمها: الحلم والفهم والإقدام والإحجام والعفاف والعدل والإنصاف وكتمان الأسرار والوفاء والعلم بالنوازل والعلم الواسع (قرآن-فرائض-عربية-خط-شعر-تاريخ-حساب) والعقل والأدب والتجربة والقناعة والترفع عن الصغائر وتجنب النميمة والسعاية والتواضع وتجنب

الكبر والسخافة.[٧٩] ويبرز من هذه العناصر العبء الكبير الذي يحمله الكاتب؛ سواء أثناء تكوينه أو وقت عمله، ودوره المحوري في الدولة التي يخدمها.

ويضيف ابن خلدون بعض الشروط ويفصل في بعض من تلك التي سبق ذكرها، فيكتب: "واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد من أن يتخير أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها"[٨٠].

ولم يكن المرابطون بعيدين عن معرفة أهمية الكتابة الديوانية وخطورتها، فمنذ عهد أبي بكر بن عمر اللمتوني نجد مستشاره المرادي الحضرمي يقول له: "كاتبك لسانك (...) وأقل ما يحتاج إليه في الكاتب أن يكون فصيح اللسان، حسن الخط، عارفا بالأدب، كاتما للسر (...) وإذا كان الكاتب فصيحا أبان عن مراد مستكتبه، وأظهر الباطن من حجته، وكسر القوى من شبهات خصمه، لأن الكاتب الماهر يصور الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، حتى يشكل ذلك على الحذاق"[٨١].

ويمكن أن نستنتج أن الرسائل ومن ورائها كتابها هي واجهة الدولة ومنها يتعرف عليها أصدقاؤها وخصومها على حد سواء، وبها تقنعهم بقوتها وتمدنها. ولهذا فستكون الدولة المرابطية في أشد الحاجة إلى كتاب ديوان على مستوى عال لتثبت قوتها بالقلم كما أثبتتها بالسيف. لقد صار المرابطون القوة الأولى في غرب العالم الإسلامي (المغرب والأندلس)، وحصلوا على تفويض من الخلافة العباسية للحكم باسمها مما يعني ارتباطهم بالمشرق أيضا، وبالتالي حاجتهم إلى المراسلة مع كل دول العالم الإسلامي وفهم خطاباتها والرد عليها بخطابات تشرفهم وتبلغ مرادهم. كما كان على الدولة المرابطية مخاطبة الأندلسيين بأسلوب لا يقل قيمة عن أسلوب ملوك الطوائف الذين أسقطتهم[٨٢]. وكان كتاب الأندلس؛ خاصة ممن خدموا ملوك الطوائف (بنو عباد- بنو الأفطس) واكتسبوا التكوين المناسب وخبروا عالم المراسلة الديوانية واكتسبوا تجاربها، المؤهلين للقيام بتلك المهمة الصعبة، ولهذا استدعاهم المرابطون وقربوهم ووضعوا ديوان رسائلهم بعد الاختبار بين أيديهم.

لكن دور هؤلاء الكتاب لا يقتصر على الكتابة، بل هم أيضًا أحسن مصدر لأخبار الأندلس وأسرارها وسير أهلها وطرائق معاملتهم[٨٣]. وتحتفظ المصادر بنموذج لذلك عندما نصح عبد الرحمن بن أسباط يوسف بن تاشفين بالاحتياط لنفسه من غدر الأندلسيين قبل الجواز إلى الأندلس ومطالبة المعتمد بن عباد بالتنازل له عن الجزيرة الخضراء لتكون قاعدته الخلفية[٨٤]. والأكيد أن كل الكتاب أمدوا المرابطين بأخبار أخرى لم تتسرب إلى أصحاب المصادر للطبيعة السرية لعمل الكتاب أو أنهم تغافلوا عن ذكرها. واستخدم المرابطون أيضًا هذه الشخصيات المشهورة عند الأندلسيين لتضمن لهم تبعية باقي الأندلسيين لأن الناس تبع لزعمائهم، وأيضا لإقناع الأندلسيين بأن الدولة دولتهم وهم مواطنون يحظون بالحق في المشاركة في تسييرها وإدارتها[٨٥]. وقد اختاروا أشهرهم، وخضع معظمهم لاختبار أولي في دواوين الولاة بالأندلس قبل الالتحاق بديوان أمير المسلمين بمراكش، كما أنهم حرصوا على حضور ممثلين عن مختلف مناطق البلاد مع تفضيل أبناء الإمارات الأكثر شهرة[٨٦]: إشبيلية وبطليوس والمرية وشقورة/قرطبة. وفي هذا تثبيت لسلطة الدولة واستقرارها في الأندلس.

ونستخلص في الأخير أن توظيف هؤلاء الكتاب كان لضرورات عملية ارتبطت بالحاجة إلى كتاب على مستوى عال من البلاغة والثقافة والخبرة، وضرورات سياسية/إيديولوجية أملتها الرغبة في كسب قلوب الأندلسيين وإقناعهم بالسلطة المرابطية. ولا يختلف حال الفئة الثانية المستخدمة؛ وتضم الفقهاء المستشارين، عن حال سابقيهم، لكنه أكثر أهمية وخطورة. فقد رأينا أعلاه أن المرابطين كانوا يقربون الفقهاء ويفضلونهم ويستشيرونهم في كل أمورهم منذ بداية أمرهم مع عبد الله بن ياسين الفقيه المالكي المدبر والمقرر والمنفذ الذي كان يستشير علماء المصامدة ويغدق عليهم الأموال. ولما استنجد بهم الأندلسيون استفتوا

الفقهاء قبل التدخل في البلاد، واعتمدوا على رأيهم قبل إسقاط ملوك الطوائف، بل ولجأوا إليهم في قضايا كثيرة كما بينا أعلاه.

بناءً على هذا فلجوء المرابطين إلى استشارة هؤلاء الفقهاء الأندلسيين هو استمرار لتقليد راسخ عندهم، لكن الجديد هو أنهم لجأوا إلى شخصيات تملك مؤهلات علمية عالية (تكوين عميق في العلوم الشرعية–القدرة على الفتوى–المعرفة بالفلسفة)، وتتولى مناصب عليا في البلد (قضاء الجماعة–الصلاة–الشورى–الفتوى)، وتحظى بسمعة واسعة في الأندلس والمغرب، بل وفي المشرق، وتنتمي إلى المركز المرجعي للفقه في الأندلس وهي قرطبة التي يتحاكم ملوك الطوائف إلى فقهائها على الرغم من الانقسام السياسي[٨٧]. وكل هذه الخصال تعطي لفتاويهم واستشاراتهم قوة أكبر وضمانة قبول أقوى عند الأندلسيين وغيرهم مما يسهل مرورها.

والفقهاء المستشارون أيضًا من بيوت جاه وسلطة وعلم معروفة عند الأندلسيين الذين يبجلونهم ويلجأون إليهم في قضاء حوائجهم وبلوغ أغراضهم، وتقريب هذه العناصر هو ضمان لتبعية أتباعهم، واحترامهم وتوقيرهم يعني ضمان الدعاية المباشرة وغير المباشرة للسلطة المرابطية في الأندلس. فهم بمثابة عنصر تثبيت للسلطة المرابطية وترسيخها في الأندلس.

تكلم القدامى وبعدهم المحدثون عن خضوع المرابطين للفقهاء واستنامتهم إلى آرائهم وتوجيهاتهم، لكن أليس في الأمر تجنيا عليهم وتسرعا في الحكم؟ يظهر لنا أن المرابطين كانوا أذكى مما تصوره من انتقصوهم بهذا الأمر، إذ يظهر أنهم قد فهموا عقلية عصرهم بشكل جيد؛ وهي العقلية التي تعطي لعلماء الشرع مكانة عالية وتخضع لتوجيهاتهم وآرائهم وتعتبرها أوامر إلهية، لذلك قرروا؛ عن وعي أو بدونه، استغلال هذه الميزة لصالحهم بتمرير مشاريعهم بسهولة عن طريق الفقهاء. فكانوا يلجؤون بطريقة ما إلى تقديم اقتراحات ويطلبون فتوى الفقهاء فيها، وبعد صدورها تظهر وكأنها نابعة من الشرع وخاضعة لحكمه. ويمكن ملاحظة ذلك في مجموعة من المقترحات المشهورة (العفو عن أهل قرطبة–إجلاء المعاهدين–عزل أبي طاهر تميم–تسوير مراكش–العفو عن يهود اليسانة–دخول الأندلس–التبعية للخلافة العباسية...).

لقد كان هناك تواطؤ خفي وصامت بين الفقهاء والمرابطين استغله كل طرف لصالحه، حيث ضمن المرابطون خضوع البلاد واستقرارها وحصل الفقهاء على الجاه والتبجيل والمال.

كانت استشارة الفقهاء الأندلسيين وسيلة لكسب فتاوي قوية ومتينة وضامنة للأجماع، ولتثبيت حكم المرابطين بالأندلس، ولضمان خضوع السكان واستقرار الأحوال.

خاتمةٌ

استخدم المرابطون كتابا وفقهاء مستشارين أندلسيين استجابة لحاجة ظاهرة وملحة تخص سير الدولة اليومي، والتواصل مع الرعايا والرؤساء والجيران والأقران، والبث في القضايا الطارئة بشكل موافق للشرع ومقنع للخاص والعام داخليا وخارجيا، ومن أجل حاجة خفية تتعلق بالدعاية للحكم المرابطي، وإبراز تمدن الدولة، وإقناع الأندلسيين بشرعية هذا الحكم وبحقهم في الدولة كمواطنين كاملي الحقوق مما سيثبت الأوضاع ويعمم الاستقرار.

الإحالات المرجعية:

(١) حقي محمد، **البربر في الأندلس**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠١٧، ص.٦٨-٧٠ و٤٧-٥٦ و٢٠٢-٢١٠.
(٢) مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق عبد القادر زمامة وسهيل زكار، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص.٣٣ وابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ضبط خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠، ج٦، ص.٢٤٨.
(٣) **الحلل الموشية**، ص.٣٣-٣٤ و٤٥-٤٨.
(٤) نفسه، ص.٤٩-٥٠ وابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص.٢٤٨.
(٥) نفسه، ص.٦٦-٦٨.
(٦) نفسه، ص.٧١ وسعدون عباس نصر الله، **دولة المرابطين في المغرب والأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ص.١٠٦-١٠٨.
(٧) تتبع سعدون تفاصيل ضم المدن والمماليك الأندلسية وحدد التواريخ الدقيقة لذلك ومآل حكامها ودور العامة في سقوطها، المرجع السابق، ص.١١٧-١٣٦.
(٨) نفسه، ص.١٤٠-١٤١.
(٩) ابن القاضي أحمد المكناسي، **جذوة الاقتباس**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٣، ج٢، ص.٤٦١ وسلامة محمد سليمان الهدفي، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، دار الندوة الجديدة، بيروت، ١٩٨٥، ص.١٤٤-١٤٩.
(١٠) نفسه، ص.١١٣.
(١١) نفسه، ص.١٦٧.
(١٢) نفسه، ص.١٦٤ وحسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، درا الفكر العربي، القاهرة، ص.٣٤٢ و٣٤٨ وأشباخ يوسف، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، ترجمة محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٦، ص.٢٣٤-٢٣٥ و٢٣٧.
(١٣) المراكشي عبد الواحد، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩، ص. ١٧٣ و١٩٤.
(١٤) سعدون، المرجع السابق، ص.١٦٧ ومحمود، المرجع السابق، ص.٣٦٠.
(١٥) عنان محمد عبد الله، **دولة الإسلام في الأندلس**، العصر الثالث، عصر المرابطين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠، ص.٥٣.
(١٦) ابن الخطيب لسان الدين، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ج٣، ص.٣٩٩-٤٠٠.
(١٧) نفسه، ص.٤٠٠.
(١٨) عنان، المصدر السابق، ق٣، ص.٥٣.
(١٩) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج٣، ص.٤٠٠.
(٢٠) شوقي ضيف، **عصر الدويلات والإمارات بالأندلس**، دار المعارف، القاهرة، ص.٤٠٥-٤٠٦ وسعدون، المرجع السابق، ص.١٦٩ وابن خاقان الفتح، **قلائد العقيان**، تحقيق حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٧٩، ص.٣٠٥ وابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣، ج٤، ص.٦٠ وعنان، المرجع السابق، ق٣، ص.٥٣ ودندش عصمت عبد اللطيف، **أضواء جديدة عن المرابطين**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١، ص.١٠٥.
(٢١) المراكشي، المصدر السابق، ص.١٩٤.
(٢٢) ابن بشكوال أبو القاسم، **الصلة**، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٠، ج٢، ص.٢٠٤ والعباس بن إبراهيم المراكشي، الأعلام، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٣، ج٤، ص.٤٩.
(٢٣) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص.٤٤٢.
(٢٤) ابن خاقان، قلائد، ص.٣٢٢.
(٢٥) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص.٤٤٢.
(٢٦) نفسه، ص.٤٠٩ وابن بسام الشنتريني، **الذخيرة السنية في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧، ق٣، ٧٨٧ وابن خاقان، قلائد، ص.٥١٩.
(٢٧) ابن بسام، المصدر السابق، ق٣، ص.٧٨٦-٧٨٧.
(٢٨) المراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص.١٧٣.
(٢٩) شوقي، المرجع السابق، ص.٤١٠-٤١١.
(٣٠) ابن عذاري، المصدر السابق، ج٤، ص.٨٧-٨٨.
(٣١) شوقي، المرجع السابق، ص.٤١١.
(٣٢) نفسه، ص.٣٤٤ وابن بسام، المصدر السابق، ق٢، ص.٦٦٨.
(٣٣) نفسه.
(٣٤) المراكشي، المصدر السابق، ص.١٩٤.
(٣٥) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج١، ص.٤٨٩.
(٣٦) ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة (ط.٤)، ج١، ص.٣٧٤.
(٣٧) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج١، ص.٤٨٩.
(٣٨) العباس المراكشي، المصدر السابق، ج٤، ص.٨٢ والمراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص.١٧٣.
(٣٩) ابن سعيد، المصدر السابق، ج١، ص.٢٤١.
(٤٠) المراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص.١٧١.
(٤١) ابن الأثير عز الدين، **الكامل في التاريخ**، مراجعة محمد يوسف الزقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ج٩، ص.٩٩ والنويري، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، تحقيق أبو ضيف مصطفى، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٤، ص.٣٩١.
(٤٢) حركات إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠، ج١، ص.١٧٤.
(٤٣) المرادي الحضرمي، **السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة**، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ص.٢٢
(٤٤) ابن بشكوال، المصدر السابق، ٢، ص.٢٠٤.
(٤٥) نفسه.
(٤٦) عنان، المرجع السابق، ق٣، ص.٧٨-٧٩.
(٤٧) الحلل الموشية، ص.٨١. وتقول الرواية أن فقيها قدم ليوسف كتابا يقول إن اليهود تعهدوا للرسول بالإسلام بعد مرور خمسمائة سنة إذا لم يظهر المسيح الذي يدعون ظهوره.
(٤٨) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص.٢١١-٢١٢ والنباهي، **تاريخ قضاة الأندلس**، تحقيق لجنة إحياء التراث، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣، ص.٩٨ والعباس المراكشي، المصدر السابق، ج٤، ص.٤٤ و٥٥٥.
(٤٩) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص.٢١٢-٢١٣ والنباهي، المصدر السابق، ص.٩٨.
(٥٠) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣، السفر ٦، ص.٣٠٦-٣٠٨.
(٥١) النباهي، المصدر السابق، ص.٩٩ والعباس المراكشي، المصدر السابق، ج٤، ص.٥٥-٥٦ **والحلل الموشية**، ص.٩٠.

(٥٢) العباس المراكشي، ج٤، ص.٥٥.
(٥٣) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص.٢١٣ والنباهي، المصدر السابق، ص.٩٩.
(٥٤) ابن خاقان، **مطمح الأنفس**، تحقيق محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣، ص.٢٩٧-٢٩٨ وقلائد، ج٢، ص.٦٩٢ وابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص.٢٢٧ والنباهي، المصدر السابق، ص.١٠٥.
(٥٥) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص.٢٢٨ والنباهي، المصدر السابق، ص.١٠٦ والعباس المراكشي، المصدر السابق، ج٤، ص.١٠٠.
(٥٦) نفسه، ص.٢٢٧ ونفسه، ص.١٠٥ ونفسه، ج٤، ص.٩٥.
(٥٧) نفسه، ص.٢٢٨ ونفسه ونفسه.
(٥٨) نفسه ونفسه ونفسه وابن سعيد، المصدر السابق، ج١، ص.٢٥٥.
(٥٩) العباس المراكشي، المصدر السابق، ج٤، ص.٩٦.
(٦٠) نفسه، ص.٩٧-٩٨ وابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص.٢٢٨ والنباهي، المصدر السابق، ص.١٠٥-١٠٦.
(٦١) نفسه، ص.٩٦. ونفسه ونفسه.
(٦٢) نفسه، ص.١٠٠. ونفسه ونفسه، ص.١٠٦.
(٦٣) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص.٢٥٠.
(٦٤) النويري، المصدر السابق،١٩٨٤، ص.٣٩٠.
(٦٥) عنان، المرجع السابق، ق٣، ص.٤١ والعبادي، **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص.١٠١-١٠٢ وسعدون، المرجع السابق، ص.١٥٦.
(٦٦) الكتاني محمد عبد الحي، **نظام الحكومة النبوية**، تحقيق عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت (ط.٢)، ص.٨٥.
(٦٧) أعراب سعيد، **مع أبي بكر بن العربي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧، ص.٥٢.
(٦٨) نفسه، ص.١٩١-١٩٢.
(٦٩) ابن خاقان، مطمح، ص.٢٩٨.
(٧٠) أعراب، المرجع السابق، ص.٣٧.
(٧١) نفسه، ص.٥٨-٧٠.
(٧٢) النباهي، المصدر السابق، ص.١٠٦.
(٧٣) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج٢، ص.٢٦١-٢٦٢.
(٧٤) المقري، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨، ج٣، ص.٤٧٩.
(٧٥) نفسه.
(٧٦) الحلل الموشية، ص.١٠١.
(٧٧) **عبد الحميد بن يحيى** فارسي الأصل عربي الولاء، نشأ في الأنبار أو الشام، وعمل في ديوان الرسائل في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، ورافق مروان بن محمد في ولايته في أرمينيا وأذربجان، ثم صار كاتبه الأول لما تولى الخلافة. وقتل مع خليفته لما استولى العباسيون على السلطة.
(٧٨) ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص.٣٠٨ والجهشياري محمد بن عبدوس، **الوزراء الكتاب**، تحقيق إبراهيم الأبياري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨، ص.٧٤.
(٧٩) نفسه، ص.٣٠٨-٣٠٩ ونفسه، ص.٧٤-٧٥.
(٨٠) نفسه، ص.٣٠٧
(٨١) المرادي الحضرمي، المصدر السابق، ص.٣٣.
(٨٢) عنان، المرجع السابق، ق٣، ص.٥٤ وحسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص.٣٦٠.
(٨٣) يقول إبراهيم حركات عن ذلك: "إن اختيار هذه الشخصيات كان يهدف إلى الاسترشاد بخبرتها في سياسة الأندلس، وخاصةً لأن أغلبهم إن لم نقل كلهم سبق لهم أن عملوا إلى جانب ملوك الطوائف، وعرفوا من خفايا الأحوال بالأندلس ما كان يجهله المرابطون"، **المغرب عبر التاريخ**، ج١، ص.١٩٠.
(٨٤) الحلل الموشية، ص.٤٩.
(٨٥) سعدون، مرابطون، ص.١٦٨-١٦٩.
(٨٦) قد يكون للصدفة دور في ذلك، لكننا لا نستبعد مكر السياسة.
(٨٧) لما اتهم عبد الله بن حاتم الطليطلي بالتجديف في منتصف القرن (١١/٥٥م) وسجلت الشهادات عليه، وأصدرت مدن أندلسية عدة رأيها في موضوعها، أرسل قاضي طليطلة بني ذي النون الحكم الصادر ضده ورأي باقي المدن لتسجل في قرطبة بني جهور حتى تكسب المصداقية ويلتزم بها الجميع. وفي هذا دليل على حفاظ قرطبة على صدارة القضاء حتى في ظل الانقسام الطائفي. انظر محمد حقي، **التجديف في الأندلس**. مجتمع يحمي مقدساته، ضمن كتاب **"الأزمات والهشاشة بالمغرب"**، تنسيق مصطفى نشاط وآخرون، مطابع الرباط نت، الرباط، ٢٠١٩، ص.٩١-٩٢.

مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

الزمن الأسطوري عبر تاريخ المغرب الأقصى
أسطورة "تاسليت – أنزار" أنموذجًا


د. حميد اجميلي
أستاذ التعليم العالي
كلية العلوم الإنسانية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية


هشام فنكاشي
باحث سلك الدكتوراه تاريخ العصر وسيط
كلية العلوم الإنسانية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخَّص

عرفت الحضارة المغربية عبر تاريخها العريق على غرار باقي الحضارات الإنسانية، مجموعة من الأساطير امتزج فيها ما هو وثني بما هو ديني بما هو قدسي، تعكس نظرة الإنسان للكون المحيط به؛ في محاولة منه لضمان البقاء والاستمرار، وتأمين الحماية له من كل ما يعترضه من أخطار؛ كصراعه مع الحيوانات الضارية، والكوارث الطبيعية، ومن كل مجهول يهدد سلامته وبقاءه على وجه الأرض. سنتناول في هذا البحث أسطورة "تاسليت أنزار" أو "عروس المطر" والطقس المرتبط بها "تاغنجا"؛ والذي يهدف إلى استدرار المطر في زمن الجفاف والمجاعات. حيث سنقوم بدراسة الطقس في الزمن الممتد لتاريخ المغرب، من العصر القديم إلى غاية الزمن الراهن، وتحليله من الجانب الكرونولوجي، بدءًا من عرض الأسطورة الأصلية للطقس، وزمن تأسيسها؛ والتطرق لطقوس "تاغنجا"، بالعديد من مناطق المغرب الأقصى، عبر أزمنة مختلفة، ورصد أوجه التشابه والاختلاف بينها، ورصد مدى حفاظها على النواة الأصلية التي تأسس عليها. ونختم المقال بالكشف على مدى قدرة طقس "تاغنجا" على التكيف مع الدين الإسلامي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٣١ ديسمبر ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٢٤ يناير ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الزمن الأسطوري؛ تاغنجا؛ أنزار؛ الاستثارة الجنسية؛ الزمن الممتد؛ الزمن الأول

معرِّف الوثيقة الرقمي 10.21608/KAN.2024.353619 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حميد اجميلي، هشام فنكاشي، **"الزمن الأسطوري عبر تاريخ المغرب الأقصى: أسطورة "تاسليت – أنزار" أنموذجًا".**- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ٤١ – ٤٨.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: hicham.fangachi@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقَدِّمَةُ

الأسطورة جنس إبداع أدبي شفهي مجهول المؤلف، أبدعها خيال الشعب وظلت تتناقل وتتطور على شفاه الناس ومخيلتهم عبر القرون. ولقد ارتبطت الأسطورة دائمًا ببداية الإنسانية وبطفولة العقل البشري، حيث مثلت لدى كل الشعوب سعيًا فكريًا بدائيًا لتفسير ظواهر الطبيعة الغامضة. ولذلك اختلفت أساطير البشرية وتباين مستواها ومحتواها. فكانت أكثر تطورًا لدى الشعوب المتحضرة مثل الإغريق، بينما نجدها أقل تطورًا لدى الشعوب العربية والإسلامية لأسباب عدة، أهمها النظرة السلبية للدين إليها. وتحكي الأسطورة تاريخًا مقدسًا، أي حدثًا بدئيًا حدث في بداية الزمن، فشخصيات الأسطورة ليست كائنات بشرية: إنها آلهة أو أبطال محضرة. فالأسطورة اذن هي التاريخ لما سبق حصوله في زمن الأصول، وقصة ما فعلته الآلهة أو أنصاف الآلهة في الزمن الأول؛ فهي تعلن عن ظهور وضع كوني جديد أو حدث بدئي.

يهدف هذا البحث إلى دراسة أسطورة "تاسيلت أنزار" والطقس المرتبط بها، والذي يسعى إلى استدرار المطر في زمن القحط والمجاعات. لن نقتصر في تناولنا في هذا المقال على عرض طقس "تاغنجا" فقط، فهناك العديد من الدراسات التي تطرقت لهذا الطقس كما سنبين لا حقًا، لكننا سنحاول تتبع هذا الطقس عبر الزمن الممتد لتاريخ المغرب الأقصى، ورصد مدى قدرته على الاستمرارية والوفاء لأسطورته الأصلية. ومن بين المراجع والمقالات التي تطرقت لطقس "تاغنجا" كتاب «المناخ والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط: إسهام في دراسة الطقوس والذهنيات» لعبد الهادي البياض. والبحث الموسوم بعنوان: «"تاغنجا" أو "تيسيلت أنزار"- طقوس الاستمطار في المجتمع المغربي» للباحث هشام كموني، بحث ضمن مؤلف جماعي بعنوان: «الطقوس والممارسات الفلاحية: إثنوغرافيات التراث اللامادي». كما ثم التعريف بطقس "تاغنجا" بموسوعة معلمة المغرب الأقصى، ضمن مقال للباحث عبد العزيز بلفايدة.

ثم التطرق في هذه الأبحاث وغيرها وكما سبقت الإشارة، إلى وصف طقس "تاغنجا" على اعتباره من الطقوس الفلاحية التي تؤدى في أوقات القحط، طلبا للغيث. سنحاول في هذا البحث دراسة هذا الميث في الزمن الطويل؛ بدءًا من العصر القديم إلى غاية الزمن الراهن، ورصد مدى قدرته على الاستمرار، محاولين الإجابة على التساؤلات التالية:

هل استطاع طقس "تاغنجا" الحفاظ على مكوناته الرئيسية، عبر تاريخ المغرب الأقصى الطويل؟

هل يمكننا الحديث عن زمن أسطوري ممتد، بدءا من زمن الأصول إلى غاية الزمن الراهن؟

أولاً: الميث المرتبط بطقس "تاغنجا"

من الأكيد والثابت أن للموريين[١] مثل الشعوب البدائية، معتقداتهم الدينية والوثنية الخاصة بهم، فقد كانت طقوسهم السحرية تعبر عن تفكيرهم الأسطوري الذي ارتبط بالطبيعة ارتباطا وثيقا، يقوم على الإحيائية والأنسنة والتجسيد. بمعنى أن الإنسان الأمازيغي أسطوري منذ تواجده على الأرض[٢]. ويفترض فهم وتفكيك أي فعل طقوسي شرط العودة إلى سنده التاريخي وحكايته التأسيسية التي عملت على إيجاده وتكراره واستمراره، بما هي قواعد أساسية في المتن الطقوسي، فالطقس ليس خارج السياق الذي أنتجه. فما الحكاية والميثولوجيا المؤسسة لطقس تاغنجا؟ وما الداعي المجتمعي نحو ايجاده في الزمن الفلاحي؟

يقول مدون نص الأسطورة بقبيلة آيت زيكي بالقبايل (Genevois)[٣]:

«في قديم الزمان، كان شخص اسمه أنزار، وهو ملك (سيد) المطر، أراد الزواج من فتاة رائعة الجمال تتألق حسنا على الأرض كالقمر في السماء، وكان وجهها ساطعا وثوبها من الحرير المتلألئ، وكان من عادة هذه الفتاة أن تستحم في نهر فضي البريق، وكان ملك المطر كلما هبط إلى الأرض، يدنو منها فتخاف، ثم تعود إلى السماء، لكنه ذات يوم قال لها:

"ها أنا أشق عنان السماء، من أجلك يا نجمة بين النجوم، فامنحيني من الكنز الذي وهبته وإلا حرمتك من الماء". فردت عليه الفتاة :"أتوسل إليك يا ملك المياه، يا

مرصع جبهته بالمرجان إني نذرت نفسي لك، بيد أني أخشى الأقاويل". وبعد سماع هذه العبارات قام من عليها، فأدار خاتمه، فنضب النهر على الفور، وجفت آثار الماء. فأصدرت الفتاة صيحة وتفجرت عيناها بالدموع، فالماء هو روحها، فخلعت ثوبها الحريري وظلت عارية، فخاطبت السماء قائلة: "أنزار يا أنزار، يا زهر السهول، أعد للنهر جريانه، وتعالى خذ بثأرك". في تلك اللحظة بالذات لمحت ملك المطر، وقد عاد بهيئة شرارة برق ضخمة فضم إليه الفتاة، وعاد النهر إلى سابق عهده في الجريان، فاكتست الأرض كلها اخضراراً».

تبرز الأسطورة دور الماء في حياة الفتاة الجميلة "تاسيلت"، والتي تمثل في الميثولجيا الأمازيغية الأرض، وقد اقترنت بالإله "أنزار" وزفت إليه في أبهى حلة، ذلك أن المطر الضروري للخصوبة هو في الميثولوجيا الأمازيغية السائل الناجم عن زواج كوني بين الأرض والسماء ممثلة في ملك المطر[٤]. فالفتاة الجميلة رمز للأرض التي تكتسي جمالها وخضرتها من ماء المطر، فالأسطورة تبرز دور الماء في حياة الأرض، وبدونه تتعرض للعطش وبالتالي للموت المحقق. كما يوجد في العديد من الديانات في آسيا وإفريقيا والأمريكيتين أن الخلق الكوني ينجم من زواج مقدس بين (الإله–السماء) و(الأرض–الأم). ولهذا نجد في العديد من طقوس الزواج إعلان الزوج نفسه أنه السماء و يخاطب زوجته أنها الأرض[٥]. فالأسطورة تروي تاريخًا مقدسًا. أي حادثة أولية أو حكاية ما من صنع الآلهة أو الكائنات الإلهية، حدثت أطوارها في بدء الزمان[٦].

ثانيًا: طقس "تاغنجا" أو "عروس المطر"

بما أن الطقوس عادة ما ترتبط بالأساطير التي تفسرها؛ بل إن الشعيرة(الطقس) ليس إلا احياء للأسطورة، فالطقس هو أسطورة في إطار الحركة كما يرى (Van Der Leew)[٧].سنقوم بعرض بعض نماذج طقس "تاغنجا" في بعض مناطق المغرب، ورصد مدى حفاظ الطقس على مكوناته الرئيسية التي جرت في الزمن الأول.

تنوعت الطقوس السحرية الدينية التي مارسها الموريون، من بينها نجد طقوس استدرار المطر. وهي طقوس كان الإنسان القديم يلجأ إليها، لإرضاء غضب الآلهة لتجنب عقاب عبادها بالجفاف. وكان عليه مقابل تهدئة غضب الآلهة الخروج في جماعات إلى الهواء الطلق للتعبير عن رغبتهم لاستدرار المطر؛[٨] أشهرها وأقدمها طقس "تاغنجا"[٩].

ويتم عن طريق الطواف بـ "عروس المطر"، وهي لا تزيد عن مغرفة – ملعقة كبيرة من الخشب تستعمل في تحريك وغرف الطعام- من خشب تلبس من الخرق والأسمال، إنه تمثيل يقوم على تقديم العروس نفسها لتحبل من المطر "أنزار"[١٠]. وترمز الملعقة للأرض العطشى، وتتم هذه الطقوس على شكل زواج أسطوري بين الأرض والمطر، من أجل الخصوبة وبعث النبات والزرع وقد تصاحب هذه الطقوس ممارسات جنسية فعلية، أي ليلة العروس، على أساس العلاقة التي توجد في كل مكان، بين الجنس والعمل في الأرض، والتأثير المعروف بسحر الحب على الفلاحة[١١]. ويشارك في هذا الطواف النساء والأطفال في جو من الغناء والابتهال وأثناء المسيرة يتم تبليل المغرفة وتتم عملية جمع التبرعات لإقامة مأدبة[١٢]. وتنتهي الطقوس بدعاء لجلب المطر ويتم ذكر اسم الإلاه وحده، والغريب أن اسم الإله يرتبط بشكل غريب مع "تاغنجا"، اسم ألوهية الذي كان يحتل مكانا بارزا في البربرية القديمة[١٣]. ومن طقوس تاغنجا التي أوردها (GENVOIS) اجتماع النساء والأطفال، وهن يحملن ملاعق كبيرة مكسوة بالأقمشة والجلد، على شكل دمية كبيرة، و يرددن أهازيج يطلبن فيها استدرار المطر، ويتم تحضير الطعام عند مزار أو ضريح، ثم تتبع تلك الحفلة بلعبة العصي التي تسمى "شيرة" تجتمع فيها الفتيات اللواتي بلغن سن الزواج حول الفتاة التي تقوم بدور خطيبة أنزار، ثم تنقسمن بعد ذلك إلى مجموعتين، كل واحدة منها ماسكة بعصا وتتقاذفن الكرة حتى تسقط في الحفرة المخصصة لها، وعندئذ تردد الفتاة خطيبة أنزار: " الأرض وأنا زوجتان... تزوجنا رجلا دون أن نراه...". وتدفن الكرة في المكان المخصص لها إلى احتفالات قادمة[١٤]. وفي منطقة الحوز[١٥] يتشارك الرجال والنساء في هذه اللعبة؛ أما في بعض مناطق الشمال الشرقي لجبال الأطلس، تلعب إمرأتين أو ثلاث نساء عاريات، اللعبة

بعيدا عن أعين الرجال؛ وفي منطقة تسول- قبيلة أمازيغية زناتية- بالشمال الغربي لمدينة تازة، تشارك في هذه اللعبة نساء عاريات- دون تحديد عددهن- ويقذفن الكرة بملعقة من خشب(١٦). وقد أشار جوليو إلى الترابط بين لعبة "شيرة" القديمة جدا في شمال إفريقيا، وطقوس استدرار المطر(١٧)؛ ويظهر عنصر التشابه في اشتراك اللعبة وطقس "تاغنجا" في عنصر الاستثارة الجنسية الأنثوية، سواء بتمثيل فتاة لخطيبة أنزار، أو بمشاركة نساء في اللعبة عاريات، كما خلعت "تاسيلت" ثوبها وبقيت عارية، عندما هجرها "أنزار" بعد أن قام بتجفيف مياه النهر.

وهناك طقس جد قصير بمنطقة الغرب عندما لا يبقى متسع من الوقت في فصل الشتاء، تقوم الفتيات بالطواف على المنازل تحملن مغرف مليء بالماء، وهن يرددن:

تاغنجا تاغنجا يا أم الأمل

نرجوا من الله أن يرزقنا بالمطر

فتقوم النساء بسكب بضع قطرات من الزيت في مغرفتهن(١٨). هذا الطقس يحتوي كذلك على سحر تعاطفي من خلال غايته وشكله، فالمغرف التي تكون في وضع دامع تشير إلى رغبتها في سقوط المطر(١٩). وينظم طقس طلب الغيث على الطريقة المحلية "تاغنجا" في قبيلة غجدامة(٢٠)، في فصل الخريف أو الربيع(٢١).وبمنطقة آيت بعمران الواقعة بالجنوب المغربي، يتم صنع عروس بالمغرفة التي تستعمل في تحريك العصيدة، ويقومون بلف حزام أحمر طويل حول الفتاة التي تقوم بحمل المغرف في الليل، وعند الطواف يردد الأطفال الذين يمشون خلف الفتاة: "تاغنجا تاغانجا ياربي عطينا الشتا" فيدخل الموكب إلى المنازل، فيقوم أصحابه برش المغرف والأطفال بالماء(٢٢). وفي منطقة أمزميز(٢٣) تطوف النساء حول الدوار، تحملن مغرف معلقة على قصب ومزينة بقلادة وهن يرددن:"يا ربي عطينا الشتا برحمة مولاي بوشتا"(٢٤)، وتقمن بجمع الدقيق لإعداد وجبة المعروف، وأثناء إعداد الوجبة يحمل "الرما"(٢٥)، بنادقهم لتحفيز السماء على الإمطار، وبعد تناول الوجبة يردد الجميع:"يا ربي اعطينا الشتا"، ويتم تزيين الملعقة كعروس "تاغنجا" وزفها لعريسها "تاسيلت"(٢٦). أما سكان قبائل الأطلس الكبير فتتخذ الطقوس عندهم شكلا مختلفا أثناء إعداد "تاغنجا"، حيت تتولى الإعداد نساء مطلقات أو أرامل، في منزل تعد صاحبته أكثر فضيلة وورعا، وتقمن بإعداد "تاغنجا" على شكل عروس، حيث يتم رسم ملامح الوجه: الفم والأنف والعينين وتزيينه ولفه بغطاء لإضفاء طابع التدين عليها، ومن تم حملها لأضرحة الأولياء وهن يرددن:

"تاغنجا حلات راسها(٢٧)
ياربي بل حراسها(٢٨)
تاغنجا يا مرجا(٢٩)
يا ربي جيب الشتا"(٣٠)

ثم ينضم إلى الموكب مجموعة من الأطفال والنساء الذين يشاركون في الغناء، ويتوجه الموكب إلى منازل الوجهاء لجمع التبرعات، بعدها يبدأ الطواف إلى وقت متأخر من الليل؛ ويمكن أن يتكرر الاحتفال ثلاث ليال متتالية إذا لزم الأمر، ثم تجتمع النساء في المنزل الذي تم فيه إعداد العروس "تاغنجا" لاقتسام العطاءات، لتأخذ المراسيم طابعًا قدسيًا حيث يتم التوجه إلى ضريح ولي صالح، وتوزيع المأدبة وقراءة الفاتحة(٣١). كما أن طقس "تاغنجا" يمارس في المغرب كما يمارس في تونس خاصة في الجنوب، وفي الجزائر وهي تعرف تحت أسماء مختلفة، "تاغنجة"،"عروسة أنزار"، "أم تنبو" أو "أم تنكو"(٣٢).

إن المساهمون في الطقس – بوعي أو بدونه- يصبحون معاصرون للحادث الأسطوري وبعبارة أخرى، يخرجون من زمانهم التاريخي- زمان مكون بجملة أحداث دنيوية- ويعانقون الزمن البدئي، الذي هو دائما نفسه، وينتمي للأزلية. فالزمن الأسطوري هو حاضر أبدي يمكن استعادته إلى ما لا نهاية(٣٣). فعلى قدر تقليد الإنسان الديني للآلهة، فإنه يحيا الزمان الأسطوري، إنه يخرج من الديمومة العادية ليلحق بركب زمان "ثابت"(٣٤).ويلعب الزمن المقدس (يوم الجمعة)(٣٥) دورًا كبيرًا في تنظيم الطقوس والممارسات لما لها من دلالات رمزية دينية قوية، ففي منطقة سكورة بالجنوب الشرقي للمغرب، تبتدئ شعائر "تاغنجا" باستيقاظ النساء في

الساعات الأولى من صباح يوم الجمعة، من أجل إعداد فطور خاص بهذا اليوم، ثم ترتدين اللباس التقليدي المحلي، وتتزين بالحلي الفضية الخاصة بالمناسبات الاحتفالية ، وتضعن مسحوق الكحل في أعينهن[٣٦].إن الزمن المقدس المتمثل في يوم الجمعة، له رمزية خاصة عند المغاربة باعتباره اليوم المبارك وخير الأيام، لذلك فإقامة طقس تاغنجا فيه يحمل أكثر من معنى يضفيه الأفراد في متخيله الجماعي.[٣٧]

كما كانت النساء في بعض مناطق المغرب يستحممن في الماء عاريات، فهي دعوة إلى تخصيب الأرض المجدبة[٣٨]. ففي نواحي أكادير كانت النساء يذهبن في الماضي أثناء الجفاف إلى ضفة واد سوس، وهن يرددن الأهازيج ويتجردن من ثيابهن، ويضلن عاريات، حيث يحاولن استثارة المطر، فهن بذلك يعشن طقسيا الأسطورة، ويكررن فعلاً أسطوريًا قامت به عروس المطر المستحمة في النهر عارية في الأسطورة، حيث أثارت غريزة أنزار الذي أغدق عليها من سائله، واخضرت الأرض، إنهن يتخلصن بالأسطورة المستبطنة، وعن غير وعي، من الزمن الكرونولوجي، ويستعدن الزمن الأسطوري الذي جرى فيه الحدث البدئي: أي الزمن الأسطوري المقدس[٣٩].فالمطر وتخصيب الأرض، هي في تصور الناس أمور مترابطة بالمحاكاة بالرمزية الجنسية[٤٠].

من هنا كانت الأهمية الرئيسة للأساطير في كل الأديان. لأن الأساطير تحكي إشارات الآلهة، وهذه الإشارات تشكل النماذج المثالية لكل النشاطات البشرية. فبمقدار ما يقلد الانسان المتدين آلهته بمقدار ما يعيش في زمن الأصل، الزمن الأسطوري، إنه "يخرج" المدة الدنيوية ليجمع زمنا "جامدًا"، "الأزلية"[٤١].

بما أن أسطورة "تاسيلت أنزار"، اعتنقها جميع الأمازيغ الذين استوطنوا شمال إفريقيا، آثرنا عرض بعض طقوس "تاغنجا" بمناطق الجزائر، والتي تبرز وحدة الطقس بدول المغارب، ومدى قدرته على الصمود؛ ففي تلمسان، وعين صفرا ومازونا، تختار ملعقة من خشب يتم إلباسها بخرق بطريقة يجعل منها كدمية تمثل خطيبة أو عروسة، تسمى "غودنجا"، ويتم تطوافها على مقابر الأولياء المحليين[٤٢]. وفي منطقة تيط بواحة توات، يخرج الناس زمن الجفاف رجال ونساء وأطفالا، يأخذون ملعقة من خشب ويلبسونها ملابس نسائية، تحملها فتاة شابة وهم يرددون: "يا ملعقة يا مراعي ربي فوت- أي أبعد- وقت الحر"[٤٣].

إن تزيين مغرفة "تاغنجا" على شكل عروس ماهي إلا محاكاة للأسطورة بما تتضمنه من إيحاءات جنسية لتحفيز أنزار (رمز الذكورة). فنجد الماء يلعب دورًا أساسيًا كعنصر للذكورة، فالأرض تحيط بها المياه من كل جانب، وكأن البحار والمحيطات تحتضن الأرض وتضاجعها[٤٤]. فاتصال "أنزار" رب المطر "بتاسيلت " المجسدة للأرض المتعطشة للمطر، في طقوس "تاسيلت أونزار/ تاغنجا" والأسطورة المفسرة لها حيث تتوسل عروس أنزار مجسدة في فتاة جميلة (مغرفة ترمز للفتاة) تستحم في واد عارية إلى الملك أنزار رب المطر أن ينزل ليعانقها، ويتدخل لينقذ الأرض والحقول الظمآى ويعيد إليها الحياة والخضرة[٤٥]. ومن بين الملاحظات كذلك حول طقس "تاغنجا"، أن التوجه بالموكب إلى أضرحة الأولياء، وترديد اسم تاغنجا مقرونًا باسم الله "الإله"عند طلب الغيث، جاء مع دخول الإسلام، وذلك لإضفاء طابع ديني على المراسيم[٤٦]؛ خاصةً أن الكرامة الصوفية لعبت دورًا هامًا في تاريخ المغرب الأقصى، ومن بينها كرامة الاستسقاء، فالعديد من كتب المناقب والتراجم، تشير إلى الاستنجاد بالأولياء في عملية الاستمطار، والتوسل بأضرحتهم بعد الممات.

إن احتفاظ طقس "تاغنجا" بنفس مراسيمه، دليل على أن هذا الطقس عرف استمرارية دون انقطاع من العصر القديم إلى الوقت الراهن مرورًا بالعصر الوسيط. فرغم ندرة الإشارات في المصادر الوسيطية[٤٧]، فإن هذا الطقس عرف استمرارية، دليلنا في ذلك استمراره إلى غاية الزمن الراهن. ومن الإشارات القليلة التي تؤكد وجود طقوس وثنية في العصر الوسيط، إنكار الونشريسي على الناس الطواف في الجبال والصحاري والأزقة بالصبيان والنساء والصياح، وقال: "إنه مكروه ومبتدع"[٤٨].

إن عرضنا لبعض الأمثلة من الزمن الراهن لطقس "تاغنجا"، كان نتيجة إيماننا بوحدة الظاهرة عبر التاريخ، وهذا ما عبر عنه الباحث الفرنسي (ريني باسيه René

basset) أن طقس "تاغنجا" حافظ على استمرارية أثر الأسطورة[٤٩]. وتظهر هذه الاستمرارية في المكونات والفاعلين الطقوسيين الذين يتأسس عليهم الطقس، فالنساء والفتيات هن المشاركات في الموكب الاحتفالي والدمية أو المغرفة تزين كما تزين العروس ليلة الزفاف، والحامل لهذه القصبة أو المغرف الكبير هي المرأة، وما يستقبل هذا الموكب هن ربات البيوت اللواتي يقمن برشهن بالماء، فالأهمية الرمزية التي تمثلها المرأة يجعلها فاعلة في تنظيم هذه الطقوس.[٥٠]فإله المطر "أنزار" في الميثولوجيا الأمازيغية لا ينزل المطر كما يشاء أو متى يشاء، بل كلما هاج طلبًا للجنس، فالمطر مني تُمنى من السماء لما يهيج إله المطر تحت دافع الرغبة الجنسية. ولما كان هيجان إله المطر مشروطًا بوجود عروس المطر، فإن تقديم تمثال العروس له يكفي لتهييجه وبالتالي إنزال مطر كثيف، لذلك بات الاستسقاء يمارس وإلى اليوم، بصنع تمثال عروس ترفعه النساء إلى السماء طلبا للغيث في موكب احتفالي[٥١].

ثالثًا: طقس "تاغنجا" ومجيء الإسلام

في أطروحته حول أسلمة المعتقدات القديمة، يرى إدمون دوتي، أن سكان شمال إفريقيا اضطروا مع مجيء الإسلام إلى التحايل من أجل المحافظة على معتقداتهم الأصلية؛ وذلك بتكييف هذه المعتقدات مع مقتضيات الدين الإسلامي الجديد عن طريق مزجها بطقوس وممارسات دينية إسلامية، ذلك أن الإسلام لم يكن بوسعه القضاء على الشعائر السابقة عليه، بل إنها مدمجة في الشعيرة الإسلامية نفسها ومنصهرة فيها أي تمت أسلمتها[٥٢].

فمن خلال الأمثلة التي عرضناها سابقًا، يمكننا القول إن الطقس حافظ على الأساس الذي تأسس عليه والمتمثل في الاستثارة الجنسية، عن طريق حمل قصبة مزينة بالملابس النسائية، ورفعها إلى السماء، أو تمثيل فتاة حقيقية لخطيبة "أنزار"، أو عن طريق تعري النساء. لكن مع دخول الإسلام تمت أسلمته. فحسب إدمون دوتي فمع دخول الإسلام تحولت التعاويذ إلى دعوات وابتهالات، كما أن اللجوء إلى أحد المساجد أو ضريح ولي صالح، يبرز الأهمية الدينية الرمزية التي تمثلها المساجد وأضرحة الأولياء والصلحاء، وبالتالي يكون هذا اللجوء هو استكمال للممارسات الطقوسية القديمة التي تبحث عن الاحتماء بالمقدس والرعاية الإلهية عبر الشعائر الإسلامية[٥٣]. وهو ما عبر عنه الباحث خالد الرامي بعملية أسلمة الموروث الثقافي المائي الأمازيغي، من خلال الاحتفاظ بالشكل وإفراغه من محتواه الوثني ما قبل الإسلامي، وتعويضه بمفاهيم وقيم إسلامية جديدة[٥٤]. ومن أبرز مظاهر هذه الأسلمة، أن الدعاء أثناء الطواف يكون موجها إلى الله الواحد الأحد، لنشر رحمته على عباده؛ كما يرافقه توزيع الصدقات، كنوع من التقرب إلى الله، وتكفيرًا للذنوب، خاصةً أن الوعي الجماعي دائمًا ما يربط الكوارث الطبيعية ومن بينها الجفاف، بكثرة الذنوب والمعاصي. كما أن حرص بعض المناطق على إقامة الطقس يوم الجمعة، من مظاهر أسلمة الطقس.

استطاع طقس "تاغنجا" البقاء والصمود منذ زمن التأسيس التي ظهرت فيه الأسطورة، والتي تعود إلى الفترة القديمة من تاريخ المغرب، مرورًا بالفترة الوسيطية وانتهاء بالزمن الراهن. فقد أجمع كل الباحثين على الوحدة المثيرة لطقس "تاغنجا" بشمال إفريقيا، لأنها ترتبط بنسق رمزي واحد ومتشابه، وتستند إلى خلفية أسطورية قديمة، ورؤية كونية أمازيغية واحدة لعلاقة السماء بالأرض، وهي طقوس تتفق كلها على اضفاء مواصفات العروس على الشخصية المركزية سواء أكانت فتاة أم بديلا لها (المغرفة) بتزيينها بالحلي، وبتشخيصها برسوم إنسانية، وحملها كعروس حقيقية في موكب مناظر لموكب الزفاف الإنساني نحو زوجها أنزار[٥٥]. ورغم تشريع الإسلام لصلاة الاستسقاء، التي يقيمها المسلمون في المساجد طلبا للغيث؛ فطقس "تاغنجا" يقام في نفس الوقت الذي تنظم صلاة الاستسقاء من طرف المسلمين[٥٦]. ورغم الانتشار الهائل للكرامة الصوفية – من بينها كرامة الاستسقاء- في المجتمع المغربي عبر تاريخه الطويل. فإن طقس "تاغنجا" استطاع الصمود والبقاء. فالثقافة الأسطورية ظلت حاضرة رغم حضور الديانات التوحيدية الثلاث في شمال افريقيا[٥٧]. وفي هذا الصدد، يقول: (دوطي Douté): "ففي الحين الذي تتغير

فيه المعتقدات، يظل الطقس باقياً كتلك المحارات المستحجة والرواسب التي نصادفها في كل مكان".(٥٨)

خَاتِمَةٌ

إن النموذج التاريخي المغربي يبقى تاريخًا دينيًا وطقوسيًا رمزيًا بامتياز، محددًا لمختلف السياقات الدالة على حياة وانشغالات الأفراد المعيشية اليومية عبر التاريخ. هذه الطقوس شكلت زمنًا دائريًا، تكشف عن علاقة التكرار والاستمرارية على مستوى بنية الطقس. فطقس "تاغنجا" أعاد إنتاج نفس النسق كلما ترددت كارثة الجفاف. وهو ما يسمح لنا بالقول أن: "الزمن الأسطوري لأسطورة "تاسيلت أنزار" استطاع الصمود والبقاء أمام الزمن الكرونولوجي؛ هذا الزمن –أي الأسطوري–يظهر ويتجدد في زمن القحط والمجاعات عبر جميع حقب تاريخ المغرب؛ فالأمر يتعلق بزمن دائري، يتكرر ويعيد نفسه إلى ما لا نهاية".

الإحالات المرجعية:

(١) سكان المغرب قبل مجيء الإسلام.

(٢) جميل حمداوي، **الديانة عند الأمازيغيين**، شبكة الألوكة، دون تاريخ طبع، ص٣.

(3) Genevois, "**Un rite d'obtention de la pluie: la fiancée d'anzar**", in actes du2éme congrès International d'études des cultures de la méditerranée occidentale II, Algérie 1978, *p-p* (393-401).

(٤) محمد أوسوس، **كوكار في الميثولوجيا الأمازيغية**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة- الرباط، طبعة ٢٠٠٨م، ص ١٢.

(٥) مرسيا الياد، **المقدس والعادي**، ترجمة عادل العوا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة ٢٠٠٩م، ص١٢٦.

(٦) نفسه، ص١٧٤.

(٧) **كوكرا في الميثولوجيا الأمازيغية**، مرجع سابق، ص- ص (١٨-١٧).

(٨) عبد المجيد أمريغ-عبد الهادي فك- نور الدين ازديدات، **المعتقدات الدينية المحلية بالمغرب القديم**، مجلة ليكسوس في التاريخ والعلوم الإنسانية، العدد الحادي عشر، مارس ٢٠١٧م، ص٩.

(٩) عبد الأحد السبتي، **من عام الفيل إلى عام المريكان: الذاكرة الشفوية والتدوين التاريخي**، منشورات المتوسط- إيطاليا، طبعة ٢٠٢٢م، ص١٤٩.

(١٠) كامب غابرييل: **البربر ذاكرة وهوية**، ترجمة، حزل عبد الرحيم، أفريقيا الشرق- المغرب، طبعة ٢٠١٤م، ص٢٤٣.

(١١) مصطفى أعشي: - **الماء في القديم**، ضمن مقالات معلمة المغرب الأقصى، الجزء ٢٠، مطابع سلا ٢٠٠٤م، ص٦٩٢٦. - **أمان**، ضمن المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته، إشراف حمام محمد، الجزء١، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة-الرباط، طبعة ٢٠٠٤م، ص٤٣.

(١٢) عبد العزيز بل الفايدة، **تاغنجة**، ضمن مقالات معلمة المغرب الأقصى، الجزء٦، مطابع سلا ١٩٩٢م، ص٢٠٧٣.

(13) LAOUST Emile **Mots et choses berbères**, Librairie maritime et coloniale, Paris, 1920 , p20٥.

(14) **Un rite d'obtention de la pluie: la fiancée d'anzar**, Op.Cit *p-p* (393-401).

(١٥) يقع إقليم الحوز جنوب غربي المغرب، تبلغ مساحته حوالي ٦٢٠٠ كيلومتر مربع، ويضم نحو أربعين بلدة ومدينة، تغلب الجبال على تضاريسه، إذ تشكل ثلاثة أرباع مساحته، وفيه توجد أعلى قمة جبلية في المغرب، وهي جبل توبقال الذي يبلغ ارتفاعه ٤١٦٥ متر فوق سطح البحر.

(١٦) Léonce. JOLEAUD, **Gravures rupestres et rites de l'eau en Afrique du Nord.** Rôle des Bovins, des Ovins et des caprins dans la magie berbère préhistorique et Actuelle, journale des africanistes, T, III, Fasciule I, 1933,24١-242.

(17) Ibid, p244

(18) **Mots et choses berbères**, Op.Cit,p 205.

(19) Ibid

(٢٠) قبيلة أمازيغية من قبائل الأطلس الكبير الشرقي.
(٢١) **من عام الفيل إلى عام المريكان: الذاكرة الشفوية والتدوين التاريخي**، مرجع سابق، ص٧٩.
(22) **Mots et choses berbères**, Op.Cit,p, ٢٠٦.
(٢٣) مدينة صغيرة، تابعة إداريًا لإقليم الحوز. تتميز بطبيعتها الخضراء، وبجبالها العالية التي تمتد من سلسلة جبال الأطلس الكبير، والتي تعطي هذه المدينة الصغيرة جمالاً ورونقًا منذ القديم. وتعتبر هذه المدينة من أقدم المدن المغربية حيث شهدت استقرار مجموعة من القبائل والأجناس المختلفة من مسيحيين ويهود استقروا بها وزاولوا مجموعة من الحرف والمهن التي جلبوها إلى المنطقة.
(٢٤) هو محمد بن موسى بن عبد الله الشهير بمولاي بوشتى الخمار، وعن سبب اشتهاره بهذا اللقب، أن الناس استسقوا به فنزل الغيث بكرامته، فأطلقوا عليه لقب أبو الشتاء أي ولي المطر، وكانت تلك عادة المغاربة يكنون كل واحد بما اشتهر به من علامة أو فعل أو غيره.
(٢٥) **الرما**: مجموعة غنائية شعبية من فنون التراث الشعبي المغربي، ظهر هذا الفن من عهود خلت، وكلمة "الرما" مشتقة من الرماية بالبندقية؛ إلى درجة يمكن القول إن أفراد المجموعة هم في الأصل رماة؛ كان همهم الأساسي هو التدريب على الرماية بالبندقية والاستعداد الدائم للدفاع العسكري.
(26) **Mots et choses berbères**: Op.Cit, p206.
(٢٧) حلات رأسها: أطلقت شعرها.
(٢٨) بل حراسها: بلل الذين يحرسونها، وهي دعوة لتبليل ثياب الحاضرين بمياه المطر.
(٢٩) المرجة: هي البحيرة الصغيرة التي تجتمع فيها مياه المطر.
(٣٠) جيب الشتا: امنحنا المطر.
(31) **Mots et choses berbères**: Op.Cit، p20٧
(٣٢) **تاغنجة**، مقال سابق، ص٢٠٧٣.
(٣٣) مرسيا الياد، **المقدس والمدنس**، ترجمة عبد الهادي عباس المحامي، الناشر دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، ص٧٠.
(٣٤) **المقدس والعادي**، مرجع سابق، ص١٣٦.
(٣٥) عند القزويني **يوم الجمعة**: عيد الملة الحنيفة وسيد الأيام، قال رسول الله (ﷺ): "خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أسكن الجنة، وفيه أهبط منها، وفيه تاب الله عليه، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه الله إياه"/ -**من عام الفيل**، مرجع سابق، ص١١٠-١١١.
(٣٦) حنان حمودا، **الماء وصناعة المقدس**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى ٢٠٢١م، ص٨٣.
(٣٧) هشام كموني، **تاغنجا أو "تيسليت أنزار"- طقوس الاستمطار في المجتمع المغربي**، مقال ضمن مؤلف جماعي، **الطقوس والممارسات الفلاحية: إثنوغرافيات التراث اللامادي**، تنسيق عبد الكريم مرزوق وعبد الرحيم العطري، منشورات جامعة الأخوين إفران، ومؤسسة مقاربات، فاس، الطبعة الأولى ٢٠٢٢م، ص٥٥.
(٣٨) **البربر ذاكرة وهوية**، مرجع سابق، ص٢٤٣.
(٣٩) محمد أوسوس، **دراسات في الفكر الميثي الأمازيغي**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الدراسات والأبحاث-٦-مطبعة المعارف الجديدة-الرباط، طبعة ٢٠٠٧م، ص١٦.
(٤٠) **البربر ذاكرة وهوية**، مرجع سابق، نفسه، ص٢٤٤.
(٤١) **المقدس والمدنس**، مرجع سابق، ص٨٢.
(٤٢) روني باصي، **أبحاث في دين الأمازيغ**، ترجمة وتقديم، حمو بوشخار، الناشر، دفاتر وجهة نظر، مطبعة النجاح، الجديدة، الطبعة الأولى ٢٠١٢م، ص 49.
(٤٣) نفسه، ص٥٠.
(٤٤) **الماء في القديم**، مقال سابق، ص٦٩٢٥.
(٤٥) **دراسات في الفكر الميثي الأمازيغي**، مرجع سابق، ص١٦٢.
(46) **Mots et choses berbères, Op.cit**, p210.
(٤٧) يمككنا تفسير ندرة الإشارات لطقس تاغنجا في المصادر الوسيطية، أن هذه الأخيرة اهتمت بالحدث العسكري والسياسي على حساب ما هو ذهني واجتماعي؛ إضافة لظهور ظاهرة التصوف وانتشارها في هذه الحقبة، وما ارتبط بها من كرامات خاصة كرامة الاستسقاء لدى الأولياء؛ لهذا نجد اهتمام كتب المناقب بكرامة الاستسقاء، وتهميش ما له ارتباط بطقوس وثنية تعود لفترة ما قبل مجيء الإسلام.
(٤٨) الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب**، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف حجي محمد، المجلد ١، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية للمملكة المغربية، طبعة١٩٨١م، ص١٦٤.
(٤٩) حنان حمودا، **الماء كمنشط أنثربولوجي لإنتاج الطقوس بواحة زكورة جنوب المغرب**، مجلة إضافات، العددان ٣٣-٣٤، شتاء- ربيع ٢٠١٦م، ص١٣٤.
(٥٠) **تاغنجا أو "تيسليت أنزار"- طقوس الاستمطار في المجتمع المغربي**، مقال سابق، ص-ص٤٩-٥٠.
(٥١) نفسه، ص- ص٤٤-٤٥.
(٥٢) إدمون دوتي، **السحر والدين في شمال إفريقيا**، ترجمة، فريد الزاهي، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الطبعة الثالثة، ٢٠١٩م ص١٤.
(٥٣) نفسه، ص ٣٢٢-٣٢٣.
(٥٤) خالد الرامي، **النظام الأصيل لتوزيع الماء بمدينة تطوان ١٨٦٢-١٩١٣**، منشورات جمعية تطوان أسمير، تطوان، ٢٠٠٨م، ص ٣٢.
(٥٥) **دراسات في الفكر الميثي الأمازيغي**، مرجع سابق، ص١٧.
(٥٦) محمد الأمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر**، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل وأطروحات بالرباط رقم١٨، طبعة ١٩٩٢م، ص٣٥١.
(٥٧) **كوكرا في الميثولوجيا الأمازيغية**، مرجع سابق، ص٢١.
(٥٨) إدموند دوطي: **السحر والدين في أفريقيا الشمالية**، ترجمة: فريد الزاهي، منشورات مرسم، مطبعة برقراق الرباط، ٢٠٠٨م، ص٤.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

الفكر المالي
عند أبي حمّو موسى الثاني (ت. ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م)
من خلال واسطة السلوك في سياسة الملوك



د. طاهري أمحمد

دكتوراه في التاريخ الوسيط
جامعة البليدة (٢) لونيسي علي
الجمهورية الجزائرية

مُلَخَّصْ

إنّ مسعى هذه الدراسة هو محاولة منّا للتعرف على أهم الأفكار والنّظريات المالية التي أشار لها أبو حمّو في كتابه واسطة السلوك في سياسة الملوك كإشكالية رئيسة نحاول الإجابة عنها، وذلك بالتركيز على مفهوم المال عند السلطان أبي حمّو الثاني ومحاولة فهم منظور الرعية والسلطة للجباية المالية لتوضيح علاقة الحاكم بالمحكوم من جانبها المالي، كما سعينا إلى تبيان طرق تحقيق العدالة الجبائية في المجتمع الزّياني كآلية فعّالة في عمليات التحصيل والنّفقة، مع توضيح لطبيعة النّظام المالي الزّياني والإدارة المكلّفة به لتحصيل الإيرادات وتوجيه النّفقات. لذا فقد تطلّبت هذه الدّراسة منهجًا تاريخيًا يقوم على جمع المادة التاريخية وإخضاعها للتحليل والاستنتاج لما اشتمل عليه كتاب الواسطة من أفكار متعددة خاصّة في شقّها الاقتصادي. لنؤكّد في النهاية على أهمية المال في الفكر الزّياني. لذا كان كتاب الواسطة أهمّها من الناحية النّظرية والعملية، حيث حرص عليه السلطان أبي حمّو على تأليفه ضمانًا لاستمرار دولته، فكان جمع الإيرادات يقابله نوعٌ من القسوة واللّين مع توظيف للعدالة الجبائية من خلال مجموعة من القواعد في الجباية والنّفقة، وهو ما أفضى إلى تنوعٍ واضحٍ في الإيرادات وضبطٍ دقيقٍ للنّفقات، كان له الأثر الواسع في تمتين العلاقة بين السلطة والرعية وتطور المجتمع الزّياني في مختلف المجالات خاصّة الاقتصادية والاجتماعية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٦	يناير	٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر:	٢٥	فبراير	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

أبو حمّو الثاني؛ واسطة السلوك؛ بنو زيان؛ النظام المالي؛ الإدارة الجبائية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.353896 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

طاهري أمحمد, "الفكر المالي عند أبي حمّو موسى الثاني (ت. ٧٩١هـ/١٣٨٨م) من خلال واسطة السلوك في سياسة الملوك".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ٤٩ – ٦٢.

Corresponding author: tahrimhamed1981pr@yahoo.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

حظي كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك للسلطان الزّياني أبي حمّو موسى الثاني بمكانة هامّة وسط المؤلّفات التي اهتمت بالسّياسة الشّرعيّة في العصر الوسيط لكون مادته العلمية هي خلاصةُ أفكاره وتجاربه الشّخصية التي حاول تطبيقها على أرض الواقع. لذا فقد جاء هذا الكتاب شاملاً لعدد كبير من الإرشادات والأوامر والنواهي لولده أبي تاشفين عبد الرحمن الثاني (٧٩١-٧٩٥هـ/١٣٨٨-١٣٩٢م) والتي تنوعت ما بين النّصائح السّياسية والخلقية والدّينية والسلوكية والحربية والنّفسية والاقتصادية، ما يدل على رغبته في تحقيق مشروعٍ كاملٍ ومتجانسٍ هدفه الحفاظ على كيان الدّولة لمدّة زمنيةٍ طويلةٍ في ظلّ الصراع السّياسي والاقتصادي الذي عرفه المغرب الأوسط في العصر الوسيط.

ولمّا كان الاقتصاد هو عصب الدّولة وشريانها الأساسي، فقد اشتمل الكتاب على عدد لا بأس به من النصائح الاقتصادية خاصّة في جانبها المالي، ما يدفع الباحث للتوقف عندها نظرًا لأهميتها في التّاريخ الاقتصادي لبني زيان، ولفهم المسار العام للسّياسة المالية[١] لهؤلاء السلاطين خاصّة في زمن السلطان أبي حمّو موسى الثاني.

على الرغم من أهمية الموضوع الذي يرتبط بالتّاريخ الاقتصادي الزّياني في شقّه المالي، فإنّنا نعتقد أنّ هذا الحقل الواسع من الدّراسات لايزال يحتاج في نظرنا إلى المزيد من البحث والدّراسة، نظرا لما يشتمل عليه الكتاب من نظريات وأفكار اقتصادية هامّة خاصّة في جانبها المالي.

ولا ندّعي السبق في عملنا هذا، بقدر ما نحاول دراسة الجانب المالي في شقّه النظري بشكل من التركيز والإلمام، فجاء عملنا تتمّة لما سبقه من دراسات في هذا المجال حيث كان للبعض منها مساهمة في ذلك، وهنا نخصّ بالذّكر ما قام به الباحث عبد القادر طويلب كدراسة قيّمة للسّياسة المالية الزّيانية من خلال كتاب واسطة السلوك لأبي حمّو موسى الزّياني[٢] بين التنظير والواقع[٣]، وما قدّمته الباحثة دحماني سهام في إشارتها للعديد من مضامين الكتاب ضمن دراستها الموسومة بالنظام الضريبي للدّولة الزيانية[٤]، والدّراسة التي قدّمها الباحث حسين تواتي حول حكامة التسيير في الدولة الزيانية في المجالين السياسي والاقتصادي من خلال أنموذجي يغمراسن بن زيان وأبي حمّو موسى الثاني، والتي وظّف فيها مادة الكتاب في مواضع عدّة[٥].

إيمانا منّا بأهمية هذه المظان في الكتابة التّاريخية خاصّة ما تعلّق بالفكر المالي في العصر الوسيط[٦]، هو ما دفعنا لتتبّع هذه النّظريات والأفكار الاقتصادية في جانبها المالي بالبحث والتحليل، لتبيان فاعلية الفكر المالي الزّياني وقدرته على خلق الموازنة العامّة بين الإيرادات والنّفقات التي لطالما راودت حكّام العصر الوسيط للنهوض باقتصاد دولهم وتحقيق الرفاهية لمجتمعاتهم، متّبعين في ذلك منهجا تاريخيا يقوم على جمع المادة التاريخية مع إخضاعها للتحليل والاستنتاج للوقوف على أهم الأفكار في جانبها المالي والتي نوّه لها أبو حمّو موسى الثاني في كتابه واسطة السلوك في سياسة الملوك.

انطلاقًا من هذه الملاحظات، فإنّ عملنا هذا نسعى من خلاله تعقب استشكال رئيسي يبحث مكنونه في: طبيعة الفكر المالي عند السلطان أبي حمّو موسى الثاني، وما هي أهم النظريات والأفكار والإشارات ذات الطابع المالي التي نوّه لها في مؤلّفه واسطة السلوك في سياسة الملوك؟

وللتفصيل في هذا الطرح فقد حاولنا الإجابة عن التساؤلات التالية: هل كان للحياة العلمية للسلطان أبي حمّو أثر في بلورة فكره المالي؟ كيف ينظر السلطان أبو حمّو للمال والجباية؟ هل استطاع تحقيق العدالة الجبائية؟ ما طبيعة النظام المالي الزّياني؟ ماهي أهم الإيرادات والنّفقات التي ركّز عليها كتاب واسطة السلوك؟

أولاً: حياة أبي حمّو ومكانته العلمية

يُعَدّ أبو حمّو موسى الثاني من أبرز سلاطين الدّولة الزّيانية حيث عرفت الدّولة زمنه أزهى عصورها من الناحية الثقافية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية،

نظرًا لتكوينه العلمي الذي جعل منه شخصيةً مهمّةً قادرةً على القيادة بما تمتلكه من فكرٍ ثاقبٍ وقُدرةٍ في إدارة الأمور.

يتّصل نسب هذا الأخير بيوسف بن عبد الرحمان بن يحي بن يغمراسن بن زيان بن ثابت(٧)، حيث دام حكمه للدّولة أزيد من ثلاثين سنةً(٧٦٠-٧٩١هـ/١٣٥٩-١٣٨٩م) بعدما قوّض خصومه من القبائل المعادية خاصّة من بني مرين(٨).

ولد أبو حمو موسى الثاني بمدينة غرناطة الأندلسية سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م إلاّ أنّه نشأ بتلمسان التي انتهل منها علومه الأولى من القرآن والسنّة واللّغة، ثمّ ارتحل إلى فاس (٧٤٥-٧٥٠هـ/١٣٤٤-١٣٤٩م) التي نمّت قوته العلمية مُحتذيًا بسيرة الأوائل من العلماء في التّحصيل والزّهد بالدّنيا، كما كانت له رحلةٌ إلى تونس الحفصية. ولعلّ هذه الرحلات مكّنته من الإعداد الفكري والنّفسي لتولي القيادة السّياسية والتي لا شك وأنّها انعكست على مُؤَلَّفه واسطة السلوك في سياسة الملوك(٩). لم يترك لنا أبو حمّو موسى الثاني مؤلّفاتٍ عديدة ماعدا بعض القصائد الشّعرية الأدبية التي قاربت الألف بيت، شملت الفخر والحماسة والرّثاء ومدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، جمعها الأستاذ عبد الحميد حاجيات في مؤلّفه الموسوم بـ: "أبو حمو الثاني حياته وآثاره" وكلّها تعكس ميله لآداب الملوك والسلاطين التي كانت تقام عادةً بقصر المشور أيّام الاحتفالات بالمولد النّبوي الشّريف(١٠).

من أهم مؤلّفاته هو كتابه "واسطة السلوك في سياسية الملوك" الذي يعد من أبرز الكتب التي تصب في ميدان السّياسة الشّرعية والوصايا السلطانية حيث يتكون من أربعة أبوابٍ تشمل: الوصايا والآداب، قواعد الملك، أوصاف نظام الملك وكماله، الفراسة وهي خاتمة الكتاب(١١).

استلهم أبو حمّو الثاني مادة الكتاب من التآليف السّابقة التي اختصّت بالسّياسة الشّرعية للحكّام، وهنا نخصّ بالذّكر كتاب "سلوان المطاع في عدوان الأتباع" لصاحبه محمّد بن عبد الله بن محمّد بن ظفر(٤٩٧-٥٦٥هـ/١١٠٣-١١٦٩م) فكانت مادة الكتاب خليطًا من تجاربه الشّخصية وعددٍ كبيرٍ من النّصائح السّياسية والاقتصادية والاجتماعية والحربية والنّفسية، حيث فرغ من تأليفه في النصف الثاني من القرن٨هـ/١٤م بالمغرب بعد أن استردّ حكمه من خصومه(١٢).

من هنا، فإنّ مكنون الكتاب وجوهره به العديد من الأفكار النّظرية والعملية التي تستدعي التأمّل والتحليل خاصّة في المجال الاقتصادي ذكر أغلبها بالباب الأوّل والثاني مع بعض الإشارات المتناثرة بالأبواب المتبقية، على أنّه ربط السّياسة بالاقتصاد والأخلاق والقيم ليكون المال في نظره وسيلة لبلوغ الأغراض والآمال.

ثانيًا: مفهوم المال عند أبي حمو

الملاحظ أنّ مفهوم المال عند أبي حمّو موسى الثاني لا يختلف كثيرًا عن المفاهيم الشّرعية له على كونه مال الله، وأنّ وظيفة الإنسان لا تعدو وظيفة اجتماعية نيابية هدفها الحفاظ عليه، إلّا أنّ أبا حمّو قد وظّف مفهوم المال في إطار النصائح التي وجّهها لولده من خلال تبيان محاسنه ومساوئه وترشيد حفظه على شكل بعض الأوامر والنّواهي(١٣)، حيث جعل المال وسيلةً مُثلى لصدّ الأعداء وبلوغ المقاصد والأغراض والآمال، كما أنّه يقلّل من الفقر ويساعد على نشر الإسلام إضافةً لكونه وسيلة لإخضاع الرقاب من الرجال وسبيلٌ لاستعباد المعارضين والمتمرّدين(١٤). كما جعل خير المال ما حصل به الانتفاع، وشرّه ما تُرك للضياع، على أن يتّبع السلطان في ذلك حُسن التدبير وعدم الإسراف من خلال جمعه بطريقةٍ عادلة ووسطى ما بين القسوة واللّين(١٥).

وممّا تجدر الإشارة إليه، أنّ أبا حمّو قد ربط المال بثلاثة ركائز وهي: العدل، ترشيد العطاء والبذل، الجيش؛ على أن يجمعه من مواضعه المحدّدة بطريقةٍ عادلة وتجنب الإسراف والتبذير واتّباع سياسة الادخار والإنفاق العادل وضرورة الاهتمام بالجيش الذي يحوط الرعية(١٦).

وبذلك فقد أَوْلَى سلاطين بنو زيان عنايةً بالغةً بالمال برزت في عديد المؤلّفات كان أهمّها واسطة السلوك في سياسة الملوك الذي يعد من أبرز النّظريات السّياسية والاقتصادية في العصر الوسيط، لذا عمل صاحبه على إبراز معالم تطور الفكر المالي فظهرت هذه التجربة كإحدى التجارب النوعية المهتمة بالمال والجيش

والأخلاق في ظلّ الصراع القائم في المغرب الإسلامي، ما دفع صاحبها إلى صياغة مشروعٍ سياسيٍ نموذجيٍ حفاظًا على ملك أجداده وحرزًا لخلفه من الملوك والسلاطين(١٧).

إنّ هذه الالتفاتة تُبيّنُ لنا قيمة المال في الفكر الزّياني الذي ربط تحقيق المقاصدِ والأغراضِ في الدّنيا والآخرة بدرجة تحصيله بِقَدْرِ الحاجة من البلاد وأقاليمها من دون إسراف أو تكليف، مع إنفاقه حسب احتياجات المصلحة العامّة للدّولة(١٨)، كما أنّ جباية المال ترتبط بالعدل وكثرة العُمران(١٩) حيث بدت بشكل واضح في تلك النّظرية الثلاثية التي يُعَدُ العدل أصلها الثابت(٢٠).

من خِلَالِ تتبّع بعض النصوص، يظهر اهتمام سلاطين بني زيان بالمال العام(٢١) باعتباره مال الدّولة الذي أجاز للولي التصرف فيه وِفق المصلحة العامّة(٢٢). ومن قرائن ذلك التّشديد في جمعه أيّام المحَنِ والشدائد ولو بلغ الأمر حدّ السيف خاصّة ضدّ المتهرّبين أو الممتنعين عن أداء ما عليهم من عبء مالي(٢٣). وفي هذا الصّدَدِ فقد نوّه صاحب واسطة السلوك بعدم الاعتداء على مال الرعية لأنّه سبيل الهلاك، كأن يَتَكَرَّمَ السلطان به على نفسه وأهله ورعيته بكثرة الإنفاق والإسراف دون مبالاة لتلك الفوارق الاجتماعية بين الأقوياء والضعفاء(٢٤)، ومن ذلك قوله:" أنْ يَكُونَ... لَا يَتَكَرَّمُ إلَّا عَلَى نَفْسِه وَلَا يَتَكَرَّمَ عَلَى خَاصَّتِه وَلَا رَعِيَتِه، بَلْ يَحْتَكِرُ المَالَ بِكُلِّيَتِه"(٢٥).

المستشف من خلال ما سبق ذكره، أنّ اهتمام سلاطين بني زيان وعلى رأسهم السلطان أبو حمّو الثاني بالمال هو نابعٌ من قيمته الهامة في تحقيق المقاصد وبلوغ الآمال والأغراض، لذا نجده يضع المال والجيش في مرتبةٍ واحدة على أنّ أصلهما الثابت هو العدل وحسن التدبير(٢٦)، وبذلك فهو يصرّ على جمعه من الرعية من دون ظُلمٍ ولا تقصيرٍ وأن يَجمع بين سياسة الشدّة والقسوة في تحصيله. وهنا تتبلور لنا صورة المال في نظر السلطان أبي حمّو الثاني على أنّه المجد بعينه(٢٧)، ولعلّ هذه النظرة تجعلنا نتساءل عن نظرة الرعية للمال الذي تعمل السلطة على تحصيله؟

٢/١-منظور الرعية للمال

تعدّ الرعية ركنًا هامًا وشرطًا أساسيًا من شروط قيام الدّولة أي هي المسوس من طرف السائس التي تخضع له مباشرة(٢٨)، وقد قسّم الشَيْزَري الرعية إلى قسمين: عامّة وخاصّة، حيث ذهب أنّ الخاصّة نوعان: منها ما يخدم السلطان يكون نشيطًا أوّل الأمر ثم يدركه الفتور، ونوعٌ آخرٌ مطبوع على الانكماش. أمّا العامّة فذهب على أنّهم ثلاثة طبقات: أخيارٌ، أشرارٌ، متوسّطون(٢٩). وبذلك فإنّ منزلة الرعية من السلطان كمنزلة الروح من الجسد فإذا صَفت الروح من الكدر سارت إلى جميع الجوارح سليمة، وإذا تكدّرت الروح وفسد مزاجها فتصبح الأعضاء والحواس منحرفة على الاعتدال(٣٠).

لذا فإنّ من واجب السلطان خدمة الرعية حيث يعمد إلى تقسيم وقته إلى عدّة أقسام في اليوم الواحد أو في غيره من أيّام السنة للنّظر في حاجاتها كيوم الجمعة الذي خصّصه أبو حمّو موسى للنّظر في المجابي والأموال وتفقد أحوال الرعية خاصّة من الجيش(٣١).

تظهر لنا بعض الإشارات أهمية الرعية في الفكر الزّياني خاصّة عند أبي حمّو، حيث وصفها بالدّهماء والعامّة واعتبرها مجبولة على الفساد وعلى اتّباع الأهواء وقلّة السداد، لذا فقد وضع لها حدًا تقف عنده، وطريقا تتّبعه دون أن تتعدّاه كون عقولها عن الصواب شاردةٌ(٣٢). ورغم ذلك فقد أحسّ هؤلاء السلاطين بقيمة الرعية باعتبارها محلّ العبء الجبائي، لذا فإنّ نقصان أعدادهم أو كثرتها سوف تؤثّر لا محالة في مقدار الجباية.

وبذلك فإنّ هذه النّظرة جعلت العديد من السكان ينصاعون مباشرة لدفع المال للسلطة رغم بساطة عيشهم وقلّة مداخيلهم خاصّة بالمناطق الريفية(٣٣). ولعلّ هذه الطاعة مردّها للسّياسة العادلة لبعضهم خاصّة أيّام أبي حمّو موسى الثاني الذي ترك نموذجًا ومخطّطًا لطرق التعامل مع العامّة، فإن كان زمن الرّخاء والخير وُجب السّير فيهم بالعدل في المغارم والمخازن ورفع ظُلم الولاّة عنهم، وإن كان زمن الفتن والفساد بالبلاد فيرفق بهم قدر الاستطاعة من دون تكليفٍ ويدافع عنهم بالسّياسة والجند، وإن كان زمن القحط والمجاعات

فعدالةٌ في توزيع المخازن والمجابي والإحسان للفقراء والمساكين منهم مع إيثارهم على غيرهم نظرًا لكثرة حاجتهم وفقرهم[٣٤]. والحقّ أنّ الرعية تستظمئ للسلطان العادل استظماء الحرث للماء، فتنتعش بطاعته كانتعاش النّبات بما يناله من ذلك الندى[٣٥].

والظّاهر أنّ هذه القاعدة أتت أكلها بالمراحل الأولى لبناء الدّولة أو في مرحلة النّهضة زمن أبي حمّو موسى الثاني، ما يدل على أنّ البعض منهم كسروا قيود العدل وأصبحوا جباةً أكثر ممّا هم حماة[٣٦] رغم إصرار الفقهاء على منع الاعتداء على أموال الرعية لأنّ بقاء المملكة مرهونٌ بالكفّ عن أموالهم، والطمع فيها إيذانٌ بخرابها وزلزالها[٣٧].

وما يزكي هذا التوجّه ما ذكر عن السلطان السعيد بن أبي حمّو الثاني سنة ٨١٤هـ/١٤١١م الذي عزل نظرًا لسيره بالجور والظُلم بالرعية في الجباية والإسراف بمال الرعية ممّا دفعها للثورة عليه[٣٨]، ونفس المصير كان لنائب السلطان المريني الأمير عثمان بن جرار سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) الذي طرده السكان لمساعدة السلطان أبي سعيد الزّياني(٧٤٩ – ٧٥٥هـ/١٣٤٨ – ١٣٥٢م)[٣٩]، ويضيف الوزّان مؤكّدا إقبال العديد من السلاطين المتأخرين على فرض المغارم على الرعية والتي لم تكن موجودة لدى السلاطين الأوائل ممّا دفع السكان لطرد عمّالهم من المدن المدرّة للجباية خاصّة مدينة وهران[٤٠].

ولا نُغالي إذا قلنا أنّ الدّولة الزّيانية قد كانت ظالمة في جمع الجباية من القبائل بصفة نسبية نظرًا لخروج العديد من سلاطينها عن النهج القويم لمقاصد الشّرع خاصّة ضدّ القبائل التي رفضت فكرة السيطرة والهيمنة، فنجدهم يفرضون الضرائب بالقوّة على القبائل الضعيفة مقابل إعفاء قبائل أخرى منها رغم ما تقتضيه العدالة الجبائية من مساواة بين أفراد الرعية ما ولّد قطيعة بين السلطة والرعية[٤١].

إنّ هذا الوضع المتأجج، جعل صاحب واسطة السلوك ينصح ولده في سياسة الرعية، حيث جعل للملك ثمانية طباع وشبّه العدل بنور القمر السّاطع على الرعية الذي ينشر العدالة بينهم[٤٢]، ويضيف أنّ السلطان ملزمٌ بالرفق بها خاصّة في مجال التحصيل الجبائي فإذا إذا هلكت الرعايا، عُدمت الجبايا، وإذا عُوملت برفقٍ كَثُرَ فيها النّماء والرزق وكانت أكثر انصياعًا لأوامر السلطان[٤٣]، خاصّة إذا أنزل النّاس منازلهم ورتّبهم حسب مراتبهم وأقدارهم ومناصبهم[٤٤]، وأن يخصّص لهم يومًا ينظر في مشاغلهم لأنّ في ذلك جلبٌ لمحبة السلطان وبقاء الدّولة ونصرتها وصلاحها والخير العام للرعية[٤٥].

وبه نخلص إلى القول، أنّ إقبال الرعية على اتّباع خُطى السلطان مردّه إلى سيره فيهم بالعدل والإحسان، وهذا ما يفسّر إقبال العديد من القبائل للانضمام للدّولة الزّيانية أوّل الأمر؛ لكن سرعان تحولت الدّولة وحكّامها لجباة للمغارم نظرًا لانفتاح شهوة العديد منهم للدّعة والتبذير ما جعل الرعية تستضمئ للأيام الخوالي وتبحث عن السبل الكفيلة للنجاة من عبء الجباية.

٢/٢–العدل والجباية

لَاشك أنّ العدل وضوابطه العامّة قد كان لها نصيبٌ وافرٌ في الخطابات الفكرية الزّيانية، حيث جعل أحدهم أنّ للسلطة رِجْلَان هُمَا العَدلُ والإحسَانُ. ومن الصوّر الجمالية للعدل تشبيهُ صاحبها بالقَمَرِ المنير الذي إذا طَلَعَ تَمَامُهُ انتشر نوره على رعيته وأَنِسَ النّاس بضوئه المُشعِ[٤٦].

والظّاهر أنّ العدل في سياسة أبي حمّو قد تَمَّ ربطه بالمال والجيش على اعتبار أنّ العدل أصلٌ ثابتٌ وشرطٌ به يُجمَعُ المال لكفاية الجيش الذي يهتم بحراسة الرعية[٤٧]. يبدو أنّ سلاطين الدّولة الزّيانية قد حثّوا على أخذ المال من حَقِّه وانفاقه في مُسْتَحَقِّهِ من غير إجحاف أوعَسَف، فكلّما كان الرفق والعدل بالرعية منتشرًا كلّما زَانَتْ سياسة السلطان، وكلّما كان الخَرْقُ أكثر اتّساعًا كلّما شَانَتْ سياسته وازْدَرَتْ منه رعيته[٤٨].

لذا فإنّ من عَدل الدّولة جباية أموالها بإدارة مالية عادلة، كونها قِوَامُ الملك وليس من العدل ترك جمعِ المال لأنّه فِعْلٌ ذَميمٌ ويُصبحُ أَقْبَحَ سلوك إذا تمادت السلطة في ذلك. فهذه الأسباب تجعلُ الدّولة محلّ الأطماع الداخلية والخارجية نظرًا لاتخاذها صِفَةَ الجُور لعدم الجباية[٤٩].

الجلي أنّ العدالة الجبائية تتطلّب من السلطان خَلْقَ تَوَازُنٍ بين القَسْوَةِ والسِّلْمِ، أي خَلْقُ مُركَبٍ ثُنَائِيٍ يقوم على الوَسطية في الجباية، لأنّ من العدل استيفاء الحقوق

المالية للرعية خدمة للصالح العام[٥٠]. وبذلك فإنّ تحقيق العدل في نظر أبي حمّو موسى يقوم على عدّة قواعد نظرية وعملية أهمها:

– قَاعِدَةُ المُلاَءَمَة:

مَبْدَأٌ هامٌ لتحقيق العدالة الجبائية وهو تخصيص الظّرف والوقت الملائم لعملية التحصيل الجبائي بِمَا يَتطَابَقُ مع أوقات النّفقة التي تنتظر دخول إيراداتها إلى بيت المال[٥١]، وتَقْتَضِي هذه القاعدة الرِّفْقَ بمصدر الجباية وهي الرعية في فرض التكاليف المالية وهذا ما أكّد عليه صاحب واسطة السلوك على ضرورة مُراعاة أوقاتها وأزمانها وطَبَقاتها وِفق ثلاث حالات:

– زَمَنُ الرّخاء والخير= العدل في الجباية والتحفظ عليهم من طرف الولاّة وعمّال الجباية.

– زَمَنُ الفِتنة= وهو زمن الفساد، إظهار الفَضْلِ عليهم والدّفاع عنهم بالسّياسة والجند.

– زَمَنُ القَحط= وهو زمن المجاعات يتطلّب الرّفق بهم بالمَخَازِنِ والمَجَابِي والإحسان لضمان الخُلُقِ منهم[٥٢].

– قاعدة الابتعاد عن الظلم والمحاباة:

حرص سلاطين بني زيان على الابتعاد عن نَوَاقِض العدالة الجبائية خاصّة الظلم والجور الذي تتحمّله الرعية بالدّرجة الأُولى وذلك لمحاربة جميع أنواع الفساد، فيكونُ صاحب السلطة كالنّار التي تَكْوِي جلود أهل الفساد وأصحاب الشّر فلا يُبْقِي منهم أحدًا ولا يَذَر، ولا يَترُكُ لهم عيناً ولا أثرًا[٥٣]. ومن مَظَاهِرِ حرص الدّولة على تطبيق العدالة ونَبْذِ الظلم حُسن اختيار عمّال الجباية الذين تتوفر فيهم شروط الكفاءة والأمانة والديانة والأخلاق الحسنة[٥٤]. علاَوَةً على هذا فقد كان سلاطين بني زيان على قَدرٍ من العدل وعدم ظلم الرعية خاصّة في توزيع الثروة على أهلها، ومن ذلك قيامهم بتوزيع نفقات الجيش ومُستحقاتهم حيث يُساوي رَفِيعَهُم بِوَضِيعِهم في الحقّ الذي يَسْتَوْجِبُهُ في القِسمة بينهم حسب المصلحة والمرتبة[٥٥].

– قَاعِدَةُ الاقْتِصَاد ونَبْذِ التبذير:

يَعْتَمِدُ هذا المبدأُ على ضرورة الاقتصاد في النّفقات الخاصّة بالجباية والحرص على عدالة جمع المال من طرف عمّال الجباية دون اللّجوء إلى التّعقيدات، وضمان ذهاب الإيراد المالي للنّفقة المحدّدة شرعًا كون الغرض من الدَخْلِ هو تغطيةُ الحاجة خدمةً للصالح العام[٥٦].

الظّاهر أنّ المصادر الزّيانية لم تشر صراحةً إلى أجور عمّال الإدارة الجبائية ومقدارها ولكنّ وجود هيكلة عامّة لإدارة الجباية يُوحي بوجودِ أَجْرٍ لهؤلاء، ولعلّ خضوعهم لعملية الاختبار والمراقبة دليلٌ على ذلك في حين يُمكِنُ التّلْمِيحُ بالأجور الزهيدة لعمّال الجباية بدليل الشُكُوك الكثيرة والوصايا المتعددة من طرف صاحب واسطة السلوك في إخضاع عمّاله لعملية الجَوسسة[٥٧].

ثالثًا: النّظام المالي

لا يَكادُ يختلفُ النّظام المالي المعتمد لدى سلاطين بن زيان في جباية المال من الرعية عن الأنظمة المالية التي سبقته كالموحّدين أو المعاصرة له كالمرينيين والحفصيين. لذا فقد كان مَنْهَجُها المالي صورةً طِبقَ الأصْلِ للنّظام المالي الإسلامي الأوّل خاصّةً فيما تعلّق بجباية المغارم الشّرعية وقد تلجأ لفرض مغارمَ جديدةٍ تقتضيها الحاجة الملحّة والضرورية.

وبذلك فقد أحسّ سلاطين بني زيان بهذه القاعدة وربطوا السّياسة الجبائية بِحُسنِ التّدبير والفكر الصائب السليم[٥٨]. ونظرًا لأهمية المال في بناء الدّولة فقد دَأَبَ سلاطين بني زيان على جمع المال بِقدر ما تحتاجه الدّولة من البلاد الخاضعة لسلطانهم وسكانها، والإعداد لجبايةٍ لا أقلّ ولا أكثر ولا أكبر ولا أصغر من ذلك حيث كان يوضع ببيت المال الذي لا تحدّده المصادر بدقّة[٥٩].

ومن الأهميةِ يُمكنُ أن نُورِدَ إشارةً فريدةً ربّما تكون محدّدة لبيت المال الزّياني، حيث ذكر صاحب واسطة السلوك في مَعرض حديثه عن شروط حصن السلطان قوله:"إعْلَم يَا بُنَيَّ أَنَّهُ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَتَّخِذَ لِنَفْسِكَ مَعْقَلاً، يَكُونُ لَكَ فِي المَهَمَّات مَوْئِلاً، تَلْجَأُ إلَيْهِ عِندَ الشَدَائِد، وتَتَحَصَّنُ بِهِ مِن العَدُوِ المُعَاند.... وقَلْعَة... تجعَلُ فِيهَا ذَخَائِرَكَ وأَمْوَالَكَ، وَأَثَاثَكَ وأَمْتِعَتَكَ وأَثْقَالَكَ."[٦٠].

يَبْدُو لنا من خلال هذه الرواية أنّ صاحبها قد أشار إلى موضع حفظ المال والذّخائر النّفيسة التي تحتاج إلى حراسة مُشدّدةٍ وموضعًا لا تَطَؤُهُ أقدام اللّصوص وأعين الأعداء فكان قصر المَشْوَرِ أبرزها، وهذا ما تؤكّده

كثرة التحصينات التي أُضيفت له بعد تعدّد الهجمات المرينية والحفصية على المدينة. لذا نجده يُلحُ على أن يكون أكثر حصانةً وتجهيزًا ليكون مَعْقَلاً للملك والمال،[٦١] كما كانت خزينة الدّولة تتزوّد بالذّخائر النّفيسة كاليواقيت والجَواهِرِ الحِسَان[٦٢].

٣/١–الإدارة الجبائية

خصّص صاحب واسطة السلوك فصولاً هامةً للإدارة الجبائية المكلّفة بجمع الإيرادات المالية من الرعية فكان ذكره لأهم الشّخصيات التي تقلّدت هذه المهمة ومنهم:

– السلطان:

وهو المكلّف الأوّل بالتحصيل الجبائي، وهذا ما أكّده بقوله: "وَيَنْبَغِي لَكَ أنْ تَتَّخِذَ فِي أيّام الجُمُعَة يَوْمًا تَتَخَلّى فِيهِ عَنِ النَّاسِ وَلاَ تَمْضِي فيه حُكْمًا تَنْفَرِدُ فيه بالنَّظَرِ فِي مَجَابِيكَ وَأَمْوَالِكَ، وَتَفَقُّدِ أَحْوَالِكَ... وفيمَا يَخُصُّكُ فِي نَفْسِكَ وَمَالِكَ وَأَهْلِكَ وَمَا تَحْتَاجُ إلَيه من كَثْرِكَ وقِلَّكَ"[٦٣]، كما كان يُشرف على عملية الإنفاق بنفسه ومن ذلك وصية أبي حمّو لولده في إقامة الأعياد الدّينية.

– المزوار:

تكمن مهمّة المزوار في تنظيم مراسيم استقبال السلطان لكبار مُوظفي الدّولة أمام بابه، وهي شبيهة بمهمّة الحاجب الأعظم الذي لا عمل له إلاّ استقبال أعوان السلطان[٦٤]، وهذا ما ذكره صاحب الواسطة بقوله: "أنَّهُ يَنْبَغِي لَكَ أنْ يَكُونَ أَوَّلَ دَاخِلٍ عَلَيْكَ مِزْوَارُكَ المَوْصُوفُ، وَعَوْنُكَ المَعْرُوفُ، لِيُعَرِّفَكَ بِمَنْ بِبَابِكَ"[٦٥].

– صاحب الأشغال:

هو أبرز شخصية في الإدارة الجبائية وقد وضع صاحب الواسطة عدّة شروطٍ لتعيينه، وهي عبارة عن مقاييس نَظَرية وعِلْمية تتوفر في الشخص المطلوب تربط بالوَجَاهَةُ الاجتماعية، كأن يكون من أَخْيَارِ المنطقة مع المَعْرِفَةُ التّقنية بالحساب، والثّقةُ والأمانةُ والعفّةُ والصيانةُ مع صلاح العقيدة والدّيانة والتّدين، مع الشدّةُ والحزمُ في العمل وتطبيق الأحكام الإدارية والمالية والقُدرة على ضبط الموارد معرفةً ودرايةً، إضافة إلى العدل في الأحوالِ والأقوالِ مع المعرفة بكلّ أنواع الخَرَاجِ وأصناف الإيرادات، ناهيك عن القدرةُ على ضَبْطِ الحسابات خاصّة المداخيل والنّفقات، أي القُدرة على إعداد الموازنة والميزانية المستقبلية، مع صَلَاحُ أُمُوره الشخصية والمالية كأنْ يكون ذُو مَالٍ وأثاث وعقّارٍ ممّا يُجَنّبُهُ الاعتداء على مال الخزينة وقدرته على حِفْظٍ بيته وأسرته، كما وجب عليه تَوْطِيدُ علاقاته بالسلطان آخذًا بِنُصحه في جميع الأمور المالية باعتباره الآمر بالجباية والنّفقة لذا وُجبت له الطاعةُ وعدم العِصْيَانِ والتّذَمُّرِ منه[٦٦].

رغم الشُروط التي وُضعت في عملية اختيار صاحب الأشغال، إلاّ أنّه يَتعرّضُ لعملية الاختبار من طرف السلطان في مَلْبَسِه ومَرْكَبِه، ومَأْكَلِه ومَشْرَبِه، وحَالِه وطُرُقِ كَسْبِه[٦٧]. يبدو أنّ صاحب واسطة السلوك كان على قَدْرٍ من الدراية في أهمية هذا المنصب لذا فقد شدّد على صاحب الأشغال بالمراقبة المالية، والتي لا شك وأنّها تَظْهَرُ على حاله وحال عياله وتَصرُفَاته اليومية، فإنْ ظهرت عليه النِّعْمَةُ حَاسَبَهُ وعَزَلَهُ على أنْ يَتَوَخَى عدم ظُلمه نظرًا لما يَتَقَوّلُهُ النّاس به فإن ثَبُتَ العكس أَبْقَاهُ وأَدْنَاهُ مِنْهُ.

من هُنَا تَظهَرُ العلاقة الحَميمية بين السلطان وصاحب الأشغال في إدارة مال الرعية خاصّة الإيرادات والنّفقات، لذا فهو يُطْلِعُهُ على كلّ المُستَجَداتِ المالية لترشيد النّفقات وهذا ما يُفَسِّرُ أهمية صاحب الأشغال أيّام الأزمات الاقتصادية ما يجعلهُ مُرَافِقًا للسلطان على الدَوَامِ وهذا ما حدث بلا شك أيّام المجاعة سنة (٧٧٥هـ/١٣٧٣م) بتلمسان[٦٨].

وَضَعَ صاحبُ الواسطة عدّة معاييرِ نَستطيعُ من خلالها الكشفَ عن نوايا صاحب الأشغالِ تُجّاه خدمة السلطان، فإنْ كان مَحبوبًا عند الوزير والخاصّة من أهل القصر وكبار الموظّفين كَثِيرُ الشُكرِ عندهم فذلك عَيْنُ الخَديعة والتَّدْليس على السلطان[٦٩]. أمّا إذا كان مَبغُوظًا عند الوزراء والقُوَّاد، والعُمَّالِ والأجنَاد فذلك مردّه إلى صرامته في النّفقة وجمع الإيرادات، وهذا ما يَجْلِبُ له بُغْضَ العامّة والخاصّة وهو بلا شك يَنِمُ عن صدْقِ نيّة في خدمة السلطان ومَهَابةٍ من الله والابتعاد عن أخذ الرّشا من النّاس وخوفه من حِقد الرعية عليه التي لَطَالَمَا جَمعت له المَكيدَةُ للإيقاعِ والتّنكيلِ به عند السلطان[٧٠].

على قَدرِ هذه الأهمية، فقد خُصّص لصاحب الأشغال كسائر الوظائف المهمّة بالدّولة يوم الجمعة للقاء السلطان فكان دخوله عليه مُباشرةً بعد الوزير وكبير الكتّاب، حيث يَعمَدُ صاحب الأشغال إلى شرح الوضعية المالية خاصّة إيرادات الدّولة وناتجها الإجمالي مع تحليل لأسباب الزيادة أو النقصان وما وصلت إليه حسابات عمّال الولايات من الجباية، إضافةً إلى تسجيله التقديرات المالية الخاصّة بالإدارة المالية للدّولة في سجلٍ خاص(٧١)، كَمَا يُقَدِّمُ للسلطان أيضًا شرحًا دقيقًا لجميع إيرادات ونفقات القصر وجَرْد لكلّ أصناف الحلي وأنواع الثّياب والأثاث وجميع المُقْتَنَيَاتِ القَيِّمَة به، حيث يجب أن يكون تسجيل هذه البيانات أيضًا في سجلٍ خاصٍ بالقصر، نَاهِيكَ عمّا يتلقّاهُ من الأوامر السلطانية التي يعمل على تأديتها بعد خروجه من مجلس السلطان على أنْ يُوَافِيه بجميع المستجدّات في لقاء آخر من نهاية الأسبوع، وليَتْرُكَ مجلسه لصاحب الشّرطة بَعدَهُ لعرض أموره(٧٢).

– عمّال الولايات:

جعل صاحب الوساطة سلطة عمّال الولايات تخضع مباشرةً لصاحب الأشغال، لذا فَقد أظهر هذا الأخير لعمّاله الشِدّةَ والغِلْظَةَ في استخراج حقوق السلطان من الرعية، وهذا ما جعله أحيانًا مبغوضًا عند عمّاله خاصّة إذا كان من الذين يخافون لَوْمَةَ الحاكم وعقاب الله سبحانه وتعالى(٧٣). وعلى هذا فقد حرص سلاطين بني زيان على الرِفْقِ بالرعية في عملية الجباية دون تَعد لحُدودها مُدركين أهمية عامل الجباية في كسب وُدِّ السكان، فأمروا بالعدل في فرض المغارم خاصّة أيّام الفتن والقَحط(٧٤).

يَسُوقُ لنا صاحب واسطة السلوك الشروط المعتبرة في اختيار عمّال الجباية على أن يكون عارفًا بجباية الخَرَاجِ، والحَزْمِ والكفاية ودقّة الضّبط والأمانة، وكثرة الفَضْلِ والدّيانة كي لا يَعْمَدَ على تَضْيِيعِ المَجَابي دون أن يضرّ بالرعية(٧٥)، كما يجعلهم السلطان تحت الاختبار كما يفعل بصاحب الأشغال ومن ذلك قيام البعض منهم بأخذ مال النّاس والتقرّب بها إلى السلطان، لذا وُصِفَ بكونه شَرُّ العمّال لأنّه يضرّ بمال الدّولة والرعية ويؤدي بالنّاس إلى الهلاكِ والإفلاسِ(٧٦). وَكَحَلٍّ لهؤلاء العمّال اقترح صاحب الواسطة حَقَّ التَجَسُّسِ عليهم في أحوالهم وأحوال أسرهم فإن زادت حَالُهُ وكَثُرَ مَالُهُ وظهرت عليه أَعْرَاضُ النِّعْمَة فذلك من مال الرعية، وإنْ ثُبُتَ العكس فذلك خَيْرُ العمّال. وفي السِّيَاقِ نفسه وُجب على الحاكم إثباتُ أخذ الرشوة على العمّال من دون ذلك حيث يعمد السلطان على توظيف فِرَاسَتِه فإن رأى أنّه مَبْغُوضٌ من الأَخْيَارِ ومَحْبُوبٌ من الأَشْرَارِ فَيَتَيقّنُ أنّه على غَيْرِ استقامة وأنّه آخذٌ بالرَّشَا، وعلّل ذلك أنّ بعض الأَخْيَارِ لَهُ دَلِيلٌ على كَثْرةِ مَظالِمِه وإبَاحَتِهِ للمحارم وأَخْذِ أموال النّاس بالباطل(٧٧).

من هُنَا فَعَلَى صاحب الأشغال الأخذُ بالثُّقَاةِ الأُمَنَاءِ في جمع المال وعدم مُسامحة المُخطئ منهم خاصّةً إذا ثُبُتَ جُورهم(٧٨). وَلِنَفْسِ الغرضِ وُجب على السلطان النّظرُ المستمر في تعدي الولّاة والعمّال وأصحاب المناصب والأعوان لأنّ تَعَديهم مَنْسُوبٌ إليه، فمحاسبة العمّال هو من مبدأ الحفاظ على المال العام وضمان استمرارية الملك(٧٩) ولعلّ ما قدّمه أبو حمّو الثاني من وصايا لولده دليلٌ على ذلك(٨٠).

– شُيُوخُ القَبَائِلِ:

عَمَدَ صاحب واسطة السلوك على ترتيب الفئات الاجتماعية المكوّنة لمجتمع بني زيان وتقسيمها إلى عدّة أصنافٍ حسب درجة الإخلاص للدّولة على أنّ البعض منها قد كلّف بجمع الجباية من القبائل المعارضة للسلطة في حالة عجز السلطان. لذا فقد أنزلها منازلها، فجعل الشُرَفَاءَ أوّل الفئات ثمّ الفقهاء ثمّ أَشْيَاخَ البلد من جُمهور القبائل الموالية لحكمهم، حيث أَنْزَلَ كلّ جماعةٍ منزلتها وترتيبها في طبقتها على أن تكون يَدُ السلطان مُنبَسِطةٌ لكل الفئات، نظرًا لحاجتها لدعم هذه القبائل وشيوخها أيّام الشّدة(٨١).

– المُحْتَسِبُ:

يظهر لنا أنّ أوائل المحتسبين بدولة بني زيان هم السلاطين الذين مارسوا هذه الولاية سواءً عن طريق النّهي عن المنكر أو الأمر بالمعروف، ويَزْخَرُ كتاب واسطة السلوك بعديد الوصايا الموجّهة للسلاطين لممارسة آداب الحسبة، ولعلّ المجلس الذي كان يعقده السلطان كلّ يوم جمعة لفَكِّ المظالم وقضاء حاجات النّاس بِمَعِيَّةِ الفقهاء دليلٌ على ممارستهم للحسبة بطرق نَظرية وعَملية(٨٢).

ونَظَرًا لِجَلاَءِ قدر مهام المحتسب فقد اهتم سلاطين بني زيان بالمحتسب ومن ذلك قول صاحب الواسطة:" وكَذلِكَ تَكُونُ يَا بُنَيَّ فِرَاسَتُكَ في صَاحِبِ الحِسْبَة تَجْرِي عَلَيْه في امتحانه بمِثْل هذه النِّسْبَة إلى أن تَتَعَرَّفَ أَحْوَالُهُ ومَا صَارَ إِلَيْه أَمْثَالُهُ"[٨٣]. لذا فإنّ علاقة المحتسب بالسلطان مَبنيَّةٌ على إعطاء صورة تَليقُ بالوضعية الجبائية للدّولة وهذا ما جعل سلاطين بني زيان يُخضعُونه للاختبار كسائر عمّال الجباية[٨٤].

– دَوْرُ مَجْلِسِ المَشيخَة:

تَمَيّزَ نِظَامُ الحُكم الزّياني بوجود مجلسٍ استشاري يقوم على شيوخ القبائل باعتبارهم مُمَثِّلينَ عن مجموع القبائل المكوّنة للسلطة الزّيانية، وقد اصْطَلَحَ صاحب واسطة السلوك على هؤلاء تسمية النُّوَاب على أن يكونوا ذَوِي عُقُولٍ وَافِرَةٍ وذَكَاءٍ ثَاقِبٍ، فُصَحَاءَ اللّسَانِ سَديدِي الرَّأْيِ، حيث يقوم السلطان باختيارهم، واختبار أحوالهم وأفعالهم وأموالهم، كَونَ الوزير أيضًا يُختَارُ منهم[٨٥]. وَبِذَلِكَ فإنّ هذا المجلسَ مجلسٌ قَبَلِيٌّ ذُو سَكينةٍ وَوَقَارٍ يَضُمُّ الأَخْيَارَ من رؤساء القبائل، فمهمّة هؤلاء تقديم المَشُورَةِ للسلطان في إدارة شؤون الدّولة خاصّةً الأمور الاقتصادية والمالية[٨٦].

تكمن أهمية هذا المجلس في كَونِهِ هَيئَة استشَارية بِهِ تُحَدَّدُ الموارد المالية وتُوَجَّهُ النّفقات وتُوَزَّعُ الامتيازات على صَانِعِي القرار السّياسي بالدّولة، وممّا يدل على تأثيره المباشر وقُدرته على التدخل في إدارة الدّولة أنّ هذه القبائل سَنَدٌ قَوِيٌّ لبني عبد الواد مُنذ البدايات الأولى لتأسيس الدّولة. والظّاهر أنّ قَصْرَ المَشْوَرِ كان المكان المخصّص لعقد الاجتماعات الخاصّة بهؤلاء فَبِهِم يتجنّبُ السلطان تلك القرارات الفردية السُلطوية في معالجة الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسّياسية خاصّة أيّام الأزمات والمِحَنِ[٨٧]، ولهذا فقد أصرّ السلاطين على ضرورة الأخذ برأي هؤلاء في تسيير الأمور المالية بالدّولة، وإن كانت أَغْلَب قراراتهم أحيانًا تصب في تدعيم مَصالحهم الشخصية ورَفْعِ حَجْمِ الامتيازات الخاصّة بهم، وربّما كانت قراراتهم أحيانًا عبئًا على الرعية إذا تعلّق الأمر باستحداثِ مُكُوسٍ جديدةٍ.

وَرُغم إشَارَتِنَا إلى هذه النّظرة التي تحتاج إلى سَنَدٍ قَوّيٍ فإنّ نُقص المادة العلمية يُعَدُ عَائِقًا للباحث في مَعرفة مَضمُونِ المناقشات التي دارت بينهم وبين السلطان في إدارة الدّولة الزّيانية خاصّة من النّاحية المالية، كما أنّ وُجُودَ مهنة كاتب السلطان تدلُ على أنّ هذه الاجتماعات كانت تُدَوَّنُ في سجلٍ خاص تعوزنا النّصوص والوثائق عن معرفة محتوياته. ومهما يَكن من أمر، فقد حرص سلاطين بني زيان على مُجَالَسَةِ أهل الفَضل والعلماء وضرورة استشارتهم لإعطاء صِفَةٍ شَرعيَةٍ قَوِيَّةٍ للقرارِ السّياسي الذي من شأنه تَغييرُ الوجه العام لسياسة الدّولة خاصّة في جانبها المالي[٨٨].

بِنَاء عَليه، فإنّ مجلس السلطان يتكون من خيرَةِ الرعية الذين يَستَنِدُ لهم السلطان في إصدار قراراته الحاسمة التي تَهمُ الرعية بالدرجة الأولى، لذا فقد كان منهم الفُضلاء، العُقلاء، ونُصحاء السرّ والعَلانية، أهل الخِبرة من العُلماء والفُقهاء، الأَشْرَافُ سَديدِي الرّأي والعقل، دُونَ الجُهلاء والأعداء ممّن يُكِنُّونَ العداء لمستقبل الرعية.

٢/٣–الإيرادات

ذهب صاحب واسطة السلوك على بذل النّصيحة في ضرورة جمع المال فخصّص يوم الجمعة يومًا استثنائيًا لدراسة المداخيل والنّفقات، وتفقّد أحوال المال وبيت المال نظرًا لأهمية الجباية في ضمان بَقَاءِ كيان الدّولة[٨٩].

ومن هُنَا فقد كان سلاطين بني زيان على قدرٍ من المسؤولية في جباية الزّكاة بعد جمع الغلّة في الثمانية الأشهر الباقية من السنة[٩٠]. كما أشار صاحب واسطة السلوك إلى الضرائب التي كانت تفرض على الصنّاع كمصدر مهم لبيت المال، فقد كان جميع الصنّاع خاصّة من أرباب العمل مُلزمُونَ بدفع الضرائب للسلطة نظرًا للثراء الصّناعي الذي تمتّعت به هذه الفئة من خلال تكليف المحتسب والأمناء بجمعها وإيداعها ببيت المال بمعيةِ صاحب الأشغال. وربّما كان التّنظيم وحرص السلطة المتواصل على تقريب هذه الفئة من السلطة المركزية دَليلٌ على تجنيدها لتكون عبئًا جبَائياً وسندًا أيّام الشّدائدِ والصعابِ[٩١].

٣/٣–النّفقات المالية

يظهر الفكر الوسطي في الإنفاق عند بني زيان في ضرورة الابتعاد عن الإسراف في البناء واتّخاذ الزينة بقول صاحب الواسطة :"أنَّهُ يَنْبَغي لَكَ أَنْ لاَ تُنْفقَ مَالَكَ إلاَّ في حَقِّه، وَلاَ تُخْرِجْهُ إلاَّ في مُسْتَحَقه، وَلَا تُعْطيه إلاَّ فيمَا يُصْلحُ عَلَيْكَ، وَيَجْلُبُ المَنْفَعَةَ إلَيْكَ" وفي مَوْضعٍ آخر قوله: "وَلَا تُسْرف فيه في لَذَّات دُنْيَاك، وَلاَ في زَخَارف لاَ تُوصلُكَ إلَى هَوَاكَ، كَالخُرُوج عَن الحَد في الزينَة وَاللِّبَاس، وَالبنَاء المُفْرط الخَارج عَن القيَاس. فَإنَّ خَيْرَ الأُمُورِ أَوْسَطُهَا، وَأَحْسَنُهَا أَوْفَقُهَا وَأَضْبَطُهَا"[٩٢].

كَمَا دَعَا سلاطين بني زيان إلى ضرورة اتّباع الوسطية في النّفقة بالمساواة بين المال والجيش كون التبذير يُؤدي إلى التدمير والإمساك يؤدي إلى الهلاك، لذا فقد ذهب هؤلاء الحكّام إلى الموازاة بين أفراد الجيش في المال وعدم هَدرِ المال في الشُكْرِ والثّنَاءِ مع التوزيع العادل للثروة فَلاَ يُعْطِ ألفًا لمن يستحق المائة، ولا المائة لمَن يستحق الألف. لذا فإنّ بنَفَاذه يَنْفُذُ الشُكْرُ والإجلالُ[٩٣]. لأجل ذلك فقد دَأَبَ سلاطين بني زيان على العناية بالمال سواءً قَلَّ أو كَثُر كون نفقته قد ربطت بمكارمِ الأخلاق[٩٤] لذا فقد شملت النّفقات العديد من المجالات التي أشار لها صاحب واسطة السلوك وأهمها :

– النَّفَقَاتُ العَسْكَريَةُ:

استَحوَذَ الجيش على قدرٍ كبيرٍ من أموال بيت المال الزّياني نظرًا لطبيعة الدّولة القبلية القائمة على الغزو ومُزاحَمَة الجيرَانِ في توسيع دائرة النُفُوذ، فكان الجيش من أبرز اهتمامات هؤلاء السلاطين لأنّ به تُسْتَفْتَحُ الأمصارُ وتُسْتَجْلَبُ الفوَائدُ، فمن كَثُرَ جيشه عَمُرَت بلاده وخَافَهُ أعداؤه وانحصر حُسَّادُه. لذلك فقد حرص بنو زيان على الإسْتكْثَارِ من الجند لمواجهة الأزمات الداخلية والصراعات الخارجية[٩٥]، فخصّصوا جُزءًا من أموال بيت المال لإعانة الجند بالرواتب سواءً لهم أو لأسرهم[٩٦] على أنْ يكون ذلك جَاريًا فيهم بالعدل والإحسان وسياستهم وِفْقَ الزَمَانَ بتَفَقُد أحوالهم، والتفكير في مصالحهم طِوَالَ أيّام السنة، واختبارِ قَطَائعهم وأموالهم وضَبْطِ أعدادهم لمعرفة درجة الإنفاق كون السلطان غير مَعذُورٍ عن قلّة العَطَاء للجند[٩٧].

من هُنَا فقد أحسّ سلاطين بني زيان بثقل المسؤولية فهَمُّوا بالعناية بالجند مع مراعاة تَفَاوت مراتبهم وشجاعتهم وسَابِقَتِهِم في الخدمة ومَدَى انْصيَاعهِم وانْقيَادهم واجتهادهم، كما حرص سلاطين بنو زيان على اتّخاذ الحصون كمعاقلَ للاختباء من العدو على أنْ تُزَوّدَ بالماء والمخازن ومكان خزينة المال والذّخائر والأثاث والأمتعة وأهل الصّنائع وأرباب التّجارة وكلّ البضائع والغُرُوس النّافعة أثناء الشدائد والأزمات[٩٨].

–أَهْلُ الأَنْدَلُس:

نَظَرًا لعُمق العلاقات ما بين الدّولة الزّيانية وأهل الأندلس، فقد كان لمسلمي الأندلس نَصيبٌ من المساعدات المالية التي وَجّهها بعض سلاطين بني زيان لنجدتهم، حيث شملت الزّرع، والمال، والخيل، والحماية. لذا فلم يَغْفَل هؤلاء السلاطين عن مساعدتهم نظرًا لما كانت عليه تلمسان من ثراءٍ ونعَم، وفي ذلك يقول أبو حمّو: "فَلَيَكُن اهتمامُكَ يا بنيّ بأهل الأندلس أكثر اهتمام، وأخذك في مُوالاتهم ومَعُونتهم الأخذ التّام، فَتُمدّهُم بما تستطيع عليه من الزّرع والمال، والخيل والحُمَاة والأبطال"[٩٩].

– الأعياد والاحتفالات والفقراء:

اسْتَحْوَذَت الأعيادُ الرّسميةُ والاحتفالات الدّينية على قَدرٍ لا بأس به من خزينة الدّولة والتي كانت تُقَامُ عَادَةً داخل قصر المَشْوَر، حيث كان الاحتفال بالمولد النّبوي أبرز الأعياد نَظَرًا لمَنْزلَته عند السلطان الذي اعتبره البعض منهم سُنَّةً مُؤَكَّدَةً في كلّ عام[١٠٠]. كَمَا أنّ الاحتفالات العسكرية تتطلّب نفقات كثيرة حيث يَتَزَيّنُ الجنود بالأَقْبِيَة الحِسَان المختلفة الألوان ولُبْس الحرير من اللّباس لزيادة جَمَالِ الملك[١٠١]، لذا وَجَبَ على السلطان أنْ يتكرّم عليهم من بيت المال بالمساعدات والإعانات دون أنْ يَختَصَّ ذلك لنفسه أو أهله دُونَ رعيته، كما كان للحجّاج أيضًا نَصيبٌ من هذه الإعانات لكونهم وسيلةُ تَقَرُّب لله ودَعَوَاتٌ صَالحةٌ للسلطان في بيت الله الحرام[١٠٢].

– السُجُونُ:

لَا تَكَادُ تَذكرُ المصادر التّاريخية السجون الزّيانية بشكلٍ واضحٍ مَاعدَا سجن دارالنَارَنْج الذي وُجد بالقصر القديم الذي ضُرِبَ به أحد السجناء لما أظهره من عَدَاءٍ

لبني زيان[١٠٣]، ولكنّ هذا لا يمنع من عدم وجودها من خلال ما ذكره صاحب الواسطة في وصيته لولده برعاية السجناء كصنفٍ من الفقراء[١٠٤].

- التّرف:

الظّاهر أنّ البلاط الزّياني لا يكاد يخلو من مظاهر الأبّهة والعظمة لغرضِ الحفاظ على مَهَابَةِ الملك وجماله. لذا فقد كان التزيّن والتطيّب في المجلس والمركب واتّخاذ الملابس الجميلة وسيلةٌ لإبراز مظاهر النعمَة، مع الابتعاد عن التّبذير والإسراف خاصةً في اتّخاذ الولائمِ والأعراس والمتنزّهات وكثرة الشهوات التي تُفسدُ العقل والدّين[١٠٥].

وَبَلَغَ الأمرُ من رفاهية السلاطين اتّخاذ الرّكاب من خَالِصِ الفضّة والذّهب الذي انتشر بشكلٍ واسعٍ ببلاد المغرب الإسلامي ومنها تلمسان، حيث منع على السلاطين اتّخاذ الأواني المنزلية من الذّهب والفضّة مع عدم اقتنائهما من غير استعمال[١٠٦]، وهذه ما أكّده صاحب واسطة السلوك بنَهيِهِ عن الانْهِمَاكِ في اللّذات والمباني والزّخارف والمتنزهات واللّهو واللّعب والطّرب[١٠٧] على أن يتّخذ التّقوى منْهَاجًا سَديدًا، ولاَيَغْتَرُ بالدّنيا وأنْ يَتَزَوَّدَ بالزّاد الذي يُعدّه لِأُخراهُ[١٠٨].

- الهَدَايَا السُّلْطَانيَّة:

تُعَدَ الهدايا السلطانية من أنواع العَطَاءِ الجُزَافِي (بدون مقابل) الذي يوجّهه السلطان لبعض الملوك والسلاطين كسبًا لودّهم أو التجسّس على أخبارهم، لذا فقد حرص بنو زيان على إرسال الهدايا الجُزَافية والأموال وبرقيات التّعزية والتّهنئة إمّا دَعْوَةً للمُهَادَنَةِ أو اسْتِجْلَابًا للمودّة فكانت هذه الهدايا محلّ اختبارِ واقتناء الأخبار من العَدوِ والصَدِيقِ[١٠٩].

خَاتِمَةٌ

وفي ختام هذه الدّراسة يمكن الخروج بالنتائج التالية:

- الواضح أنّ جوهر الكتاب ومكنونه به العديد من الأفكار النّظرية التي تستدعي التأمّل والنّبش والتحليل خاصّة في المجال الاقتصادي حيث عمد صاحبه على ربط السّياسة بالاقتصاد والأخلاق والعدل والجيش، ليكون المال في نظره وسيلة لبلوغ الأغراض وتحقيق المقاصد لما كانت عليه بلاد المغرب الإسلامي من صراع مرير للسيطرة على مصادره.

- تبلور صورة المال في نظر السلطان أبو حمّو الثاني على أنّه المجد بعينه فنجده يضع المال والجيش في مرتبةٍ واحدةٍ وجعل لهما أصلا ثابتا وهو العدل وحسن التدبير. لذا فهو يصرّ على جمعه من الرعية من دون ظُلمٍ ولا تقصيرٍ وأن يَجمع بين سياسة الشدّة والقسوة في ذلك.

- الجلي أنّ إحساس أبي حمّو بأهمية المال جعله شديد الحرص على جمعه من مستحقه وصرفه لأصحابه في وقته المحدّد من غير إسرافٍ أو تفريط مع العناية التّامة بالرعية من خلال مجموعة من النّظريات المرتبطة بالعدالة الجبائية جمعًا ونفقةً، وهو ما حقّق نوعا من الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية لمجتمع بني زيان خاصّة أيّام أبي حمّو موسى الثاني.

- العدالة الجباية في نظر السلطان أبي حمّو تتطلّب خَلْقَ تَوَازُنٍ بين القَسْوَةِ والسِّلْمِ أي خَلْقُ مُركَبٍ ثُنَائِيٍ يقوم على الوَسطية في الجباية، وبذلك فإنّ تحقيق العدل في نظر أبي حمّو يقوم على عدّة قواعد نظرية وعملية تشمل الملاءمة وعدم الظلم والمحاباة والاقْتِصَادِ وَنَبْذِ التبذير.

- يبدو أنّ إنّ إقبال الرعية على اتّباع خُطى السلطان في الأمور المالية، مرتبط بسيره فيهم بالعدل والإحسان ما يفسّر إقبال العديد من القبائل للانضمام للدّولة الزّيانية أوّل الأمر، لكن سرعان تحولت الدّولة وحكّامها لجباة للمغارم نظرًا لانفتاح شهوة العديد منهم للدّعة والتبذير ما جعل الرعية تستضمئ للأيام الخوالي وتبحث عن السبل الكفيلة للنجاة من عبئ الجباية.

– يُظهر كتاب واسطة السلوك في العديد من المواضع شاكلة التنظيم الإداري المالي للدولة الزيانية والتي ترتكز على صاحب الأشغال باعتباره الآمر الناهي والمسير المالي بعد سلطة السلطان، ما يعكس العلاقة الحَميمية بينهما في إدارة مال الرعية وتدبير الإيرادات وصرف النّفقات، ناهيك عن العمّال وشيوخ القبائل والمحتسب ومجلس المشيخة الذين استخدمهم السلطان كمعول في تسهيل العمليات المالية الخاصّة بالإيرادات والنّفقات.

– تبيّن لنا من خلال الكتاب حرص صاحبه على تدبير الإيرادات المالية المختلفة من خلال تكليف العمّال بجمعها وإيداعها ببيت المال بمعيةِ صاحب الأشغال والتنويه المتواصل على تقريب الرعِية من السلطة باعتبارها مصدر للجباية، كما نوّه أبي حمّو إلى ضرورة اتّباع الوسطية في عملية الإنفاق من خلال الابتعاد عن الإسراف والتبذير والتحلي بالعدل في تقسيم الثروة، فكانت النّفقات العسكرية أولى اهتمامات السلطة دون إهمال الجوانب الأخرى من الدولة خاصّة الاجتماعية والثقافية والاستراتيجية.

الإحالات المرجعية:

(١) يعرف الماوردي السّياسة المالية باعتبارها جزءا من السّياسة الشرعية على أنّها تقدير الأموال من خلال ضبط الدخل والخرج ومقابلتهما بعد مدّة زمنية محددة وفق ما تمليه النصوص الشرعية واجتهادات العلماء والفقهاء، على أن تكون قائمة على أساس عادل، وتأخذ نفس المفهوم تقريبًا في الدراسات الحديثة فيعرّفها أحدهم بقوله:" هي إدارة الإيرادات العامّة والنفقات العامّة لهذه الدولة و توازنها بغرض تحقيق أهداف الدولة الإسلامية" أو هي" استخدام الدولة لإيراداتها و نفقاتها بما يحقق أهدافها الاقتصادية و الاجتماعية و السّياسية في ظل ما تعتنقه من عقائد و في حدود إمكانياتها المتاحة مع الأخذ في الاعتبار درجة تقدمها و نموها الاقتصادي". ينظر: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت. ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، **تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك**، تحقيق رضوان السيّد، ط.٢، مركز ابن الأزرق لدراسات التراث الإسلامي، ١٤٣٢هـ/٢٠١٢م، ص:١٧٨-١٧٩؛ محمد قطب إبراهيم، **السياسة المالية لعثمان بن عفان**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص: ٥٤؛ عوف محمد الكفراوي، **السياسة المالية والنقدية في ظل الاقتصاد الإسلامي**، دراسة تحليلية مقارنة، ط.١، مكتبة الإشعاع للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية،١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص: ١٤٥.

(٢) يُنظر: عبد القادر طويلب، أحمد الحمدي، **السياسة المالية للدولة الزيانية بين التنظير والواقع من خلال كتاب أبي حمّو موسى الثاني" واسطة السلوك في سياسة الملوك"(٦٣٣-٩٦٢هـ/١٢٣٥-١٥٥٤م)**، مجلّة العبر، العدد١٠، المجلّد٥، ١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م، ص٣١٥-٣٤٤. وللاستزادة أيضًا ينظر أطروحة دكتوراه الباحث الموسومة بـ:" **الضرائب والمكوس ببلاد المغرب الإسلامي في عهد الموحدين والدويلات من القرن٦ إلى القرن٩(١٢-١٥م)**، إشراف أحمد الحمدي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران١ أحمد بن بلة،١٤٤٢-١٤٤٣هـ/٢٠٢٠-٢٠٢١م.

(٣) نعتقد أنّ عملية التنظير التي سار ت عليها الدّراسة تحتاج في نظرنا إلى شرطين: - ضرورة خلق نوع من التوافق بين الجانب النظري والعملي للسياسة المالية بدراسة فترة حكم أبي حمّو الثاني وولده أبي تاشفين دون إسقاطها على كامل فترات الدولة الزيانية، وشرط آخر يرتبط بتغير السياسة المالية لكلّ حاكم فكان منهم الباسط والقابض، ما يدل على استحالة تشابه هذه السياسة مع جميع السلاطين، ناهيك عن إسقاط مادة الكتاب على الفترة السابقة لحكم أبي حمو الثاني وهو ما يستبعد في اعتقادنا السلاطين الأوائل(فترة القوة والتوسع) وكذا الأواخر(فترة ضعف الدولة) من هذه السياسة ما يجعل مادة الكتاب نسبية غير شاملة لجميع مراحل دولة بني زيان. ولعلّ هذا الأمر هو ما جعلنا نقتصر على فكره المالي من الناحية النظرية بما يتوافق مع فترة حكمه في ضلّ انعدام المادة التاريخية التي تثبت عكس ذلك أو التي تمنح لنا تصورًا واضحًا عن السياسة المالية للسلاطين الآخرين.

(٤) يُنظر: سهام دحماني، **النظام الضريبي للدولة الزيانية(٦٣٣-٩٦٢هـ/١٢٣٦-١٥٥٤م)**، أطروحة دكتوراه، إشراف بوبة مجاني، كلّية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة٢ عبد الحميد مهري، ١٤٣٨-١٤٣٩هـ/٢٠١٧-٢٠١٨م.

(٥) يُنظر: حسين تواتي، **حكامة التسيير في الدولة الزيانية في المجالين السياسي والاقتصادي من خلال أنموذجي يغمراسن بن زيان وأبي حمّو موسى الثاني**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، إشراف مبخوت بودواية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان،١٤٣٨-١٤٣٩هـ/٢٠١٧-٢٠١٨م.

(٦) يرتبط الفكر المالي في العصر الوسيط بتلك الوظيفة الشرعية الموكلة للحاكم والتي تتعلّق بحفظ المال وحسن استغلاله من خلال جمعه ونفقته وإدارته وعمارة الأرض لتحقيق الرفاه الاجتماعي والاقتصادي انطلاقا من مبدأ العدالة والمساواة في ظلّ الاختلاف، وبذلك فهو يضم جميع الأفكار والنظريات والإشارات والتصورات النظرية ذات الطابع المالي التي وردت في كتاب واسطة السلوك، كما تُعدّ دليلاً على درجة التزام الحاكم في العصر الوسيط بوظيفته المالية التي وكلّ بها. ينظر: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمّد بن حبيب(ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية و الولايات الدينية، تحقيق أحمد المبارك البغدادي، ط.١، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1409هـ/١٩٨٩م، ص:٢٣، ١٤٥-١٨١؛ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، (ت.٦٦٠هـ/١٤٠٥م)، القواعد الكبرى الموسوم بـ: **قواعد الأحكام في إصلاح الأنام**، تحقيق نزيه كمال حماد وعثمان جمعة، ط.١، دار القلم، دمشق، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م،ج١، ص: ١١٤، ٣٤٧-٣٤٨؛ القلقشندي، أبو العباس أحمد(ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، **مآثر الإنَافة في معالم الخلافة**، تحقيق عبد الستّار أحمد فراج، ط.١، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤٦٧هـ/٢٠٠٦م، ص:٤٣.

(٧) ابن خلدون، عبد الرحمن (ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، **تاريخ ابن خلدون المسمّى ديوان العبر والمبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَنْ عاصرهم من ذي السلطان الأكبر**، تحقيق خليل شحادة ومراجعة سهيل زكّار، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج٧، ص:١٩٩.

(٨) التَّنَسي، محمّد بن عبد الله (ت. ٨٩٩هـ/١٤٩٣)، **تاريخُ بني زيّان مُلوك تلمسان مُقتطفٌ من نَظْمِ الدُّرِ والعُقيان في شرف بني زيّان**، تحقيق محمود آغا بُوعياد، موفم للنّشر، الجزائر، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص: ١٥٧.

(٩) عبد الحميد حاجيات، **أبو حمّو موسى الزّياني حياته وآثاره**، عالم المعرفة للنّشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص: ٦٩.

(١٠) عمارية لاغة، **علاقة الشريف التلمساني بالسّلطة الزّيانية بتلمسان "أبو حمّو موسى الثاني نموذجًا"**، مجلّة الحكمة للدّراسات التّاريخية، العدد ١٢، المجلّد ٠٥، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م، ص: ٢٠٠.

(١١) أبو حمّو الثاني، محمّد بن يوسف(ت٧٩١هـ/١٣٨٨م)، **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، تقديم عبد الرحمان عون، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص: ٢٥.

(١٢) المصدر نفسه، ص: ١١، ١٥-١٧.

(١٣) نفسه، ص ٣٤.

(١٤) نفسه.

(١٥) نفسه، ص: ٣٤، ١٥١.

(١٦) نفسه، ص: ٢٩، ٣٤، ١٥١.

(١٧) محمّد الأمين بلغيث، **النّظرية السّياسية عند المرادي وأثرها بالمغرب والأندلس**، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص: ٦٥-٦٦؛ محمّد غربي، **أصول الفلسفة السّياسية والأخلاقية في كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك لأبي حمّو موسى الزّياني**، رسالة ماجستير، كلّية العلوم السّياسية والإعلام، جامعة الجزائر، الجزائر، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص:٦٧؛ وداد القاضي، **النّظرية السّياسية للسلطان أبي حمّو الزّياني ومكانتها بين النظريات السّياسية المعاصرة لها**، مجلّة الأصالة، منشورات وزارة التّعليم الأصلي والشؤون الدّينية ،العدد٢٧،١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ص: ٢٢.

(١٨) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص: ٣٤، ١٥١.

(١٩) ابن الأزرق، أبو عبد االله (ت. ٨٩٦هـ/١٤٩٠م)، **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق وتعليق علي السامي النّجار، ط.١، دار السلام للطّباعة والنشر والتّوزيع والتّرجمة، القاهرة، 1429هـ/٢٠٠٨م، ج١، ص: ١٨٢.

(٢٠) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص: ١٥١.

(٢١) يقصد بالمال العام تلك الأموال المخصّصة للنفع المباشر والعام دون التملّك أي هي مال مخصّص للمنفعة العامة يجعل الاستغلال المباشر من طرف الرعية دون أن يختص به فرد معين وهو نوعان ملك للدولة ومال عام. ينظر، نذير بن محمد الطيب أوهاب، **حماية المال في الفقه الإسلامي**، ط.١، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، المملكة العربية السعودية،١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص: ٢٢ – ٢٣؛ حسين حسين شحاتة، **حرمة المال العام في ضوء الشريعة الإسلامية**، ط. ١، دار النشر للجامعات، مصر، ١٤٢٠هـ/١٩٩٣م، ص:١٩ – ٢٠.

(٢٢) نذير بن محمد الطيب أوهاب، المرجع السابق، ص: ١٩-٢٠.

(٢٣) وداد القاضي، المرجع السابق، ص: ٢٥-٢٦.

(٢٤) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص: ١٦٨؛ حسين حسين شحاتة، المرجع السابق، ص: ٢٤-٢٥؛ زينب صالح الأشوح، **الاقتصاد الوضعي والاقتصاد الإسلامي نظرة تاريخية مقارنة**، د.م، د.ت، ص: ٢٦٧.

(٢٥) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص:١٦٨؛ البُخاري، أبوعبد الله محمّد(ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)، **صحيح البخاري**، ط.١، دار ابن كثير للطّباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص: ٤٩٩.

(٢٦) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص: ١٥١.

(٢٧) نفسه، ص: ٣٤.

(٢٨) البخاري، المصدر السابق، ص: ١٧٦٤-١٧٦٥؛ مسلم أبو حسين، بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م)، **صحيح المسلم المسمّى المسند الصحيح المختصر من السنة**، د.ت، ص:٨٩٢.

(٢٩) الشْيزِري، عبد الرحمن بن عبد االله بن نصر (ت. ٥٤٠هـ/١١٤٥م)، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، تحقيق محمّد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، منشورات علي بيضون/ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت، ص: ٨٨.

(٣٠) الطّرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد الفهري (ت. ٥٢٠هـ/١١٢٦م)، **سراج الملوك**، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، ط.١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج١، ص:٢٠٥.

(٣١) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص: ١١٥.

(٣٢) نفسه، ص:١١٧-١١٨.

(٣٣) الوزّان، الحسن بن محمّد الفاسي المعروف بليون الإفريقي (ت. بعد ٩٥٧هـ/١٥٥٠م)، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمّد حجي ومحمّد الأخضر، ط.٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1404هـ/١٩٨٣م، ج٢، ص: ٤٤.

(٣٤) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص: ١١٨.

(٣٥) الشيزري، المصدر السابق، ص:٧٩.

(٣٦) مرمول، كربخال (كان حيًا سنة ٩٧٩هـ/١٥٧١م)، **إفريقيا**، ترجمة محمّد حجي وآخرون، دار نشر المعرفة، الرباط، ١٤٠٨- ١٤٠٩هـ/١٩٨٨ - ١٩٨٩م، ج٢، ص:٣٠١.

(٣٧) المغيلي، محمّد بن عبد الكريم التلمساني (ت. ٩٠٩هـ/١٥٠٣م)، **تاج الدّين فيما يجب على الملوك والسلاطين**، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، ط.١، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 1415هـ/١٩٩٤م، ص:٤٨.

(٣٨) التّنسي، المصدر السابق، ص: ٢٣٥.

(٣٩) الزّركشي، أبو عبد االله محمد بن براهيم (كان حيا سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م)، **تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية**، تحقيق وتعليق محمد ماضور، ط.٢، المكتبة العتيقة، تونس، 1386هـ/١٩٦٦م، ص: ٨٥-٨٦.

(٤٠) الوزّان، المصدر السابق، ج٢، ص: ٢٣.

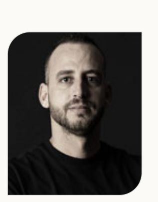
(٤١) عن علاقة القبائل الزيانية بالسلطة المركزية. يُنظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج٧، ص:٥٩، ٦١-٦٢، ٦٥؛ مختار حساني، **تاريخ الدولة الزّيانية**، منشورات الحضارة، الجزائر، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ج٢، ص: ١٠١.

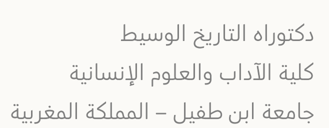
(٤٢) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص:١٣٩-١٤٠.
(٤٣) نفسه، ص: ٣٤-٣٥.
(٤٤) نفسه، ص: ١١٢.
(٤٥) نفسه، ص:١١٥-١١٦، ١١٨.
(٤٦) نفسه، ص: ١٣٩؛ المغيلي، المصدر السابق، ص: ٤١.
(٤٧) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص:١٤٨، ١٥١.
(٤٨) نفسه، ص: ٣٥، ١٣٩.
(٤٩) نفسه، ص: ٢٧٩-٢٨٠.
(٥٠) نفسه، ص: ٣٥؛ الماوردي، تسهيل النظر، ص: ٢٧٧-٢٧٨.
(٥١) أحمد أسعد محمود إبراهيم، **السّياسة الاقتصادية في خلافة الإمام علي بن أبي طالب**، رسالة ماجستير، قسم الفقه والدّراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، الأردن، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص: ٣١؛ أحمد عبد العزيز المزيني، **الموارد المالية في الإسلام**، ط.١، دار ذات السلاسل، الكويت،١٤١٨ه/١٩٩٤م، ص: ٣٦-٣٨.
(٥٢) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص:١٤٨.
(٥٣) نفسه، ص: ١٤٠.
(٥٤) نفسه، ص: ١٠٢.
(٥٥) نفسه، ص: ١٣٩.
(٥٦) أحمد أسعد محمود إبراهيم، المرجع السابق، ص:٣٣؛ أحمد عبد العزيز المزيني، المرجع السابق، ص:٣٢، ٣٩.
(٥٧) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص: ١٨٤- ١٨٥.
(٥٨) نفسه، ص: ٢٩؛ فوزي عطوي، **الاقتصاد والمال في التّشريع الإسلامي والنّظم الوضعية**، ط.١، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص:٤٣-٤٤.
(٥٩) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص:١١٩.
(٦٠) نفسه.
(٦١) نفسه.
(٦٢) نفسه، ص:١٣٢.
(٦٣) نفسه، ص: ١١٥.
(٦٤) الوزّان، المصدر السابق، ج٢، ص:٢٢.
(٦٥) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص:١١٢.
(٦٦) نفسه، ص: ٩١؛ إدريس بن مصطفى، **العلاقات السّياسية والاقتصادية للمغرب الأوسط مع إيطاليا وشبه الجزيرة الإيبيرية في عهد الدّولة الزّيانية**، رسالة ماجستير، كلّية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، الجزائر،١٤٢٧-١٤٢٨هـ/٢٠٠٦-٢٠٠٧م، ص٢٢-٢٣؛ خالد بلعربي، **ورقات زيانية دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب الأوسط في العهد الزّياني**، دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر،١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ص:٦٠.
(٦٧) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص:١٨٤.
(٦٨) محمّد غربي، المرجع السابق، ص:٣٧.
(٦٩) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص: ١٨٤.
(٧٠) نفسه.
(٧١) نفسه، ص١١٣؛ ابن خلدون، عبد الرحمن (ت. ٨٠٨ه/١٤٠٥م)، **مقدّمة ابن خلدون**، ضبطه خليل شحادة وراجعه سهيل زكّار، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان،١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ج١، ص:٣٠٢.
(٧٢) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص: ١١٣.
(٧٣) نفسه، ص:١٨٤.
(٧٤) نفسه، ص: ١١٨.
(٧٥) نفسه، ص:١٠٢.
(٧٦) نفسه، ص: ١٨٥.
(٧٧) نفسه، ص: ١٨٥.
(٧٨) نفسه، ص:٣٤-٣٥.
(٧٩) نفسه، ص: ٣٥؛ الشيزري، المصدر السابق، ص: ٩٣.
(٨٠) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص: ١٠٢، ١٤٠.
(٨١) نفسه، ص:١١٧.
(٨٢) نفسه، ص: ١١٣-١١٤.
(٨٣) نفسه، ص:١٨٥-١٨٦.
(٨٤) نفسه.
(٨٥) نفسه، ص: ٣٣؛ وداد القاضي، المرجع السابق، ص: ٥٩.
(٨٦) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص: ٤٨؛ بسّام كامل عبد الرزاق شقدان، **تلمسان في العهد الزّياني(٦٣٣-٩٦٢هـ/١٢٣٥-١٥٥٥م)**، رسالة ماجستير، كلّية الدّراسات العليا، جامعة النّجاح، فلسطين، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص: ٨١-٨٢.
(٨٧) خالد بلعربي، المرجع السابق، ص:١٩٧؛ محمّد غربي، المرجع السابق، ص: ٣٤.
(٨٨) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص:١٣٧-١٣٨.
(٨٩) نفسه، ص: ١١٥.
(٩٠) نفسه، ص: ١٣٩.
(٩١) نفسه، ص: ١١٥-١١٦؛ لخضر العربي، **الحرف وتنظيماتها في مدينة تلمسان الزّيانية**، مجلّة الناصرية للدّراسات الاجتماعية والتّاريخية، جامعة معسكر، العدد٤٠، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص:٣١٩.
(٩٢) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص: ١٥١.
(٩٣) نفسه، ص: ١٥١-١٥٢.
(٩٤) نفسه، ص: ١٥٢، ١٦٧.
(٩٥) نفسه، ص: ٣٧، ١٠٨.
(٩٦) نفسه، ص: ١٤٠-١٤١.
(٩٧) نفسه، ص: ٣٧، ١١٦، ١٥٥.
(٩٨) نفسه، ص: ١١٩، ١٥٣.
(٩٩) نفسه، ص: ١٩٩.
(١٠٠) نفسه، ص.٢٠؛ ابن خلدون، أبو زكرياء يحي (ت. ٧٨٠هـ/١٣٧٨م)، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتّوزيع، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ج٢، ص: ٣٩.
(١٠١) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص: ١١١.
(١٠٢) نفسه، ص: ٣٥، ١٦٨.
(١٠٣) ابن خلدون يحي، المصدر السابق، ج١، ص: ٢١٩.
(١٠٤) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص: ١١٤.
(١٠٥) نفسه، ص: ٤٨-٤٩.
(١٠٦) المازوني، أبو زكرياء يحي بن موسى بن عيسى (ت. ٨٣٣هـ/١٤٧٨م)، **الدّرر المكنونة في نوازل مازونة**، دراسة وتحقيق قندوز ماحي، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، د.ت، ج٢، ص: ٧٢٤-٧٢٥؛ الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحي (ت. ٩١٤هـ/١٥٠٨م)، **المعيار المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمّد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرّباط، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج٦، ص: ٣٢٩، ٣٣٧، ٣٣٧-٣٤٣.
(١٠٧) أبو حمّو الثاني، المصدر السابق، ص: ١٥٧.
(١٠٨) نفسه، ص: ١٥٨-١٦٩.
(١٠٩) نفسه، ص: ١٨٦.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

ذهنية النهب والتخريب
جذور العنف في مغرب ما قبل الاستعمار





د. حسن بودلال

دكتوراه التاريخ الوسيط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّص

نصادف في واقعنا اليومي أو من خلال وسائل التواصل الاجتماعي الكثير من مظاهر العنف، مثل تخريب الحدائق والملاعب، ونهب شاحنات السلع المنقلبة في حوادث السير، وهي أفعال تبدو أنها من "غير هدف"، ودون سبب واضح. تحاول هذه الدراسة، الحاملة لعنوان "ذهنية النهب والتخريب": جذور العنف في مغرب ما قبل الاستعمار"، الوقوف عند جذور هذا العنف الكامن، ورصد "تشكل ذهنية النهب والتخريب" عبر سيرورة الزمن، من خلال تتبع أشكال النهب والتخريب التي مارسها المخزن والقبائل، ومحاولة استجلاء الدوافع والغايات التي تقف وراءها، ثم كيف تحول النهب إلى "ظاهرة اجتماعية"، وإلى "نمط عيش"، في ظل قلة الأمن وضعف الإنتاج الاقتصادي، وكيف انزرع النهب والتخريب في ذهنية وسلوك الإنسان، حيث استمرت آثاره إلى حدود الحاضر. وقد توصلت الدراسة إلى أن الدولة لجأت إلى التخريب بدوافع وغايات مختلفة، استهدفت من جهة معاقبة القبائل العاصية من خلال حرمانها من وسائل الإنتاج وتكوين الثروة، كما استعانت بالآثار النفسية التي تخلفها مشاهد التخريب والتدمير من أجل تحذير القبائل التي تنوي التمرد من المصير الذي ينتظرها. وقد هدفت ممارسات التخريب في بعض الأحيان إلى الحصول على المواد الأولية، من أخشاب وأحجار وجوائز، بغرض إعادة استعمالها، نظرًا لقلتها من جهة، أو صعوبة نقلها نتيجة مشاكل النقل والتنقل.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٨	يناير	٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر:	٢٤	فبراير	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

العنف؛ النهب؛ التخريب؛ المغرب؛ المخزن؛ القبائل؛ الإسبان؛ البرتغاليون

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.353906 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسن بودلال, **"ذهنية النهب والتخريب: جذور العنف في مغرب ما قبل الاستعمار"**.- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ٦٣ – ٧٣.

Corresponding author: hassanboudlal01@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

نصادف في واقعنا اليومي أو من خلال وسائل التواصل الاجتماعي الكثير من مظاهر العنف، مثل تخريب الحدائق والملاعب، ونهب شاحنات السلع المنقلبة في حوادث السير، وسرقة المحلات والأسواق المحترقة[١]، أو حتى بعض أشكال النهب التي تنسب لرجال السلطة أو أعوانها[٢]، وهي ظواهر تبدو للوهلة الأولى عصية عن الفهم، لكن التاريخ، والذي سعى في مرحلة من المراحل إلى تزعم مختلف العلوم الإنسانية[٣]، يعتبر–في نظرنا– قادر على خلخلة مضمرات هذه الظواهر، والنبش في جذورها، وتتبع خيوط تكونها واختراقها لغشاء الزمن. كما يعد البحث في هذه الظواهر "السلبية" منسجما مع الاتجاه الذي عبر عنه بعض المؤرخين[٤]، من ضرورة عدم الاقتصار على المواضيع ذات الصبغة "الإيجابية" بل وتتبع الظواهر "المؤلمة" في تاريخينا، لأن دراستها والنفوذ إلى أغوارها، كمين بكشف أسباب ومثبطات "التقدم" في تاريخ مجتمعاتنا، والوقوف عند مكامن العطب في تاريخنا، مقارنة بالقفزات الكبرى التي عرفها تاريخ الضفة المجاورة/ أوربا.

ويتأسس، كذلك، على التغيرات التي عرفها حقل التاريخ، إذ إن حقل الذهنيات شهد انبثاقه وازدهاره مع التوسع الكبير للتاريخ وانفتاحه على باقي العلوم، مع الجيل الثالث من مدرسة الحوليات[٥]، لذلك فإن الباحث في التاريخ لا يجد مناصا من الاستعانة بالعلوم المجاورة في إطار التلاقح المعرفي الشيء الذي يساعد على النفوذ إلى أعماق البنى الذهنية التي كانت تحكم المغربي في إطار علاقته بمجتمعه وبالطبيعة المحيطة به.

أولاً: الفاعلون في النهب

١/١–المخزن و"سياسة النهب والتخريب"

مارست مختلف الدول التي تعاقبت على حكم المغرب "سياسة النهب"، ففي العصر الوسيط، شكلت هذه السياسة أحد أهم الركائز التي استندت عليها الدولة والاقتصاد، فيما أسماه أحد الباحثين "بأسلوب الإنتاج الحربي"[٦]، إلى جانب مداخيل التجارة الصحراوية[٧]، لكن هذه الأخيرة، ومنذ القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، تدهورت مداخيلها، بفعل سيطرة القبائل المعقلية على الطرق التجارية الصحراوية، ووصول البرتغاليين إلى سواحل إفريقيا الغربية عقب حركة الاستكشافات الجغرافية، مما جعل المخزن يفقد جزءا مهما من مداخيل هذه التجارة التي كان يبني عليها توازناته المالية، وما زاد الطين بلة انقطاع الجهاد في الأندلس، والذي كان مصدرًا ماليًا مهمًا، ناجمًا عن الغنائم التي كان يجمعها المغاربة في حملاتهم العسكرية بإسبانيا[٨].

أمام هذه الوضعية المالية الخانقة، وفي ظل الحاجة الكبيرة إلى الموارد، لجأ المخزن إلى فرض مزيد من الضرائب، وهو ما شكل مناسبة لممارسة أشكال متنوعة من النهب من قبل أعوانه، حتى في أوقات الأزمات، إذ إن العمال والقواد والشيوخ كانوا لا يترددون في حجز ونهب الدواب الناجية من الجفاف[٩] أو الأقوات الباقية عقب المجاعات، بل كان المخزن في الكثير من الأحيان ما يستفيد من الأوبئة والمجاعات بحيث يستولى على تركة المتوفين دون وارث.

أسهم هذا التعسف الضريبي في إفقار الفلاحين، فحسب الحسن الوزان، الذي عاش وتجول في مختلف ربوع البلاد خلال القرن ١٠هـ/١٦م، فإنه لم يعد سوى القليل منهم من يستطيعون توفير ما يلزمهم ضرورة من لباس وطعام[١٠]، مما كان يدفع السكان نحو العصيان والتمرد، فأسهم ذلك في انتشار حالة "السيبة"، وأجبرت المخزن على التدخل، ونهج أسلوب المحلات (الحملات العسكرية) لاستخلاص الجبايات، مع ما يرافق ذلك من أساليب العسف والنهب والتخريب والتي كانت تمتص ثروات السكان القليلة وتنهك قوى الإنتاج، ذاك أن المنصور السعدي (١٥٧٨–١٦٠٣م) عندما أوقع بأهل الغرب والخلط، "انتزع منهم الخيل والسلاح والمواشي والخيام، وتركهم يتكففون في القبائل ويسرحون ويحرثون بالخمس في تامسنا"[١١].

استُدمج النهب في المنظومة المخزنية، وأصبح يعبر عنه باصطلاحات كـ "الأكل"[١٢] أو "الرعي"[١٣]، ولم يعد وسيلة لجمع الموارد فقط، بل تحول إلى "سلاح" في يد السلطان لتطويع القبائل العاصية، إذ كان المخزن "يأكل" كل من سولت له نفسه الخروج عن طاعته، وكانت ثروة

القبيلة العاصية من حبوب ومواشي عرضة للنهب والتدمير، فعند حدوث ثورة بسوس، أرسل المنصور السعدي جيشا لسحقها، "فاكتسحوا السرح وانتسفوا الزرع وخربوا العمران ودمروا أرض المارقين تدميرا، حتى أذعن لهم جل قبائل السوس"(١٤). وحينما أوقع إسماعيل العلوي (١٦٧٢-١٧٢٧م) بقبائل فازاز، "سبيت نساؤهم وأولادهم، وحيزت مواشيهم وأنعامهم وخيلهم، واستمر فيهم القتل والنهب ثلاثة أيام"(١٥). وكان المخزن يهدف، من وراء ""سياسة النهب" هاته، إلى إضعاف القبيلة العاصية ودفعها للاستسلام، ولثني القبائل الأخرى عن أي تفكير في الخروج عن الطاعة(١٦).

كما كان النهب وسيلة لأداء "مستحقات" الجند، فقد كان الجيش المرافق لعبد الله بن إسماعيل في حملته على دكالة "لا يتعيشون إلا بالنهب"(١٧)، أو لمكافئة القبائل الموالية لقاء مشاركتها في الحملات العسكرية، حيث قامت قبائل الغرب بنهب أهل الساحل بين طنجة وتطوان، "فنهبوهم وحرقوا دشورهم واحتووا على مواشيهم"(١٨)، بأمر من سلامة بن محمد في إطار صراعه مع أخيه سليمان على عرش المغرب.

ولكن كثيرًا ما انقلب هذا "السلاح" على مستعمليه، فالقواد والعمال والشيوخ، الذين كانوا يشتغلون في العسف وتكديس الثروات، كثيرا ما كانوا يتعرضون للنهب من المخزن نفسه فيما يعرف "بالتتريك" أو "المصادرة"(١٩)، كما أن السلاطين أنفسهم كانوا معرضين للنهب من طرف منافسيهم على العرش، مثلما حدث في فترة الثلاثين سنة (بين١٧٢٧-١٧٥٧م) من الاضطرابات التي أعقبت وفاة إسماعيل، إذ قام عبد الله بالهجوم على دكالة التابعة لأخيه المستضيء، "ففر أهلها...واشتغلت العساكر بنهب الزرع من الأمراس، واستخراج الدفائن والهمائل، وتخريب القرى وقطع الأشجار... إلى أن فرغت العساكر من أمر دكالة ولم يبق بها ما يأكله الطير أو يتظلل به"(٢٠). أما السلطان محمد بن عبد الله (١٧٥٧-١٧٩٠م) فلم يستثني ولده عبد الرحمان من هذا المصير فقد أغار على أملاكه ونهب ما فيها من "البقر والغنم والخيل والبغال"(٢١).

٢/١-الإسبان والبرتغاليون: النهب الممنهج

أسهم تزايد قوة الدول المسيحية منذ هزيمة العقاب سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م)، واشتداد قبضتها على البحر الأبيض المتوسط(٢٢)، إلى ارتفاع هجماتها البحرية التي استهدفت السواحل المغربية، والتي ركزت على نهب ممتلكات السكان، وتحديدا من المواشي والدواب، فعندما هاجم الإسبان سواحل بادس، أرسلوا فرقا عسكرية إلى السهل "لاختطاف بعض القطعان"(٢٣)، وكذلك في مليلة(٢٤)، ويتبين من النصوص أن أعداد الرؤوس التي حصلوا عليها كان كبيرًا(٢٥).

إلى جانب ذلك، لجأ البرتغاليون، الذين استولوا على العديد من المدن الساحلية والسهول الغنية المحيطة بها خلال القرنين (٩-١٠هـ/١٥-١٦م)، إلى حملات ممنهجة لنهب السكان(٢٦)، مما أدى إلى استنزاف الثروة الحيوانية بالسهول الأطلسية(٢٧)، وانضاف إلى ذلك غارات المتعاونين معهم من المغاربة، ففي رسالة لعبد الرحمان بن حدو، أحد أتباع أوتعفوفت، إلى ملك البرتغال يقول: "ونُعلمك أن...حركنا للحوز وأكلنا ثلاثين دوارا بمالها ونسائها"(٢٨). ويتضح بجلاء حجم الدمار الذي خلفته هذه الحملات على المنطقة، إذ جردت السكان من مواشيهم ودوابهم(٢٩)، وأفرغت مطامير الزرع، وأحرقت القرى والمداشر، وأرغمت الكثير من القبائل على الفرار، وتركت تلك السهول فارغة من السكان وغدت مقيلا للحيوانات المتوحشة(٣٠).

٣/١-النهب: "ظاهرة" مجتمعية

نتج عن الأزمات المتلاحقة التي ضربت المجتمع المغربي، من قحوط ومجاعات وأوبئة(٣١)، وما رافقها من حروب وقلة الأمن، تحول النهب، وما يصاحبه من تخريب، من فعل فردي إلى ممارسة "مقبولة" اجتماعيا، باعتباره "ضرورة" للبقاء، وغدى فعلا "مؤسسا" وعاما؛ حيث إن الحرب والنهب المرافق لها، ارتقى "إلى مستوى صناعة تسترزق منها أعداد هائلة من ساكنة المغرب"(٣٢) منذ العصر الوسيط، وهو ما انعكس على الذهنية العامة التي تكيّفت مع هذا الفعل، لدرجة أن بعض قبائل زمور، خلال القرن التاسع عشر، صارت "تعتبر السرقة عملاً مشروعًا"(٣٣).

وفي السياق نفسه، تطورت وظيفة الكثير من الزوايا من إطعام المحتاجين وإيواء الغرباء، إلى ممارسة أشكال مختلفة من العسف والشطط، وامتصاص موارد الفلاحين القليلة، كإلزامهم بتقديم جزء من المحصول للزاوية، أو إسداء خدمات متنوعة دون مقابل (السخرة)، مثل المشاركة في الحصاد والدراس لصالح الزاوية، أو جلب الحطب لها(٣٤). كما تعرضت الزوايا المعارضة، رغم ما كونته من رصيد "القدسية" باعتبارها حُرُمًا، للنهب من طرف المخزن، فقد بعث محمد بن عبد الله (١٧٥٧-١٧٩٠م) جيشه لزاوية بني توزين بالريف، "فنهبوا ما وجدوا في دورها من سمن وعسل وزرع وأثاث وغير ذلك وحرقوا الدور وهدموها"(٣٥).

تعمقت أزمة الأمن مع تفكك الدولة المركزية، وارتخاء قبضتها الأمنية، بعد هزيمة العقاب سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م)، وبفعل سيطرة قبائل بدوية، دَيْدنُها الغزو والنهب، على مجال المغرب، كالمرينيين وبني هلال وبني معقل(٣٦)، مما أدى إلى استفحال أعمال السرقة والنهب، وتزايد حالاتها منذ القرن (٦هـ/١٢م)(٣٧)، واشتد الحال في القرون التالية(٣٨) نتيجة الوضعية السياسية المتأزمة، وقد لخص الرحالة الأندلسي ابن الصباح حال بلاد المغرب خلال القرن (٩هـ/١٥م)، بقوله: "جميع هذا البر العدوي[المغرب] المذكور كثير الحُرميات [اللصوص]، والقطّاع في جميع الأقطار من هذا البر المذكور من بلاد بني مرين"(٣٩).

عمدت الكثير من القبائل إلى النهب في إطار الصراع مع القبائل الأخرى للسيطرة على المجالات الرعوية أو الزراعية الخصبة، أو الممرات التجارة، التي كانت مصدر دخل للكثير من القبائل البدوية، في مجالات المغرب الصحراوية، سواء من عمليات النهب في حد ذاتها(٤٠)، أو من خلال ما يحصلون عليه لقاء حراسة القوافل من هجمات اللصوص(٤١). كما أن الأعراب الرحل مارسوا عدة أشكال من العسف والغصب على السكان المستقرين، مما كان يدفع هؤلاء إما للهروب أو الإقلاع عن الزراعة وتربية الماشية(٤٢).

توسعت عمليات النهب والتخريب لتشمل الوحدات الاجتماعية المتجانسة نسبيا، فقد انتشرت داخل نسيج القبيلة الواحدة، وذلك في إطار "الصراعات الانقسامية" في مستوياته العليا بين اللفوف والفخذات، أو في مستوياته الدنيا بين الخيام والدواوير، فقد نشب صراع خطير بين قبائل الشاوية، "وأخذو في قتل بعضهم بعضا، ويحرقون [كذا] الزرع والتبن، ويخطفون الماشية ويطلّعون الأمراس، حتى كان الرجل يقتل الرجل، ويشق بطنه ويشرب دمه من جوفه"(٤٣). إنها إشارة تبين مدى قسوة الظروف، وحجم التطاحن بين الإنسان وأخيه في مغرب ما قبل الاستعمار.

هكذا انتشر النهب واستفحلت السرقة في "كل مكان"، ومارسه الأفراد والجماعات، ولم يسلم أحد منه، فالموكب الحجي، رغم ما كانت ترافقه من هالة و"قدسية"، نهب في العديد من المرات(٤٤)، كما تعرضت البعثات الدبلوماسية الأوربية إلى المغرب للسرقة(٤٥). وكصدى لهذا الانتشار الواسع للنهب، فإن كتب النوازل تكررت بها أسئلة كثيرة حول الأشياء المغصوبة من ماشية وأثاث ولباس(٤٦)، إذ طرح النهب إشكالات فقهية، ما بين اعتباره فعلا محرما ومحظورا من جهة، وممارسة مقبولة اجتماعا، في ظل نسق تطبعه القلة، من جهة ثانية.

ثانيًا: دوافع النهب والتخريب ووظائفه

٢/١-النهب "كنمط عيش"

تحول النهب والسرقة إلى "نمط عيش"، نتيجة الفقدان الدائم للأمن وقلة الإنتاج وجور السلطة، حيث تخلى الكثير من الفلاحين عن الحراثة، وصاروا يمارسون أعمال اللصوصية وقطع الطريق، فقد أشار الوزان، خلال القرن (١٠هـ/١٦م)، إلى أن سكان جبل بني خالد يلجؤون إلى النهب والسرقة بفعل فقرهم الشديد وثقل الضرائب المفروضة عليهم(٤٧)، أما الرحل في الصحراء فيقضون "حياتهم كلها حتى الموت، في الصيد واختطاف جمال أعدائهم"(٤٨). وساعد على فشوّ أعمال السرقة والنهب، وجود منظومة اقتصادية قابلة لدمج السلع المسروقة، إذ أن السراق لم يجدوا أي صعوبة في إعادة طرح المواد والمواشي المسروقة في نظام التبادل، فقد كانت بعض قبائل الصحراء تستبدل المواشي المسروقة بالتمر(٤٩).

تتضح الغاية الاقتصادية للنهب من خلال تركيز اللصوص على نهب البهائم، حيث استهدفت السرقة جميع أنواع المواشي(٥٠) والدواب(٥١)، وكانت عرضة للغصب في مختلف الأماكن، فقد سُرقت البهائم من مراعيها(٥٢)، ومن زرائبها(٥٣). ويظهر أن أعمال سرقة المواشي كانت تزيد حدتها عند اقتراب عيد الأضحى(٥٤). وكان المسافرون معرضون أكثر من غيرهم لخطر السلب، وكثيرا ما فقد التجار مواشيهم(٥٥)، وسرقت دابة ابن تومرت، في عودته من المشرق، خلال نزوله قرب سلا(٥٦)، وسلب الأعراب فرس الوزان في إحدى رحلاته(٥٧)، وتخصصت بعض القبائل في سلب دواب المسافرين، إذ كان أعراب العمارنة، خلال القرن (٨هـ/١٤م)، يكثرون "الغزو إلى اعتراض العير"(٥٨) في القفر.

بالإضافة إلى ذلك، لجأت الكثير من القبائل البدوية إلى أعمال النهب لتحقيق التوازن في مواردها، حيث إن مداخيلها من تربية الماشية، خاصة في المناطق الجافة الفقيرة، لم تكن تسمح لها بتحقيق الاكتفاء في الموارد(٥٩). إلى جانب ذلك مارست القبائل الأعرابية، خلال القرن (١٠هـ/١٦م)، أعمال التخريب في المناطق السهلية الأطلسية الغنية، لمنع الفلاحين من العودة لأعمال الزراعة، وحتى يتسنى لها الحفاظ على نمط إنتاجها القائم على الرعي والتنقل(٦٠)، حيث أسهم توطين قبائل الخلط وسفيان ورياح في دكالة وتامسنا وأزغار في تراجع الزراعة، وزادت عمليات النهب والسرقة، وهو ما يمكن ملامسته من خلال ارتفاع منسوب الإشارات والكرامات المتعلقة بأعمال اللصوصية والنهب والتخريب في المصادر انطلاقا من القرن (٦هـ/١٢م)(٦١).

٢/٢–إعادة التوزيع في اقتصاد "القلة"

انتشرت هذه الظواهر نتيجة الصراع الشديد حول الموارد من أجل ضمان البقاء؛ ففي ظل سيادة طابع مناخي تغلب عليه القحولة وتوالي سنوات الجفاف، وزيارة المجاعات والأوبئة بشكل دوري(٦٢)، وما يتبعها من تراجعات سكانية(٦٣)، وبدائية التقنيات، انطبع الاقتصاد بسمة "القلة" و"الندرة"(٦٤)، مما جعل التدافع حول توزيع هذه الموارد القليلة شديدا، وتحول، في الكثير من الأحيان، إلى نهب وسرقة وتخريب بين مختلف الأطراف. وقفت عدة دوافع وراء عمليات النهب والسلب، إلا أن أهمها يرتبط بالفقر والحاجة، إذ كانت اللصوصية سبيلاً للبقاء، وتحديداً في المناطق الفقيرة كالصحراء(٦٥)، والجبال الشحيحة، مثل جبل بني يَدَّرّ بالريف، حيث السكان "بسبب فقرهم يقتلون الغرباء ويسلبونهم"(٦٦)، أو جبل دادس، حيث "الرجال غادرون متلصصون سفاكون يقتلون الرجل من أجل بصلة"(٦٧). بالإضافة إلى دور الجوع، في الأزمات الغذائية، كدافع بيولوجي وراء السرقة(٦٨).

لقد كان النهب، كممارسة اجتماعية، تتوخى "إعادة التوزيع في بيئة تعرف الندرة والاختلال الدوري بين الساكنة والموارد"(٦٩)، في ظل مجتمع يتميز بقلة الإنتاج وتذبذبه، وضعف المبادلات وقلة استعمال النقد وغياب مكاييل وأوزان موحدة، ويقوم فيه الاقتصاد على أشكال من المبادلة و "معاوضة المصالح والأمتعة، في مدة تطول أو تقصر، وعلى جملة من أشكال المهاداة بالمناسبات، والتآزر أيام الشدة، والتكافل بصفة عامة"(٧٠).

٣/٢–النهب والتخريب: أداة "إخضاع" سياسية

عرف المغرب طوال تاريخه ظاهرتي النهب والتخريب، لكنهما استفحلتا في بعض الفترات(٧١)، خاصة زمن التطاحنات السياسية حول السلطة، والتي اعتبرت ظاهرة بنيوية، إذ تنشب الحروب عند وفاة كل سلطان نظرا لغياب "قاعدة محددة لوراثة الحكم"(٧٢)، مما كان يقود إلى أزمات يطول أمدها، مثلما حدث عقب وفاة أبي عنان المريني سنة (٧٥٩هـ/١٣٥٨م)، أو المنصور السعدي سنة (١٠١١هـ/١٦٠٣م)، أو إسماعيل العلوي عام (١١٣٩هـ/١٧٢٧م)، والتي تطلبت جهودا كبيرة من الحكام الجدد لتجاوز حالة انفلات الأمن ومراقبة التراب، من خلال القيام بحملات عسكرية عنيفة و"مُخربة" لإخضاع الخصوم والقضاء على القبائل المتمردة.

ولعل مما يثير الانتباه أن هذه الحملات العسكرية لم تكن تقتصر على نهب الثروات القليلة التي لدى السكان من الحبوب والدواب(٧٣)، بل كانت تتجاوز ذلك إلى "التخريب"، حيث لا تتوانى عن إحراق الحقول(٧٤)، وقطع الأشجار(٧٥)، وتخريب البنايات(٧٦)، بل امتدت أيدي

التدمير إلى الأماكن المقدسة لدى السكان مثل المساجد والزوايا والحرم والقبور[٧٧]، وهي سياسة كان يهدف المخزن من ورائها إلى تدمير الأساس المادي للقبيلة أو الزاوية العاصية، بضرب قوتها ووسائلها الإنتاجية، كما تندرج ضمن "الحرب النفسية" على الخصم من خلال قوة "مشاهد التخريب" وتأثيرها في النفوس خاصةً تخريب الأماكن ذات "القدسية" لدى السكان.

وفي ذات السياق جعلت الحركات المتمردة، من النهب والحصول على الدواب، وخاصة الخيل، "أولوية عمليّاتية"، لتقوية جانبها ولاكتساب المزيد من الأتباع، وإرهاب القبائل المناوئة، مثلما فعل بنو مرين سنة (٦١٣هـ/١٢١٦م)، عندما قتلوا عامل الموحدين على تازا، فقد قام أميرهم عبد الحق بجمع خيل الغنائم، ووزعه على المرينيين، "فأعطا الخيل لمن لم يكن له فرس من قومه"[٧٨]. كما عمد حفيد عمر السياف، المتمرد في قلعة المريدين بحاحا، إلى إرسال فرسانه لسلب الماشية[٧٩]، وهو ما منحه الأساس الاقتصادي للصمود أمام حصار وعداوة جيرانه من القبائل[٨٠]. وكذلك ذهبت ماشية الأهالي ضحية الصراع بين الدولة ومناوئيها، مثلما حدث في الصراع المريني-الموحدي[٨١].

٤/٢-التخريب بغرض "إعادة التدوير"

هدف التخريب في الكثير من الحالات إلى الحصول على "مواد أولية" كالأخشاب والأحجار والجوائز من البنايات القائمة، وهو ما نلمسه من خلال عمليات التخريب التي كانت تطال البنايات، سواء من طرف الدولة أو القبائل أو الأفراد، على غرار ما قام به السعيد الموحدي، سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م)، حيث نقض "جامع حسان الذي برباط الفتح، وصنع بخشبه الأجفان الغزوانية، فكانت مباركة فأحرقت بوادي أزمور"[٨٢]، ويظهر أن السعيد خرب ما بناه سابقوه نظرا لأزمة الخشب[٨٣] ولحاجته الماسة إلى بناء الأسطول لإعادة توطيد أركان الإمبراطورية الموحدية المتداعية.

تكررت في تاريخ المغرب ظاهرة تدمير اللاحق لما بناه السابق، ويتراءى ذلك جليا في إقدام السلطان إسماعيل العلوي على تخريب قصر البديع، الذي بناه المنصور السعدي، ونقلت بعض مواده لبناء القصور في مكناس، ولم تبق منطقة في "المغرب إلا ودخلها شيء من أنقاض البديع"[٨٤].

لا شك أن العوامل السياسية تحكمت في تصرفات سلاطين الدول، من خلال تدمير الرموز السياسية للدول السابقة، إلا أن ممارسة هذه الأعمال من طرف الدول والقبائل، يظهر الرغبة الكامنة في إعادة تدوير المواد السابقة الاستعمال، نظرا لقلتها كالأخشاب[٨٥]، أو بسبب صعوبة نقلها كالأحجار نتيجة بدائية وسائل النقل وغياب الطرق والقناطر وقلة الدواب وهزالها[٨٦]، كما أن البنايات المدمرة، مثل القصور، كانت تتضمن مواد رفيعة القيمة يصعب الحصول عليها، مثل الرخام، فكان الحل الأسهل أمام الدول أو القبائل هو نهبها من البنايات الموجودة.

٥/٢-ترسّخ "قيمة" النهب في الذهنية

أثرت الذهنية العامة في انتشار النهب والتخريب وتأثرت بدورها بهذه الأعمال، حيث تجسد ذلك في احتقار العمل بصفة عامة، وخاصة العمل الزراعي، الذي كان النشاط الرئيس لغالبية السكان. فقد كان رجالات الدولة، وهم في الأغلب من البدو، ينظرون بازدراء إلى الحراثة ومتعاطيها، وقد تأثرت "نخبة الدولة" بهذه الأفكار وروجت لها، كابن أبي زرع[٨٧]، وابن خلدون الذي اعتبر الزراعة "معاش المستضعفين"[٨٨]، ولم يخف الوزان احتقاره لأهل البادية من الزراع[٨٩].

لم تقتصر هذه النظرة على رجال الدولة أو البدو، بل هو موقف اتخذته مختلف فئات المجتمع من الخاصة والعامة[٩٠]، حيث كان ينظر إلى العمل الشاق والمنتج بازدراء. في المقابل حصل نوع من "القبول الاجتماعي" لأعمال الغزو والنهب، خاصة عند القبائل البدوية المتعودة على الغزو[٩١]، إذ لم يتقبل الصنهاجيون إرادة عبد الله بن ياسين تطبيق الحدود الشرعية في السارق، واعتبروها قاسية[٩٢]، وفي القرن (١٣هـ/١٩م) كانت بعض قبائل زمور تعتبر السرقة عملا مشرفا[٩٣]، وذهب أحدهم إلى أن "البدوي يُدرب وهو طفل على القيام بأعمال سرقة، على أن يمارسها اتجاه القبائل الغريبة فقط"[٩٤].

في المقابل، مُجّدت أعمال الغزو والنهب والتخريب، فمؤرخ الدولة المرينية يصف بافتخار قبيل بني مرين بأنهم كانوا "لا يعرفون الحرث ولا التجارة، ولا يشتغلون بغير الصيد وطراد الخيل والغارة"[٩٥]، أما صنهاجة الصحراء فـ"ليس دأبهم إلا إغارة بعضهم على بعض"[٩٦]، ونعت ابن خلدون القبائل التي تعتمد في معاشها على الظعن والغزو "بأهل العزّ"[٩٧]، وتبعا لذلك مَجَّدَ المجتمع خصال الشجاعة والفروسية[٩٨] التي تتطلبها أعمال الغزو والنهب، ولم تُبدِ النصوص أي استنكار لأعمال التخريب المصاحبة لهذه الأعمال. ولعل من الإشارات الدالة على انغراس النهب في الذهنية والسلوك ما أشار إليه الوزان بخصوص أعراب الصحراء، فرغم أنهم يعيشون عيشة فارهة مثل الملوك، ويملكون أكثر مما يملك الحضريون، "غير أنهم لا يؤتمنون لعدم تورعهم عن النهب والقتل، رغم مجاملتهم البالغة"[٩٩].

خَاتِمَةٌ

يُعَدّ النهب ظاهرة قديمة، عرفته كل المجتمعات البشرية، لكن في المغرب، ونتيجة لقلة الموارد، وتأثرها بدورات الجفاف، وهجوم الأوبئة والجراد، وما تخلفه من مجاعات شديدة، حولت "النهب" إلى "ظاهرة مجتمعية"، تمارسه مختلف الأطراف، وبأشكال متنوعة. وهي ظاهرة لا تزال تُلمس بعض جوانبها، رغم انتفاء دوافعها، في بعض سلوكيات المغاربة، مثل الجشع/"اللهطة" الذي طبع اقتناء المواد الغذائية من الأسواق قبيل فرض الحجر الصحي[١٠٠]، أو النهب الذي تتعرض له الشاحنات المنقلبة في حوادث السير، أو سرقة محلات الأسواق المُحترقة.

كان النهب، كممارسة مجتمعية ومخزنية، يؤدي إلى تدمير كل شروط الإنتاج، وتراكمه، كما يقضي على ثروة السكان، بشكل يصعب تعويضه، فقد كانت القبيلة، المعرضة للنهب المخزني، تلجأ إلى بيع مواشيها وزروعها بأقل الأثمان[١٠١]، أو تتخلى عنها بدون مقابل لصالح قبيلة أخرى[١٠٢]. كما أسهم النهب في تعطيل الطرق التجارية ونشر الخوف في المسالك، مما قلص من المبادلات بين المناطق، وحال دون ازدهار التجارة.

لجأت الدولة إلى التخريب بدوافع وغايات مختلفة، استهدفت من جهة معاقبة القبائل العاصية من خلال حرمانها من وسائل الإنتاج وتكوين الثروة، كما استعانت بالآثار النفسية التي تخلفها مشاهد التخريب والتدمير من أجل تحذير القبائل التي تنوي التمرد من المصير الذي ينتظرها.

هدفت ممارسات التخريب في بعض الأحيان إلى الحصول على المواد الأولية، من أخشاب وأحجار وجوائز، بغرض إعادة استعمالها، نظرا لقلتها من جهة، أو صعوبة نقلها نتيجة مشاكل النقل والتنقل. كما هدفت الدول أيضا من هذه الممارسات إلى إعفاء رسوم الدول السابقة، بسبب ما تحمله البنايات من "رمزية سياسية".

أدى النهب والتدمير المتكرر إلى حالة من الخوف الدائم لدى الإنسان المغربي، وولد لديه "سلوك التخريب"، حيث أصبح من هول الأزمات يخشى التخريب، ويمارسه في نفس الوقت، إذ تتكرر في النصوص حالات هدم البنايات وحرق الحقول واقتلاع الأشجار[١٠٣]، وهي مشاهد لا تزال تُرى إلى حدود الحاضر وتتخذ أوجها عديدة كتخريب الحدائق العمومية وملاعب كرة القدم أو تكسير الحافلات العامة[١٠٤]، وغيرها كثير.

الإحالات المرجعية:

(١) تنتشر بين الفينة والأخرى الأخبار والفيديوهات، المصوّرة لهذه الوقائع، في وسائل التواصل الاجتماعي وعلى منابر الصحف، ويمكن الرجوع إلى بعض المواد، لا الحصر: "مواجهات وتخريب في مباراة كرة يثير غضبا بالمغرب"، شوهد في ٠٥-٠٦-٢٠١٩، في: https://bit.ly/3cVX5C0. "تخريب المرافق العمومية ... مسؤولية من؟"، شوهد في: ٠٦-٠١-٢٠٢٠، في: https://bit.ly/3cVX5C0. "اعتقال عشرة أشخاص نهبوا شاحنة منقلبة وتاجر اشترى المسروقات والبحث جاري عن باقي المتورطين بالدار البيضاء"، شوهد في: ٠١-٠٥-٢٠٢٠، في: https://bit.ly/3cVY316. "اعتقال ٥٨ متهما بالسرقة والنهب في حريق سوق مليلية بوجدة"، شوهد في ١٧-٠٣-٢٠١٨، في: https://bit.ly/37sNcui.

(٢) أثارت ما تعرف ب"حادثة صندوق التفاح"، أثناء تدخلات أحد رجال السلطة إبان الحجر الصحي، المرافق لجائحة كورونا العالمية، نقاشا كبيرا حول صحة الواقعة من عدمها، وأعاد النقاش حول مسألة "الشطط والعسف" في استعمال السلطة، أنظر: "بسبب صندوق تفاح.. رجل سلطة يثير جدلا في المغرب"، شوهد في: ٢٦-٠٤-٢٠٢٠، في: https://bit.ly/3fjS7QU.

(٣) فرانسوا دوس، **التاريخ المفتّت، من الحوليّات إلى التاريخ الجديد**، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، مراجعة جوزيف شريم، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط. ١، ٢٠٠٩، صص. ١٦٧-١٦٨.

(٤) محمد الطاهر المنصوري في تقديمه للترجمة التي خصصها لكتاب: **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوكوف، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط. ١، ٢٠٠٧، صص. ٢٣-٢٤. محمد استيتو، "الأزمة الديموغرافية في تاريخ المغرب الحديث"، **كنانيش**، العدد ١، صيف-خريف ١٩٩٩، ص. ١٣٠.

(٥) لوكوف، **التاريخ الجديد**، ص.٩.

(٦) الحسين بولقطيب، "أسلوب الإنتاج الحربي والتحول المعاق: حالة المغرب الوسيط"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة**، منشورات جامعة شعيب الدكالي، الجديدة، العدد ٢، ١٩٩٥، ص.٧٣.

(٧) يمكن العودة إلى المقال المرجعي لمحمد القبلي حول أهمية الطرق التجارية في بناء وضمان استمرارية الدول المغربية الوسيطية، فقد **"قامت كلها وتأسست لأسباب من أهمها احتكار التجارة الخارجية بشكل أو بآخر بواسطة التحكم في الطرق"**، أنظر: "ما لم يرد في كتابات ابن خلدون"، ضمن: **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة ١، ١٩٨٧، ص. ٥٩.

(٨) مثلاً: إن المتبع لحملات المرينيين بالأندلس، خلال عصر أبي يوسف يعقوب، سيلحظ بشكل جلي الحضور القوي لهاجس الحصول على الغنائم في هذه الغزوات، علي بن أبي زرع الفاسي (ت. بعد سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، **الأنيس المُطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، صص.٣٢٧-٣٣٩-٣٤٢-٣٤٣-٣٤٥-٣٤٧-٣٤٨-٣٥١-٣٥٤-٣٥٦-٣٥٧-٣٧٨.

(٩) محمد الأمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٢، ص.٣٦٩.

(١٠) الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي (ت. بعد سنة ٩٥٧هـ/١٥٥٠م)، **وصف إفريقيا**، جزآن، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط. ٢، ١٩٨٣، ج. ١، ص.٢٨٩.

(١١) أبو القاسم الزياني (ت. ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م)، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف**، القسم ١، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، منشورات مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، ط. ١، ١٩٩٢، ص.٣٦.

(١٢) محمد الضُّعَيِّف الرباطي (كان حيا سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م)، **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)**، تحقيق أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، ط. ١، ١٩٨٦، ص.٣٢٤.

(١٣) ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، صص.٣٠٤-٣٠٥.

(١٤) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي(ت. ١٠٣١هـ/١٦٢١م)، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الرباط، ١٩٧٢، ص.٥٢.

(١٥) الزياني، **البستان الظريف**، ق. ١، ص.١٧٨.

(١٦) حميد تيتاو، "الدولة والعنف في تاريخ المغرب الوسيط: دراسة حالة"، **أمل**، المجلد ١٥، العدد ٣٣، ٢٠٠٨، ص.٩٥.

(١٧) الزياني، **البستان الظريف**، ق. ١، ص. ٣١٨.

(١٨) الضُّعَيِّف، **تاريخ الضعيف**، ص.٢٤٨.

(١٩) قبض محمد بن عبد الله على والي أهل الغرب، الباشا الحبيب المالكي، **"وأمر بنهب أمواله ومواشيه، وجميع ما إليه، وهدم قصره"**، الزياني، **البستان الظريف**، ق. ١، ص.٣٩١.

(٢٠) الزياني، **البستان الظريف**، ق. ١، ص.٣١٧.

(٢١) الضُّعَيِّف، **تاريخ الضعيف**، ص.١٧٨.

(٢٢) أمين توفيق الطيبي، **دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس**، جزآن، الدار العربية للكتاب، طرابلس؛ تونس، ١٩٩٧، الجزء ٢، ص.١٤٥. عزالدين أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار الشروق، بيروت؛ القاهرة، الطبعة ١، ١٩٨٣، ص. ٢٩٠. محمد زنيبر، **المغرب في العصر الوسيط: الدولة، المدينة، الاقتصاد**، تنسيق محمد المغراوي، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة ١، ١٩٩٩، ص.٣٨٣. محمد فتحة، **النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن ٦إلى ٩هـ/ ١٢-١٥م)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٩، ص.٣١٢. القبلي، **مراجعات**، ص.١٣. حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني**، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز، مطبعة عكاظ، الدار البيضاء، ٢٠١٠ ، ص.٢٧٣-٢٧٧. أحمد عزاوي، "الأسطول، التجارة، القرصنة فيما بين القرنين ٦ و٨هـ(١٢-١٤م)"، ضمن: **البحر في تاريخ المغرب**، تنسيق رقية بلمقدم، أعمال الأيام الوطنية الرابعة للجمعية المغربية للبحث التاريخي، ٢٤-٢٥-٢٦ أكتوبر ١٩٩٦، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، ١٩٩٩، ص.٧٢-٧٧. مصطفى نشاط، "المغرب المريني وأزمة القرن ١٤م النقدية"، **أمل**، السنة ١، العدد ٣، ١٩٩٣، ص. ١٠٠.

(٢٣) كربخا مارمول Carbajal MARMOL (ت. ١٦٠٠م)، **إفريقيا**، ٣ أجزاء، ترجمة محمد حجي وآخرون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٩، ج. ٢، ص.٢٤٥.

(٢٤) مارمول، **إفريقيا**، ج.٢، ص.٢٦٠.

(٢٥) بالمقارنة مع ما حصل عليه الاسبان في القرن ١٠هـ/١٦م، في حملتهم على سهول قرب وهرات، حيث "اختطفوا ١٥٠٠٠ رأس من الماشية الكبيرة والصغيرة"، مارمول، **إفريقيا**، ج.٢، ص.٣١١.

(٢٦) أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (١٤٨١-١٥٤١م)**، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة ١، ١٩٨٤، ص.٤٤٨.

(٢٧) دِييكُو دي طُوريس Diego de TORRES (كان حيا سنة ١٥٧٩م)، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المدارس، الدار البيضاء، ١٩٨٨، ص.٤٠.

(٢٨) عبد المجيد القدوري، **المغرب وأوروبا. ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء؛ بيروت، الطبعة ١، ٢٠٠٠، ص.١١٠.

(٢٩) خلال أحد حملات البرتغاليين، عادوا إلى أسفي محملين **"بأكثر من عشرين ألف رأس من الماشية، وأربعمائة جمل، دون أن يجدوا أحدا يجرؤ على مواجهتهم"**، مارمول، **إفريقيا**، ج.٢، ص.٧٩.

(٣٠) أحمد بوشرب، **مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر**، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة ١، ١٩٩٦، ص.٥١.

(٣١) يمكن الرجوع إلى الدراسات المتخصصة حول موضوع المجاعات والأوبئة التي ضربت المغرب طيلة العصرين الوسيط والحديث، والتي تتفق جميعها على التلاحق الدوري لهذه الكوارث، الحسين بولقطيب، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، منشورات الزمن، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص.٤٥. عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق٦-٨هـ/١٢-١٤م)**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة ١، ٢٠٠٨، صص.٣٧-٣٨. محمد ياسر الهلالي، "أثر القحط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية في المغرب الأقصى خلال أواخر العصر الوسيط"، ضمن: **المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب**، الأيام الوطنية العاشرة بالجديدة، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط، ٢٠٠٢، صص. ١٦٧-٢٢٦.، صص.٢٠٠-٢٠٧. محمد البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات**، ص. ٢٩. Bernard ROSENBERGER, Hamid TRIKI, "Famines et épidémies au Maroc aux XVI(éme) et XVII(éme) siècles", fascicule unique, 1973, **Hespéris-Tamoda**, Vol. XIV, p.109-175. 1974, p.05-104.

(٣٢) الحسين بولقطيب، "أسلوب الإنتاج الحربي"، ص.٧٦.

(٣٣) عبد الأحد السبتي، **بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة١، ٢٠٠٩، ص.٢٩.

(٣٤) محمد بن عبد السلام الناصري (ت. ١٢٣٩هـ/١٨٢٣م)، **المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا (الزاوية الناصرية)**، دراسة وتحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١، ٢٠٠٣، ص.١١٢.

(٣٥) الضُّعَيِّف، **تاريخ الضعيف**، ص.١٩٤.

(٣٦) تفاقمت مشكلة السرقة في السهول الأطلسية، بعد استقرار القبائل الأعرابية هناك، ومن الإشارات الأولى التي ترصد أعمال السرقة التي أصبحت تقوم بها هذه القبائل، المستقرة حديثا بالمجال، ما نُقل عن أحد زوار الولي أبو يِلْبَخْتْ ياللِّتَنْ الأسود، تلميذ أبي يعزى، المتوفى سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م، خلال مروره بسهل تادلا حيث قال: "فلقيت العرب في طريقي وهم يعيثون في الناس يمينا وشمالا وأنا راكب على دابتي فحفظني الله منهم ولم يتعرضوا لي"، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات (ت.٦٢٧ أو٦٢٨هـ/١٢٢٩أو ١٢٣٠م)، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة ٢، ١٩٩٧، ص.٣٨٣. ويظهر أن هذه القبائل قد شرعت في أعمال اللصوصية مباشرة بعد توطينها في هذا المجال، وفي ظل قوة الإمبراطورية الموحدية، وهو ما تؤكده ترجمة الولي أبو عمر ياخْميان ابن عبد الله الصنهاجي، من قرية تيمغسن من بلد أزمور وبها مات سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م، ن.م.، ص.٤٠٩.

(٣٧) أبو عبد ﷲ محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي (ت. ٦٠٣هـ/١٢٠٦م أو ٦٠٤هـ/١٢٠٧م)، **المستفاد في مناقب العُبَّاد، بمدينة فاس وما يليها من البلاد**، جزآن، تحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، مطبعة طوب بريس، الرباط، ط. ١، ٢٠٠٢، ج. ٢، ص.١١٧-١٢٢. ابن الزيات، **التشوف**، ص.٢٣٤-٣٥٨-٣٨٣-٤٠٩. أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (ت. ٧٢٧هـ/١٣٢٧م)، **الرّوضُ المِعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط. ٢، ١٩٨٤، ص.٦١٩.

(٣٨) رصد ابن الخطيب في رحلاته، بين فاس وسلا ومراكش، قلة الأمن وعموم الفتن وكثرة السرقة، لسان الدين بن الخطيب (ت.٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، **نُفاضة الجِراب في عُلالة الاغتراب**، الجزء ٢، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص.٦٨.

(٣٩) عبد الله بن الصَّبَّاح الأندلسي(ق.٩هـ/١٥م)، **نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار**، تحقيق جمعة شيخة، منشورات مجلة دراسات أندلسية العدد ٤٥-٤٦، ديسمبر ٢٠١١، المطبعة المغاربية، تونس، ٢٠١٢، ص.٥٩.

(٤٠) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص. ٥٨.

(٤١) حول ظاهرة الزطاطة راجع الدراسة التفصيلية التي أنجزها عبد الأحد السبتي، **بين الزطاط وقاطع الطريق**، م.س.

(٤٢) سجلت المصادر التاريخية عدة أمثلة لذلك، أنظر مثلا ما سجله الوزان خلال القرن ١٦م، **وصف إفريقيا**، ج.٢، ص.١٢-٥٢؛ وأيضا ما أورده الهلالي السجلماسي(ت. ١١٧٥هـ/١٧٦١م) من إشارات في رحلته: **التوجه لحج بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام: قطعة من رحلة العلامة أبي العباس الهلالي السجلماسي**، دراسة وتحقيق محمد بوزيان بن علي، [د.ن.]، [د.م.]،[د.ت.]،، صص.١٤٦-١٨٠-٢١٨.

(٤٣) الضُّعَيِّف، **تاريخ الضعيف**، ص.٣٥٨.

(٤٤) انظر على سبيل المثال لا الحصر: أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (ت. ١١٢٩هـ/١٧١٧م)، **الرحلة الناصرية**(١١٢١هـ/١٧٠٩م-١١٢٢هـ/١٧١٠م)، تحقيق عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط. ١، ٢٠٠١؛ الهلالي، **التوجه لحج بيت الله**، صص.٢٢٥-٢٢١.

(٤٥) جوزي دي سانطو أنطونيو مورا، "يوميات أول سفارة برتغالية إلى المغرب على عهد السلطان مولاي سليمان"، تقديم وتعريب عثمان المنصوري، **أمل**، ع.٥، السنة الثانية، ١٩٩٤، ص.٥٦.

(٤٦) أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت. ٩١٤هـ/١٥٠٨م)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، ١٣جزء، تخريج جماعة من الفقهاء، إشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية؛ الرباط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١، الجزء ٥، ص.٢٥١، ج.٦، ص.١٨١؛ مجموعة من الفقهاء، **فتاوى تتحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من الجبال**، جزآن، جمع وتنظيم محمد الهبْطي المواهبي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، الرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٨، ج.١، ص.٣٠٥.

(٤٧) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص. ٣٣.

(٤٨) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.٥٨-٥٩.

(٤٩) مارمول، **إفريقيا**، ج.٣، ص.١٧٩.

(٥٠) مثل أبو وكيل ميمون ابن تاميمونت الأسود، ابن الزيات، **التشوف**، ص.٢٣٤.

(٥١) الونشريسي، **المعيار**، ج.٥، ص.٢٠-٢٤٨.

(٥٢) أبو الحسن علي الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير (ت. ٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، **الكامل في التاريخ**، ١١ جزء، مراجعة وتصحيح يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ج.٨، ص.٣٣٠.

(٥٣) ابن الزيات، **التشوف**، ص.٢٣٤.

(٥٤) ابن الزيات، **التشوف**، ص.٣٧٩.

(٥٥) ابن الزيات، **التشوف**، ص.٣٧٩.

(٥٦) أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق (ت. أواسط القرن ٦هـ/١٢م)، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١، ص.٢٦.

(٥٧) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.٧٥.

(٥٨) عبد الرحمان بن خلدون (ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، **تاريخ ابن خلدون المسمى تُرجمان العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ٧ أجزاء، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠، ج.٦، ص.٨٩.

(٥٩) ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص.٢٨٢. مارمول، **إفريقيا**، ج.١، ص.١٠٨-١٠٩.

(٦٠) مارمول، **إفريقيا**، ج.٢، ص.١٣١-١٣٩-١٤٠-١٤٢.

(٦١) التميمي، **المستفاد**، ج.٢، ص.١١٧-١٢٢. ابن الزيات، **التشوف**، ص.٢٣٤-٣٥٨-٣٨٣-٤٠٩. الصنهاجي، **الرّوضُ المِعطار**، ص.٦١٩. وقام السعديون بتنقيل الرحامنة من الصحراء إلى تامسنا، مارمول، **إفريقيا**، ج.١، ص.١٠٧.

(٦٢) حول التأثيرات الكارثية للمجاعات والأوبئة على الإنسان، وعلى وسائله الإنتاجية، خاصة ثروته الحيوانية، يمكن الرجوع إلى إسهامنا: "الإنسان والحيوان إبان الأزمات في تاريخ المغرب"، ضمن: **الأزمات والهشاشة بالمغرب**، مقاربات متقاطعة، أعمال مهداة للأستاذ محمد استيتو، تنسيق مصطفى نشاط وآخرون، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطابع الرباط نت، الرباط، ٢٠١٩، ص. ٣٠٥.

(٦٣) ROSENBERGER, TRIKI, "Famines et épidémies", op.cit., p.134.

(٦٤) خلصت عدة دراسات إلى طبيعة "القلة" التي ميزت الاقتصاد في مغرب ما قبل الاستعمار، وهو اقتصاد يقف **"دوما على حافة المجاعة"**، أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر. إينولتان ١٨٥٠-١٩١٢**، ط.٢، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٣، ص. ٦٢١. أو **"اقتصاد الكفاف"**، محمد البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات**، ص. ٢٩. عبد الرحمان المودن، **البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر**، ط.١، منشورات كلية الآداب، الرباط، ١٩٩٥، ص. ٢٢١، الهامش ٢٧٣.

(٦٥) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.٥٤.

(٦٦) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.٣٣٥. مارمول، **إفريقيا**، ج.٢، ص.٢٥٣.

(٦٧) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.١٨٩.

(٦٨) أبو عبد الله محمد بن أحمد التجاني (ت. بعد ٧١٧ه/١٣١٧م)، **رحلة التجاني**، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا؛ تونس، ١٩٨١، ص.١٩١.

(٦٩) السبتي، **بين الزطاط وقاطع الطريق**، ص.٢٨٩.

(٧٠) عبد الرحمان المودن، **البوادي المغربية**، ص. ٢٢١، الهامش ٢٧٣.

(٧١) حول مفهوم الفترة ودلالاتها يمكن الرجوع إلى مقال: عبد الرحمان المودن، "الحوليات والأزمات السلطانية (١٧٢٧-١٧٥٧م): مصطلح الفترة"، ضمن: **الإسطوغرافيا والأزمة**، دراسات في الكتابة التاريخية والثقافة، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة ١، ١٩٩٤، صص.١٠٥-١١٣.

(٧٢) مجموعة مؤلفين، **تاريخ المغرب: تحيين وتركيب**، إشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، مطبعة عكاظ الجديدة، الرباط، الطبعة ١، ٢٠١١، ص.٢٠٨.

(٧٣) عبد الملك بن صاحب الصلاة (ت. ٥٩٤هـ/١١٩٨م)، **المن بالإمامة، تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عصر الموحدين**، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. ٣، ١٩٨٧، ص.٢٤٤. أبو محمد حسن بن علي بن القطان الكتامي المراكشي (توفي منتصف القرن ٧هـ/١٣م)، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، دراسة وتقديم وتحقيق محمد علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. ٢، ١٩٩٠، ص.٢٣٨. الصنهاجي، **الرّوضُ المِعطار**، ص.٦١٩. أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي (كان حيا سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م)، **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ٤ أجزاء، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط. ٢، ١٩٨٠، ج.٢، ص.٢٤٦؛ **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين**، تحقيق محمد الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة ١،

١٩٨٥، ص.٢٦-٣٥٤-٣٩٠-٤٥٥-٤٥٦. ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص.٣٠٥؛ **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص.٣٢. ابن خلدون، **العبر**، ج.٧، ص.١٤٦.

(٧٤) يخبرنا أحد المغامرين الإسبان أن السلطان محمد بن عبد الرحمان(١٨٥٩-١٨٧٣م)، بمجرد "**ما أقبل موكبه على الرحامنة، حتى أمر بإيقاد النيران في المزروعات كإنذار للأعداء...ما دفع ساكنة ضفاف نهر أم الربيع يسارعون إلى تقديم الولاء كرها قبل أن تلتهم النيران معاشهم في الحقول والبساتين"**، أنظر: مصطفى الغديري، "جوانب من الديموغرافية التاريخية من خلال رحلة المغامر الاسباني خواكين غاثيل للمغرب (١٨٦١—١٨٦٥)" ضمن: الديموغرافيا التاريخية في أدب الرحلة، **كنانيش**، العدد ٣، صيف-خريف ٢٠٠١، ص.٩٧. الضَّعَيِّف، **تاريخ الضعيف**، ص.٣٨٥.

(٧٥) **"فقطع أشجارها عقوبة لهم"**، بهذه العبارة يتحدث الضعيف الرباطي عن حملة محمد بن عبد الله، وهو لا يزال خليفة لأبيه، في اتجاه قبائل الأخماس وشفشاون، **تاريخ الضعيف**، ص.١٦٠. أنظر أيضا حالات أخرى، ص. ٣٤٧.

(٧٦) محمد بن محمد الحمودي الحسيني الشريف الإدريسي (ت. ٥٦٠هـ/١١٦٥م)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، جزآن، تحقيق مجموعة من الباحثين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، ج.١، ص.٢٤٩. إبراهيم ابن الحاج النميري (ت. بعد ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، دراسة وإعداد محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. ١، ١٩٩٠، ص.٤١٩. الضَّعَيِّف، **تاريخ الضعيف**، صص. ١٨٤-١٨٥-١٨٨-٢٠٢-٢١٦-٢٣٤-٢٦٣-٣٠٦-٣٢٤. ولم تسلم ملاحات اليهود من الهدم والتخريب، لأسباب مختلفة، كفعل اليزيد(١٧٩٠-١٧٩٢م) بملاح تطوان ومراكش، ن.م، صص.٢٠٢-٢٣٤-٣٦٦. أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت. ١٣١٥هـ/١٨٩٧م)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة السعدية**، القسم ١، ٩ أجزاء، تحقيق وتعليق جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ج.٥، ص.١٤٣.

(٧٧) ن.م.، ص. ١١٩-١٩٤-١٩٥-١٩٦.

(٧٨) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص.٣٢.

(٧٩) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.١٠٧.

(٨٠) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.١٠٧.

(٨١) ابن عذاري، **البيان**، قسم الموحدين، ص.٣٥٤.

(٨٢) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص.٦٢.

(٨٣) يتحدث بعض المختصين عن تراجع البحرية المغربية والإسلامية بفعل حدوث نقص في الخشب نتيجة استنزاف الغابات، مصطفى نشاط، "قضايا من التاريخ الاقتصادي للمغرب الوسيط من خلال الأرشيف الجنوي"، **أمل**، العدد ٤٣، ٢٠١٤، ص.٦٠.

(٨٤) محمد الصغير الإفراني(ت. بين ١١٥٤هـ/١٧٤٢م-١١٥٧هـ/١٧٤٥م)، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تصحيح هوداس، مطبعة مدينة انجي، ١٨٨٨، ص.١٠٣.

(٨٥) أبي سمرا، "بروديل"، ص.١٨٧.

(٨٦) أنظر تفصيلنا في الموضوع، حسن بودلال، **جوانب من تاريخ الحيوان في مغارب ما قبل الاستعمار**، بحث لنيل شهادة الماستر، تخصص تاريخ، جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، السنة الجامعية ٢٠١٤-٢٠١٥، (مرقونة)، ص.١١٩.

(٨٧) **روض القرطاس**، صص.٢٨١-٢٨٢. **الذخيرة السنية**، ص.٢٥.

(٨٨) **العبر**، ج.٦، ص.١١٦.

(٨٩) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.١٣٨.

(٩٠) أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي المالقي الأندلسي (ق. ٦هـ/١٢م)، **في آداب الحسبة**، تحقيق ليفي بروفنسال؛ ج.س. كولان، منشورات معهد الدراسات العليا المغربية، المجلد ٢١، مطبعة إرنست لارو، باريس، ١٩٣١، ص.١٦. عبد الواحد المراكشي (ت. ٦٤٧هـ/١٢٥٠م)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٣، ص.١٤٣. أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي (ت. ٧٠٣هـ/١٣٠٣م)، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، ٦ أجزاء، تحقيق إحسان عباس، محمد بن شريفة، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط. ١، ٢٠١٢، السفر ٨، ج. ٥، ص. ٢٠١. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.٢٩٨.

(٩١) كانت القبائل البدوية تفرق بين الغزو والسرقة، وتعتبر الغزو محل افتخار لأنه تعبير عن قوة وشجاعة القبيلة وقدرتها على اكتساب رزقها بحد السيف، جودت عبد الكريم يوسف، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (٩-١٠م)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٢، ص.٢٩٧.

(٩٢) ابن الأثير، **الكامل**، ج.٨، ص.٣٢٨. أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت. ٧٣٣هـ/١٣٣٣م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ٣٣ جزء، تحقيق عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤، ج.٢٤، ص.١٤١.

(٩٣) السبتي، **بين الزطاط**، ص. ٢٩٠، اعتمادا على سيگونزاك.

(٩٤) ماكس أوبنهايم وآخرون، **البدو**، ٤ أجزاء، ترجمة ميشيل كيلو؛ محمود كبيبو، تحقيق وتقديم ماجد شُبّر، شركة دار الوراق للنشر المحدودة، لندن، الطبعة ٢، ٢٠٠٧، ج.١، ص.٨٩.

(٩٥) ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص.٢٨٢.

(٩٦) النويري، **نهاية الأرب**، ج.٢٤، ص.١٤٢.

(٩٧) ابن خلدون، **العبر**، ج.٦، ص.١١٦.

(٩٨) تيتاو، **الحرب والمجتمع** ، ص.٢٠٦-٢٠٧-٣٢٦.

(٩٩) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.٦٣.

(١٠٠) عبد الواحد كنفاوي، ""اللهطة" ... القاسم المشترك"، جريدة الصباح، شوهد في: ٢٤-٠٤-٢٠٢٠، في: https://bit.ly/2CegO3c.

(١٠١) الزياني، **البستان الظريف**، ص.٣٢٨.

(١٠٢) الضعيف، **تاريخ الضعيف**، ص.٢٢٢.

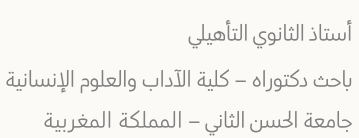
(١٠٣) أنظر على سبيل المثال لا الحصر: الفشتالي، **مناهل الصفا**، صص.٥٢-١٩٣؛ الزياني، **البستان الظريف**، صص.١٧٨-١٧٩؛ الضعيف، **تاريخ الضعيف**، صص.١٩٤-٢٢٢.

(١٠٤) "أعمال تخريب طالت أسطول الحافلات منذ أول أسبوع عمل، رشق بالحجارة وتكسير للزجاج"، شوهد في: ٠٢-٠٤-٢٠٢٠، في: https://bit.ly/30PrNdK.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

نماذج من التبادل العلمي بين المغرب وبلاد السودان خلال العصر السعدي





هشام بلمسرحة

أستاذ الثانوي التأهيلي

باحث دكتوراه – كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخَّص

يهدف المقال الراهن إلى تسليط الضوء على بعض الجوانب من التبادل العلمي بين المغرب وبلاد السودان خلال العصر السعدي، ويشتمل البحث الراهن على مجموعة من المحاور، حاولنا من خلالها تتبع ورصد الرحلات العلمية بين القطرين، التي أسهمت في تبادل المعارف والخبرات والعلوم والمصنفات العلمية، وانتقال طلبة العلم بين المغرب السعدي والسودان الغربي، هذا بالإضافة إلى المراسلات والفتاوى بين علماء القطرين، وكذا هجرة المغاربة إلى السودان الغربي الذين كان من بينهم علماء وفقهاء الذين ساهموا في إثراء الحياة الفكرية، كما كان لهم أيضًا دورًا كبيرًا في مختلف المجالات بأرض السودان، وخاصة المجال العلمي، فقد ساهمت العلاقات العلمية بين القطرين في إثراء الحضارة الإسلامية بالسودان الغربي، حتى أصبحت ثقافة السودان مغربية على أرض سودانية. إجمالاً يمكن القول أن الأشراف السعديين قد ربطتهم ببلاد السودان علاقات علمية وثيقة، زاد من تقويتها سيادة المذهب المالكي، وقد حرص السعديون على تمتين الوحدة الإسلامية، حيث زاد التواصل بين القطرين عن طريق الرحلات العلمية فانعكس ذلك على تبادل المعارف والعلوم والمصنفات العلمية وانتقال طلبة العلم بين المغرب وبلاد السودان، هذا بالإضافة إلى هجرة المغاربة إلى السودان الغربي الذين كان من بينهم العلماء والفقهاء الذين ساهموا في إثراء الحياة الفكرية، والذين لم يكونوا يلقوا أية صعوبات عند حلولهم بالبلد الآخر نتيجة وحدة المذهب، وكانوا يعينون في الوظائف الهامة مثل التدريس، الخطابة، الكتابة، القضاء.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٥	ديسمبر	٢٠٢٣
تـاريخ قبـول النشـر:	٢٣	يناير	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

المغرب؛ بلاد السودان؛ التبادل العلمي؛ العصر السعدي.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.353928 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

هشام بلمسرحة. "نماذج من التبادل العلمي بين المغرب وبلاد السودان خلال العصر السعدي".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ٧٤ – ٨٣.

Corresponding author: hicham.belmsrha.mr@gmail.com

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

لقد ربطت المغرب ببلاد السودان علاقات متينة، ووشائج عميقة كان لها الفضل في حدوث تراكم وتفاعل حضاري بين الطرفين، وقد انتظمت وتوطدت تلك الصلات بين الجانبين عبر قنوات متعددة، تأتي في مقدمتها التجارة، ولم تكن الصحراء أبدًا لتشكل حاجزًا طبيعيًا بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، منذ العهود الأولى التي سبقت انتشار الإسلام، فكانت أول خطوات الاتصال هي الحركة التجارية، وما أنتجته من علاقات اقتصادية، نقلت معها المؤثرات الحضارية والثقافية من الشمال إلى الجنوب عن طريق المسالك التجارية، وقد حظيت العلاقات التجارية بين القطرين باهتمام كبير من طرف مجموعة من الباحثين والمؤرخين، حيث انصبت اهتماماتهم على رصد تجارة الذهب ورسم المسالك التجارية التي كانت تعبرها القوافل العابرة للصحراء، إلا أن هذه الأبحاث ظلت غير كافية لرصد كل العلاقات التي ربطت المغرب بعمقه الإفريقي، وخاصة فيما يخص العلاقات العلمية، إذ ركزت على العلاقات التجارية، وأهملت الجانب العلمي، رغم كونه شكل جانبا مهما من التعاون بين القطرين، غير أن الجانب العلمي على أهميته ظل بعيدا كل البعد عن اهتمام إخباريينا ومؤرخينا، الذين كان العديد منهم يكتفي بإشارات مقتضبة أحيانا وبدونها في أحيان عديدة.

إذن ما هي مظاهر التبادل العلمي بين المغرب وبلاد السودان خلال العصر السعدي؟ وكيف ساهم المغرب وبلاد السودان في توطيد العلاقات الثقافية بينهما؟

أولاً: بلاد السودان الموقع الجغرافي

قبل الخوض في الموضوع ارتأيت أن أقارب الموقع الجغرافي لبلاد السودان أولاً، حتى يتسنى لنا فهم الأحداث في مجراها.

تقع بلاد السودان الغربي جنوب الصحراء الكبرى وتحديدًا بالجهة الغربية للقارة الإفريقية، وكان العرب هم أول من أطلق تسمية "السودان" على الأقوام التي سكنت جنوب الصحراء الكبرى، وسموا بلادهم ب" بلاد السودان"، أما أصل التسمية لديهم استوحوها من لون بشرة سكان المنطقة، وهذه الأخيرة تقابلها شمالا "بلاد البيضان" أو بلاد البربر(١).

وبلاد السودان هي المنطقة الممتدة في الصحراء الإفريقية(٢). فحسب المقدسي؛ أرض السودان بلدان مقفرة واسعة شاسعة تقع جنوب مصر(٣). أما القزويني وصفها بقوله" :هي بلاد كثيرة وأرض واسعة، ينتهي شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البراري وشرقها إلى الحبشة وغربها إلى بحر المحيط. (٤)"

واستعمل الإصطخري مصطلح السودان للدلالة على بلاد السودان الغربي ليحدد الموقع الجغرافي للمنطقة، بقوله: "إنه ليس أي أقاليم السودان من الحبشة والنوبة والبجة وغيرهم إقليم أوسع منه، ويمتدون إلى قرب المحيط مما يلي الجنوب ومما يلي الشمال على مفازة بينهما وبين أرض الزنج، وليس لها اتصال بشيء من الممالك والعمارات إلا من وجه المغرب لصعوبة المسالك بينها وبين سائر الأمم. (٥) "كما نجدها تعرف بأنها بلاد التبر في جنوب المغرب أي المنطقة التي هي موضوع الدراسة. أما الحسن الوزان في القرن السادس عشر الميلادي (١٠هـ) أعطى تعريفًا ووصفًا أكثر دقةّ من غيره بحكم زياراته المتعددة لمالك السودان الغربي، فحدد المنطقة شرقًا بمملكة كاوكة وغربًا بمملكة ولاته وتتاخم في الشمال صحراء ليبيا(٦).

وحتى لا نجتر ذلك الاضطراب الحاصل في المصادر حول موقع وحدود "بلاد السودان" فإننا سنوظفها للدلالة على المجال الممتد فيما بين المحيط الأطلسي غربًا وبحيرة التشاد شرقًا، جنوبًا نطاق الغابات الاستوائية وشمالاً الصحراء الكبرى(٧). وهذه المنطقة هي التي تعني موضوع بحثنا، وقد تواضعت الدراسات على تسميتها بـ "بلاد السودان" أو "السودان الغربي" أو "إفريقيا الغربية". وهي تنحصر فيما بين خطي عرض ١١ و١٧ شمالا. يوافق هذا الشريط، المجال الذي تعاقبت فيه الدول السودانية الوسيطية: غانة، مالي، سنغاي(٨).

ثانيًا: الرحلات العلمية من أجل طلب العلم بين القطرين

٢/١–تأصيل الرحلة في طلب العلم

لقد كان لموقف الإسلام من العلم والحث على طلبه أثر في اهتمام المسلمين بالرحلات العلمية، فقد حث الإسلام على العلم والسعي في طلبه وتحصيله حتى روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله به طريقًا إلى الجنة"[٩]. وقال أيضًا: "لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة"[١٠]. وقال عليه السلام أيضًا: "أطلبوا العلم ولو كان في الصين"[١١]. وانطلاقًا من هذه الأحاديث يتبين حرص العلماء والطلبة على اكتساب المعارف والتزود بالعلم، وتحمل ضروب المشاق وأصناف التعب في سبيل ذلك، ولم يدخر المسلمون في تاريخهم الطويل أية وسيلة من الوسائل التي تعينهم على بلوغ ذلك الهدف السامي، ومن هذه الوسائل كانت الرحلات العلمية والتي اعتبرها علماء المسلمين ضرورة يجب أن يسلكها طالب العلم في حياته العلمية، حتى إن العلامة ابن خلدون اعتبر الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيدًا من الكمال في التعلم[١٢].

٢/٢–ظاهرة الرحلة من المغرب نحو السودان الغربي

من سمات التطور الحضاري والتفوق العلمي وجود الرحلات والأسفار بين مراكز العلم في العالم الإسلامي، وذلك للتزود بالعلوم واكتساب المعرفة، وهكذا تولد نشاط علمي كبير في الدولة الإسلامية، وتكمن أهمية الرحلة العلمية في دورها الكبير في تمتين العلاقات العلمية بين الدول، ومدى مساهمتها في تنشيط الحركة الثقافية والفكرية، وتشكيل معالم الوحدة العلمية الإسلامية بين المغرب والسودان الغربي، من خلال تبادل مختلف الكتب والمصنفات التي كان يتداولها علماء القطرين والطلبة، فكانت الحركة الفكرية متواصلة بين السعديين والسودان الغربي، في مختلف العلوم، حتى إن من شروط الإجازة في مجال الفقه وأصوله والعلوم الأخرى خوض غمار الرحلة العلمية من الجانبين، حيث كان الطلاب يشدون رحالهم إلى مختلف الحواضر المغربية والسودانية، متحملين مشقة السفر حتى أصبحوا شيوخا وأساتذة وعلماء ساهموا بقسط كبير في إثراء النهضة الفكرية والعلمية، وبذلك توطدت العلاقات العلمية والفكرية بشكل أكبر بين الدول عن طريق الرحلات العلمية[١٣]، حيث نجد مجموعة من علماء المغرب اتجهوا نحو السودان واستقروا بين أهله، ومارسوا فيه نشاطهم العلمي والفكري والدعوي، سواء أقاموا فيه إلى حين وفاتهم، أو استقروا مدة ثم عادوا إلى المغرب، وقد كان علماء المغرب يتجهون إلى السودان الغربي بهدف الإصلاح والتعليم ونشر المبادئ الصحيحة للدين الإسلامي.

ومن هؤلاء نكتفي بذكر:

العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي: ولد بمدينة توات[١٤] في حي تسكنه اليهود، وانتقل إلى فاس[١٥] برسم الدراسة العليا، وكان سنيا لا يقول بالاجتهاد، ولذلك كانت له مع علماء فاس مساجلات اتخذت شكل خلاف، واشتهرت تلك الخلافات ثم اتسعت بعد ارتحاله إلى تونس، وفضل المغيلي أن يهاجر إلى السودان، حيث أصبح أكبر أستاذ في تكدة١٦ وغاو[١٧] وكانو[١٨]، واتصل في غاو بالأسكيا الحاج محمد، وتذاكر معه في جملة من المسائل الفقهية، وألف في السودان عشرات الكتب، والشروح وحشى بعض المؤلفات الأخرى، ذكر صاحب الديباج واحد وعشرين منها، وأهم تلك المؤلفات: مغنى اللبيب في شرح مختصر خليل، وإكليل مغنى اللبيب، والمنسيات، وأسئلة الأسكيا الحاج وأجوبة المغيلي عليها[١٩].

العالم محمد بن يوسف بن مهدي الزياتي الغماري أبو عبد الله : الفقيه، النحوي، كان يستظهر نحو النصف من مختصر ابن الحاجب، وكان يقوم على ألفية ابن مالك أتم قيام، أخذ النحو عن أبي العباس القدومي وعن أبي العباس المنجور[٢٠]، وغير النحو من العلوم، وانتقل إلى السودان، وراح ينشر علمه هناك إلى أن أدركه الموت بكانو من بلاد السودان بعد ٩٩٠هـ[٢١].

العالم عبد الرحمن بن علي بن سفيان أبو زيد السفياني العاصمي : الفقيه، المحدث الرواية الرحالة، أخذ عن القلقشندي وزكريا وابن مهدي والسخاوي، وكلهم عن ابن حجر، وأخذ عن جماعة؛ كأبي النعيم

رضوان عبد الله، وأبي راشد يعقوب بن يحيى البذري، وأبي العباس أحمد بن علي المنجور[٢٢]، كما أخذ عن شيخ الجماعة إبن غازي، والشيخ زروق بفاس، وأخذ علم الحديث بمصر، ثم ذهب لبلاد السودان ودخل كانو وغيرها فعظموه ثم عاد إلى فاس سنة ١٥١٨م، حيث أصبح من علماء جامع الأندلس، يدرس الموطأ والكتب الستة المعتمدة في العلوم الدينية؛ (البخاري – مسلم – النسائي – الترمذي – ابن ماجة – أبا داوود) له عدة تأليف توفي عام ١٥٤٥م[٢٣].

العالم مخلوف بن علي بن صالح البلبالي:[٢٤] درس في ولاته[٢٥] مبادئ العلوم ورسالة أبي زيد في الفقه، ارتحل إلى المغرب وحضر بفاس دروس علي ابن الرازي، ثم عاد إلى السودان للتدريس بكانو وكاشينا، وحن إلى المغرب فشد الرحال إلى مراكش، ومات مسمومًا عام ١٥٣٣ بعد عودته الثالثة للسودان، وقد كتب مؤلفا في النوازل[٢٦].

العالم محمد بن محمد بن أبي بكر العصنوني التواتي: الذي "درس في الصحراء والسودان، ومراكش"[٢٧].

العالم سالم بن محمد بن أبي بكر العصنوني التواتي: الفقيه القاضي بتوات وبتمنطيط، أخذ عن عمه أبي محمد عبد الله بن محمد بن أبي بكر علي، عن أبي زكري وجماعة من العقبانيين والتلمسانيين، وأخذ أيضا عن أبي زكريا يحيى السوسي، وغيرهم، وكان من عباد الله الصالحين، ومن أهل الحق في حكمه، حمدت سيرته، وصلحت سريرته، وأسلم على يده خلق كثير من أهل كانو وسلطانها من بلاد السودان[٢٨].

العالم محمد بن محمد بن أبي بكر التواتي أبو عبد الله: له سند ورواية وسماع، وله مشاركة في الحساب والفرائض، أخذ البخاري، عن أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بغيغ أحد كبار علماء السودان، عن أبي عبد الله، أندغ، عن القلقشندي، عن ابن حجر. يقول ابن القاض، تدبجت معه، أجاز لي، وأجزت له، وأخذ عني الحساب والفرائض بمراكش المحروسة، ولد سنة ٩٤١ هـ[٢٩].

٣/٢–ظاهرة الرحلة من السودان الغربي نحو المغرب

نجد في مقابل هذه الرحلات المغربية نحو السودان، مجموعة من العلماء السودانيين الذين كانوا يفدون على المغرب فيستوطنون ويواصلون فيه نشاطهم العلمي في مختلف المراكز الثقافية كمراكش وسوس وفاس وغيرها، نقتصر منهم على ذكر:

العالم مخلوف بن علي بن صالح البلبلي: فقيه حافظ رحالة اشتغل بالعلم على كبر على ما قيل، فأول شيوخه سيدي العبد الصالح عبد الله بن عمر بن محمد أقيت، شقيق جدي بولاتن، قرأ عليه الرسالة ورأى منه نجابة، فحطه على العلم، فرغب فيه وسافر للمغرب، فأخذ عن ابن غازي وغيره، واشتهر بقوة الحفاظة، حتى ذكر عنه العجب في ذلك، ودخل بلاد السودان، ككانو وكشنة٣٠، وغيرهما ، وأقرأ هناك وجرى له أبحاثا في النوازل مع الفقيه العاقب الأنصمني، ثم دخل تنبكت وأقرأ بها، ثم رجع للمغرب فدرس بمراكش، وسم هناك، فمرض فرجع لبلده، وتوفي بعد الأربعين وتسعمائة[٣١].

العالم عبد الرحمن التميمي: جاء من أرض الحجاز صحبة السلطان منسا موسى، صاحب مالي، حين رجع من الحج فسكن تنبكت، وأدركه حافلا بالفقهاء السودانيين، ولما رأى أنهم فاقوا عليه في الفقه، رحل إلى فاس وتفقه هناك، ثم رجع إليه فتوطن فيه، وهو جد القاضي حبيب رحمهم الله تعالى[٣٢].

العالم أحمد بابا التنبكتي: هو العلامة أحمد بابا، بن الفقيه أحمد بن الحاج أحمد ابن عمر ابن محمد أقيت، (ولد سنة ٩٣٩هـ)، سلطان العلماء بالسودان الغربي، وعالمه بلا منازع، فقد داع صيته في الشرق والغرب، وأصبح يشار إليه بالبنان، نفي إلى مراكش، فاستقر بها، فتقاطر عليه الطلاب في كل مكان، يأخذون منه العلم، وقد أشار إلى هذا بقوله "ولما خرجنا من المحنة، طلبوا مني الإقراء، فجلست بجامع الشرفاء بمراكش من أنواه جوامعها، أقرئ مختصر خليل قراءة بحث وتحقيق ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك وألفية الحديث للعراقي، وتحفة الحكام لابن عاصم، وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير للسيوطي، والصحيحين، وغيرهما، وازدحم علي الخلق، وأعيان طلبتها، ولازموني بل قرأ علي قضاتها، كقاضي الجماعة بفاس، وكذا قاضي مكناسة، ومفتي مراكش وغيرهم، وأفتيت فيها لفظا، وكتبا بحيث لا توجه إلا إلي[٣٣]، حيث

ذاع صيته، واشتهر أمره، وانتشر ذكره، وسلم له علماء الأمصار في الفتوى[٣٤].

العالم الشاعر عبد الحكيم الجواري: أخذ عن الفقيه سعيد المغربي بتلمسان، وعن غيره، وهو قاضي تكورارين[٣٥]. وله نظم، يقول ابن القاضي، اجتمعت به بمراكش سنة ٩٩٨هـ[٣٦].

العالم أبو فحص عمر بن الحاج أحمد بن عمر أقيت: "النحوي المادح لرسول الله صلى الله عليه وسلم، صباحًا ومساءً، المسرد لكتاب الشفا، في كل يوم رمضان في مسجد سنكري، الواصل لرحمه، المتعاهد لأقاربه، يتفقدهم في صحتهم، ويعودهم في مرضهم، المنشرح وجهه، للخاصة والعامة، المتوفي شهيدا في مدينة مراكش، رحمه الله تعالى ورضي عنه"[٣٧].

العالم القاضي العاقب: الذي استوطن مراكش، بدليل أن ابنه سيف السنة، وابنته عائشة ماتا بها، كما أثبت ذلك عبد الرحمن السعدي في تاريخه[٣٨].

العالم أحمد بن أند غمحمد السوداني: الذي دخل إلى المغرب، للاتصال بأعلام العصر، ودرس مدة بإيليغ، بالأطلس الصغير"[٣٩].

ثالثًا: اعتماد المصنفات المغربية في الدرس السوداني

يرجع إلى الفقهاء المغاربة الذين استوطنوا السودان الغربي لسنوات طويلة الفضل في تعريف أهل البلاد بالمصنفات المغربية، التي نقلوها ودرسوها لهم، والتي انتشرت على نطاق واسع، في معظم بلدان السودان الغربي، ومما يدل على كثرة المؤلفات التي تركها هؤلاء العلماء، وباتت معروفة ومقروءة من قبل العامة والخاصة ومتداولة بين أيدي طلاب العلم، ومن النادر أن نجد بين هذه المؤلفات كتابا واحدا لعالم غير مغربي الأصل، بل إن المناهج والمؤلفات المغربية كانت هي التي تدرس في السودان الغربي[٤٠]، حيث كانت الصبغة المذهبية لهذه الكتب مالكية في معظمها، وذلك لسيادة المذهب المالكي، في شمال إفريقيا وغربيها[٤١]، ولهذا وصفت الثقافة في السودان الغربي بأنها ثقافة مغربية على أرض سودانية[٤٢].

وندع مؤرخ تنبكت عبد الرحمن السعدي يتحدث بنفسه عما درسه من مواد على يد أستاذه وشيخه أحمد بابا التنبكتي، ملازما له لمدة عشر سنوات يقول "ختمت عليه مختصر خليل، بقراءته، وقراءة غيره، نحو ثماني مرات، وختمت عليه الموطأ، قراءة فهم وتسهيل، ابن مالك قراءة بحث وتحقيق، مرة بثلاث سنين، وأصول السبكي بشرح المحلي، ثلاث مرات، قراءة تحقيق، وألفية العراقي، بشرح مؤلفها، وتلخيص المفتاح بمختصر السعد، مرتين فأزيد، وصغرى السنوسي، وشرح الجزيرة له، وحكم ابن عطاء الله مع شرح زروق، ونظم بن مقرعة، والهاشمية في التنجيم مع شرحها، ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المغيلي في المنطق، والخزرجية في العروض، فشرح الشريف السبتي، وكثيرا من تحفة الحكام لابن عصام، مع شرحها لولده كلها بقراءاته، قرأت عليه فرعي ابن الحاجب قراءة بحث جميعه، وحضرته في التوضيح، كذلك لم يفتني منه إلا من الوديعة إلى الأقضية، وكثيرا من المنتقى للباجي، والمدونة بشرح ابن الحسن الزريويلي، وشفا القاضي عياض، وقرأت عليه صحيح البخاري، نحو النصف، وسمعته بقراءاته، وكذا صحيح مسلم كله، ودولا من مدخل ابن الحاج، ودروس من الرسالة، والألفية، وغيرها، وفسرت عليه القرآن العزيز، إلى أثناء سورة الأعراف، وسمعت بلفظه جامع المعيار للونشريسي كاملا ..."[٤٣]، ويظهر لنا جليا هيمنة مواد العلوم النقلية، وخاصة الفقه والحديث، وهو ما كان يدرس أيضا في المراكز العلمية بالمغرب[٤٤]، كما نجد من المؤلفات، الدراسية المغربية عندهم، الشفا للقاضي عياض، وهو كتاب ملأ فراغا في المكتبة الإسلامية في العالم الإسلامي كله لم يملأه سواه، ودلائل الخيرات للجزولي، ومقدمة ابن آجروم، وشرح المكودي على ألفية ابن مالك، والبسط والتعريف في علم التصريف للمكودي أيضا، ولامية الزقاق، والمنهج المنتخب في قواعد المذهب للزقاق أيضا، وشرح الشريف السبتي على الخزرجية في العروض، والدرر اللوامع في قراءة نافع لابن بري، وإضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة، لأحمد المقري، في التوقيت، ونظم المقنع للمرغيثي، وشرح الحكم العطائية للشيخ زروق الفاسي، والمدخل لابن الحاج الفاسي، وجامع المعيار للونشريسي[٤٥]. ومن

المراجع المغربية كذلك عندهم، شرح أبي الحسن الصغير الفاسي على المدونة، وكتاب المراصد في التوحيد لمحمد العربي الفاسي، ومنظومة الذكاة له، ونوازل عبد القادر الفاسي، ونظم العمل الفاسي، وشرحه لولده أبي زيد، وتكميل المرام في شرح شواهد ابن هشام، لمحمد بن عبد القادر الفاسي، ومطالع المسرات في شرح دلائل الخيرات، للمهدي الفاسي، والأنوار السنية للشريف أحمد بن محمد بن أحمد، ورحلة ابن بطوطة، ونوازل الورزازي، وفهرست ابن يعقوب الولي المراكشي، وإشراق البدر على عدد أهل بدر لأحمد بن علي السوسي، ومختصر أبي عبد الله الفيلالي، ونظم الدول للفاسي(٤٦).

رابعًا: تصدر علماء البلدين للتدريس بأهم المساجد المتواجدة في بعض المراكز الثقافية بالقطرين

كان للعلماء سواء علماء المغرب، أو علماء السودان الغربي، خلال العصر السعدي دور كبير خاصة في المجال العلمي، إذ كان لهم الدور الأوفى، في تمتين العلاقات الثقافية بين القطرين، من خلال تنقلاتهم، ورحالاتهم المستمرة بين المغرب والسودان الغربي، واشتغالهم في المناصب الهامة كالتدريس، والخطابة والقضاء، ومما يدل على التلاحم الثقافي والحضاري، بين المغرب الأقصى والسودان الغربي، وجود أساتذة من المغرب الأقصى، كانوا يدرسون أهالي السودان الغربي، شتى العلوم التي كانت تدرس بالمغرب الأقصى، وكذلك وجود أساتذة من السودان الغربي درسوا بالمغرب، و ساهموا بقسط وافر في بناء صرح الحضارة المغربية نكتفي بذكر:

أحمد بابا التنبكتي: ومن المعلوم أنه عاش بمراكش مدة، ودرس فيها، وأفتى، وألف كثيرا من مؤلفاته، ومنها نيل الابتهاج، وكفاية المحتاج، الذي ألفهما برسم خزانة السلطان أحمد المنصور السعدي(٤٧)، وعلى الرغم من شدة المحن، التي ابتلي بها أحمد بابا التنبكتي في هذه السنوات المراكشية، كانت تلك من أغنى فترات حياته عطاء وشهرة، ففيها ختم بعض كتبه سنة ١٠٠٤هـ، وأكمل أشهرها وهو "نيل الابتهاج" سنة ١٠٠٥هـ، واختصره في "كفاية المحتاج"، الذي تعود إحدى نسخه الكاملة إلى صفر من سنة ١٠١٢هـ، هذا فضلا عن جلوسه للتدريس بعد خروجه من السجن، وازدحام الطلاب من حوله، ودوران الفتيا عليه لفظا، وكتابة، بحيث لا تتوجه غالبًا إلا إليه، وأشار في "النيل" إلى أن الله قد جبر عليه، فعادت له بعض كتبه، بعد دخوله لمراكش(٤٨)، وقد جاء التنبكتي، إلى هذه البيئة المغربية، وعمره يناهز الأربعين سنة، فأسهم فيها بالتأليف والتعليم(٤٩)، وقد أكد هذا أحمد بابا التنبكتي، بقوله، "ولما خرجنا من المحنة، طلبوا مني الإقراء، فجلست بعد الإباية بجامع الشرفاء بمراكش، من أنوه جوامعها، أقرئ، مختصر خليل قراءة بحث وتدقيق، ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك، وألفية الحديث للعراقي، فختمت علي نحو عشر مرات، وتحفة الحكام لابن عاصم، وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير للجلال السيوطي قراءة تفهم مرارا، والصحيحين سماعا علي وإسماعا مرارا، ومختصرهما، وكذلك الشفا والموطأ والمعجزات الكبرى للسيوطي، وشمائل الترمذي، والاكتفاء لأبي الربيع الكلاعي، وغيرها. وازدحم علي الخلق وأعيان طلبتها ولازموني، بل قرأ علي قضاتها، كقاضي الجماعة بفاس، العلامة أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني، وهو كبير ينيف على الستين، وكذا قاضي مكناسة الرحلة المؤلف صاحبنا أبو العباس ابن القاضي، له رحلة للمشرق، ولقي فيها الناس، وهو أسن مني، ومفتي مراكش الرجراجي، وغيرهم، وأفتيت فيها لفضا، وكتبا، بحيث لا توجه فيها الفتوى غالبا إلا إلي، وعينت لها مرارا، فابتهلت إلى الله تعالى أن يصرفها عني، واشتهر اسمي في البلاد، من سوس الأقصى، إلى بجاية والجزائر، وغيرها، وقد قال لي بعض طلبة الجزائر، وقد قدم علينا بمراكش، لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط"(٥٠).

محمد بن عبد الكريم المغيلي: رحل الفقيه محمد ابن عبد الكريم المغيلي، إلى بلاد السودان الغربي، ليعمل على تصحيح العقيدة الإسلامية، الذي أخذ الفساد يدب فيه، وليصبح أحد أهم الروابط الثقافية، التي ربطت المغرب بالسودان الغربي، عن طريق منطقة توات، فمنذ القرن الخامس عشر الميلادي، أصبح هذا الإقليم مركزا

هاما لنشر الفكر والثقافة الإسلامية، بالمدن الإسلامية القريبة من الأطراف الجنوبية للصحراء، وعند وصول المغيلي إلى هذه الديار، رأى بأن فهم الناس، لأحكام الدين الإسلامي تطبع عليه البساطة، مما أشاع ظاهرة الشعوذة، التي كان من ورائها أناس ادعوا الفهم الصحيح لديننا الحنيف، وأول منطقة حل بها المغيلي، منطقة أهير مارا، بتدمكت، التي كانت لا تزال في تلك الأيام على ازدهار ملحوظ، ومنها انتقل إلى كشين أو كانو، التي بقي بها للقضاء والاقتداء، والتدريس[٥١]، حيث ترك العديد من المؤلفات في ميدان العلم والتأليف، التي كان لها بالغ الأثر في الحياة العلمية، والثقافية في غرب إفريقيا، منها الغرب المنير في علم التفسير، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، شرح مختصر خليل، مفتاح النظر في علم الحديث، شرع جمل الخونجي في المنطق، ففي نفس السياق قام المغيلي بمراسلة السيوطي وانتصر لآراء أرسطو في المنطق، فتأثر بآرائه الكثير من علماء إفريقيا، وساروا على منهجه، ونشروا مؤلفاته التي تدرس إلى اليوم[٥٢].

عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي: الفقيه، الذي ذهب إلى السودان الغربي، وبالتحديد إلى مدينة تنبكت، وقد منح إجازة، أي شهادة، في مجال التعليم، للسيد أبا بكر بن محمد بن محمد، الشهير بآت التنبكتي، في صحيح البخاري، وغيره، جاء في نصها ما يلي: "الحمد لله رب العالمين، وصلواته، وسلامه، على سيدنا ومولانا محمد (ﷺ)، خير خلق الله أجميعين، والرضاء على آله، وأصحابه أجمعين، وبعد، فيقول العبد المشفق من سوء كسبه، المستغفر من ذنبه، عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي، غفر الله دنوبه، وستر عيوبه، أن الفقيه، المشارك الأديب الفاضل العلامة، المعني الفهامة، الري السني، الشريف الحسني، السيد أبا بكر بن محمد، الشهير بأت التنبكتي، الدار أدام الله توفيقه، وهيأ لما يرضيه طريقه، قد سألني أن أجزيه، في كتب الحديث، كذا مثل الصحيحين، وغيرهما[٥٣].

تميط لنا هذه الإجازة، النقاب عن العديد من الجوانب المهمة، في تاريخ العلاقات الثقافية، بين المغرب الاقصى، والسودان الغربي.

مخلوف بن علي بن صالح البلبالي: فقيه، حافظ رحلة اشتغل بالعلم على كبر على ما قيل، فأول شيوخه سيدي العبد الصالح عبد الله بن عمر بن محمد أقيت، شقيق جدي بولاتن، قرأ عليه الرسالة، ورأى منه نجابة فحظه على العلم، فرغب فيه وسافر للمغرب، فأخذ عن ابن غازي وغيره، اشتهر بقوة الحافظة، حتى ذكر عنه العجب في ذلك، ودخل بلاد السودان ككنو وكيشن، وغيرهما، وأقرا هناك، وجرى له أبحاث في نوازل مع الفقيه العاقب الأنصمني، ثم دخل تنبكت وأقرأ بها، ثم رجع للمغرب فدرس بمراكش، وسم هناك، فمرض فرجع لبلده، وتوفي بعد الأربعين وتسعمائة[٥٤].

خامسًا: الفتاوى الدينية

لقد كان بين علماء المغرب والسودان الغربي في العصر السعدي علاقات طيبة، مبنية على التبادل العلمي من خلال تبادل المصنفات، وابدأ الرأي والمشورة، والاستفسار والفتوى، زادًا من تقويتها سيادة مذهب واحد بين القطرين، ألا وهو المذهب المالكي. فكان الكثير من علماء المغرب يستفتون علماء السودان الغربي كلما استصعبوا أمرًا أو مسألة ومثل ذلك ما كان. وأفتيت فيها لفضا وكتبًا بحيث لا توجه فيها الفتوى غالبًا إلا إلي، وعينت لها مرارًا فابتهلت إلى الله تعالى أن يصرفها عني[٥٥].

وتأكيدًا على الصلات العلمية بين السودان الغربي وبلاد المغرب ما حدث من إرسال رسائل وكتب تعبر عن الاهتمام بما يحدث من أمور مرتبطة بالدين والدنيا بين الفقيه أحمد بابا من جهة وبين فقهاء المغرب من جهة أخرى، منها مراسلاته وفتواه الشهيرة في مسالة العبيد بعد أن أرسل أهل توات رسائل إلى أحمد بابا التنبكتي حول مجلوب السودان فرد عليهم أحمد بابا بالجواب حول حكم الإسلام في رسالة سماها الكشف والبيان لحكم مجلوب السودان[٥٦]، وكذاك مراسلته وفتواه الشهيرة في مجال التدخين وعرفت بـ "قواعد أحمد بابا في حلية التدخين" وجاء رد أحمد بابا عليها مفصلا في كراسة أطلق عليها اسم "اللمع في الإشارة لحكم التبغ والذي انتهى من تأليفه عالم (١٠١٦هـ/١٦٠٧)، ووعد بكتاب آخر يكون أكمل وأتم بعنوان: عين الإصابة في

مسالة طابة، وكانت فتوى أحمد بابا الذي كان من المدمنين على التدخين بحليته ما دام غير منوم وغير مفسد للوضوء، فهي ليست كالخمر، ولا توصف بصفاته(٥٧). كما أفتى أحمد بابا بفتوى حول أعراف جزولة وهي عبارة عن أمور تتعلق بالأحكام العرفية التي كانت سائدة في تلك الجبال المغربية ناحية السوس الأقصى٥٨. فكان الكثير من علماء المغرب يستفتون أحمد بابا التنبكتي كلما استصعبوا أمرا أو مسألة وقد أكد هذا بقوله، "وأفتيت فيها لفضا وكتبا بحيث لا توجه فيها الفتوى غالبا إلا إلي، وعينت لها مرارا فابتهلت إلى الله تعالى أن يصرفها عني"(٥٩). وما ذكرناه لا يدل إلا على بعض الصلات العلمية والثقافية التي ربطت بين علماء السودان الغربي وعلماء بلاد المغرب، وهي صلات عميقة الجذور ضاربة في التاريخ(٦٠).

خَاتِمَةٌ

إجمالاً يمكن القول أن الأشراف السعديين قد ربطتهم ببلاد السودان علاقات علمية وثيقة، زاد من تقويتها سيادة المذهب المالكي، وقد حرص السعديون على تمتين الوحدة الإسلامية، حيث زاد التواصل بين القطرين عن طريق الرحالات العلمية فانعكس ذلك على تبادل المعارف والعلوم والمصنفات العلمية وانتقال طلبة العلم بين المغرب وبلاد السودان، هذا بالإضافة إلى هجرة المغاربة إلى السودان الغربي الذين كان من بينهم العلماء والفقهاء الذين ساهموا في إثراء الحياة الفكرية، والذين لم يكونوا يلقوا أية صعوبات عند حلولهم بالبلد الآخر نتيجة وحدة المذهب، وكانوا يعينون في الوظائف الهامة مثل التدريس، الخطابة، الكتابة، القضاء، كما كان للعلماء دورًا كبيرًا في مختلف المجالات، وخاصة المجال العلمي، ولا سيما علماء المغرب الذين ظهر تأثيرهم بشكل جلي وواضح في السودان الغربي وبخاصة في مجال التعليم إذ نقلوا طريقتهم الخاصة في ذلك وساهموا بقسط كبير في حركة التعريب بالجزء الغربي من القارة السمراء، وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى اشتغال أغلبهم بعد حلولهم بالسودان الغربي في ميدان التعليم.

أما من الناحية العلمية والدينية فكان دور العلماء والفقهاء المغاربة بارزًا وهامًا في نشر الثقافة العربية الإسلامية وذلك بنشر الحرف العربي وتعاليم الفقه والحديث وأصول الفقه والتفسير وعلم الكلام التي كانت سنية في منهجها مغربية في طرق تدريسها، ونتيجة ذلك حدث تبادل ثقافي واسع النطاق، شمل الميادين الدينية والروحية والعلمية والفنية بمختلف جزئياتها ومركباتها، وكان هذا التبادل بين البلدين عملية أخذ وعطاء وتأثر وتأثر من الجانبين، فلقد ساهمت الرحلة العلمية السعدية في إثراء الحضارة المغربية والإسلامية وأصبح السودانيين يأخذون من السعديين بقدر ما كان السعديين يأخذون منهم من العلوم والتأثيرات الثقافية والفنية المختلفة.

الإحالات المرجعية:

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن، **المقدمة**، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٠-٢١.

(٢) وجدي، محمد فريد، **دائرة معارف القرن العشرين**، دار المعرفة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧١، مج٥، ص٣١٧.

(٣) المقدسي، محمد بن أحمد، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** . تقديم: شاكر لعيبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، أبو ظبي،٣٠٠٢، ص ٢٢٤.

(٤) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، **آثار البلاد وأخبار العباد** :دار صادر، د.ط، د.ت.ط، بيروت، ص،٢٤.

(٥) الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم، **المسالك والممالك** .تحقيق :محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة :شفيق غربال :دار القلم، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٣٥ .

(٦) الحسن الوزان بن محمد الفاسي: **وصف إفريقيا** .ترجمة :محمد حجي ومحمد الأخضر :دار الغرب الإسلامي والشركة المغربية للناشرين المتحدين، الطبعة الثانية، بيروت، الرباط، ١٩٨٣، ج٢، ص33 .

(٧) الشكري، أحمد، **الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي ١٢٣٠-١٤٣٠م**، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة الأول، ١٩٩٠، ص ٥٩.

(٨) المرجع نفسه، ص ٥٩.

(٩) أخرجه مسلم عن حديث أبو هريرة.

(١٠) أخرجه عبد البر عن حديث أبي ذر.

(١١) أخرجه ابن عدي والبيهقي عن حديث أنس.

(١٢) ابن خلدون، عبد الرحمن، **المقدمة**، م.س، ص. ٧٤٤.

(١٣) زكري، لامعة، **الرحلة العلمية ودورها في إثراء المجال العلمي، المفهوم، الدوافع، الأنواع**، مجلة كان التاريخية، العدد ٢٢، ٢٠١٣، ص ١٥٧.

(١٤) هي صحراء في أعالي المغرب ذات نخيل وأشجار وعيون بينها وبين سجلماسة ثلاثة عشر يوما انظر: عنتر، سحر، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، مكتبة الثقافة الدنية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١، ص١٢١.

(١٥) هي مدينة بالمغرب الأقصى، وسميت بفاس لأنهم لما شرعوا في حفر أساسها وجدوا فأسا في موضع الحف، وتم بناء مدينة فاس في عام ١٩٢هـ. انظر: عنتر، سحر، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، م.س، ص١٢١.

(١٦) مدينة تقع في شمال النيجر حاليا. وهي من أهم المراكز الواقعة خلف الصحراء. في الطريق الشرقي لبلاد الهوسة، فهذه المدينة كانت ملتقى لطرق القوافل القادمة من السودان الغربي نحو فزن والقوافل التجارية الواصلة من السودان الأوسط غلى توات. وعبر هذه المدينة يستطيع المسافر أن يذهب غلى كافة الاتجاهات. انظر: بازينة، عبد الله سالم، **انتشار الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء**، منشورات جامعة ٧ أكتوبر، مصراته، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص١٤٧-١٤٨

(١٧) مدينة تقع شمال العاصمة باماكو بجمهورية مالي، وكانت خاضعة لسيطرة مالي إبان عصور ازدهارها وتوسعها في منطقة السودان الغربي. انظر: بازينة، عبد الله سالم، **انتشار الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء**، م.س، ص. ١٤٦.

(١٨) إمارة من الإمارات السبع التي كونت بلاد الهوسا، انظر: رزق الله أحمد، مهدي، **حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية**، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص. ٣٨.

(١٩) الغربي، محمد، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، ١٩٨٢، الجزء الأول، ص. ٥١٤.

(٢٠) الشيخ أحمد المنجور (ت٩٢٦-٩٩٥هجرية) أستاذ السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، وإمام فاس وعالمها المشارك، وصفه تلميذه ابن القاضي قائلاً: "الإمام الفقيه المعقولي المؤلف، كان أية من أيات الله تعالى في المعقول والمنقول، وكان أحفظ أهل زمانه وأعرفهم بالتاريخ والبيان والأصول"، وله عدة مؤلفات منها، نظم الفوائد لحل المقاصد، مراتب المجد في أيات السعد، وفهرسة المنجور، عنه ينظر: ابن القاضي، أحمد، **درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧١، الجزء الأول، ص١٥٦ ، القادري، محمد، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمد توفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٨، الجزء الأول، ص٥٥

(٢١) ابن القاضي، أحمد، **درة الحجال في أسماء الرجال**، م.س، الجزء الثاني، ص ٢٣٨.

(٢٢) ابن القاضي، أحمد، **درة الحجال في أسماء الرجال**، م.س، الجزء الثالث، ص ٩٦-٩٧.

(٢٣) الغربي، محمد، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، م س، ص ٥١٦.

(٢٤) نسبة إلى بلبال (أو تبلبلت)، وهي واحة بالقرب من توات عنه ينظر: رزق الله أحمد، مهدي، **حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية**، م.س، ص٧١١.

(٢٥) مدينة تقع إلى الشمال الغربي من تنبكت ومعناها الأرض المرتفعة وكان أهل صنغاي يسمونها بيرو وكان تأسيسها حوالي القرن الأول الهجري. انظر: بازينة، عبد الله سالم، **انتشار الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء**، م.س، ص١٤٧.

(٢٦) الغربي، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، م س، ص ٥١٧.

(٢٧) حجي، محمد، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، منشورات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٨، الجزء الثاني، ص ٦٣٢.

(٢٨) ابن القاضي، أحمد، **درة الحجال في أسماء الرجال**، م.س، الجزء الثالث، ص ٣١٣-٣١٤.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٦٢.

(٣٠) كشنة أو كستينا وهي إمارة من الإمارات السبع التي كونت بلاد الهوسا، انظر: رزق الله أحمد، مهدي، **حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية**، م.س، ص. ٣٨.

(٣١) السعدي، عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، مطبعة بردين، باريس، ١٩٨١، ص ٣٩.

(٣٢) المصدر نفسه، ص. ٥١.

(٣٣) ميفا، عبد الرحمان، **الحركة العلمية في مدينة تنبكت خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين**، مجلة دار الحديث الحسنية، العدد ١٤، ١٩٧٩، ص ٣٨٧.

(٣٤) السعدي، عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، م.س، ص ٣٥.

(٣٥) قصور بالصحراء وهي أعظم اشتهارا وأعرف نقيبا وأشد شوكة وأخشن جانبا وأعظم إقليم المغرب وأكثرها إماما وأفسحها خطة. انظر: الفشتالي، عبد العزيز، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، ص٧٣.

(٣٦) ابن القاضي، أحمد، **درة الحجال في أسماء الرجال**، م.س، الجزء الثالث، ص ١٦٢.

(٣٧) السعدي، عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، م.س، ص ٣١.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٢١٣-٢١٤.

(٣٩) نفسه، ص ٢٩٥.

(٤٠) قدوري، عبد الرحمن، **الوجود المغربي بمنطقة السودان الغربي في القرن ٩ و ١٠ هـ/ ١٥ و ١٦م، دراسة في الدوافع والنتائج**، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، تحت إشراف مبخوت بودواية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تلمسان، ص. ١٠٧.

(٤١) رزق الله أحمد، مهدي، **حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية**، م.س، ص. ٦٦٧.

(٤٢) عنتر، سحر، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، م.س، ص٢٦١.

(٤٣) السعدي، عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، م.س، ص. ٤٥-٤٦.

(٤٤) الغربي، محمد، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، م س، ص ٥٢٢.

(٤٥) البرتلي، محمد، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١، ص. ١٠-١١.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١١.

(٤٧) البرتلي، محمد، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، م.س، ص١٥.

(٤٨) التنبكتي، أحمد بابا، نيل **الابتهاج بتطريز الديباج**، منشورات دار الكتاب، طرابلس، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠، ص ١٦.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٥٠) البرتلي، محمد، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، م.س، ص٣٤-٣٥.

(٥١) بودواية، مبخوت، **العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان**، رسالة لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ، تحت إشراف عبد الحميد حاجيات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تلمسان، ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٥٢) مصطفاوي، سعاد، **دور الحضارة العربية الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا**، مجلة الدراسات التاريخية، العدد ١٤، ٢٠١٢، ص٣٧٩.

(٥٣) المبروك الدالي، الهادي، مملكة **مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا من القرن ١٣ -١٥م، صفحات من تاريخ العلاقات العربية الإفريقية**، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص.١٥١-١٥٢.

(٥٤) السعدي، عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، م.س، ص ٣٩.

(٥٥) البرتلي، محمد، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، م.س، ص٣٥.

(٥٦) عنتر، سحر، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، م.س، ص٢٦٤.

(٥٧) عنتر، سحر، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، م.س، ص٢٦٥.

(٥٨) المرجع نفسه، ص٢٦٥.

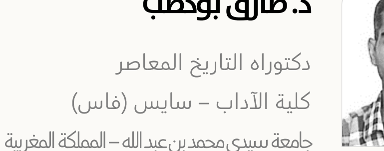
(٥٩) البرتلي، محمد، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، م.س، ص٣٥.

(٦٠) عنتر، سحر، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، م.س، ص٢٦٥.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

التصوف المغربي في غرب إفريقيا
الامتداد والتأثير



د. طارق بوكطب

دكتوراه التاريخ المعاصر
كلية الآداب – سايس (فاس)
جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المملكة المغربية

مُلَخّص

إن انتماء المغرب للقارة الأفريقية التي تعتبر الفضاء الطبيعي الذي يحدد هويته جغرافيا، مكنه من ربط علاقات منذ القدم مع دول إفريقيا جنوب الصحراء، التي مثلت ولازالت مجالاً مفتوحًا للتواصل الثقافي والاقتصادي بين المغرب وأقاليم السودان الغربي. فغنى علاقات المغرب بهذا الفضاء تتخذ أبعادًا متعددة يتداخل فيها التاريخي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ظلت قائمة إلى يومنا هذا. في هذا الإطار تشير المصادر التاريخية إلى أهمية المبادلات التجارية عبر الصحراء بين المغرب ودول جنوب الصحراء. إذ شكلت آلية أساسية في التبادل الثقافي وإغناء الرصيد الروحي بينهما، خصوصًا وأن العديد من الأسر الحاكمة في إفريقيا كانت لها علاقات وصلات وثيقة مع علماء وفقهاء المغرب ما مكنها من القيام بدور بالغ الأهمية في منطقة السودان الغربي. لقد استطاع المغرب بحكم السيادة الروحية التي يحظى بها لدى دول إفريقيا جنوب الصحراء الحفاظ على مدى قرون عديدة على روابط وثيقة امتدت إلى مناطق بعيدة نحو الجنوب عن حدوده الجغرافية والسياسية الحالية، وقد شكلت الزوايا والطرق الصوفية المغربية هوية متميزة بنفحات مغربية أصيلة في دول جنوب الصحراء، وهو ما يترجمه التوافد الكبير لمريدي فروع هذه الطرق الصوفية من أعماق إفريقيا إلى المغرب لإحياء المناسبات الدينية واستحضار هذا البعد الروحي للمغرب لدى بلدانهم، بل أكثر من ذلك نجد أن التصوف المغربي قد شكل الحجر الأساس في توطيد المرجعية الدينية الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء من خلال التضييق على المسيحية وخلق التوازن الروحي والسياسي بالإضافة إلى الدور الذي لعبه في سبيل دعم وتكريس حوار الثقافات والحضارات والإسهام في بناء مجتمعات فاضلة تعيش في سلام ومحبة وتواصل إيجابي بدل الركون إلى قيم الصراع والعنف والكراهية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٩ يناير ٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر: ٢١ فبراير ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

التصوف المغربي; بلاد السودان الغربي; المذهب المالكي; الطرق الصوفية; القارة الأفريقية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.262099 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

طارق بوكطب, "التصوف المغربي في غرب إفريقيا: الامتداد والتأثير".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ٨٤ – ٩٥.

Corresponding author: sciencehistoire@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَة

تتأسس العلاقات الدولية على مجموعة من المحددات، أجملها المؤرخون والسياسيون في المحددات الطبيعية والبشرية، ثم الاقتصادية والثقافية والدينية. ولم يستثن المغرب من هذه المحددات في سياسته وعلاقاته الدولية بصفة عامة والأفريقية بصفة خاصة. وإذا كان المحدد الطبيعي المتمثل في الموقع استراتيجي للمغرب بشمال إفريقيا على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط قد مكنه من الانفتاح على الدول الأوروبية وربط علاقات اقتصادية وسياسية متجذرة في التاريخ، فإن علاقاته مع بلدان إفريقيا جنوب الصحراء قد تحكم فيها المحدد الديني بشكل متميز. إذ ظل المغرب منذ العصور الوسطى بمثابته أرض للارتواء الروحي بالنسبة للعديد من شعوب لإفريقيا جنوب الصحراء، فتمكن من تصدير نموذج ديني يؤلف بين المذهب السني المالكي والعقيدة الأشعرية وطريقة الجنيد والتجربة الصوفية، وبذلك غدا دوره وحضوره في إفريقيا مرتبطًا بالجانب الديني أكثر من غيره، وهو المجال الذي تميز به عن بلدان شمال إفريقيا وباقي الدول العربية الإسلامية.

إن انتماء المغرب للقارة الإفريقية، الفضاء الطبيعي الذي يحدد هويته جغرافيا، مكنه من نسج علاقات متجذرة في التاريخ مع بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، ورغم اتساع مجال الصحراء فإنه لم يشكل عائقا بقدر ما مثل جسرًا مفتوحًا للتواصل بين المغرب وأقاليم السودان الغربي، لتتخذ بذلك علاقات المغرب بهذا الفضاء أبعادًا متعددة يتداخل فيها التاريخي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، ولنا في الدستور المغربي أكبر تأكيد على ذلك، حيث اعتبار انتماء المغرب الإفريقي أحد أهم ركائز الهوية المغربية.

تجمع المصادر التاريخية على أن علاقات المغرب بغرب إفريقيا، تعود إلى فترة المرابطين، فقد شكلت المبادلات التجارية عبر الصحراء آلية أساسية في تحديد نوع تلك العلاقة التي كانت قائمة على أساس اقتصادي، واستمرت هذه الروابط مع الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، لتشهد تطوراً مهما إبان الحكم السعدي، خصوصًا في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي الذي تمكن من فتح بلاد السودان سنة ١٥٨٥م، وأرسى دعائم دولة تمتد إلى تخوم نهر السنيغال. كما حظي السلطان السعدي بمبايعة الكثير من ملوك وأمراء هذه المناطق، وذلك مقابل إرسال مساعدات عسكرية من أجل نصرة الإسلام والمسلمين ونشره في المناطق المجاورة. كما ساهم في توطيد العلاقات خلال هذه الفترة تطور المبادلات التجارية عبر الصحراء، حيث شكلت آلية أساسية في التبادل الثقافي بين ضفتين تفصلهما فيافي وقفار تمتد من الشرق إلى الغرب. فتم بذلك إغناء الرصيد الروحي بينهما، خصوصًا وأن العديد من الأسر الحاكمة في إفريقيا الغربية كانت لها علاقات وصلات وثيقة مع علماء وفقهاء المغرب، مما مكنها من القيام بدور بالغ الأهمية في المنطقة.

ورغم فتور العلاقات مع وصول طلائع المستكشفين الأوروبيين إلى الساحل الغربي لإفريقيا، وتراجع الحضور المغربي في هذه الأصقاع اقتصاديًا وسياسيًا، وفقدانه لدور الوساطة الاقتصادية بشكل لم يعد معه المغرب في بداية القرن التاسع عشر قادرًا على مواجهة القوة العسكرية الأوروبية، فإن العلاقات الدينية والروحية بشكل خاص ظلت مستمرة أمام الحملات التبشيرية التي قادتها المسيحية، واستمر المغرب في تقوية حضوره بإفريقيا بصفة عامة ودول غربها بصفة خاصة.

أولاً: أهم الطرق الصوفية المغربية التي انتشرت بالسودان الغربي

شكلت الزوايا والرابطات والمدارس والمساجد التي أنشأت عبر بلدان السودان الغربي، فضاءات مناسبة لانتشار التصوف وتطوره. فخلال القرنين الخامس والسادس عشر الميلاديين، عرفت الزاوية الكنتية القادرية انتشارًا واسعًا ببلاد السودان، وأيضًا الزاوية البكائية التي أنشأها سيدي أحمد بن موسى المتوفي (٩٢١هـ/ ١٥٢٣م)[1]. كما كان للزاوية العيساوية المنتسبة لسيدي محمد بت عيسى المهدي السملالي الذي أخذ عن الشاذلية، حظها في الانتشار عن طريق مريديها في بلاد السودان. وتعدّ الزاوية المصلوحية التي أسسها

سيدي عبد الله بن حسين (ت. ٩٧٧ هـ/ ١٥٦٩م)[٢]، أيضًا من الزوايا التي لاقت انتشارا واسعا بتلك البلاد. وبالمثل، عرفت الزاوية الجزولية التي أنشأها سيدي أحمد بن موسى (ت. ٩٧١ه/ ١٥٦٣م)[٣] إقبالاً كبيرًا من طرف المريدين السودانيين، إذ تشبعوا بالفكر الصوفي المغربي، فكان منهم العلماء والزهاد والمتصوفة.

وبذلك، تمكن التصوف المغربي من التغلغل بشكل سلس في مجتمعات السودان الغربي نظرا لخصوصيته المتمثلة في الوسطية والاعتدال، وقبول الاختلاف، والتعايش، والتسامح. ويمكن لأي متتبع أن يلحظ تأثير التصوف المغربي داخل بلاد السودان على مختلف مناحي الحياة، حيث ظهر عدد من الزوايا كان لها دورًا بارزًا في خدمة الدين والمجتمع. حيث بلغ هذا التأثير مداه لدرجة ارتبط فيها السودانيون بشكل وثيق بالزوايا داخل المغرب من خلال تبادل الزيارات الروحية والعلمية، التي ظلت قائمة إلى يومنا هذا. ولنا في ضريح الشيخ سيدي احمد التجاني دفين فاس، مثالاً على عمق الارتباط الروحي بين المريدين السودانيين وأشياخهم بالمغرب.

والأكيد أن تأسيس عدة طرق صوفية ذات الأصل المغربي ببلاد السودان يترجم مدى عمق هذه العلاقات ومتانتها، ولعل أبرزها الطريقة القادرية التي تعتبر من أهم الطرق الصوفية التي انتشرت ببلاد السودان الغربي، وكان لها تأثير فكري و اجتماعي و سياسي، و"القادرية منسوبة إلى مؤسسها سيدي عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة (٥٦١هـ/ ١١٦٧م)، وقد انتقلت الطريقة إلى المغرب عن طريق أبي مدين شعيب الأنصاري الأندلسي، وأخذها عنه عبد السلام بن مشيش الذي انتشرت على يده، وكان من مريدي الطريقة الشيخ أبي يعزى الذي أخذ عن الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني".[٤]

عرفت انتشارًا واسعًا بفضل الشيخ عبد الكريم المغيلي (ت ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م)[٥]، ومن بعده الشيخ سيدي عمر بن الشيخ سيد أحمد البكاي الكنتي (ت ٩٥٩هـ/ ١٥٢٢م)[٦]، الذي يعد مؤسس الطريقة في السودان الغربي. وتنقسم القادرية في السودان الغربي إلى طائفتين كبرتين هما: الطريقة البكائية وهي منسوبة إلى أحمد البكاي الكنتي ولها عدد كبير من المنتسبين خاصة العلماء بمختلف بلاد السودان الغربي، ثم الطريقة الفاضلية التي أسسها الشيخ محمد فاضل بن مامين القلقمي، الذي ساهم بشكل وافر في انتشار هذه الطريقة في بلاد السودان، خصوصا بعد أن قام ببعث أبنائه العلماء الثلاثة متفرقين في نواحي البلاد؛ الشيخ سعد بوه في الترارزة، والشيخ ماء العنين في آدرار، وسيد الخير بمنطقة الحوض. وبطبيعة الحال ساعد ذلك على توطين الطريقة الفاضلية بالسودان، وذلك من خلال تخريج العديد من الفقهاء والمتصوفة الذين تتلمذوا على يد أبناء محمد فاضل بن مامين، مثل الشيخ المجتبى بن خطري البصادي، والشيخ أحمد أبو المعالي التقاطي والشيخ التراد بن الشيخ الحضرمي، هذا الخير الذي اخذ عنه الشيخ محمد عبد الله بن اده البصادي.[٧] أيضًا، عرفت بلاد السودان الغربي انتشار الطريقة الشاذلية خصوصًا منذ القرن العاشر الهجري، ويرجع الفضل في ذلك إلى أحمد زروق (ت. ٩٦٣ه)، ومحمد ناصر الدرعي (ت. ١٠٣٦ه)، وهما من الشيوخ المغاربة الذين بصموا التصوف المغربي وحققوا شهرة كبيرة داخل المغرب وخارجه. ويعد هذا الأخير سند الطريقة الأغظفية التي لاقت انتشارًا واسعًا بالسودان، وهي إحدى فروع الطريقة الشاذلية إلى جانب الطريقة المتالية[٨]. وفي هذا الصدد، تردد كثير من الشيوخ المغاربة المنتسبين لهذه الطريقة على بلاد السودان، فساهموا في التعريف بها وكسب مزيد من الاتباع والمريدين، ومنهم على سبيل المثال الشيخ سيد إبراهيم البصيري المغربي الذي طال به المقام بأرض السودان وكان من الشيوخ البارزين.

وبالمقابل، ذاع صيت الطريقة التيجانية، حتى "طفق إشعاعها ينتشر في شتى الأرجاء، وقد كان نصيب المناطق الواقعة جنوب الصحراء حظا موفورا، فرجال مثل الشيخ محمد الحافظ الشنقيطي والأخويين السالك وأحمد سالم وعثمان الفلاني والشيخ سيدي محمد الأخضر وغيرهم كثير قد نشروا الطريقة التيجانية في أرض البيضان والسودان الغربي".[٩] وفي هذا السياق، تشير مجموعة من "المصادر التيجانية وغير التيجانية، خصوصا منها المكتوبة باللغة الفرنسية على أن محمد

الحافظ العلوي الشنقيطي هو أول مَنْ نقل تعاليم الطريقة التيجانية إلى الصحراء وبلاد شنقيط".[١٠] وقد كانت حياته مليئة بالتجارب، والتنقل من أجل العلم، حيث أخذ العلم عن كثير من الشيوخ، "ولما وصل المغرب وبالتحديد مدينة فاس أخذ مباشرة ورد الطريقة التيجانية عن شيخ الطريقة احمد التيجاني"[١١]، وقام بنشرها في غرب إفريقيا عبر موريتانيا.

والأكيد أن هذه الطريقة قد استطاعت أن تنشئ عدة فروع لها ببلاد السودان الغربي، ولعل أهمها فرع التيجانية الحموية نسبة إلى الشيخ أحمد بن محمد بن سيدنا عمر الشهير بـــ" (حماه الله الشريف التيشيتي)، الذي كان من أهم المتصوفة المقاومين للاستعمار في غرب إفريقيا ولقبه المصادر الفرنسية بـــ "شريف انيورو".[١٢] ولم تكن التيجانية الحافظية نسبة إلى الشيخ محمد الحافظ العلوي أقل شأنا منها، إذ انتشرت هي الأخرى انتشارا واسعا في السودان الغربي. وكان من أشهر مشايخها المعاصرين الشيخ ابراهيم انياس الكولخي، الذي ساهم بشكل وافر في ازدهارها وانتشارها في مناطق مختلفة من بلاد السودان الغربي، حيث "طبعها بطابع تميزت به عن باقي الفروع الأخرى، ذلك الطابع الذي تجسد في الفيضة التيجانية".[١٣] ومع قيام الدولة العمرية الفوتية- نسبة إلى الشيخ عمر الفوتي (١٧٩٤م – ١٨٦٤م) الذي قام بدور حيوي دينيا وثقافيا وسياسيا في تاريخ غرب إفريقيا، "حظيت تلك الطريقة برعاية ودعم قوي من قبل تلك الدولة في غرب إفريقيا".[١٤]

وبطبيعة الحال، ساهمت مجموعة من العوامل في انتشار الطريقة التيجانية، ولعل أبرزها الدعم الذي منحه المولى سليمان إياها ولشيخها، إضافة إلى أسباب أخرى يمكن إجمالها في:

- المكانة العلمية لشيخ الطريقة التيجانية التي وصل صداها إلى جنوب الصحراء.
- تفاني صفوة من الأصحاب في خدمة الطريقة وشيخها، فاعتمد عليهم الشيخ منذ البداية، فرحبوا بدعوته ودخلوا في طريقته وصاروا من خاصة خاصته، وبفضلهم انتشرت تعاليم مذهبه بمدينة فاس وخارجها، مستفيدين من كافة أوجه الدعم المقدمة.
- شبكة من المقدمين مدعومة بفئة من التجار ساعدوا بشكل كبير في نشر الطريقة التيجانية في السودان الغربي.
- ترحيب نخبة من العلماء ذوو الثقافة العالية بالطريقة التيجانية، إذ لم يجدوا مبتغاهم في الطرق المنتشرة آنذاك (فالطريقة التيجانية لم تكن أول الطرق التي دخلت السودان الغربي، بل سبقتها الشاذلية والقادرية)، وهو ما سيجعل هؤلاء العلماء يستقبلون الطريقة التيجانية بنوع من الحفاوة.
- انفتاح هذه الطريقة على شريحة من النساء وعلى فئات من المجتمع كانت مهمشة.
- ظهرت الطريقة التيجانية في جو من عدم الاستقرار الذي عرفه مجتمع السودان الغربي، وضرورة تجاوز طرق لم تستطع تغيير ذلك [١٥].

لقد حرصت الزوايا على استمرار العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان من خلال اتخاذها لمجموعة من الإجراءات الكفيلة بتذليل الصعاب وتجاوز الأخطار التي واجهتها القوافل التجارية، وذلك تسهيلاً لعملية العبور وتشجيعا لهذا النشاط بين المغرب وبلاد السودان الغربي، وهو الدور الذي برزت من خلاله الطريقة التيجانية، حيث "كان لها حضور فاعل في هذه العلاقات التجارية، وقد شجع المولى سليمان جميع الأنشطة التجارية التي كانت تقوم بها في اتجاه إفريقيا الغربية"[١٦]. كما ساهمت الزاوية التيجانية في إضافة لبنات جديدة في صرح الصلات والروابط التي جمعت بين المغرب وبلاد السودان، واستطاعت أن تبلغ الأوج برفعها لواء الجهاد سنة ١٨٤٨م، واستمر نشاطها الجهادي إلى أن اصطدمت بالفرنسيين الذين تمكنوا من القضاء عليها سنة ١٨٩٤م. وبذلك ساهمت في نشر الثقافة والحضارة العربية الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء، وشكلت صلة وصل بين مسلمي الشمال والجنوب من خلال تبادل الزيارات والآراء والأفكار. كما "عملت على الوقوف أمام التيارات الأوروبية والحركات التنصيرية.[١٧]" وكيف لا وهي التي صادفت بداية الاحتلال الأوروبي لبلاد إفريقيا، فاضطر مريدوها إلى مقاومته دفاعا عن الدين والوطن والنفس والعرض.

إلى جانب هذه الطرق الصوفية التي كان امتدادها كبيرًا ببلاد السودان الغربي، ظهرت طرق أخرى لم تكن أقل أهمية، رغم أن انتشارها لم يكن بشكل كبير، "لكن أداؤها كان جيدا بشكل عام كالطريقة الصديقية والخضرية وهي طرق تتصل بالسابقة". [١٨] ومن الطرق أيضًا التي انتشرت في بلاد السودان الغربي، وحظيت باهتمام السودانيين وساهمت في ترسيخ الروابط الدينية والفقه المالكي، منها الطريق السنوسية التي يرجع سندها إلى الشيخ عبد العزيز الدباغ[١٩]، الذي أسس الزاوية المحمدية القادرية بمدينة فاس في نهاية القرن الثامن عشر.

تأسست الطريقة السنوسية على يد الشيخ محمد بن علي السنوسي، وارتبطت بالتصوف المغربي من خلال اتجاهين ، القادرية والشاذلية،[٢٠] كما أخذ شيخها وردًا عن مؤسس الطريقة التيجانية عندما التقى به في الديار المقدسة، وانتشر تأثير الطريقة السنوسية بجميع إفريقيا الغربية، وتركيا، والعربية السعودية، وقد اتسع نفوذها على أيدي دعاة يفيدون من طرابلس وتوات على تلك البلاد. [٢١] وتعتبر الطريقة السنوسية من الحركات الإصلاحية التي اعتمدت التصوف، كطريقة من طرق الإصلاح، وصلت إصلاحاتها حتى الكانم والبرنو ووداي وغيرها من المناطق التي كانت مسلمة، ومما يميز هذه الطريقة دعوة شيخها إلى ترك باب الاجتهاد مفتوحا، كما أنها من أكثر الطرق الصوفية تمسكًا بالسنة المحمدية، مما جعلها تنجح في انتشارها بالمجتمع السوداني. [٢٢]

ثانيًا: تجليات حضور التصوف المغربي ببلاد السودان الغربي

١/٢-دور المتصوفة المغاربة في الحركة العلمية وتوطيد المذهب المالكي بالسودان الغربي

ساهم العلماء والمتصوفة المغاربة في الحركة العلمية وحركة التصوف التي عرفتها بلاد السودان الغربي بامتياز، مستفيدين من القرب الجغرافي للسودان الغربي من المغرب، ومن الإرث التاريخي للصلات الثقافية التي جمعت بين ضفتي الصحراء، منذ وصول المرابطين الذين تاخمت مضاربهم الأولى للبلاد، وأدت حركتهم الإصلاحية مع مطلع القرن الخامس الهجري إلى انتشار الإسلام في السودان الغربي[٢٣]، إلى جانب هجرة العديد من العائلات المغربية إلى السودان الغربي، وتقلد عدد منها مناصب مهمة في المجتمع السوداني مما مكنها من نشر المذهب المالكي.

(١/٢) ١-إسهام المتصوفة المغاربة في مجال التعليم

ذاعت في السودان الغربي شهرة عدد من شيوخ، وعلماء، ومتصوفة مغاربة ممن استقروا في مدن السودان الغربي مثل مدينة ماسنة وكرجينيو وجني وكانو وتمكبت[٢٤]، إذ كان لهم تأثير بارز على الحياة الفكرية والدينية والثقافية بمجتمع بلاد السودان الغربي. فقد توارد على تلك البلاد عشرات من العلماء الذين درسوا بجامعة القرويين، ممن لمع اسمهم في تاريخ البلدين معا، وبارك الأسكيا الحركة العلمية والثقافية العربية وشجعوها، واحترموا العلماء والفقهاء والمتصوفة، و"اسقطوا عنهم وظائف السلطنة وغرامتها، ومنعوا عنهم ظلم الحكام بحيث كان للأسكيا محمد وغيره وحده حق النظر في أية شكوى ضد عالم أو فقيه أو صوفي". [٢٥] وحضي العلماء بالتوقير والاحترام لدرجة أن "اعتقد أهل السودان أن الولاية في العلماء ونسبوا لهم الكرامات وكانوا يقيمون الأضرحة لمن مات منهم ويتقدمون بالذبائح إلى تلك المقامات". [٢٦]

وانطلاقًا من المكانة التي حضي بها العلماء إلى جانب تضلعهم في مختلف العلوم والمعارف، إذ كانوا فقهاء وخطباء ووعاظ في مساجد بلاد السودان الغربي، فقد ازدهرت على أيديهم الحركة العلمية خصوصًا إبان العصر الحديث، وعُرف كل واحد منهم بمنهجه الخاص في التلقين، حتى صاروا قبلة عامة الناس وخاصتهم ينهلون من علومهم، وتقدم المتون التاريخية جملة من العلماء والمتصوفة المغاربة الذين قاموا بتعليم أهل السودان وتركوا لديهم آثارا بالغة، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

عبد الرحمن سقين القصري المغربي:[٢٧] هو الحاج الرحالة الخطيب، أبو محمد عبد الرحمن بن علي بن احمد القصري الفاسي السفياني العاصمي توفي سنة (٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م)، تلميذ ابن غازي المؤرخ، رحل إلى بلاد السودان، ثم مصر والحجاز، عاد بعد خمس عشرة سنة

إلى بلاد السودان ودخل مدينة "كانو" حيث جلس مع حكامها وتولى القضاء فيها، عاد بعد ذلك غلى مدينة فاس سنة ١٥١٨، ثم رجع سنة ١٥١٩ إلى "كانو" حيث كان نشيطا في التعليم بها، وكان له دور كبير في تدريس وتعليم أصول الدين الإسلامي.

الشريف أبو العباس سيدي أحمد بن الشيخ الجليل أبي عبد الله: يذكر أنه من ذرية عبد القادر الجيلاني، "ووصف بالشرف والولاية من قبل الشيخ المجذوب أبو حفص عمر ولد عبد الله البرنوي، خرج من فاس متوجها لزيارة شيخه عبد الله البرنوي وأطال فيها"[٢٨]، وقد كان عالمًا معلمًا نهل من علمه مجموعة كبيرة من الطلاب ببلاد السودان الغربي أيام إقامته بتلك البقاع.

الفقيه سيدي علي بن عبد الله سر: [٢٩]هو الفقيه الإمام علي بن عبد الله سر بن الإمام سيدي يحيى بن علي الجزولي، من العلماء الذين برز اسمهم كان عالمًا ومفتيًا، عين إمامًا على الجامع الكبير بتنبكت بعد ووفاة الإمام عبد السلام بن محمد الفلاني سنة ١٦٢٥م بإذن من القاضي أحمد بن اندغ محمد وظل فيها إلى أن وافته المنية خلال القرن الحادي عشر هجري.

محمد بن عمر بن محمد اقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي: كان صنهاجيًا تنبكتيًا قاضيًا في هذه المدينة، يعتبر عالم بلاد التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها، انتفع به كثيرون وأحيا العلام ببلاده وكثر عليه طلاب الفقه، ونبغت جماعة من عائلة أقيت الصنهاجية فصاروا من العلماء المبرزين، وعن هذا العالم انتشر مختص الخليل ببلاد السودان الغربي، و"طال عمره حتى أنه درس مدة خمس عشرة سنة، ثم توفي في السادس عشر من رمضان سنة (٩٥٥ه/١٥٤٨م)".[٣٠]

الشيخ أحمد بابا التنبكتي: يعتبر من أبرز علماء السودان ينحدر من أصول مغربية فعائلته، "عائلة أقيت الصنهاجية، أصحاب الدور الكبير في نشر العلم بالسودان الغربي في عهد سلطنة صنغاي، ترجم للعديد من العلماء في كتابه "كفاية المحتاج لمعرفة مَنْ ليس في الدباج" تولى القضاء في تنبكت في أواسط القرن التاسع الهجري[٣١]، ورغم الظروف الصعبة والأليمة التي حل فيها أحمد بابا بمراكش، فإن ذلك لم يكن ليثنيه عن البحث والاجتهاد في تحصيل العلوم، فخلال مقامه بمراكش، قصد خزاناتها، مثل "مكتبة جامع الشرفاء، ومكتبة السلطان أحمد المنصور، ومكتبة يوسف بن تاشفين"[٣٢]، وتمكن من النهل من مخطوطاتها وكتبها. ويمكن القول أن التجربة التي عاشها أحمد بابا، بالمغرب كانت "أخصب مراحل حياته الثقافية"،[٣٣] الأمر كان له انعكاس إيجابي عند عودته إلى تنبكت، إذ تفرغ للعلم ولمهنة التدريس وإعداد الفتاوى، وساهم بذلك في إغناء الحياة الثقافية والعلمية بالسودان الغربي، مما جعله يُعَدّ "من أبرز مثال للتواصل الثقافي والعلمي بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء.[٣٤]

إضافةً إلى هؤلاء العلماء برز أخرون ممَنْ أغنوا الحياة العلمية والفكرية، وتولوا مناصب سامية، كالقضاء والإمامة في المراكز الكبرى بالسودان الغربي، خصوصًا في فترة العصر الحديث خلال الحكم السعدي الذي عرف ازدهارًا علميًا وفكريًا، وقد بلغ تأثير العلماء المغاربة في الحياة الفكرية لدرجة أن المواد التي كانت تدرس بالمغرب هي نفسها كانت تدرس ببلاد السودان الغربي. كما تأثر المنهج التعليمي في السودان الغربي عموما بمنهج المغرب، حيث كان العرف الجاري في التعليم أن يبدأ التلميذ بالكُتاب فيتعلم القراءة فقط في أول الأمر، فإذا وصل إلى مرحلة يستطيع فيها أن يميز بين الحروف ويستطيع أن يقرأ باجتهاد، بدأ المعلم يعلمه الكتابة، وهذه هي مرحلة التعليم الأولي، وفيها يحفظ التلميذ القرآن كله أو نصفه، حسب قدرته وذكائه، ويتعلم كذلك بعض مبادئ الفقه.

ثم تأتي المرحلة العالية، وتكون الدراسة في هذه المرحلة في الجوامع والمدارس، وفي هذه المرحلة يتعلم الطالب النحو واللغة والفقه، وهذه المرحلة غير محددة الزمن إذ يرجع الأمر إلى الأستاذ هو الذي يجيز من الطلبة من رأى فيه النبوغ والتمكن. وفي هذا الإطار يُعَدّ أحمد بابا التنبكتي مثالاً واضحًا عن طريق الأخذ في هذه الرحلة في حديثه عن ملازمته لشيخه محمد بغيغ، فيقول: "لازمته أكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل، وابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير ختمتها عليه، أما خليل فمرارًا عديدة نحو عشر مرات أو ثمان بقراءتي وقراءة غيري، وحضرت عليه التوضيح كذلك، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم،

وحضرته كثيرًا في المنتقى والمدونة بشرح المحلى ثلاث مرات، والفية العراقي في علم الحديث مع شرحها، وحضرتهما عليه مرة أخرى. وختمت عليه تلخيص المفتاح مرتين بمختصر السعد، وصغرى السنوسي ومع شرح زروق عليه، ونظم ابن مقرعة، والهاشمية في التنجيم مع شرحها ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المغلي في المنطق والخزرجية في العروض بشرح الشريف والدمامني، وكثيرًا من تحفة الحكام لابن عاصم في الأحكام مع شرح ولده عليه. وسمعت بقراءته هذه كثيرًا من البخاري، ودولاً من مدخل ابن الحاج بقراءة غيري، ودروسًا من الرسالة والألفية وغيرهما، وسمعت بلفظه جامع معيار الونشريسي كاملاً... وباحثته كثيرًا في المشكلات، وراجعته طويلاً في المهمات... وهو شيخي وأستاذي، ما انتفعت بأحد انتفاعي به وبكتبه... وأجازني جميع ما يجوز له ومنه، وكتب لي بخطه في ذلك"(٣٥).

لقد كان للحركة العلمية التي أسس لها العلماء المغاربة ببلاد السودان أثر كبير على السودانيين، إذ شهدت هذه الأخيرة حركة واسعة من التأليف في مجالات عدة أبرزها الفقه والسير، على يد علماء سودانيين، ونذكر على سبيل المثال:

- "تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتقرير أنساب العبيد من الأحرار"، للمؤرخ الكبير محمود كعت، المولود سنة ١٥٤٨م في منطقة غورما غرب غاو، وقد عاصر المؤرخ أسكيا الحاج محمد الكبير في بدء شبابه، ثم انتقل إلى تنبكت لطلب العلم، توفي سنة ١٥٩٣م.(٣٦)
- "تاريخ السودان"، للشيخ عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، المولود سنة ١٥٩٦م تلقى العلم في تنبكت، واهتم بالتاريخ منذ شبابه، قال في كتابه: "ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه، وذهاب ديناره وفلوسه، وإنه كبير الفوائد، كثير الفرائد، لما فيه من معرفة المرء بأخبار وطنه وأسلافه وطبقاتهم وتواريخهم ووفياتهم، فاستعنت بالله-سبحانه-في كتب ما رويت عن ذكر ملوك أهل سغي" .(٣٧)
- "تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان" لمؤلف مجهول، كان يعيش في تنبكت، وبها تعلم العلم، كلفه الباشا أبو بكر بوضع كتاب في تاريخ السودان يكمل به عمل السعدي، وقد فرغ في تأليفه في سنة ١٧٥١م(٣٨).
- "نيل الابتهاج بتطريز ما في الدباج"، لأحمد بابا التنبكتي، وهو هامش على كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لبرهان الدين إبراهيم بن فرحون. وقد بدأ أحمد بابا تأليفه في تنبكت وأتمه في مراكش، ثم وضع له تكملة سماها (تكملة الديباج)، اشتملت على تراجم أئمة المذهب المالكي، ثم جعل لتلك التكملة ذيلا سماه (كفاية المحتاج لمعرفة مَنْ ليس في الديباج) أو (ذيل الابتهاج بالذيل على الديباج).(٣٩) كما تشير المصادر إلى أن هذا العالم الفقيه ذو الصيت، خلف ما يناهز الربعين مؤلفًا.

(٢/١) ٢-إسهام العلماء المتصوفة في نشر المذهب المالكي

كان لأصحاب المذاهب الإسلامية من السنة و الخوارج الصفرية والإباضية إسهام كبير وواضح في نشر الإسلام ببلاد السودان الغربي خلال القرن الثامن ميلادي، حيث نشطت التجارة التي ساهمت بدورها في نشر الإسلام وكذلك نشر بعض أراءهم الدينية، وقد ساعد على ذلك" حيوية التجار ودور السلطة السياسية في الشمال الإفريقي وبلاد السودان الغربي وتوفير الأمن على طول الطريق التجارية"؛ (٤٠) حيث استمر نشاط تجار الفرق الإسلامية الدعوي للإسلام خلال القرن التاسع، لكن مع نهاية هذا القرن انتهى دور الخوارج الصفرية في السودان الغربي بسقوط دولتهم في سجلماسة، وبدأ دور الإباضية في الضعف بعد سقوط دولتهم في تاهارت، وكان هذا سبب قيام الدولة الفاطمية الشيعية في المغربي، وقد سعت الدولة من أجل بسط نفوذها على العالم الإسلامي بشكل عام، لذلك كانت رغبة خلفائها في الاستفادة من تجارة الصحراء، ليتسنى لهم الحصول على كميات الذهب لتساعدهم في تمويل فتوحاتهم وضرب عملتهم، ولكن فشلت الدولة

الفاطمية الشيعية في ذلك كما فشلت في نشر مذهبها ببلاد المغرب وبلاد السودان الغربي.

ومع غياب تجار الفرق الإسلامية، شهد القرن الحادي عشر استمرار نشاط تجار السنة المالكي وفي هذه السنة قام المرابطين بدور دعوى في تلك البلاد ونشروا الإسلام على أساس المذهب المالكي، ولذلك تمكن "المذهب المالكي من الانتشار بشكل أوسع ولقي قبولاً أكثر من غيره من المذاهب، حتى أصبح مذهب الحكام والمحكومين، وتوطن بمفرده في بلاد السودان الغربي".[٤١]

يعتبر المغرب حصن المذهب المالكي الصامد، منذ أن تم تبنيه واستقر الأمر عليه، حتى صار مُصدراً لهذا المذهب وحاضنًا له إلى درجة أنه أصبح كما قال عبد الهادي التازي: "شعارًا من شعارات الدولة المغربية"[٤٢]. فمنذ الأدارسة استمر توطيد المذهب المالكي بالمغرب بعد أن انتقل إليه من الأندلس، فاعتمد المغاربة المذهب المالكي في حياتهم الدينية والدنيوية، بل جُعل مذهبًا رسميًا للدولة، فحافظ عليه سلاطين الدولة المغربية وعملوا على نشره، إلى جانب الزوايا والطرق الصوفية التي كان لها الدور الكبير والهام في تصدير مبادئ وتعاليم الفقه المالكي، خصوصًا إلى بلاد السودان الغربي.

فلا غرو أن يكون من تجليات تأثيرات المغرب ببلاد السودان الغربي انتشار المذهب المالكي بهذه الأخيرة، خصوصًا. وقد استمر انتشاره بالمغرب إلى أن حمله أوائل المعلمين، علماء وفقهاء "سنيين مالكيين في جنوب الصحراء أمثال عبد الله بن ياسين وأبي بكر الحضرمي، وإبراهيم الأموي"[٤٣].

وبعد أن توطد الفكر والفقه المالكي لدى علماء وفقهاء الصحراء أصبحوا من المدافعين عنه والعاملين على نشره وهو الأمر الذي تم مع أول حملة للمرابطين في اتجاه بلاد السودان الغربي، الذي يُعَدّ من أهم المناطق التي ساد فيها المذهب المالكي حيث "أقبل السلاطين السودانيون على جلب الفقهاء المالكيين من أجل التفقه في المذهب"[٤٤] حتى غدى بلاد السودان الغربي في عهد مملكتي مالي وسنغاي من بين أهم مناطق العالم الإسلامي ازدهارًا بالعلوم الشرعية والثقافة الإسلامية المالكية. إن من بين أهم تأثيرات انتشار الإسلام في السودان الغربي هو "انتشار المذهب المالكي وبروز ظاهرة التصوف في لونه المغربي، وانتشاره على نطاق واسع".[٤٥]

ويمكننا القول أن انتشار المذهب المالكي تزامن مع انتشار الطرق الصوفية المغربية الأصل بتلك البقاع كالشاذلية، والقادرية والمختارية والتجانية غيرها من الطرق الصوفية التي اعتقد شيوخها في المذهب المالكي وعملوا على نشر تعاليمه، ولعل حديث البكري عن قبائل لمثونة يبين ذلك، حيث يقول: "وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين والأربعمائة هجرية بدعوة الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم وهم على السنة ومتمسكون بمذهب مالك بن أنس رضي الله عنه".[٤٦]

لقد ساهمت الدولة المرابطية المؤطرة فكريًا بالمذهب المالكي من خلال رجالاتها، في تصحيح صورة الإسلام والمحافظة على ممارسة شعائره في بلاد السودان الغربي، بعدما كان انتشاره فيها بشكل غير منتظم وتشوبه العديد من الممارسات الخاطئة، رغم أن أهل غانة كانوا قد أسلموا في أول الفتح الإسلامي، وفي حديثه عن قبائل لمثونة يبرز لنا البكري التزامهم بالمذهب المالكي والجهاد من أجل توطيده ببلاد السودان الغربي إذ يقول: "وهم ظواعن رحالة في الصحراء ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام، وهم إلى السودان أقرب وهم على السنة مجاهدون للسودان"[٤٧]. أيضًا عمل فقهاء المالكية المغاربة على نشر مذهب الإمام مالك، فقد كانوا أسوة حسنة من خلال تمسكهم بأقوال مالك وتطبيقاتها على أنفسهم وخاصةً ما يتعلق منها بالبعد عن السلطان، ومن ثَمَّ عدهم العامة نماذج يحتذى بها، فأقبلوا على الأخذ بالمذهب حكامًا ومحكومين، بل وصل الانتماء لهذا المذهب مصدر فخر إذ نجد إن منسا موسى حاكم مالي يفتخر باعتناقه هذا المذهب وهو في القاهرة في حضر الملك السلطان ابن قلاوون، غذ امتنع عن تقبيل الأرض كتحية للملك وقال: "أنا مالكي المذهب ولا أسجد لغير الله"[٤٨]، وهكذا أقبل ملوك وأهالي تلك البلاد على هذا المذهب والتزموا بفقهه في كافة العبادات والمعاملات.

لقد تمكن علماء المغرب ومتصوفته من تحدي مناخ الصحراء رفقة التجار والقوافل التجارية والدعاة ووجدت دعوتهم القبول والرضى لدى أهالي السودان الغربي، إلى درجة إن سلاطين مملكة مالي وصنغاي تبنوا المذهب المالكي وجعلوه مذهبًا رسميًا كما هو الحال بالنسبة لسلطان مالي منسا موسى الذي ساهم في نشر الإسلام ببلاده، حيث "بنى المساجد والجوامع والمواذن وأقام بها (بلده) الجُمع والجماعات والأذان، وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب مالك رضي الله عنه، وتفقه في الدين".(٤٩)

(١/٢) ٣-إسهام المتصوفة المغاربة في الوظائف الدينية

تعتبر الوظائف الدينية عصب إسهامات المتصوفة المرتبطة بالحياة العامة، وقد كان لهم الأثر الكبير في تغيير مجموعة من الممارسات السيئة والفاسدة التي انتشرت بتلك المجتمعات. من أهم الوظائف الدينية التي حضي علماء التصوف المغاربة والسودانيين بتوليها وظيفة القضاء، الخطابة، الإمامة، والإفتاء، ويُعَدّ منصب القضاء من أهم المناصب بحكم فصله بين الناس في المنازعات حسما للتداعي وقطعا للتنازع، حسب الشريعة الإسلامية، وهو حكم شرعي على سبيل الإلزام. ولا يرغب في هذا المنصب ويتصدى له إلا من كان نزيها، ورعا، معروف بالصلاح، إضافة إلى الصفات العلمية والمعرفية التي وجب أن يتحلوا بها أنداك من العلم بالكتاب والسنة، وما وقع عليه إجماع الأمة.

ومن المتصوفة الذين شغلوا منصب القضاء في ذلك العصر، المتصوف محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي، فسدد في الأمور وشدد في الحق، وهدد أهل الباطل، فاشتهر عدله بحيث لا يعرف له نظير في وقته، كما كان لا يخاف لومة لائم، هابه الخلق، فصار الجميع تحت أمره (٥٠). كذلك تولى هذا المنصب أيضًا المتصوف الفقيه القاضي محمد بن محمد القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر كان عالما فقيها، كان أول القضاة الذين تولوا القضاء في عهد الحكم المغربي بالسودان الغربي في عهد الباشا محمود بن زرقون، ومكث في القضاء من عام (١٠٠٢ هـ- ١٠١٧ هـ/ ١٥٩٣ م – ١٦٠٨م) إلى أن توفي.(٥١)

أيضًا يذكر لنا السعدي، الفقيه محمود بن عمر بن أقيت الصنهاجي التبكتي، هذا الفقيه الذي كان عالمًا متفقها في الدين عالي الشأن في الفقه المالكي، تولى القضاء في تنبكت حكم بالعدل، وأعطى لكل دي حق حقه، و محى الظلم و الفساد و أحيى العدل.(٥٢) أيضًا هناك أبو العباس أحمد ترروري، الخير الصالح الدين الزاهد القاضي العدل تولى القضاء بمدينة جني.(٥٣)

ومن الوظائف الدينية التي تقلدها الصوفية المغاربة وتلامذتهم في ذلك العصر، وظيفة الإمامة والخطابة، رغم ما صار من جدل واسع بين علماء العصر حول تولي الصوفية لهذا المنصب، وهل يجوز الصلاة خلف إمام صوفي زاهد أم لا، وقد وجد العلماء مبتغاهم عند أستاذهم الونشريسي إذ يقول: "من حق الإمام أن يسلك ما سلك السلف، فيما يرجع إلى الدين و إقامة وظائفه ويتبرأ من كل مبتدع مضل"(٥٤)، لذلك تولى الكثير من علماء الصوفية إمامة مساجد السودان الغربي منهم: الشيخ الصالح الولي الناصح أبو زيد عبد الرحمن، يقول عنه السعدي:" لما برز الباشا جودار من مراكش عام (٩٩٩ هـ/ ١٥٩٠م)، فلما صلى بالناس الظهر وجلس في مدرسته قال بالله بالله لتسمعن في هذا العام ما لم تسمعوا بمثله قط و لترون فيه ما لم تروا بمثله قط ... وورد –جوذر – السودان"(٥٥). أيضًا من الشيوخ الذين تولوا الإمامة، هناك الإمام سيدي علي بن عبد الله سيد بن الإمام سيدي علي الجزولي، تولى الإمامة بتنبكت بعد وفاة الإمام عبد السلام بن محمد دك الفلاني، مكث في الإمامة حوالي ستة عشر سنة، توفي سنة ١٦٤٢ م.(٥٦) كما تولى الإمامة عثمان بن الحسن التشتي إمامة الجامع الكبير بتنبكت(٥٧)، كذلك الإمام الفقيه محمود بن الإمام صديق بن محمد تعلي، تولى إمامة الجامع الكبير بتنبكت، يُعَدّ أول الأئمة في عهد الدولة السعدية، ولاه القاضي محمد بن أحمد بن القاضي عبد الرحمن إمامة الجامع الكبير ومكث بها إلى ان توفي عام ١٦٢٠م(٥٨).

ومن خلال هذه النماذج التي سوقناها، وغيرهم كثير نجد أن علماء الصوفية سواء المغاربة أو تلامذتهم من السودانيين تولوا منصب الإمامة للمسجد الكبير بتنبكت، وهذه الوظيفة التي تعتبر من الوظائف

الحساسة لما لها من اتصال مباشر بالناس، استطاعوا من خلالها النفاذ إلى قلوبهم ونشر التصوف في كل ربوع بلاد السودان من خلال الزهد والورع والعدالة التي تمتع بها العلماء المغاربة وتلامذتهم خلال توليهم تلك الوظائف والتي كان لها الدور الفعال في حياة المجتمع، سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي.

٢/٢-التصوف المغربي وأثره في الحياة الاجتماعية

مما لا شك فيه أن احتكاك المتصوفة بالناس ومشاركتهم حياتهم الاجتماعية، جعل مكانتهم تزيد في قلوب العامة، وتمثل دورهم الاجتماعي في أشياء كثير منها قضاء حوائج الناس لدى أولي الأمر، مستخدمين مكانتهم التي كانوا يتمتعون بها والحظوة التي حصلوا عليها لدى السلطة الحاكمة، ومن الأمثلة الكثير التي تزخر بها المصادر نذكر منها حسب ما أورده السعدي، "الصوفي أبو حفص عمر بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت، الذي عرف بتعهده لأقاربه وتفقدهم في صحتهم وعيادتهم في مرضهم. والزاهد محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي التنبكتي، الذي كان سخيًا جوادًا متوفى الحق ولذوي الباطل هدد فاشتهر عدله بحيث لا يعرف له نظير في وقته".(٥٩) كما ساهم هؤلاء المتصوفة بمالهم و تنافسوا في أعمال الخير، القيام بدور الصلح بين المتنازعين وكذا النصح لهم، وفي هذا يذكر السعدي، "أن أبى عبد الله القاضي تصدق بألف مثقال ذهب فرقت على المساكين الواقفين أما مسجد سنكري عندما اجتاحت تنبكت مجاعة"(٦٠).

واستمر متصوفة المغرب من قبيلة صنهاجة وغيرها في تقديم الخير للعامة، وأكبر مثال لذلك، الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن موسى عريان الرأس، الذي كان زاهدًا سخيًا، و"يأتيه النذور فلا يمسك منها شيء بل يتصدق بها للفقراء والمساكين واشترى كثير من المماليك واعتقهم لوجه الله تعالى والدار الآخرة".(٦١)

بناءً على ما سبق، فإن المتصوفة قدموا أدوارًا عظيمة الأهمية على المستوى الاجتماعي، مكنهم من ذلك المحبة والاحترام والتقدير الذي اكتسبوه داخل مختلف الشرائح الاجتماعية، إضافةً إلى الهيبة التي صارت لهم لدى الناس على اختلاف درجاتهم ومواقعهم. ولم يقف تأثير العنصر المغربي عند ما هو علمي وفكري، بل تعداه إلى نشر التقاليد المغربية وثقافته، فقد أورد القلقشندي، في وصفه للتأثير المغربي على السودانيين قوله: "يرتدون عمائم بهنك، مثل المغرب وملبسهم شبيه بلبس المغاربة، جلباب ودراريع، بلا تفريج، وهم في ركوبهم كأنهم عرب".(٦٢)

ونافلة القول؛ إن المتصوفة بصفة عامة والمغاربة منهم بصفة خاصة كان لهم تأثير بالغ الأهمية في الحياة الدينية في بلاد السودان الغربي والسودانيين حيث أثروا كثيرًا في تنظيمات الزوايا والاعتكاف فيها والتزام الجوامع فضلاً عن التمسك ببساطة الحياة. كذلك ارتبطت أصول حركة ومدرسة الشيوخ السودانيين بحركة ومدرسة الشيوخ المغاربة فانتشرت العديد من مصادر التصوف المغربي عند المتصوفة السودانيين حتى أنه انتشر الكثير من الطرق الصوفية التي كانت معروفة في بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي، وساهمت هذه الطرق في توسيع دائرة انتشار الإسلام.

ومن هذا التأثير المغربي ما حظى به العلماء والفقهاء والمتصوفة والأولياء من احترام وقبول في المجتمع السوداني، كما أن التصوف السوداني على غرار التصوف الإسلامي والتصوف الأندلسي والتصوف المغربي انكب عل الاهتمام في فترة معينة بالسلوك أكثر من الفكر، وهي ظاهرة أثرت على حياة المريدين في السودان الغربي، فضلاً عن انتشار المذهب المالكي في بلاد السودان عبر المغرب حتى أقبل السلاطين السودانيين على جلب الفقهاء المالكيين إلى بلادهم والتفقه على أيديهم في المذهب، وأصبح بذلك السودان الغربي فيما بعد من أهم المناطق التي ساد فيها المذهب المالكي والتصوف المغربي السني. وبشكل عام فالتصوف المغربي له امتدادات جغرافية واجتماعية ثقافية، بل سلوكية على بلاد السودان الغربي حيث يستمد أصوله من الشريعة الإسلامية السمحة، مما يوحي أن التصوف كممارسة تعبدية أساسًا لا علاقة لها بالسياسة ولا بالأزمات الاجتماعية في بعدها السياسي.

خَاتِمَةٌ

إن المغرب ساهم بشكل كبير في انتشار الإسلام ببلاد السودان، ولم يكن وجود المجال الصحراوي المعروف بطبيعته القاسية حاجزًا بقدر ما كان فضاء طبيعيًا ساهم في هذا التلاقح بين ضفتيه. وقد كان لهجرة العائلات المغربية إلى تلك البقاع من أجل التجارة بداية، ثم تحول دورها إلى نشر الدين ومبادئ تعاليم الفقه المالكي أثر كبير في حياة مجتمعات السودان الغربي من سواء اجتماعيًا أو اقتصاديًا وفكريًا وعلميًا.

وما انتشار الطرق الصوفية ذات الأصل المغربي بتلك البقاع، دليل على مدى استجابة وترحيب السودانيين بالعنصر المغربي، هذا الأمر الذي استمر إلى يومنا هذا بعيدًا عن التغيرات السياسية، إذ أن الإسلام استطاع التوحيد بين شعوب إفريقيا الغربية والمغاربة. وظل المغرب محافظًا على الرسالة الدينية التي تحملها منذ المرابطين إلى العلويين، وذلك من خلال اهتمام السلاطين بالمسلمين الأفارقة وخصوصًا غرب إفريقيا، بالإضافة إلى العطف ورعاية الطرق الصوفية التي أصبحت تشكل آلية أساسية في التأثير ليس فقط على مستوى المجتمع، بل حتى على مستوى سياسات بعض الدول الخارجية. فأصبح المغرب اليوم واعيًا بأهمية الطرق الصوفية كآلية دبلوماسية دينية يمكن توظيفها من أجل تحقيق بعض المصالح الكبرى للدولة، ما جعل أمير المؤمنين الملك محمد السادس يعطي اهتمامًا كبيرًا لهذا الجانب من خلال رعاية المؤتمرات والمهرجانات التي تهتم بإشعاع التصوف المغربي السني.

الإحالات المرجعية:

(١) حسين مؤنس، **الطرق الصوفية وأثرها في نشر الإسلام**، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٥٩.

(٢) محمد الغربي، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي نشأته وآثاره**، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢، ص ٥٦.

(٣) عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان**، منشورات هوداس، باريس، ١٩٨١ص ٢٤٣ - ٢٩٥.

(٤) العباس بن إبراهيم السملالي، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، تحقيق بن منصور عبد الوهاب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٣، ج٤، ص.١٢٧-١٣٦.

(٥) نفسه، ص. ١٢٧.

(٦) محمد الأمين ولد سيد أحمد، **السلطة والفقهاء في إمارة الترارزة**، ط١، مطبعة المنارة، نواكشط، ٢٠٠٣، ص٧٥.

(٧) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس،١٩٨٧، ص.١٢١-١٢٢.

(٨) المختار ولد حامد، **حياة موريتانيا الجغرافيا**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ١٩٩٠، ص. ٩٤.

(٩) عبد القادر زبادية، **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين ١٤٩٣-١٥٩١**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧١، ص. ٢٣٥.

(١٠) الشريف ولد أحمد محمود، **الإسلام والمقومات والدولة في إفريقيا الغربية**، سلسلة ندوات ومحاضرات، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء، ٢٠٠٣، ص ١٨.

(١١) أحمد الأزمي، **"جوانب من انتشار تعاليم التصوف الشاذلي بإفريقيا جنوب الصحراء"**، مجلة دعوة الحق، العدد ٤١٥، ص.٤٦١.

(١٢) للتوسع حول الحموية يمكن الاطلاع على دراسة أحمد ولد نافع، **"التصوف المجاهد في غرب إفريقيا، الحموية نموذجًا"**، مجلة فضاءات، طرابلس، ليبيا، ٢٠١٠، ص. ٤٥.

(١٣) عبد الودود سيسي، **بشرى المحبين**، منشورات الحركة التيجانية الغانية، مدينة كوماسي، ط ٢، غانا ٢٠٠٩، ص. ٤٤٨.

(١٤) عثمان برايما باري، **جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي**، مطبعة دار الأمين، الطبعة ١، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٦.

(١٥) أحمد بلحاج، آية وارهام، **الطريقة التيجانية من التأسيس إلى الامتداد في إفريقيا وآسيا وأوروبا**، منشورات مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش، ٢٠١٦، ص ٧٠-٧٤؛ أحمد الأزمي، " جوانب من...، مرجع سابق، ص.٢٣. أحمد ولد محمود، **الإسلام والمقومات**...، مرجع سابق، ص٢٤،٢٥.

(١٦) الحسين عماري، **"الزوايا كقناة للتواصل التجاري والثقافي والروحي بين المغرب وبلاد السودان خلال العصر الحديث وبداية المعاصر"**، مجلة المناهل، عدد ٨١،٨٠، منشورات وزارة الثقافة، الرباط،٢٠٠٧، ص٢٨١.

(١٧) نفسه، ص ٢٨٢-٢٨٣.

(١٨) الخليل النحوي، مرجع سابق، ص١٢٣

(١٩) يوجد ضريح الشيخ عبد العزيز الدباغ بمقبرة باب الفتوح بمدينة فاس، وتنتسب إليه الطريقة المحمدية التي على رأسها الشيخ أحمد الدباغ

حفيد عبد العزيز الدباغ ويوجد مقر الطريقة المحمدية الدباغية بإنجلترا.

(٢٠) عبد الحي القادري، **الزاوية القادرية عبر التاريخ**، تطوان، ١٩٨٦، ص٤٩.

(21) Hassan Hami, **La Dimension Spirituelle des Relations Transnationales (le Maroc et L'Afrique Subsaharienne),** Edition Bourgreg 2005, p. 181

(22) Ibid., p.190

(٢٣) محمد حجي، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٦، ج١، ص.٧١

(٢٤) نفسه، ص ٢٦٥ -٢٩٧.

(٢٥) محمود كعت، **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظام الأمور**، مطبعة بريدين، أنجة، ١٩١٣، ص ٧٢ – ٧٣.

(٢٦) محمد الغربي، **بداية الحكم المغربي** ...، مرجع سابق، ص ٥١٤.

(٢٧) محمد بنشريفة، **مساهمة المغاربة في تأسيس الحركة العلمية في شمال نيجريا خلال القرنين ١٥-١٦**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ١٩٩٣، ص ٦-٧.

(٢٨) نفسه، ص١٢١- ١٢٢.

(٢٩) عبد الرحمن السعدي، تاريخ...، مصدر سابق، ص ٢٩٨.

(٣٠) أحمد بابا التنبكتي، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، دراسة وتحقيق محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٠، ج٢، ص٢٤٥ -٢٤٦.

(٣١) نفسه، ص ٢١٨.

(٣٢) محمد بنشريفة، **"إفادة أحمد بابا التنبكتي من الخزانة المغربية"**، ضمن كتاب أحمد بابا التنبكتي، إيسيسكو، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٣، ص٨١-٨٢.

(٣٣) شوقي عطا الله الجمل، **"تفاعل أحمد بابا التنبكتي مع البيئة المراكشية الجديدة وآثارها على حياته العلمية"**، ضمن كتاب أحمد بابا التنبكتي، إيسيسكو، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٣، ص ١٢٦.

(٣٤) محمد، بنشريفة، "إفادة أحمد بابا ....، مرجع سابق، ص٧٩.

(٣٥) عبد الرحمن السعدي، تاريخ ...، مصدر سابق، ص ٤٦.

(٣٦) محمد الغربي، بداية الحكم ...، مرجع سابق، ص٥٣١.

(٣٧) عبد الرحمن السعدي، تاريخ...، مصدر سابق، ص٦.

(٣٨) محمد الغربي، بداية الحكم ...، مرجع سابق، ص٥٣٦.

(٣٩) نفسه، ص.٥٤٠ – ٥٤١.

(٤٠) الحبيب الجنحاني، **المغرب الإسلامي – الحياة الاقتصادية والاجتماعية**، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٨، ص١٠٢- ١٤٦.

(٤١) نفسه، ص١٥٩.

(٤٢) عبد الهادي التازي، **"المذهب المالكي كشعار من شعارات الدولة المغربية"**، ضمن أعمال ندوة الإمام مالك إمام دار الهجرة، المنعقد بفاس أيام ٢٥-٢٦-٢٧ أبريل ١٩٨٠، منشورات وزارة الوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٨٢، ص٨٧.

(٤٣) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط المنارة** ...، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٤٤) أحمد العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق أبو ضيف أحمد مصطفى، الدار البيضاء، ١٩٨٨، ص٥٩ – ٦٠.

(٤٥) عفيفي أبو العلاء، **تصوف الثورة الروحية في الإسلام**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٧.

(٤٦) أبو عبيد البكري، **المسالك والممالك**، تحقيق فان ليوفن واندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٩٢، ج٢، ص٨٥٨- ٨٦٢.

(٤٧) نفسه، ص ٨٥٧.

(٤٨) تقي الدين المقريزي، **الذهب المسبوك في ذكر مَنْ حج من الخلفاء والملوك**، تحقيق جال الدين الشيال، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط١، ٢٠٠٠، ص ١٤٠.

(٤٩) أحمد العمري، **مسالك الأبصار** ...، مرجع سابق، ص ٦٠-٦١.

(٥٠) عبد الرحمن السعدي، **تاريخ** ...، مصدر سابق، ص ٣٨

(٥١) نفسه، ص ٢٤٢.

(٥٢) نفسه، ص ٢١٢.

(٥٣) نفسه، ص ٢٣٨.

(٥٤) الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، وزارة الوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٩٨٧، ج٧، ص ١١٧.

(٥٥) عبد الرحمن السعدي، **تاريخ** ...، مصدر سابق، ص ٣٤

(٥٦) نفسه، ص ٢٤٣-٢٩٨

(٥٧) نفسه، ص ١٠٩

(٥٨) نفسه، ص ٣٠٩

(٥٩) نفسه، ص ٣١-٣٢ – ٣٣ – ٣٧-٣٨

(٦٠) نفسه، ص ٤٧

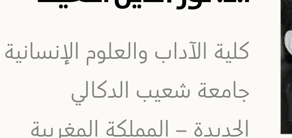
(٦١) نفسه، ص ٥٢

(٦٢) أبو العباس أحمد القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٥، ج٥، ص٢٨١.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

مصطلحات العتاد الحربي بالمغرب المريني
من خلال المصادر العربية




أ.د. نور الدين أمعيط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة شعيب الدكالي
الجديدة – المملكة المغربية

مُلَخّص

تسلط صفحات الدراسة الضوء على جملة منتخبة من مصطلحات العتاد الحربي المريني الواردة في المصادر العربية، وقد صنفناها بحسب وظائفها إلى مجموعتين، تناولنا في المجموعة الأولى مصطلحات تخص آلات الحصار ولباس الجند والشارات العسكرية، فيما تناولنا في المجموعة الثانية مصطلحات تخص مكونات الأسطول الحربي للدولة المرينية، مع توضيح دلالة كل مصطلح من هذه المصطلحات، وذلك بالاستناد إلى جملة من القرائن والإثباتات التي تحيل عليها وترشد في فهمها، كتحديد وظائف وأنواع هذه الأسلحة واهتمام أهل المغرب والأندلس بصناعتها والأدوار التي لعبتها لبناء الدولة المغربية الوسيطية. وصفوة القول إن المصطلحات الخاصة بالعتاد الحربي زمن بني مرين، قد جاءت وافرة ضمن المصادر، وهو ما يوحي بقوة وتنوع العتاد العسكري للدولة المرينية التي أولت عناية فائقة لصناعة معظم ما يلزمها لحشود الجند، من خلال إنشاء "دور الصنعة" أو "دور الإنشاء" المختصة في صناعة قطع الأسطول الحربي الذي صار يضاهي أسطول النصارى في الحوض المتوسطي، وانتشرت قطعه بمختلف الثغور المغربية، خاصة سبتة وطنجة وسلا ووهران وبجاية وقابس.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٨	ديسمبر	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	٢٢	يناير	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

العتاد الحربي؛ الأسلحة؛ الجند؛ المغرب المريني؛ المصادر العربية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.354593 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

نور الدين أمعيط, "مصطلحات العتاد الحربي بالمغرب المريني من خلال المصادر العربية".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ٩٦ – ١٠٨.

Corresponding author: nour7404gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

على الرغم من التحولات العسكرية التي حصلت بالحوض المتوسطي، بفعل تراجع قوة الموحدين بعد هزيمتهم في معركة العقاب بالأندلس سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م)، فإن الدولة المرينية سرعان ما أخذت على عاتقها، مهمة إعادة تحديث وهيكلة الجيش المغربي وتطويره، ليس بقصد ردع الهجمات المسيحية فحسب، ولكن لتأمين الطرق التجارية وتوحيد الصف وتثبيت الأمن الداخلي، فسخرت لذلك عتادًا حربيًا متنوعًا سواء بالمغرب، أو بالأندلس وإفريقية، وتجمعت لديها ترسانة مهمة من الأسلحة، شكلت مظهرًا من مظاهر القوة المغربية داخل حوض البحر المتوسط، لا سيما زمن أبي الحسن وابنه أبي عنان.

وبقدر ما تنوع العتاد الحربي واختلف بحسب المواجهات والمعارك التي خاضتها الدولة المرينية في حروبها، بقدر ما تنوعت معه المصطلحات الدالة عليه في المصادر العربية الوسيطية التي استعملت مجموعة مهمة من مصطلحات الأسلحة ومستلزمات الجند، فورد منها ما يدل على الأسلحة بأنواعها، وزي المقاتلين، وشارات الجند، فضلاً عن مصطلحات دالة عن مكونات الأسطول الحربي.

وسننطلق في هذه الدراسة، من جملة من المصادر العربية التي دونت زمن الدولة المرينية أو بعدها، وهي مصادر استعملت مصطلحات خاصةً لأنواع الأسلحة المستعملة لدى بني مرين، ومنها الذخيرة السنية لابن أبي زرع الفاسي (ت. ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) وكتاب مسالك الأبصار للعمري(ت. ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، وكتاب فيض العباب لابن الحاج النميري (ت. بعد سنة ٧٧٤هـ/١٣٣٤م)، و كتاب المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق التلمساني (ت.٧٨١هـ/١٣٨١م)، وكتاب العبر لابن خلدون (ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٨م) فضلاً عن كتاب صبح الأعشى للقلقشندي (ت. ٨٢١هـ/١٤١٨م) ووصف إفريقيا للحسن الوزان (ت. حوالي٩٥٧هـ/١٥٥٠م)، وغيرها من المصنفات التي قدمت مادة جيدة عن الجوانب العسكرية والعتاد الحربي في العصر المريني.

وانطلاقًا مما تجمع من معطيات وإشارات مصدرية، فقد سعت هذه الدراسة إلى تصنيف مصطلحات الأسلحة بحسب وظائفها، مع توضيح دلالتها لرفع الالتباس وتقريب الفهم لعموم الباحثين الذين غالبًا ما يصطدمون بمشاكل لا حصر لها كلما تعلق الأمر بتحديد دلالات الألفاظ والمصطلحات المستعملة للتعبير عن أنواع العتاد والأسلحة المعتمدة خلال العصر الوسيط، وقد استندنا في تحديد دلالة هذه المصطلحات إلى جملة من القرائن والإثباتات المصدرية التي تعين على التعريف بها وتحديد دلالتها، في انسجام تام مع الرؤية الخلدونية التي تلخص أسباب النصر والغلبة في قوة التنظيم ووفرة الجند وكمال الأسلحة.

أولاً: مصطلحات العتاد الحربي بالمغرب المريني

لا شك أن العتاد الحربي وتوفر الأسلحة، ظل -ولا يزال- من العوامل الرئيسة التي تساعد الجند على اقتحام المعارك دون خوف أو وجل، بل يكون أحيانًا عاملاً حاسمًا في صنع الانتصار وحسم نتائج المعارك والحروب[١] والتمهيد أحيانًا لبناء دولة على أنقاض أخرى. وفيما جعلت بعض المصنفات خير الأسلحة "ما خف حمله على الأعضاء ودفع عنها الأذى"[٢]، جعل منها ابن خلدون أحد أسباب النصر والغلبة ملخصًا ذلك في أربعة عناصر وهي "الجيوش ووفورها، وكمال الأسلحة واستجادتها، وكثرة الشجعان، وترتيب المصاف"[٣]، فجعل للسلاح المرتبة الثانية بعد وفرة الجيش، ومن ثمة اكتسى العتاد الحربي أهمية قصوى لصاحب الدولة وجنده، يستعين به على أمره، وتكون الحاجة ماسة إليه "عندما تكون الدولة في بداية عهدها وتمهيد أمرها"، على حد قول صاحب المقدمة[٤].

والواقع أن الأسلحة التي استعملها الجيش المريني في حملاته العسكرية، ومنها حملته على قسنطينة وبلاد الزاب، قد عرفت تنوعًا كبيرًا، كما عكست ضخامة الجند المشارك، وتبعًا لذلك، جاءت مصطلحات الأسلحة المستعملة متنوعة ضمن المصادر العربية المذكورة، وقد شملت مصطلحات أسلحة الرماية الخفيفة والطعن، ومصطلحات آلات الحصار وهدم الأسوار، وأخرى تهم

زي الجند ومستلزمات الفارس، فضلاً عن مصطلحات تدل على مكونات الأسطول الحربي ولوازم الجند البحري.

١/١–مصطلحات أسلحة الطعن والرماية الخفيفة (السيوف – القسي – النبال –الرماح)

لعل من أهم مصطلحات أسلحة الطعن التي تردد ذكرها في المصادر العربية، هناك السيف، جمع سيوف، وقد كان على رأس الأسلحة المعتمدة لدى الجند خلال العصر الوسيط، وبالنظر إلى أهمية السيوف جعلها ابن خلدون[٥] على رأس الآلات التي يستعين بها صاحب الدولة على أمره، إلى جانب القلم. وإن كان يقصد بالسيف في مقدمته جميع أنواع الأسلحة، فهي إشارة لأهمية هذا النوع من السلاح ومحوريته ضمن باقي أنواع العتاد الحربي المستعمل خلال الفترة الوسيطية.

ومن جهته، تحدث النميري عن السيوف كأحد أنواع الأسلحة الرئيسية لدى جيش بني مرين، فأمعن في التنويه بسيوف العساكر المرينية، وأورد أن كل "سيف منها يطلب الثأر(...)، محمود الجولة، موهوب الصولة، يعجز المتنبي عن وصفه "[٦]. كما ذكر بعض أنواع السيوف ومنها الهندية أو الهنداوية[٧] التي كان يتم التباهي بها، فضلاً عن الإفرنجية[٨] والبردالية[٩] وغيرها من الأنواع التي استعملها الجند المريني، سواء كانت محلية الصنع أو مستوردة من الأندلس وبلاد المشرق، وقد صنفت بحسب جودتها ومكان صناعتها وشكل مقابضها[١٠].

وفضلاً عن السيوف، استعملت المصادر مصطلح القسي، جمع قوس، وهي آلة حربية على هيئة هلال، ترمى بها السهام، وكانت على نوعين، قوس اليد وهي العربية، ثم قوس الرجل وهي الإفرنجية، ويرى ابن هذيل أن "القوس العربية أنسب للفارس لأنها أسرع وأقل مئونة"[١١]، في حين تظل "الإفرنجية أنسب للراجل لأنها أبلغ وأكثر معونة، ولاسيما في الحصار والمراكب البحرية (...) وهي خاصة بأهل الأندلس، فيها يتنافسون، وعليها يعتمدون فرسانًا ورجالاً."[١٢]

وبالفعل، فقد ميزت القسي الإفرنجية فرقة الأندلسيين من الجيش العناني الذين كانوا يرمون بقوس الرجل[١٣] وبلغ عددهم أزيد من ألفي فارس[١٤]. وقد فصلت بعض المصادر في طريقة استعمالها وقت القتال، إذ يطالعنا صاحب البدائع والأسرار عن طريقة الرمي بها، فقال "إذا رميت الفارس، إن كان مقبلا إليك، فاطلب قربوس سرجه، فإن طاش السهم وقع في صدره، أو في وجهه، وإن قصر وقع في بطنه أو في دابته، وإن كان هاربا أمامك وأردت رميه فاطلب القربوس، فإن طاش السهم وقع في ظهره (...)"[١٥]. ويبدو أن الجند المريني كان بارعا في الرمي بالقسي، لا سيما العناصر المتمرسة منه والمنتمية لمدن الثغور، كأهل سبتة الذين" طبعوا عليه [الرمي بالقسي]، فلا تلفي منهم شريفًا ولا مشروفا، ولا كبيرا ولا صغيرا، إلا وله بصر بالرمي وتقدم فيه، ومعظم رميهم بالقوس العقارة"[١٦].

ومن جهته أشار ابن الحاج النميري إلى مصطلح النبال، جمع نبلة، للدلالة على أحد أصناف أسلحة الرمي والطعن التي استعملها الجند العناني[١٧]، وقد وصفتها بعض المصادر "بالمنايا [التي قد] تخطئ وتصيب"[١٨]. ومعلوم أن المرينيين قد أنشأوا على المدن الساحلية الأبراج أو المرامي لتكون قاعدة للرماة[١٩] فكانت سبتة وحدها تتوفر على "أربعة وأربعين مرمى بالميناء"[٢٠] مقسمة على تسع جلسات.

ومن أسلحة الطعن الخفيفة أيضًا، استعملت المصادر مصطلح الرماح، جمع رمح، وهو سلاح رئيسي استعمله الجند المريني، كان عبارة عن قضيب طويل في رأسه سنان أو حربة للطعن، وقد صنفها العمري إلى نوعين، رماح طوال وقصار[٢١]، وقد كانت عبارة عن عصا خشبية أو معدنية في نهايتها قطعة معدنية مدببة الشكل، وعادة ما تكون ذات رأس معدني مثلث، وهي رماح مصممة للقتال والطعن، وأخرى مصممة للرمي. وتذكر المصادر أن خير الرماح ما خف حمله، إذ "ينبغي للفارس أن يخفف رمحه ما قدر، فإنه على الخفيف أقوى"[٢٢]، وأحسنها "المارن المثقف، المقوم المخطف، الذي إذا هززته لم يتعطف، وإذا طعنت به لم يتقصف"[٢٣]. وقد شكلت الرماح إحدى وسائل القتال الأساسية لدى الجند المريني[٢٤].

٢/١-مصطلحات آلات الحصار (المنجنيقات- العرادات- الدبابات- الات الحصار)

امتازت الجيوش المرينية بالتفوق في فن الحصار، ومقدرتها على اقتحام المدن المنيعة الأسوار، ولاغرو فقد راكمت التجربتين المرابطية والموحدية في هذا المجال، فكانت أمنع الأسوار تنهار تحت ضربات الآلات المدمرة، ومنها ما المنجنيقات التي اصطلح عليها ابن الحاج "آلات الحصار"[٢٥] أحيانًا، و"الدبابات"[٢٦]، أحيانًا أخرى، وهي آلات للقذف والحصار، برهنت عن فعاليتها، ورجحت تفوق الجيوش المرينية في حوادث كثيرة، لعل أبرزها حصار سجلماسة سنة ٦٧٢هـ وحصار قسنطينة سنة ٧٥٨هـ. فلم تصمد التحصينات المنيعة والأسوار العالية تحت ضربات آلات الحصار المرينية المدمرة.

ويبدو أن مصطلح "الدبابة" بمفهومه العسكري، قد استعمل لأول مرة بالمغرب المريني مع ابن الحاج النميري، فقد سميت ضمن المصادر الموحدية بالآلات الحربية، وهو الأمر الذي أكده الأستاذ محمد المنوني حين أثبت ورود مصطلح "الآلات الحربية أو الدبابات الموحدية، ضمن المصادر، مضيفا أنها بالاسم الأول وردت"[٢٧]. وهو ما قد يوحي بالتطور الذي طرأ على المستوى التقني في هذا النوع من العتاد الحربي المريني. فبعدما كان يصطلح عليها "الآلات الحربية" خلال العصر الموحدي[٢٨]، يبدو أن تبدل تسميتها خلال العصر المريني، كان موازيا لتبدل حصل في تقنية اشتغالها، مع الاحتفاظ بوظيفتها، فصارت تسمى بالدبابات خلال عصر بني مرين.

وفضلاً عن مصطلح المنجنيقات، تشير المصادر إلى استعمال مصطلح العرادات، مفرد عرادة وهي آلة أصغر من المنجنيق ترمي بالحجارة أو السهام المرمى البعيد، وقيل هي من التعريد بمعنى العدو، واستخدمت لرمي قدور النفط، وإليها أشار ابن خلدون مستعملا ذات المصطلح، في معرض حديثه عن حصار يعقوب ابن عبد الحق المريني لمدينة سجلماسة سنة ٦٧٢هـ، حين قال "ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد"[٢٩]. وذلك بعد أن دام الحصار حولاً كاملاً "إلى أن هتك المنجنيق ذات يوم طائفة من سورها فدخلت من هنالك عنوة بالسيف"[٣٠].

وقد سمى النميري هذا النوع من العتاد الحربي بـ "آلات الحصار الثقال"[٣١] أحيانًا، و"بالآلات"[٣٢] دون إضافة أحيانًا أخرى، فجعل منها أداة "لقهر شيع الضلال"[٣٣]، كما سماها بـ "الدبابات التي تيسر من فتح المدينة كل مرام"[٣٤].

وإلى جانب وسائل الحصار المذكورة، استعمل الجيش المريني أسلحة أخرى من قبيل الحجارة التي كانت تقذف في المجانيق واستعملت في حصار أبي عنان لقسنطينة، فقد رمى أهلها "بالحجارة (...) وألقى عليهم أرواق الحصار"[٣٥]، والسلالم التي كانت تمكن من تسلق أعلى الأسوار[٣٦]. كما استعملت المعاول في هذا الحصار "فكادت أن تهطع لتخليل قوى الأسوار وتفريق ما اتصل من أعضائها البادية للأبصار"[٣٧]. فضلاً عن الفؤوس والمساحي التي وظفت في "تخريب الديار [حين أقدم أبو عنان] (...) على قسنطينة ليتركها عبرة للمعتبرين"[٣٨]. ويذكر النميري أن معاول الجيش العناني قد حطمت القصر الذي بناه أحد قادة قبائل رياح حين خرب "حتى لصقت أعاليه بالأرض"[٣٩] .

وواضح أن المرينيين، لم يقتصروا على الأسلحة وآلات الحصار القديمة التي سادت على عهد المصامدة، بل طوروا ما وصلت إليه خبرة الموحدين[٤٠]، واستعملوا آلات قاذفة بعد تعديلها، لا تقذف بالحجارة والكرات الحديدية الملتهبة، فحسب، بل تستعمل الأنفاط والبارود، وهنا مكمن الجدة في السلاح المريني. فهذه الآلات التي يصحبها ذوي قوي، كانت تشبه المدافع التقليدية، قد وصفها النميري بقوله "آلات الحصار(...) مجاهدات (...) صوتهن كالرعود"[٤١].

وإذا كانت مسألة استعمال المغاربة للبارود زمن الموحدين، أمر مشكوك في صحته لغياب نصوص صريحة تثبت ذلك، فإن استعمال هذا السلاح من قبل الدولة المرينية، أمر لا يرقى إليه الشك قيد أنملة، ولا تعوزنا النصوص الدالة على ذلك، فقد ذكر ابن خلدون عدة ألفاظ ومصطلحات دالة في هذا الشأن من قبيل "البارود" و"هندام النفط" و"النار الموقدة"، في سياق حديثه عن حصار يعقوب بن عبد الحق لسجلماسة سنة ٦٧٢هـ، حين "نصب عليها آلات الحصار من المجانيق و

العرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانه أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة ترد الأفعال إلى قدرة باريها"[٤٢]. ولعل في استعمال ابن خلدون لمثل هذه الألفاظ والمصطلحات، ما يؤكد حقيقة استعمال الجند المريني للسلاح الناري، وهو ما أشار إليه الناصري أيضًا، معلقًا على نص ابن خلدون بقوله إن الأمر فيه "فائدة وأن البارود كان موجودًا في ذلك التاريخ"[٤٣].

وأثناء حصار أبي عنان لقسنطينة، يبدو مؤكدا أنه وظف سلاح البارود بأن "أرسل عليهم أنفاطا يتطاير شرارها(...) ويحل من أسوارهم محل نيران (...) ويخلع قلوبهم بأصوات لا يطيقها خروق المسامع"[٤٤]. أما الأسطول، فقد أطلقت أجفانه "أنفاطها(...) منذرة السامعين مالئة بألهوبها مابين الغرب والشرق"[٤٥]على حد قول صاحب فيض العباب.

وانطلاقًا من المصطلحات والالفاظ الواردة لدى كل من ابن خلدون والنميري من قبيل" الأنفاط" و"النيران" و"الالهوب"، يتضح جليا توظيف المرينيين المتكرر للسلاح الناري في حروبهم. فكان البارود من الذخيرة التي حرصوا على حفظها داخل صناديق محكمة الإغلاق، لأهمية هذه المادة من جهة، وخطورتها من جهة ثانية، فأثناء العاصفة الرعدية وقدوم السيل الذي حل بالموكب العسكري العناني بجبل بني يمل أثناء العودة "أمر أبو عنان بأن تجمع أحمال الأموال والمتاع، والصناديق المشحونة بالذخائر"[٤٦].

وإذا ثبتت صحة استعمال الغرب الأوربي للبارود لأول مرة في معركة **crecy-en-Pouthien** بين الانجليز بقيادة الملك (إدوارد الثالث) والفرنسيين بقيادة (الملك فيليب السادس) سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م، وهي الحرب التي مهدت لحروب المئة سنة بين المملكتين الفرنسية والانجليزية، فإن المغرب يكون بذلك، قد سبق أوربا إلى استعمال السلاح الناري بأكثر من سبعة عقود[٤٧].

٣/١-مصطلحات لباس الجند ومستلزمات الفارس والشارات العسكرية

(٣/١) ١-مصطلحات لباس الجند (الدروع- التراس- الدرق- الخوذ -العمائم- البيضات...)

تنوع زي الجند المريني تنوعا كان يضفي على الموكب العسكري تلك الفخامة و الضخامة المقصودة لترهيب الأعداء، فكان زي السلطان وجنده لا يخرج عن هذا المنحى، ويصف لنا العمري لباس الفرسان مستعملا جملة من المصطلحات الخاصة بزي هؤلاء الذين تميزوا ب"عمائم طوال رقاق، قليلة العرض من كتان، ويعمل فوقها إحرامات، يلفونها على أكتافهم من الجباب، ويتقلدون بالسيوف تقليدا بدويا، والأخفاف في أرجلهم(...) والمهاميز[٤٨]، ولهم المضمات وهي المناطق، ولكنهم لا يشدونها إلا في يوم الحرب أو يوم التمييز(...) وتعمل من فضة ومنهم من يعملها ذهبا، ومنها ما يبلغ ألفي مثقال"[٤٩].

وإذا كان العمري قد وصف بعض مكونات زي الفرسان من الجيش المريني، مستعملا لذلك جملة من المصطلحات كالإحرامات التي يلفها الفارس على الأكتاف، والأخفاف والمهاميز والمضمات أو المناطق، فإن ابن مرزوق قد أجاد في وصف زي السلطان المريني زمن النزال معتمدًا مجموعة من المصطلحات الخاصة بلباس الملوك وقت الحروب، فيذكر أن أبا الحسن، كان "يختص بلبس البرنس الأبيض الرفيع، لا يلبسه ذو سيف سواه"[٥٠]. وكان "يلبس خاتم الذهب على عادة الملوك، وبدله بخاتم فضة، (...) وفي يده السكين التي لا يفارقها"[٥١]. ويضيف الحسن الوزان عن لباس السلطان في الحروب، فيذكر أن خادما يتقدم السلطان، ليحمل قباقبه، وهي "أحذية من خشب مزدانة بتطريزات متناهية الجمال تعد من مظاهر الأبهة والفخامة"[٥٢]. وقد يلبس "الملك في هذه المناسبة لباسا متواضعا لائقا، فالذي لا يعرف الملك، لا يصدق أنه هو نفسه، لأن خدامه المسلحين يلبسون لباسا أفخر من لباسه، مصنوعا من أقمشة ثمينة مزخرفة"[٥٣].

وأثناء الحركة إلى قسنطينة، وصف ابن الحاج النميري لباس أبي عنان بمصطلحات خاصة، فقد خرج هذا السلطان "وقد لبس ملوطة[٥٤] بيضاء بالعمل

الشواشي (...) ولبس فوقها مصفحًا ملوكيًا عظم قدرًا(...) واتخذ المضمة الشريفة نهرًا، وتقلد السيف (...) وجعل على رأسه بيضة هندية سامية مصقولة"[٥٥]. "ولبس [أبو عنان] على المصفح، غفارة حمراء(...) ثم قرعت الطبول، ولاحت البوقات والأنفار في موكب النصر"[٥٦].

أما قواد الجيش، فقد كان لهم لباس خاص "فلسائر القواد زي تميزوا به في العساكر(...) وعلى جميع هؤلاء الأصناف أنواع الأقبية التي حسن لها التمييز، (...) وفوقها المصفحات من الحلل والأنزاق والأثواب البديعة المجلوبة من أرض الشام وأرض العراق، منسوقة بها المسامير المذهبة (...) أما القلانس والشواشي المذهبة والمفضضة فتلك التي باهت الشموس (...) واختص خيول الأجناد الأندلسيين بالبراقع البديعة الجمال (...) أما جموع الأندلسيين المغاوريين المرتجلة، فقد لبسوا الأقبية المختلفة الألوان وجعلوا فوق رؤوسهم الرتافيل التي هي أبدع من نور البستان (...) والعدويون اللابسون لأحسن الأثواب (...) وبأيديهم القضبان"[٥٧].

ويبدو واضحًا من خلال مصطلحات زي الجند الواردة ضمن هذا النص، التنوع الكبير الذي طبع لباس الجند المريني، وهو لباس منه ما كان محلي الصنعة، ومنه المستورد من بلاد الشام والعراق والهند، مما يتضح معه حرص المرينيين واهتمامهم البالغ بتوفير عتاد الجند، مهما بلغت تكاليف الاستيراد.

ومن المفيد الإشارة إلى بعض مصطلحات الأسلحة الواقية التي أوردتها المصادر، ومنها "الدروع"، وتُعَدّ ضمن اللباس العسكري المعتمد من قبل الجند المريني، وهي قطع من جلود أو صفائح من حديد كانت تغطي جسم المحارب من العنق إلى الركبتين اتقاء لضربات العدو، وتشكل أداة لحماية الفارس أيضًا من ضربات السيوف والرماح. ويبدو أن الدروع المرينية كانت حديدية الصنع، وعن ذلك يخبرنا النميري حين أمر أبو عنان فرسانه أثناء حملته العسكرية، "أن لا يركب أحد في غد إلا وهو مظاهر بين دروعه، شاك في الحديد الذي يحصن لابسه بأسه"[٥٨]، وذكر من الدروع الداودية التي شكلت "عبرة لأولي الاعتبار ونزهة للنظار"[٥٩]، علمًا أن الدروع اختلفت من حيث شكلها وحجمها ومواد صنعها، فإذا "كانت واسعة فهي زغفة، وإن كانت طويلة فهي ذائل، فإذا كانت منسوجة فهي جدلاء ومجدولة، وإذا كانت صدرا بغير ظهر، فهي جوشن"[٦٠].

ومن مصطلحات الأسلحة الواقية، ذكرت المصادر، مصطلح التراس، جمع الترس، وقد كان بعضها من حديد، وبعضها الآخر من الجلود، فأما الجلدية "فهي درق (...) وتصنع من جلود البقر، كما تصنع من جلود الوحش، ومن جلود اللمط وهي أحسنها وأمنعها"[٦١]، ويعرف صاحب حلية الفرسان اللمط بأنه "حيوان يعمر الصحاري ويصنع من جلده الدرق"[٦٢]، ومن علامات جودة الدرق اللمطية، أنها إذا "أصيبت بضربة سيف أو رمح، انغلقت الضربة والتحمت من وقتها واختفت فلا تظهر"[٦٣].

وإذا كانت مواد صنع الدرق من الجلود في الغالب، فإن المصادر تكاد تتفق على جودة وصلابة الدرق اللمطية، وعنها يقول صاحب تحفة الألباب "وعندهم (أهل السودان) حيوان يقال له اللمط مثل الثور الكبير له قرنان كالرماح، تطول بطول بدنه ممدودة على ظهره، إن طعن بها حيوان أهلكه في الحال، يتخذ من جلده تراس يقال لها الدرق اللمطية، لا تنفذها النشاب، ولا تؤثر فيها السيوف، وهي من أحسن التراس"[٦٤].

وعلاوة عن الدروع والتراس، يذكر النميري أسلحة وقائية أخرى من قبيل العمائم، فضلاً عن البيضات[٦٥] وهي الخوذة التي توضع على رأس المحارب والمصنوعة من حديد، وللتلطيف من صلابتها على رأس حاملها، فقد كانت تحشى بمواد رخوة لمنع تأثير الضرب القوي على رأس المحارب.

ومما سلف من مصطلحات، يبدو أن المرينيين، قد أبدعوا على مستوى الزي العسكري والأسلحة الواقية، واجتهدوا في توفيرها لأجنادهم، مع الحرص على طابع الاحتفالية والفخامة بغية ترهيب العدو من جهة، وإضفاء نوع من الهبة على الدولة ومواكبها العسكرية من جهة ثانية، وهو ما صرح به النميري حين ذكر أن أبا عنان كان يؤكد على "جزيلة ارتياده نازعا إلى التي تظهر فخامة الملك"[٦٦].

(٣/١) ٢-مصطلحات تخص مستلزمات الفارس (الفرس- السروج- الألجم- المهاميز- المضمات)

لعل من أهم مستلزمات الفارس، الفرس الذي شكل أداة فعالة من أدوات العتاد الحربي المريني، ولم يفت النميري وصف أنواع الخيول التي شاركت في الحملة العنانية، وصفا بليغا فذكر"منها الأدهم ومنها الأشقر الذي يشبه صهيله الرعد، ومنها الأحمر والأصفر ومنه الأشهب الطويل الذيل، ومنها كميت ظهره قصير وعنقه طويل وحوافره صلبة وكشحه(٦٧) ضامر(...) وصدره واسع وعرفه طويل"(٦٨).

وإلى جانب الخيول، عمل المرينيون على توفير مستلزمات الفرسان، وفي هذا السياق، استعملت المصادر جملة من المصطلحات، لعل أبرزها "السروج" و "الألجم"، و"الخفاف" التي تعرف بمصطلح "الأنمقة" ويشدون "المهاميز"(٦٩) فوقها. وقد حرص المرينيون على توفيرها مجانا لجندهم جريا على عادة الموحدين من قبلهم، فقد زود أبو عنان جنده المشارك في الحركة من "وجوه القبائل وزعماء الفصائل وأشراف العرب وأمراء هلال ابن عامر وطوائف من لفيف الأعراب (...) بالكسوات، والسيوف المحلاة باللجين والعقيان، إلى غير ذلك من السروج المذهبة ركبها أحسن التذهيب، واللجم العجيبة التي رتبت صنائعها أحسن الترتيب"(٧٠).

وفيما أعدت للخيول غير بعيد عن المعسكر، الإصطبلات التي تبيت فيها، وهي "مخابئ تصطف فيها الخيل بنظام، بعضها بجوار بعض"(٧١)، أسندت مهمة العناية بها وبباقي وسائل النقل العسكري من البغال والجمال، لشخص يدعى في اصطلاح المغاربة بـ"العلاف"(٧٢)، ويسهر على توفير "ما يلزم للدواب ولجميع المستخدمين المكلفين بشؤونها"(٧٣)، وهو ما يبين الاهتمام الذي حظيت به جميع أصناف الجند المريني سواء كانوا راجلين أو فرسان، وذلك بتوفير كل مستلزمات العتاد الحربي من سلاح و خيول وعلوفة ومؤونة ولباس.

٤/١-مصطلحات تخص الشارات العسكرية (الطبول والرايات والمزامير)

لقد أورد ابن خلدون عدة مصطلحات تدل على الشارات العسكرية في سياق حديثه عن شارات الملك الأساسية، ومنها "اتخاذ الآلة من نشر الألوية وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون"(٧٤)، لذلك فقد شكلت كل من الطبول والرايات والمزامير والأبواق، أهم الشارات العسكرية التي استعملت ضمن العتاد الحربي المريني، ويصف صاحب الحلل الموشية أحد الطبول بقوله: "كبير مستدير الشكل دوره خمسة عشر ذراعا منشأ من خشب أخضر اللون مذهب (...) وكان يسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع لا ريح فيه"(٧٥). أما الحسن الوزان فقد أشار أن السلطان، كان له "طبالون كثيرون مزودون بطبول نحاس على شكل جفان عريضة من أعلى ضيقة في أسفل، مع جلد ممدود على أعلاها. ويحمل كل طبل حصان رحل، (...) ويسمع دويها من مسافة بعيدة، فترتجف الخيول والرجال منها، وتقرع بعصب الثور"(٧٦).

كان دق الطبول لا يتم إلا في مناسبات محددة أثناء الحرب أو خروج السلطان في سفر أو مناسبة عيد، وكانت تقتصر على الموكب السلطاني دون غيره من وجهاء الدولة، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "ولما جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم زناتة، قصروا الآلة من الطبول والبنود على السلطان، وحضروها على من سواه من عماله، وجعلوا لها موكبا خاصا يتبع السلطان في مسيره يسمى الساقة"(٧٧).

ومن جهته استعمل ابن الحاج النميري، مصطلح "الطبول" في صيغة الجمع، للدلالة على كثرتها، منبها أنها كانت "تقرع على طرائق تتهاداها الأسماع (...) وقد ملأت القلوب هيبة وروعا"(٧٨)، وتناط مهمة ضربها بجماعة من الرجال عرفوا بمصطلح "الطبالين" كان لهم قائد خاص يعرف بمصطلح "المزوار"(٧٩) . وفيما صمت النميري عن عدد الطبول التي استعملت في الحركة العنانية لقسنطينة وبلاد الزاب، ذكر ابن خلدون(٨٠)، أن عددها فاق المئة في عهد أبي الحسن ما بين الصغير والكبير، وكان ضربها "محفوظ لأهل بيت خاص بهم من أهل مراكش"(٨١)، مما يوحي بوجود تقنية خاصة بضربها قد تكون موروثة عن العصر الموحدي.

وإلى جانب مصطلح الطبول، أوردت المصادر مصطلحات أخرى، توحي بتعدد شارات الجيش المريني وتنوعها، ومنها "المزامير" و"الأبواق"، وهي آلات اختص

بها قواد الترك، فكان لهؤلاء "مزامير هائلة (...)عرفوا بها"[٨٢]. وكان "النافخون في [هذه] الأبواق، يستعملون لعزف الألحان عند النزول وبسط موائد الملك، أو عند الهجوم في الحرب"[٨٣]، ولم يكن لهم تمويل أو نفقة تذكر من طرف الملك، وإنما كان أهل المدن يتكلفون بذلك، فهم ملزمين "بتقديم عدد منهم كلهم على نفقتهم"[٨٤].

ومن خلال سياق ورود المصطلحات السالفة الذكر، يبدو أن دور الطبول والأبواق والمزامير، كان له بالغ الأثر في نفسية عناصر الجند بتحفيزهم على القتال وإثارة الحماسة في نفوسهم قبل وأثناء الحرب من جهة، وإرهاب العدو من جهة ثانية[٨٥]. وقد اهتم المرينيون بهذا الأمر اهتمامًا كبيرًا حتى إنهم حملوا معهم الجواري على الهوادج ضمن المواكب العسكرية، ورافقوا الشعراء الذين يتغنون بمجد الجند لتشجيعهم على القتال، "إذ يتقدم الشاعر عندهم أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي ويبعث على الاستماتة (...) ويسمون ذلك الغناء تاصوكايت"[٨٦].

وإلى جانب الطبول، استعمل الجند المريني الأعلام، فكان العلم الأبيض شعار الدولة، ويسمى في المصادر المرينية بالعلم المنصور، فهو "أبيض مكتوب بالذهب نسيجًا من الحرير أي من القرآن بدائر طرته وحوله"[٨٧]، غير أن المصادر لم تفصح عن ماهية الآيات المكتوبة عليه، والراجح أنها آيات كانت تشير في مضمونها إلى التوحيد[٨٨].

وعلاوة على العلم الكبير الذي يتقدم الموكب، اعتمد الجيش المريني عددا مهما من الأعلام "ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير"[٨٩]، ومتعددة الألوان ما بين الأبيض والأخضر والأحمر والأصفر وغيرها من الألوان المتفرعة منمقة بأنواع التطريز والخطوط[٩٠]. ويقف أصحابها خلف السلطان وحاشيته. وتتزايد أعداد الأعلام إذا علمنا أن لكل قبيلة كان لها علم خاص يميزها وتعرف به[٩١]. ناهيك عن أعلام "أهل الحرف من أرباب الصناعات الموفرة للبضاعات"[٩٢] فلهؤلاء "أعلام فيها صور الآلات التي يستعملونها"[٩٣].

وقد عينت فرقة خاصة ضمن الجيش المريني، عرفت "بحملة الأعلام، يحملونها ملفوفة أثناء السير، إلا واحدًا منهم يحمل علمًا منشورًا مرفوعًا في مقدمة الجيش. ويقوم جميع حملة الأعلام كرواد بالتأكد من خط السير ومشارع الأنهار ومسالك الغابات"[٩٤].فكانت مهمة هؤلاء استطلاعية، تمهد طريق الجند وتأتي بالأخبار بشكل استباقي. ويبدو أن الجيش المريني قد راكم التجربتين المرابطية والموحدية سواء باستعماله للأسلحة المتنوعة أو في اتخاذه للزي المتميز وبعض الشارات العسكرية. كما راكم تجربة رائدة في عصره لخوض غمار المعارك البرية أو البحرية، غير أن حروب أبي عنان في البحر اقتضت – ولا شك- تجديد قطع الأسطول الحربي خاصة بعد نكبة أبي الحسن بالقيروان[٩٥]، فاجتهد أبو عنان في تطوير أسطوله الحربي. فماذا عن المصطلحات الدالة على مكونات الأسطول الحربي المريني وخصائصه؟

ثانيًا: مصطلحات دالة على مكونات الأسطول الحربي المريني

إذا كان الأسطول الحربي من عتاد الجند المريني ومستلزماته، فإن الوقوف على المصطلحات الدالة عل مكوناته، يُعَدّ من الأهمية بمكان، إذ لا يتيح ذلك إمكانية تحديد الدلالة، فحسب، ولكن يكشف عن بعض خصائص مكونات قطع الأسطول الحربي المريني، وإن كانت مسألة تحديد الحمولة والتجهيز والفعالية و المسافة التي تجتازها كل قطعة، يعد من الصعوبة بمكان، لأسباب عديدة، لعل أبرزها شح الإشارات المصدرية من جهة، وصعوبة التمييز بين الأسطول الحربي والتجاري من جهة ثانية[٩٦]، وتتأكد هذه الصعوبة عند التعرض لجملة من المصطلحات، الدالة على مكونات الأسطول الحربي، التي تزخر بها بعض المصادر الوسيطية، من دون تحديد لدلالتها. مما يستلزم ممن الباحث بذل جهدا مضاعفا بقصد حصر القرائن وتحصيل الإشارات التاريخية من أجل صياغة بطاقة هوية لهذه المصطلحات.

ومعلوم أن لفظ الأسطول نفسه، ليس وليد الحقبة الوسيطية، وإنما هو لفظ يوناني قديم (**stolos**)، ويعني طائفة من السفن. وعند العرب ظل لفظ الأسطول، يدل

على السفن الحربية، بعد تعريب الكلمة عن اليونانية (stolos)[٩٧] حاملاً دلالة السفن التي كانت تتحرك بالمجاديف، وبعضها بالمجاديف والأشرعة معا[٩٨]. ويبدو أن ابن الحاج النميري لم يخرج عن القاعدة، إذ استعمل بدوره لفظ الأسطول للدلالة على السفن المحاربة، فذكر أن أبا عنان "جعل ينظر إلى أساطيله المظفرة(...) وقد رفعت أعلامها المتهايجة (...) ولبس أهلها الدروع فكأنهم الأسود "[٩٩].

١/٢-مصطلحات مكونات الأسطول الحربي المريني (الاغربة- الطرائد-الشياطي- القوارب...)

وصف النميري مكونات الأسطول المريني في نص بالغ الأهمية، حين قال: "وأقبلت أغربة كأن أعلامها البيض حمائم، وطرائد كان الأبطال فوقها أسود ضراغم، وشياطي تستشيط على أعداء الله غضبا، وسلالير يتخذ سبلها في البحر عجبا، وقوارب تخلص لله بجهادها قربا، ولججوا بها فلكا يكاد يستنزل الأفلاك، وسفائن تحمل على أسرتها الأملاك، وشوانئ لعاجل الأعداء الشواني الهلاك، ومراكب يركبها المناوئ ردعه، وحراقات تحرق قلب المناصب وتتيح صرعه"[١٠٠].

ويبدو من خلال هذا النص، أن مكونات الأسطول الحربي العناني، كانت متنوعة فاقت تسعة أنواع، اختلفت من حيث شكلها ووظيفتها، فمنها الأغربة جمع غراب[١٠١] وهي سفن سوداء اللون مقدمتها على شكل رأس الغراب[١٠٢]، وتستخدم لحمل الغزاة[١٠٣]. ومنها الطرائد، وهي سفن مفتوحة الخلف بأبواب تفتح وتغلق، وكانت معدة لحمل الخيول والغزاة، وأكثر ما كان يحمل فيها أربعون فرسا[١٠٤]، كما عرفت برايتها البيضاء ومثلت سفينة القائد الأعلى للأسطول الحربي المريني. ويذكر النميري أن أبا عنان، أمر أن "تصله طريدة قائد القواد (...) وسرعان ما جاءت الطريدة العظيمة ناشرة لأعلامها البيض"[١٠٥]. وفي سياق آخر، يذكر أن السلطان دعاه للركوب معه على متن "الطريدة الكبيرة"[١٠٦]، مما يوحي بكبر وضخامة حجمها.

أما الشواني، فهي سفن حربية كبيرة أيضًا، كانت تسير بمائة وأربعين مجدافا، وتختص في حمل المقاتلة والجدافون، وقد كانت من أهم قطع الأسطول الحربي المريني وحددت حمولتها من عدد المقاتلة، في مائة وخمسين رجلاً[١٠٧]. ومن مكونات قطع الأسطول الحربي المريني أيضًا، تذكر المصادر الحراريق، وهي مراكب حربية كبيرة، كانت تحمل تجهيزات وعتاد الجيش خاصةً مكاحل البارود والعرادات والمنجنيقات، وترمي النفط المشتعل لتحرق به العدو، ومن ثمة كان اسمها الدال على وظيفتها، ولعل ما أورده دوزي في معجمه، حين ذكر "حراقة نفط" أو "حراقة بارود"[١٠٨]، دليل على ما ذهبنا إليه.

وفيما كانت القراقير (جمع قرقورة) من السفن العظيمة التي اختصت في حمل الزاد ونقل متاع الجند[١٠٩] المريني، كانت القوارب تختص في خدمة الأسطول حتى سميت بعضها بقوارب الخدمة[١١٠]. فضلاً عن أنواع قطع أخرى من الأسطول الحربي، عرفت بمصطلح الشيطي وهو نوع من الغربان المعروف بسرعة تنقله[١١١]. والشلندي[١١٢] المركب المسقف الذي يختص في حمل المقاتلة والسلاح ويعادل من حيث الأهمية الشيني والحراقة.

٢/٢-خصائص الأسطول الحربي من خلال المصطلحات

يتضح من خلال رصد سياق ورود مصطلحات الأسطول الحربي المريني، تعدد مكوناته، فقطعه كانت كثيرة ومتنوعة، كما تميزت بإتقان صنعتها وألوانها السوداء وأشكالها الهلالية، وقد وصفت بأنها "لا تعرف فساد الوضع ولا فساد الاعتبار(...) عقيدة ألوانها الليلية (...) أصيلة النجر(...)، ملاقية الأهوال (...) هلالية الشكل(...)، تروع بالقوس الحوت، وتحمل الأسد ليروع العدو الممقوت"[١١٣].

وإذا كان النميري، قد صمت عن عدد قطع الأسطول العناني، فمن الراجح أنها كانت وافرة جدًا، لا سيما إذا وضعنا في الحسبان عملية التحديث التي شهدها الأسطول الحربي بعد نكبة أسطول أبي الحسن في القيروان سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)[١١٤]، واستعمال المصادر لمصطلح "دار الصنعة" التي اختصت في عملية صناعة قطع الأسطول، ولا تعوزنا القرائن الدالة عن وفرة هذه القطع وتعدد أشكالها وألوانها، فقد أشار النميري إلى ضم أبي عنان، لما وجده ببجاية من السفن "عشية الوصول (...) إليها [حيث قصد] دار صنعتها (...)

فتفقد ما وجد (...) هنالك من الأجفان وأمر بدفعها لقهر أهل البغي والعدوان"[115].

وقد تميز الأسطول العناني بتجهيزه بكل أنواع الأسلحة والعتاد اللازم للقتال، من الطبول والأبواق والأعلام والسيوف والرماح، والمجانيق والعرادات القادفة بالبارود، فضلاً عن أسلحة الطعن والرماية الخفيفة والأسلحة الواقية، ويصف النميري حمولة الأجفان العنانية بقوله "فما شوهد أبدع من تلك الأجفان السعيدة (...) قرعت طبولها (...) وعلت أصوات بوقاتها وأنفارها (...) وأتت من أنفاطها (...) مالئة بألهوبها بين الغرب والشرق"[116].

كانت قطع الأسطول، تبدو في أحسن حلة، مزينة بالأعلام" كالعروس (...) مشحونة بالأبطال (...) من كل رام شهم (...) ومن رامح (...) ومن سائف (...)، قد لبسوا الحديد على الحديد ورفعوا عقائرهم بالتحميد والتمجيد"[117]. أما قيادة الأسطول، فكانت تسند لرجل محنك عارف بخبايا البحر، يعرف بمصطلح "الملند"[118]، ولا غرو فقد احتاط المغاربة منذ أمد بعيد من البحر وأهواله، فضمنوا ذلك ضمن أمثالهم المتواترة[119]. واشتهر من قواد الأسطول المريني في عهد أبي عنان، الفقيه الخطيب أبي العباس ابن الخطيب قائد أسطول طنجة، وأبي القاسم بن بنج قائد أسطول جبل الفتح[120] وابن الأحمر "قائد القواد البحرية"[121] وغيرهم، حتى إن أصداء قوة الأسطول المريني ومهارة قائديه، بلغت المشرق والغرب الأندلسي[122].

خاتمةٌ

وصفوة القول، أن المصطلحات الخاصة بالعتاد الحربي زمن بني مرين، قد جاءت وافرة ضمن المصادر، وهو ما يوحي بقوة وتنوع العتاد العسكري للدولة المرينية التي أولت عناية فائقة لصناعة معظم ما يلزمها لحشود الجند، من خلال إنشاء "دور الصنعة" أو "دور الإنشاء" المختصة في صناعة قطع الأسطول الحربي الذي صار يضاهي أسطول النصارى في الحوض المتوسطي، وانتشرت قطعه بمختلف الثغور المغربية، خاصة سبتة وطنجة وسلا ووهران وبجاية وقابس.

ونفس الاهتمام أبداه المرينيون لتوفير باقي أنواع العتاد الحربي لأجنادهم، حيث استجلبوا ما لزمهم من بلاد الأندلس التي برع أهلها في صنع السيوف البردليات المشهورة بجودتها واستعملوا البيضات أو الخوذات والأثواب البديعة المجلوبة من بلاد الشام والعراق.

أما الأسلحة الثقيلة من المجانيق والعرادات والدبابات وغيرها من آلات الحصار، فتبين من خلال المصطلحات الواردة، أن المرينيين قد طوروها واستعملوها ببراعة، وتكفي الإشارة إلى قصب السبق في استعمالهم للبارود، أو السلاح الناري في حروبهم قبل أوربا بعدة عقود، وحرصهم على استرجاع أمجاد الدولة المغربية زمن الموحدين وحضورها الوازن في الحوض المتوسطي.

وبالجملة، فإن العديد من القضايا التي تخص التاريخ العسكري المغربي خلال الفترة الوسيطية، لا تزال في حاجة إلى إعادة القراءة والتمحيص، ولعل ذلك لن يتم إلا بفقه المصطلح فهما وتحليلا، ومنها مصطلحات العتاد الحربي بالمغرب خلال العصر الوسيط، لذلك نهيب بالباحثين توجيه عنايتهم للاهتمام بالمصطلح باعتباره مفتاحا لفهم العديد من قضايا التاريخ والتراث.

الإحالات المرجعية:

(١) صنف ابن خلدون الحروب إلى أربعة أنواع: "اثنان حروب بغي وفتنة كالحرب بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة، واثنان حروب جهاد وعدل كحرب الدولة مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها"، انظر: ابن خلدون، **المقدمة**، تصحيح وفهرسة أبو عبد الله السعيد المندوه، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٩٦م، المجلد ١، ص.٢٨٧.

(٢) مجهول، **البدائع والأسرار في حقيقة الرد والانتصار**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم: ق٣٢ (ضمن مجموع)، ص.٣٤.

(٣) ابن خلدون، **المقدمة**، المجلد١، ص.٢٠٤.

(٤) **نفسه**، المجلد١، ص.٢٧٢.

(٥) **نفسه**، المجلد١، ص.٢٧٢.

(٦) ابن الحاج النميري، **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٩ م، ص.٢٩٧.

(٧) **نفسه**، ص.١٤٥.

(٨) البكري، **جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك**، تحقيق الحجي علي عبد الرحمن، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٨ص.١٤٥.

(٩) نسبة إلى **برديل**، "وهي آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال والشرق"، وقد عرفت الأندلس وخاصةً إشبيلية بصناعة آلات الحرب "ويصنع بها ما يبهر العقول"، انظر: المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، حققه يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج١، ص.١٩١. **الأندلس من نفح الطيب للمقري**، تقديم نجاح العطار، أعده للنشر: عدنان درويش ومحمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠، ص.٣٧٦.

(١٠) وانظر نماذج من أنواع السيوف حسب شكل مقابضها عند: Contamine (Ph), **le combattant au moyen âge**, Paris, Sorbonne,1995,pp.15-23.

(١١) ابن هذيل، **حيلة الفرسان وشعار الشجعان**، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ١٩٩٧م، ص.٧٨.

(١٢) **نفسه**، ص. نفسها.

(١٣) العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ط١، ص.١١٠-١١١.

(١٤) **نفسه**، ص ص.١١٠-١١١.

(١٥) مجهول، **البدائع والأسرار في حقيقة الرد والانتصار**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم: ق٣٢ (ضمن مجموع)، ص.١٨١.

(١٦) الأنصاري السبتي، **اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار**، حققه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٩م، ص.٥١-٥٢.

(١٧) النميري، **م س**، ص.٢٢٥.

(١٨) ابن هذيل، **م س**، ص.٨٨.

(١٩) ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص.٣٩٨-٣٩٩. ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار ملوك المغرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ضبط المتن والحواشي: خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت،١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج٦، ص.٤٤٠.

(٢٠) الأنصاري السبتي، **م س**، ص ص.٥١-٥٢.

(٢١) العمري، **م س**، ص ص.١٤٧-١٤٨.

(٢٢) ابن هذيل، **م س**، ص.٧٧.

(٢٣) **نفسه**، ص.٧٤.

(٢٤) النميري، **م س**، ص ص.٢٦٥ -٢٧٣-٢٩٦-٣١١-٢٩٨.

(٢٥) **نفسه**، **م س**، ص.٢٩٥.

(٢٦) **نفسه**، ص.٢٩٦.

(٢٧) محمد المنوني، **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين**، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٧، ص ٢٦٤.

(٢٨) **رسائل موحدية مجموعة جديدة**، تحقيق ودراسة محمد العزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، سلسلة نصوص ووثائق، رقم ٢، ط١٤٢٢،١هـ/٢٠٠١م، ج٢، ص.٢٣٦.

(٢٩) ابن خلدون، **العبر**، م س، ج٧، ص. ٢٤٨. الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، مراجعة: محمد حجي وإبراهيم بوطالب وأحمد التوفيق، منشورات وزارة الثقافة والاتصال،٢٠٠١ م، ج٤، ص.٤٠.

(٣٠) الناصري، **م س**، ج٤، ص.٤٠.

(٣١) النميري، **م س**، ص.٢٧٤.

(٣٢) **نفسه**، ص ص.٢٧٤-٢٧٥.

(٣٣) **نفسه**، ص.٢٧٤.

(٣٤) **نفسه**، ص.٢٩٦.

(٣٥) **نفسه**، ص.٢٨٨.

(٣٦) **نفسه**، ص.٢٩٦.

ويبدو أن استعمال **السلالم** في الحصار لتسلق الأسوار العالية، هي تقنية كانت سائدة خلال العصر الموحدي، فقد أمر عبد المومن أثناء حصار مراكش المرابطية سنة ٥٤١هـ "بعمل **السلالم** للسور، قسمها على القبائل فأحدقوا بالمدينة فدخلت هنتاتة من جهة باب دكالة ودخلت صنهاجة وعبيد المخزن من باب الدباغين". انظر: ابن سماك العاملي، **الحلل الموشية في أخبار الدولة المراكشية**، حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامة، البيضاء، ١٩٧٩م، ص.١٠٤.

(٣٧) النميري، **م س**، ص.٢٩٨.

(٣٨) **نفسه**، ص.٢٩٩.

(٣٩) ويعرف هذا القائد باسم "عثمان بن علي بن أحمد الرياحي"، انظر، **نفسه**، ص ص.٤١٥-٤١٩.

(٤٠) عن مقومات الجيش الموحدي، راجع: محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس عصر المرابطين والموحدين**، ق٢، عصر الموحدين وانهيار الأندلس الكبرى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص.٦٣٩-٦٤٠.

(٤١) النميري، **م س**، ص.٢٩٥.

(٤٢) ابن خلدون، **العبر**، م س، ج٧، ص.٢٤٨. الناصري، **م س**، ج٤، ص. ٣٩-٤٠.

(٤٣) الناصري، **م س**، ج٤، ص.٣٩.

(٤٤) النميري، **م س**، ص.٢٨٨.

(٤٥) **نفسه**، ص.٢٧٣.

(٤٦) **نفسه**، ص.٢٦٠.

(٤٧) الناصري، **م س**، ج٤، ص.٣٩، الهامش رقم:٤٢.
والجدير بالذكر أن **البارود** عند العرب، كان يعرف باسم "**النار الإغريقية**"، وعن العرب أخذها الإفرنج لتستعمل لأول مرة بأوربا في معركة (crecy-en-Pouthien)، سنة٧٤٧هـ/١٣٤٦م. انظر: أسعد داغر، **حضارة العرب، تاريخهم-علومهم-آدابهم-أخلاقهم-عاداتهم**، مطبعة هندية بالموسيكى، مصر١٣٣٢هـ/١٩١٨م، ص.٢٤١.
(٤٨) **المهاميز**، مفردها **مهماز** وهي الأداة التي تستحث بها المطايا على الإسراع في السير، ويستعملها الراكب على الفرس وغيره، وكان منها ما يصنع من الذهب أو الفضة أو من الحديد، وصناع وباعة المهاميز يعرفون بمصلح **المهامزيين**. انظر: محمد عمارة، **قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية**، دار الشروق، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص.٠٥٧.
(٤٩) العمري، **م س**، ج٤، ص.١٣٠.
(٥٠) ابن مرزوق، **م س**، ص.١٣٠.
(٥١) **نفسه**، ص.١٨٦-١٣٠-١٢٩.
(٥٢) الحسن الوزان، - الوزان (الحسن)، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد الأخضر ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ج١، ص. ٢٩.
(٥٣) **نفسه**، ج١، ص.٢٩.
(٥٤) **ملوطة**: قلنسوة من نوع خاص فاخر، كما يتضح من سياق الورود.
وانظر أيضًا: النميري، **م س**، ص.٣٠٥-هامش المحقق.
(٥٥) **نفسه**، ص.٣٠٥.
(٥٦) **نفسه**، ص.٣٠٥.
(٥٧) **نفسه**.٢٢٣ -٢٢٥.
(٥٨) النميري، **م س**، ص.٣٠١.
(٥٩) **نفسه**، ص.٢٢٤.
(٦٠) المراكشي، **سيرة أجود الأنجاد في مراتب الجهاد**، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، رقم ٥٩١٧، ص.٨١-٨٢. أيضًا: محمد حناوي، **النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والطوائف**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط٣، ٢٠٠٢، ص.٢٧١.
(٦١) ابن هذيل (علي بن عبد الرحمن بن هذيل الفزاري الأندلسي. ت. بعد ٧٦٣هـ): **حلية الفرسان وشعار الشجعان**، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ١٩٩٧، ص.٨٧.
(٦٢) **نفسه**، ص. نفسها.
(٦٣) **نفسه**، ص. نفسها.
(٦٤) أبو حامد الغرناطي، **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط١٤١٣،١هـ/١٩٩٣م، ص.٤١.
(٦٥) النميري، **م س**، ص.٣٠٥.
(٦٦) **نفسه**، ص.٣٥٢.
(٦٧) **والكشح**: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف، والكشحان جانبًا البطن من ظاهر وباطن، انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣/٢٠٠٣م، المجلد:٧، ص.٦٦٨، مادة: كشح.
(٦٨) النميري، **م س**، ص.٣٠٤.
(٦٩) القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١م، ج٥، ص.٢٠٣.
(٧٠) النميري، **م س**، ص.٢٤٩.
(٧١) الوزان، **م س**، ج١، ص.٢٩١.
(٧٢) **نفسه**، ج١، ص.٢٩١.
(٧٣) **نفسه**، ج١، ص.٢٨٧.
(٧٤) ابن خلدون، **المقدمة**، **م س**، المجلد١، ص.٢٧٣.
(٧٥) ابن سماك العاملي، **م س**، ص.١١٥.
(٧٦) الوزان، **م س**، ج١، ص.٢٨٨.
(٧٧) ابن خلدون، **المقدمة**، م س، المجلد ١، ص.٢٧٥.
(٧٨) النميري، **م س**، ص.٢٢٧.
(٧٩) **نفسه**، ص.٢٢٦-٢٢٧.
(٨٠) ابن خلدون، **المقدمة**، م س، المجلد ١، ص.٣٢١.
(٨١) العمري ابن فضل الله، **م س**، ج٤، ص.١٣٠.
(٨٢) ابن الحاج النميري، **م س**، ص.٢٢٣. الوزان، م س، ج١، ص. ٢٨٨.
(٨٣) الوزان، **م س**، ج ١، ص.٢٨٨.
(٨٤) **نفسه**، ج ١، ص.٢٨٨.
(٨٥) ابن خلدون، **المقدمة**، م س، المجلد١، ص.٢٧٣.
(٨٦) **تاصوكايت** نشيد حربي زناتي كان أفراد الجيش يرددونه في ساحة المعركة، إذ يتقدم الجيوش شخصا (شاعرا) يتولى المبادرة بالإنشاد مستعملا آلة موسيقية خاصة، ويدعى هذا الإنشاد "**تاصوكايت**". انظر: **المقدمة**، المجلد:١، ص.٢٧٤. رضوان مبارك، **معلمة المغرب**، الجمعية المغربية للنشر والتأليف والترجمة، مطابع سلا ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢ م، ج٦، ص.٢٠٦٦.
(٨٧) العمري، **م س**، ج٤، ص.١٣٣.
(٨٨) يبدو ذلك جليًا من خلال محتوى القبتان فكان في "القبة الأولى (...) مصحف عثمان ابن عفان (...) أما القبة الأخرى ففيها صحيح البخاري وصحيح مسلم، أحسن ما ألف في الحديث". انظر: ابن الحاج النميري، **م س**، ص.٢٢٥-٢٢٦.
(٨٩) ابن خلدون، **العبر**، م س، ج٧، ص.٣٥٧.
(٩٠) ابن الحاج النميري، **م س**، ص.٤٩٧.
(٩١) ابن أبي زرع الفاسي، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1973م، ص.١٣٠.
(٩٢) ابن الحاج النميري، **م س**، ص.٤٩٨.
(٩٣) **نفسه**، ص.٤٩٨.
(٩٤) الوزان، **م س**، ج١، ص.٢٨٧.
(٩٥) تذكر المصادر أن "أساطيل أبي الحسن [كانت] نحو الستمائة **قطعة**، فغرقت كلها، ونجا هو على **لوح**، وهلك من كان معه من أعلام المغرب(...) وكان غرق الأسطول على ساحل تدلس بين بجاية والجزائر" سنة٧٤٩ هـ. انظر: ابن خلدون، **العبر**، م س، ج٧، ص.٣٦٥. الناصري، **م س**، ج٤، ص.١٦٠-١٦١.
(٩٦) محمد حناوي، **النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والطوائف**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط٣، ٢٠٠٢، ص.٣٤١.
(٩٧) عبد الفتاح عبادة، **سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتها في الإسلام**، مطبعة الهلال، مصر، ١٩١٣، ص.٣.
(٩٨) **نفسه**، ص. نفسها.
(٩٩) ابن الحاج النميري، **م س**، ص.٢٧٦.
(١٠٠) **نفسه**، ص.٣٥٤.
(١٠١) إبراهيم حركات، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي**، إفريقيا الشرق، البيضاء، ١٩٩٦م، ص.١٨٥.

(١٠٢) عبد الفتاح عبادة، **م س**، ص.٧.

(١٠٣) محمد المنوني، **ورقات عن حضارة بني مرين**، منشورا كلية الآداب، الرباط، ١٩٩٦م، ص. ١١٠.

(١٠٤) ويمكن التمييز بين مصطلح **الطريدة** (جمع طرائد) الوارد عند النميري، **والطرادة** (جمع طرادات)، **والطرادة** سفينة حربية صغيرة الحجم، سريعة الجري، انظر: عبد الفتاح عبادة، **م س**، ص.٦.

(١٠٥) ابن الحاج النميري، **م س**، ص.٢٧٧.

(١٠٦) **نفسه**، ص.٢٧٧.

(١٠٧) مصطفى أبو ضيف، **تاريخ الغرب الإسلامي من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري**، دار النشر المغربية، البيضاء، ١٩٨٥، ص.٤٢٢.

(١٠٨) دوزي (رينهارت)، **معجم القواميس العربية**، نقله إلى العربية وعلق عليه، محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، العراق، ط١، ١٩٨١/١٤٠١، المجلد:٣، ج، ص.١٣٧. ويبدو أن **الحراقات** هي من السفن الحربية التي استعملها العرب منذ فترات مبكرة من تاريخهم لأغراض متعددة منها نقل الخليفة المأمون العباسي (ت. ٢١٨هـ) لضيوفه عبر نهر دجلة "فكانت **الحراقات** المعدة لذلك ثلاثين ألفا". انظر: ابن خلدون، **المقدمة**، **م س**، ج١، ص١٨٣. عبد الفتاح عبادة، **م س**، ص.٥.

(١٠٩) عبد الفتاح عبادة، **م س**، ص.٦.

(١١٠) **نفسه**، ص.٦.

(١١١) انظر: ابن الحاج النميري، **م س**، هامش المحقق رقم ٣٦٢، ص.٣٤١.

(١١٢) عبد الفتاح عبادة، **م س**، ص.٣٦-٣٧. أيضًا: مصطفى أبو ضيف، **م س**، ص.٤٢٢. أيضًا: أرشيبالد لويس، **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط**، ترجمة أحمد محمد عيسى، القاهرة (دون تاريخ)، ص.٣٢٥. ويبدو أن هذا المصطلح قديم، فقد عرف في اللاتينية باسم: **chalandium** واسترجعه العرب عن طريق التعريب، فقالوا **شلندي**، وهي مراكب حربية لحمل المقاتلة والسلاح وتعادل في الأهمية الشيني والحراقة، انظر: عبد الفتاح عبادة، **م س**، ص.٦.

(١١٣) **نفسه**، ص.٢٧١.

(١١٤) ابن خلدون، **العبر**، ج٧، ص.٣٦٥.

(١١٥) **نفسه**، ص.٢٦٦.

(١١٦) **نفسه**، ص.٢٧٣.

(١١٧) ابن الحاج النميري، **م س**، ص. ٢٧٢-٢٧٣.

(١١٨) أورد ابن خلدون قائلاً: "**الملند** بتفخيم اللام منقولا من لغة الفرنجة (...) وإنما اختصت هذه المرتبة بملك إفريقية والمغرب، لأنهما جميعا على صفة البحر الرومي من جهة الجنوب"، انظر: ابن خلدون، **المقدمة**، م س، المجلد١، ص.٢٦٦.

(١١٩) فقالوا ضمن أشعارهم: **ثلاثة ليس لها أمان *** البحر والسلطان والزمان**. المقري، نفح الطيب، م س، ج١، ص.٤٦.

(١٢٠) ابن الحاج النميري، **م س**، ص .٢٧٧-٣٤١-٢٧٠- المنوني، **ورقات**، م س، ص.١١٢.

(١٢١) **نفسه**، ص. ٢٧٠.

(١٢٢) محمد المنوني، **ورقات**، م س، ص ص.١٠٨-١٠٩.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

المخاوف الغذائية في تاريخ المغرب
مُلاحظات حول الخوف والسلوك الغذائي
في مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين



د. كريم العرجاوي
دكتوراه في التاريخ الحديث
الأكاديمية الجهوية لمهن التربية والتكوين
مراكش آسفي – المملكة المغربية

مُلَخّص

تسعى هذه الدراسة إلى الانتقال بالبحث التاريخي من محاولته الإجابة عن سؤال ماذا حدث ومتى وأين؟ إلى الإجابة عن سؤال كيف يشعر الناس بشأن ما حدث؟ من خلال إعادة قراءة تاريخ المغرب الغذائي من منظور يتداخل فيه الطبيعي والاقتصادي بما هو سيكولوجي واجتماعي، عن طريق الربط بين الأزمات الغذائية والانفعالات الحسية والسلوكية الناتجة عنها، خاصةً وأن هاجس الخوف من نقص الغذاء، من الحاجة والمجاعة، ظل مسيطرًا على تفكير الإنسان المغربي، ولعل هذا ما يفسر عددًا من مسلكيات التفكير والممارسة التي تبناها الفرد والجماعة في تدبير الشأن الزراعي والغذائي؛ ذلك أن الأزمات الغذائية التي نابت مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين أسهمت بشكل كبير في تنامي أحاسيس وأفعال من قبيل الخوف والفرار والعنف وتلاشي أنساق القيم الإنسانية، وهي انفعالات حسية وسلوكية غالبًا ما كانت نتيجة الخوف من الموت جوعًا .

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٤	يناير	٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر:	٢٢	فبراير	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الأزمات الغذائية؛ السلوك الغذائي؛ الادخار الشعبي؛ المخيال الجماعي؛ اقتصاد الكفاف

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.354639 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

كريم العرجاوي، "المخاوف الغذائية في تاريخ المغرب: مُلاحظات حول الخوف والسلوك الغذائي في مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ١٠٩ – ١٢٣.

Corresponding author: karim8arjaoui@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

"الجوع آلة اجتماعية ونفسية طاحنة"[١]

مُقدِّمَةُ

يُعتبر موضوع الخوف والسلوك الغذائي من بين القضايا التي لم تنل حظها بعدُ من البحث التاريخي بالمغرب، خاصة إذا ما قارناه بما وصل إليه الغرب في هذا المجال؛ إذ شكّل الخوف في علاقته بالجوع موضوعًا مركزيًا في أعمال عدد من الباحثين المتخصصين في تاريخ السلوك والذهنيات،[٢] عبر محاولة إعادة قراءة التاريخ انطلاقًا من مطلب الأمن الغذائي وهاجس الخوف من فقدانه؛ فإذا كان الموت الجماعي الناتج عن الأزمات الغذائية قد دمر البنيات الديمغرافية، فإن هذا الموت المأساوي قد ترك بصماته في سلوك الأفراد وأحاسيسهم،[٣] إذ أكدت دراسات عدة على الدور الكبير الذي لعبته نوائب الطبيعة في تشكيل طبائع سلوكية وانفعالات حسية شكل الخوف أحد أبرز تجلياتها،[٤] وهي دراسات حاولت الانتقال بالبحث التاريخي من محاولته للإجابة عن سؤال ماذا حدث ومتى وأين؟ إلى الإجابة عن سؤال كيف يشعر الناس بشأن ما حدث؟ وكيف يتفاعلون معه سلوكيًا؟ مؤكدة في السياق ذاته على أن تاريخ البشر ما هو إلا تاريخ مجتمع يعيش على وقع الخوف بكل أشكاله.[٥]

تزداد أهمية البحث في تاريخ الخوف عند ربطه بعنصر مهم ظل هو الآخر مُهملاً في جوانب كثيرة منه، ألا وهو موضوع التغذية، الذي اقتصر البحث فيه عن ما هو كمي، عبر البحث في تاريخ أنواع الأطعمة والمشروبات،[٦] وإغفال الأبعاد السلوكية والسيكولوجية المرتبط به، ذلك أن الطعام لا يُختزل في بعده البيولوجي المجرد، بل يعد فاعلا ثقافيًا وسيكولوجيًا؛ فالطعام جسر عبور إلى الأبنية الخفية للمجتمع، كما أنه "المحرك الأساسي لتاريخ الفعل الاجتماعي"،[٧] والذي يمكن أن تشكل من خلاله التغذية مدخلاً رئيسيًا لقراءة وتحليل الأنساق الذهنية والثقافية وأيضا مدخلا لاكتشاف تاريخ المجتمعات وتحولاتها في الزمان والمكان. بناءً على ذلك، نفضل الانطلاق في هذه المحاولة من التساؤلات التالية: ماهي الانفعالات الحسية والمواقف التي أفرزتها الأزمات الغذائية؟ وكيف شكل توفير الغذاء هاجسًا سيكولوجيًا لمغاربة القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين؟ وكيف تتمظهر هذه الهواجس في سلوك ومواقف الأفراد والجماعات تجاه الأغذية؟ وما هي آليات الدفاع النفسي التي ركن إليها المغاربة زمن الأزمات الغذائية؟

أولاً: المــوت الجماعــي زمــن الجــوع: الانفعالات والمواقف

خلفت سنوات الندرة الغذائية انهيارات ديمغرافية كبيرة، عكستها المصادر الإخبارية في صورة معطيات تراوحت في دقتها بين معطيات رقمية عددية وأخرى انطباعية وصفية تفيد هول الكارثة،[٨] تعكس مجتمعة مظاهر الموت الجماعي[٩] الناتج عن سنوات المسغبة وما رافقها من أزمات بيولوجية، ولعل هذا ما يدفعنا للتساؤل حول الأحاسيس والانفعالات الدفينة المرتبطة بمظاهر الموت الجماعي، أو ما كانت تعبر عنه المصادر التاريخية بـ "الموتان".

لقد تركت حالات الموت الجماعي الناتجة عن سنوات المسغبة بصمات واضحة في تصورات الأفراد وأحاسيسهم، كما تركت هواجس نفسية تُتَرجم في كثير من الأحيان إلى انفعالات وسلوكات، من منطلق غريزة الدفاع عن النفس وحفظ البقاء؛ فتواتر المحن الطبيعية من مجاعات وأوبئة، أسهم بشكل كبير في تنامي أحاسيس وأفعال من قبيل الخوف والفرار والعنف، وهي انفعالات حسية وسلوكية غالبًا ما تكون نتيجة "الخوف من الموت"،[١٠] ومن "طغيان الطبيعة"،[١١] وأيضًا باعتبارها ردود أفعال طبيعية في مساعي الإنسان الحثيثة للنجاة من الموت جوعًا.

إن التهديد المصيري الناتج عن سنوات الجوع، أثر بشكل كبير على الأحاسيس والمشاعر الفردية والجماعية،[١٢] إذ غالبا ما كانت تُقترن المخاوف والهواجس النفسية بأزمنة المجاعات والسنوات المظلمة التي أنتجتها،[١٣] ولعل هذا ما جعل البعض يخلص إلى أن "الخوف من الجوع والمجاعة ونقص الغذاء ظل همَّ الإنسان وقلقه المؤثر في عقليته"،[١٤] وأن "الخوف من

الموت أهم مشكل واجه المغربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر على الأقل".[١٥] ففي دراسته للخوف ببلاد المغرب، يؤكد أحد المهتمين على أن الكوارث الطبيعية بشكل عام، والمجاعات والأوبئة بشكل خاص، كانت وراء انتشار حالات من الرعب الجماعي، إذ يقول: "لا يمكن أن نتخيل مدى وقع الرعب الذي تكبّده الأفراد والمجموعات باعتبار عدد الوفيات والموت البطيء وما يسبقه من أيام للاحتضار في ألم وعذاب متجدد يتكرر دوريًا كل عقد أو عقد ونصف من الزمن".[١٦]

يمكن تلمس صور هذا الخوف بمغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين من خلال بعض الإشارات المصدرية التي تفيد الحالة النفسية التي كان عليها المجتمع أفرادا وجماعات إبان المجاعات؛ فخلال أزمة (١٥٢٠-١٥٢٤م) والتي شهدت تواكب الوباء والمجاعة "تسرب الخوف إلى النفوس، وأضحى مالكو الحبوب يعرضونها للبيع بأثمان تتجاوز طاقة الفقير والموعز، وتتعدى ما اعتاده الناس من أثمان"،[١٧] وفي الموسم الفلاحي لسنة ١٥٥٢-١٥٥٣م، "إتعَطل الشّتَا مَنْ أول العام ولَا نْزلْ [...] ودُهشت الناس كثيرا".[١٨] كما كان من نتائج الأزمة التي ضربت المغرب والمغاربة إبان مطلع القرن السابع عشر الميلادي (١٦٠٣-١٦٠٦م) أن "عمّ الخوف الذي كان بالأمس كامنا مغمورا، واختل الحال، وتوزع البال، وتناهت الآلام"،[١٩] كما "مات قوم لا يحصون جوعا وبقي الهرج والقتل"[٢٠] و"كثر الهرج والغلاء في سائر البلاد".[٢١]

نستنتج من هذه الإشارات المقتضبة، أن بعض المتون الإخبارية عبرت بشكل صريح عن الحالة النفسية التي كان عليها المغاربة زمن الغلاء والمجاعات وما قد يواكبها من أوبئة، وهي حالة غالبا ما قادت العديد من المغاربة إلى محاولة البحث عن سبل للنجاة، ويعتبر الهلع والفرار الجماعي من المناطق المتضررة بالجفاف إلى المناطق الأقل تضررًا، ترجمة بارزة لردود الفعل السكانية الناتجة عن الخوف خلال فترات المجاعات الشديدة، كما هو الشأن بالنسبة إلى أهل مدينة فاس عقب جفاف عام ١٦٨٣م، حيث تأخر المطر وارتفعت الأسعار فكثر "الهروب والفرار منها".[٢٢]

كما كان للخوف الذي سيطر على النفسية المغربية، دور كبير في نزوع المغربي إلى البحث عن الحماية المعنوية من شبح الموت، من خلال البحث عن منقذ وحام يحميه من المصائب المختلفة، وهو ما كان يجده، ليس عند الزعامات المحلية الدنيوية، وإنما عند الصالحين من العباد ورجال الزوايا والأولياء، وذلك لما أظهروه من قدرة على ضمان الحماية المادية والمعنوية للناس، خاصة أن المناخ الثقافي الذي طبع ذهنيات العامة في مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين أكد سلطة المتصوفة، من خلال الإيمان بالخوارق التي يأتون بها. والظاهر أن العامة وجدت في الكرامات ما يتناسب مع أوضاعها ويوافق طموحها، لذلك كثر عدد الزوايا وعدد مريديها، "حتى كان عددها يفوق عدد المساجد"،[٢٣] فشكل بذلك المقدس أحد أبرز تجليات الأزمة النفسية وإحساس الخوف الذي ساد خلال الفترة مدار البحث.

لعل هذا المناخ الثقافي هو ما دفع البعض إلى القول بأن الكوارث الطبيعية كانت وراء نشوء "روح قلقة"،[٢٤] تنظر للمستقبل بخوف وتشاؤم، وترتب عنها حدوث صدمة عنيفة أسهمت في ترسيخ صورة الموت نتيجة الجوع باعتباره لعنة أو عقابًا إلهيًا في الذهنية المغربية. في مقابل ذلك، مثّل موت الفرد في حالة شبع رحمة تنبئ بمكانة صاحبها الآخروية، ولعل هذا ما يعكسه المثل الشعبي القائل: "لِّي مَات عْلَى شَبْعَة مَاتْ مَرْحُومْ".[٢٥]

وإذا كان الموت خلال فترات الأزمة هاجس وهوس يومي للأفراد والمجتمع، فإنه من البديهي أن يصبح أكثر ألفة يتقبله الأفراد نتيجة كثرة الوفيات الناجمة عن المجاعات والأوبئة خصوصًا، حتى أن طقوس غسل الميت ودفنه تصبح متجاوزة، وهو ما يستشف من الإشارات التاريخية التي تفيد انتشار الجثث في الشوارع والأزقة؛ فخلال مجاعة ١٦٥٢م، "تفاحش الموت في الناس جوعًا وعجز الناس عن الدفن"،[٢٦] كما أن المجاعة الكبرى لسنة (١٦٦١-١٦٦٢م) خلفت عددًا كبيرًا من الموتى حتى تعذّر على الناس بمدينة فاس دفن موتاهم، بعدما صاروا غير قادرين على غسلهم والصلاة عليهم،[٢٧] وما قد يعكسه ذلك من انتفاء لقدسية الجسد في حالات الموت

الجماعي، بل يتحول إلى مادة لسد رمق الجوع عبر إقبال الجوعى على أكل جثث الهالكين.[٢٨]

وبصفة عامة، خلف الموت الجماعي الناتج عن الأزمات الغذائية مواقف وانفعالات، عبرت عنها النصوص بصفة مُضمرة توحي بتعمق الأزمة النفسية واستفحال مظاهر الخوف والشعور بالذنب، على اعتبار أن غضب الطبيعة ما هو إلا نتاج خطيئة بشرية استحق على إثرها الأفراد العقاب الإلهي، لتزيد بذلك هذه الأزمات من قلق الموت، الذي ظل معه الإنسان أمام مظاهر الموت الجماعي الناتج عن الجوع مسكونا بهاجس الخوف، وهو خوفٌ أسهم في تشكيل ذهنية قيامية، اعتبرت كل هذه المحن دليلاً على قرب "الساعة"، كما أفرز سلوكات احترازية قائمة على الادخار والتخزين تحسبًا لعذر الطبيعة وسنوات الجفاف.

ثانيًا: التخزين وهاجس تحقيق الأمن الغذائي وتأمين البقاء

شكل سلوك التخزين والادخار أحد العناصر التي كانت بمثابة هاجس يومي للإنسان المغربي، ذلك أن الصراع الدوري مع شبح المجاعات والغلاء المتكرر، كان وراء ظهور سلوكيات مرتبطة بإعداد المخازن وادخار الأقوات، إذ إن التفريط في هذا الخيار الاحترازي كان يعرض حياته إلى جحيم الموت جوعا. فالجفاف، وإن ساد طيلة سنة كاملة وتضررت منه المحاصيل، فإن الحالة لا تسوء إلى درجة حدوث مجاعة خطيرة وانهيار ديمغرافي كبير،[٢٩] لكون الإنسان المغربي عمل على اتخاذ إجراءات وقائية لمثل هذه الحالات من خلال تخزينه للمواد الغذائية؛ فالتخزين كان بمثابة سلوك يومي لمعظم المغاربة، أفرزته هواجس أمنية سعت إلى تأمين المواد الضرورية لمجابهة الكوارث الطبيعية الصعبة بواسطة مرافق متعددة للخزن، صيانة من خطر المجاعات، والغلاء، وتوابعهما الديمغرافية، والاقتصادية. هذه التدابير والهواجس عبرت عنها الذاكرة والموروث الشعبي في صورة أزجال وأمثال شعبية، حملت مضامينها دعوة صريحة إلى الاحتراز من آفة الجوع عبر خزن المواد والمؤن الضرورية للغذاء،[٣٠] بحيث أدت تلك الهواجس الطبيعية إلى جعل سلوك الادخار عادة راسخة ومتجذرة في الثقافة الشعبية.[٣١]

في سياق هذا السلوك المعبر عن رد فعل الإنسان المغربي، نبه أحد المهتمين إلى إمكانية رصد نوعين من المخازن والمستودعات،[٣٢] الأول؛ انفردت به السلطة المركزية باعتباره خيارًا استراتيجيًا لاستمرار هيمنة الدولة المركزية وتأمين مواردها من المؤن للجند والعلف للدواب، والثاني؛ يتصل بكل الإجراءات التي قام بها المجتمع لتأمين قوته تحسبا لأي طارئ، سواء كانت هذه الإجراءات فردية أم جماعية.

٢/١-المخزن والتخزين

لا تسعفنا المصادر في تبيان ما إذا كان المخزن السعدي، باعتباره الدولة المركزية التي طبعت مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، قد عمل على إنشاء مستودعات رسمية لتخزين المواد،[٣٣] غير أنها تؤكد من جانب آخر استمرار هذا النوع من المخازن بمغرب الفترة، وهي مخازن موروثة عن فترات تاريخية سابقة.[٣٤]

والواضح، أن المخزن دأب عبر تاريخ المغرب على إنشاء المخازن والعناية بها، ذلك أن مخازن الطعام ومستودعات الحبوب الرسمية، كانت آلية وظفها المخزن لضمان أمنه الغذائي، باعتبارها دعامة مادية لتمويل حملات الجيوش وإمداد الرعايا بالمؤن الغذائية في فترات الضيق والمسغبة. ولعل هذا ما تؤكده بعض القراءات التي انطلقت من الحمولة اللغوية لمفهوم المخزن، بهدف الربط بين ماهيته ووظيفته، فاعتبرته أكبر مستودع للحبوب والمواد الغذائية من خلال امتلاكه لمطامير وأهراء انتشرت في كل أنحاء البلاد، وأن قاعدة سلطته تُستمد من فكرة التراكم والخزن،[٣٥] فمصطلح "المخزن" يدل في أصله على هذه الوظيفة الاجتماعية، لذا حرص السلاطين على بناء الأهراء الضخمة لتخزين المؤن، وكان أحد أغراض هذا التخزين الرسمي ضمان إمداد منتظم للأسواق للحد من موجة الغلاء في السنوات السيئة أو في حالة الحصار، وأيضا إغاثة المنكوبين في حالة وقوع مجاعة مفرطة.[٣٦]

ونتوفر على إشارات عديدة حول المخازن الرسمية التي كانت توجد بكل من مدينتي مراكش وفاس مطلع القرن السادس عشر الميلادي؛ فبضواحي مدينة فاس مثلا؛ كانت توجد "مخازن في غاية الكبر يسع أصغرها ألف رودجي من الحبوب. وتوجد مائة وخمسون مطمورة"،(٣٧) كما يصف لنا الوزان أهراء مراكش الكائنة في القصبة إذ كان بها "هريان مبنيان كذلك بسقف مقوس، في كل هري طبقة علوية، يوضع العلف في الطبقة الأرضية، ويخزن في إحدى الطبقتين العلويتين الشعير للخيل، ويخزن القمح في الأخرى".(٣٨)

ومن بين الأهراء التي شيدت خلال مطلع الدولة العلوية، الهريان العظيمان اللذان بناهما مولاي إسماعيل بمكناس إزاء صهريج السواني، أحدهما يحتوي على ٣٤٥ أسطوانة، ويزيد طوله على مائة وثمانين مترا، ولا يقل عرضه عن ٦٩ مترا، وهذا الهري هو الذي يقول عنه أبو القاسم: "وجعل [المولى إسماعيل] بها هريا لخزن الزرع يسع زرع المغرب كله".(٣٩) كما تحدث عن ذلك أحد الرحالة الأجانب، حيث أكد أن المولى إسماعيل كان يمتلك عددا من "المخازن التي تبقى مليئة مدة طويلة لدرجة أن المغاربة يحتفظون بحنطتها مئات السنين دون أن تتعرض لأي ضرر. وهم يملؤون بهذه الحنطة حفرا تسمى مطمورة، ولتزويد مخازن الإمبراطور يقوم عبيده بزراعة سهل المعمورة الشاسع وعدة مناطق أخرى من البلاد".(٤٠)

وعمومًا، فعلاقة المخزن بالتخزين علاقة وطيدة، سعى دائما من خلالها المخزن إلى ضمان أمنه الغذائي لمواجهة الكوارث الدورية والحصارات المرتقبة على حد سواء، خاصةً وأن جزءًا كبيرًا من هذه المدخرات كان موجها لتوفير حاجيات الجيش من المؤن، كما كان جزءٌ منها موجهٌ أيضا لدعم المحتاجين زمن الضنك والحاجة.

٢/٢-الادخار الشعبي: الجماعي والفردي

يحظى التخزين بعناية فائقة لدى الإنسان المهدد بشيء من الجوع، لأن الخوف من الجوع سلوك طبيعي مرتبط بغريزة البقاء، ولا عجب في أن ثقافة الجوع وهواجس الخوف من الموت، قد فرضت نتيجة التحولات المناخية الفجائية وما رافقها من مآسي ومجاعات إبان الحقبة المدروسة، نوعًا من التنسيق المشترك لمواجهة ندرة الأطعمة ومصاعب الجوع، فكان بناء المستودعات الجماعية أو ما يعرف بـ"الإكودار" نمطًا يعكس الرغبة الدائمة لصد شبح الآفات والجوائح،(٤١) وهي مخازن جماعية كانت مخصصة لاختزان حبوب الأهليين خاصة في المناطق الجبلية،(٤٢) لأجل ضمان العيش في ظل أزمة الخصاص والندرة، فهي "نتاج سلوكي، ومعطى أفرزته الضروريات" (٤٣) والهواجس الغذائية التي ترسخت في سلوك وثقافة المجتمع عبر التاريخ.

أما في المناطق الأطلسية، فقد أبدع المغاربة نوعا آخر من أساليب التخزين، ويتعلق الأمر بنظام المطامير، والتي تكون إما فردية أو جماعية، هذه الأخيرة تعرف بـ"المرس"،(٤٤) وتشترك فيها القبيلة أو الدوار، وهي مخازن تحت أرضية تُحفر في الأراضي الصلبة لقدرتها على خزن الحبوب لمدة طويلة دون أن يلحقها تلف، كما هو الحال بالنسبة للمناطق المتواجدة بناحية مدينة فاس، والتي تواجدت بها مطامير منحوتة "في جبل من حجر كلسي حيث توجد حفر عميقة (مطامير) تحفظ فيها الحبوب سنين عديدة، وتبلغ سعة بعضها أكثر من مائتي مد من الحبوب".(٤٥) ونظرًا لأهمية الذخائر المخزونة خصوصا الحبوب، فإن أعمال النهب كانت تستهدفها من حين لآخر، لهذا دأب السكان على مداومة حراستها، كما هو الشأن بالنسبة إلى أهل فاس، إذ "كان لهم حرّاس يحفظون حبوبهم".(٤٦)

حقا أدت المخازن دورًا هامًا في الحفاظ على الموارد والسلع من التلف، فهي تمكن السكان من توفير احتياطي مهم من الحبوب لاستعمالها أثناء الأزمات والكوارث الطبيعية، وهناك بعض المنتجات الفلاحية كالحبوب يحتاج الفلاح للاحتفاظ بها من أجل توفير البذور أو ادخارها في فترات الوفرة تحسبا لسنوات الشدة والقلة، وبالرجوع إلى مصادر الفترة، نقف على نصوص تتحدث على الادخار الفردي للأقوات؛ فهذا الحسين الصمودي (ت. ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) "ورد عليه مرة أصحاب الشيخ سيدي أبي محمد عبد الله الغزواني، فأمر امرأته بالانصراف إلى أهلها، وأدخلهم الدار وأراهم القمح والشعير والسمن والخليع وسائر ما في الدار من المتاع".(٤٧)

كما نتوفر على وثيقة غاية في الأهمية، تعود للقرن السابع عشر الميلادي، كتبها فقيه يدعى عبد الله بن محمد بن أبي بكر البوشواري، والذي كان حيا عام المجاعة الرهيبة لسنة ١٦٦١م، فنجده في هذه الوثيقة يرفع من شأن الادخار والاقتصاد في المدخرات الأسرية وتنظيمها، فيقول: "إن سِنِي المجاعة لا تجد فيها إلا ما ادخرته في السنين المُخصبة، فعليك بالادخار، ثم إياك وإياك السّرف. فادخر ما أمكنك من الإدام والزرع والجلبان واللفت اليابس والهرجان والخروب وغير ذلك، وزريعة كل شيء. ثم إياك التفريط في التبن، فهو تبر لا تبن [...] ولا تضيع حثالة واحدة من أورّمان الباقي من غليظ التبن، وادخر الزرع بقدر الإمكان، فإن كان ولا بد من بيعه للفساد، فبدله بنوى الخروب أو بالذرة فإنها لا تسوس أو بالجلبان أو بالإدام. وإذا أعجبتك بهائمك فبع منها، وكذلك الأجباح فإنها كحلم النائم. وإياك وسلف الزرع وإفساد التبن، فاخزنه متى تجد شيئا منه. فإنك ستندم إذا لم تخزنه في وجوده، ولا تخل يدك من كل زريعة". [٤٨]

إنه نص يختزل ضروريات المجتمع للتخزين، فقد دفع الخوف من شبح الموت جوعًا، بالجماعات البشرية إلى اعتبار التخزين ضرورة مهمة في الحياة، لدرجة جعلت صاحب النص يرتقي بالتخزين إلى مرتبة الواجب المقدس، وإلى ضرورة الحفاظ على الزرع وعدم تسليفه، مقدمًا في الوقت ذاته نصائحًا حول كيفية ومقدار الادخار قائلاً: "خُذ الثلث من كل شيء وادخره وكل الثلثين [...] اجعل ما فَضل لك في الحِصن [...] وادخر الزرع غاية ولا تبعه، فما بقي فيه أفضل من عدمه في المطامير، فان الفساد لا يُسرع إليه في المطمورة" [٤٩]

بالإضافة إلى تخزين الحبوب، دأب المغاربة على استعمال عدة وسائل لتخزين بعض المواد الغذائية الأخرى، وهي وسائل لا زالت مستعملة في جانب كبير منها إلى اليوم، خاصة تلك المتعلقة باللحوم وتجفيفها أو ما يعرف بـ"القديد" و"الخليع"، وأيضًا تمليح الأسماك وتجفيف بعض الفواكه كالتين والعنب، بحيث ذكر الوزان في مواضع عدة شيوع هذا السلوك الاحترازي بمغرب الفترة. [٥٠]

من جهة أخرى، يمكن ملامسة التدابير الاحترازية لمواجهة أزمات الندرة، من خلال السلوك الاستهلاكي الذي انطبع بطابع التقشف والزهد، [٥١] وتمكننا كتب المناقب والتراجم خاصة، من الوقوف عند عدد من الحالات التي شملها هذا السلوك، فهذه رقية معن (ت ١٠٨٧هـ/١٦٧٧م) كانت "آية من آيات الله في رفع الهمة والزهد[...]، في غاية الإخمال والإهمال، والتقشف والإقلال[...] لا تبالي بقلة ولا بمسكنة وعلية [...] وإذا أعطاها أخوها [...] شيئا مواساة لها ومعاونة، لا تأخذه"، [٥٢] ولعل هذا السلوك الاستهلاكي ذا الطابع التقشفي هو ما نجده في الموروث الشعبي الذي يحث على الاقتصاد في الطعام وتوفير زاد اليوم للغد. [٥٣]

وإذا كان ادخار المواد الغذائية سلوكا راسخًا في الذهنية الجماعية، فإن المغاربة لم يغفلوا تخزين مادة أكثر حيوية ألا وهي الماء، فأنظمة التخزين المتعلقة بهذه المادة، ومن منطلق الخصائص المناخية والطبيعية بالمغرب، شهدت تطورات مهمة عبر تاريخ المغرب، في إطار رهان الإنسان الدائم مع التطرفات المناخية، بحيث استعمل المغاربة تقنيات لتجميع المياه؛ منها على سبيل المثال "الصهاريج" و"المطفية" وغيرها من الوسائل الأخرى؛ فقد جعل المولى إسماعيل بمكناس "سواني للماء في غاية العمق"، [٥٤] والتي كان يعتمدها لتخزين المياه خلال الفترات المطيرة تحسبا لفترات الجفاف والندرة.

يتضح إذن، أن أنظمة الادخار متعددة، وهي وليدة معطيات جغرافية وسكانية، وإفراز لثقافة الجوع وشبح الخوف، الذي فرض على الإنسان المغربي ضرورة أخذ احتياطاته، عبر العمل على التخزين والادخار في سنوات الوفرة، تحسبا للجفاف ولأيام الندرة وما يرافقها من مجاعات خطيرة، لهذا فسلوك التخزين بشكل عام، غالبا ما كان يعبر عن استراتيجية وقائية مضادة، تعكس تخوفا من هجوم العدو كما تُضمر "اللا ثقة" في الطبيعة وضرورة الاستعداد المسبق لها، فهو سلوك احترازي غايته تأمين القوت في فترات الشدة، غير أنه في اللحظات التي تنفد فيها المدخرات الغذائية، فإن المغربي يلجأ إلى التكيف مع الواقع، وذلك عن طريق مواجهة هذا الواقع بالبحث عن بدائل غذائية، وهو ما

كان يلوح بقوة في أوقات المسغبة التي لجأ فيها المغاربة إلى مسلكيات غذائية جديدة تجاوزت في بعض الأحيان مسألة الحلية والحرمة.

ثالثًا: الخوف والسلوك الغذائي: من اقتصاد الكفاف إلى اقتصاد القِطاف

تاريخ المجاعات بمغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين معروف نسبيًا بفضل عدد من الإسهامات التي حاولت تتبع سنوات الجفاف والجوع من الناحية الكرونولوجية، ورصد انعكاساتها الديمغرافية والاقتصادية والسياسية، غير أن ما نصبو إليه في هذا الصدد هو البحث في أثر الخوف من الموت جوعا على السلوك الغذائي، كيف أثرت المخاوف الغذائية على النمط الاقتصادي القائم على اقتصاد القلة والكفاف، وحولته إلى نمط اقتصادي بدائي بالعودة الى الالتقاط والقِطاف؟

٣/١–في البحث عن بدائل غذائية عادية: العودة إلى الطبيعة

تكشف الأزمات المناخية عن سلوكات غذائية راهن عليها المغاربة زمن الحاجة لمحاربة الجوع؛ ففي اللحظات التي يصير فيها الجوع هو النص الحاضر، فإن المغاربة يلجؤون إلى "آليات التفاوض والتكيف مع الطبيعة"،[٥٥] وذلك عن طريق مواجهة هذا الواقع بالبحث عن بدائل غذائية خلال سنوات المسغبة. وتشكل العودة للبدائية وللنمط الاقتصادي القائم على القطف والالتقاط، سبيلا لتدبير القوت خلال الأزمنة القحطية؛ فأمام انتشار الجوع وتوالي سنوات الجفاف، يرتفع الإقبال على بعض النباتات والحيوانات والحشرات، التي لم تكن ضمن المائدة المغربية خلال الأوقات الاعتيادية.

يقدم صاحب الإحياء والانتعاش معلومات وافرة عن البدائل الغذائية التي ركن إليها المغاربة خلال المجاعة الكبرى لسنة ١٦٦٢م، حين كان سكان ضواحي جبل العياشي لا يأكلون طيلة تلك الأزمة "إلا الربيع إلا من كان منهم بخير يصنع لأولاده الصغار حساء ويأكل هو وباقي داره الربيع فترى القوافل إلى الربيع في كل يوم غادية راحة [...] إلى جهة بلا زيز [...] لموضع يقال له تصفنت فيمتارون منه أنواعا من الربيع لا يقتصون على نوع واحد منه فيطبخون تلك الأنواع جميعا في قدر واحد حتى تطيب فيعصرونه من الماء فيجعلون له شيئا من الملح فيأكلونه وكان هذا أشد في البطن وأثقل وبه صاموا رمضان أجمع".[٥٦]

هكذا كان الناس ينتشرون في الخلاء للبحث عن النباتات البرية من ثمار وأعشاب، ويبدو أن نبتة "إيرني" [٥٧] كانت الوجهة المفضلة لأفواج الجياع؛[٥٨] فخلال مجاعة ١٦٥٢م، "تفاحش الموت في الناس جوعا وعجز الناس عن الدفن [...] واشتد الأمر وغلت الأسعار واعتمد الناس على تالكوهت وإيرني حتى صار لا يوجد في الأسواق إلا هو، وكان مأكلهم سنتين".[٥٩]

علاوة على ذلك، اعتمد المغاربة خلال فترات الجوع على نبتة "البقول"، كما هو الشأن بالنسبة لمجاعة عام ٩٨٧هـ/٧٩–١٥٨٠م، وهي المجاعة نفسها التي عرفت في الذاكرة الجماعية بـ"عام البقول"،[٦٠] لكونها شكلت في أوقات الخصاص أساس ما استهلكه الناس لمحاربة الجوع، فهذا الشيخ أبو المحاسن (ت ١٠١٣هـ/١٦٠٤م) "كان يأخذ فأسًا ويخرج مع الناس لحفر قوته وقوت عياله من البقول والأصول التي تقتات بها الناس زمن المسغبة".[٦١] كما كان حَب "النبق" أيضا من بين المواد التي يُقبل عليها الناس في أيام الجوع، ففي زمن الغلاء، كانت فاطمة بنت أحمد الشقوري تقدم لأولادها من النبق "حفنة أول النهار، فكان يظهر عليهم الشبع وحمرة اللون".[٦٢]

ونظرًا للمكانة التي يحتلها الخبز في المائدة المغربية، فقد دأب الناس على مقاومة الجوع من خلال البحث عن بدائل نباتية لصناعة الخبز، والاستعانة على الجوع بأنواع الحبوب التي لا تستهلك خلال الفترات العادية مثل حبوب الشيلم، إذ تطحن منها أنواعًا من الخبز والعصائد،[٦٣] أو من خلال البحث عن بقايا الحبوب في أكوام التبن، كحال محمد بن أحمد التمنارتي (ت ١٠٠٧هـ/٩٨–١٥٩٩م) الذي "سافر مرة فترك أولاده بلا شيء في عام الجدب، فكانت له بنية صغيرة تأتي بيت التبن فتستخرج منه كل يوم كفايتهم".[٦٤] فضلا عن ذلك، أقبل المغاربة خلال سنوات الندرة الغذائية على ثمار ونباتات برية مثل الخروب والربيع؛ فخلال مجاعة سنة ١٥٢١م كان الخروب من بين المواد التي حملها

برناردو رودريكس **(B. Rodrigues)** معه الى أزمور لتقديمها كغذاء للرقيق،[٦٥] كما جاء في "الإحياء والانتعاش" أن السكان المجاورين لجبل العياشي كانوا خلال مجاعة سنتي ١٦٦١-١٦٦٢م يأكلون "الربيع مع شيء من الملح".[٦٦]

بالإضافة إلى هذه الأغذية ذات الطابع النباتي، استعان المغاربة على الجوع ببعض الأغذية الحيوانية من خلال صيد الوحيش؛ بحيث كان الناس يصيدون الأسود والثعالب والخنازير والظباء والقنافد والطيور الوحشية التي كانت تعج بها غابات السهول والجبال، وهو ما دفع بالبعض إلى القول بأن المغاربة يتحولون خلال فترات الجوع إلى كائنات لاحمة، تأكل كل ما من شأنه أن يجنبهم شبح الموت.[٦٧]

تعكس لنا هذه الإشارات، كيف كانت أزمات الجوع تفرض نوعًا من التحول في الأسلوب الغذائي، الذي يتخذ نمطًا بدائيًا قائما على الالتقاط والقطِاف. والظاهر أن هذه الأغذية البديلة، شكلت منقذا من الموت خلال سنوات الشح والمحن، فعلى المستوى الفيزيولوجي مكنت الجائع من تعويض النقص الغذائي الذي يعاني منه،[٦٨] مع بعض الاستثناءات التي كانت فيها هذه الأطعمة عاملا من عوامل ظهور بعض الأمراض، خاصة أكل الربيع الذي خلف بعض الوفيات، كما وقع خلال مجاعة ١٦٦١-١٦٦٢م حيث "مات البعض من أكل الربيع".[٦٩] غير أن استمرار المجاعة ونفاد كل الوسائل الغذائية الممكنة، دفع بالبعض إلى تبني سلوكات غذائية تدخل في دائرة المحظور. فكيف كان مغاربة الفترة يواجهون الجوع في ظل اشتداد الأزمة واستمرارها لسنوات متوالية؟

٢/٣-في البحث عن بدائل غذائية شاذّة: الضرورات تبيح المحظورات

أفرز الخوف من الموت جوعًا سلوكات غذائية أكثر تطرفًا،[٧٠] دفعت بالبعض إلى القول بأن "القمح هو روح جميع القيم"،[٧١] فبانعدامه تنعدم القيم، ويتحول السلوك الغذائي نحو ممارسة المحظور من أجل الحصول على الطعام، ويصبح كل ما من شأنه تلبية حاجيات الجياع البيولوجية مباحًا.[٧٢] وتتوفر على نصوص تعكس مظاهر هذا التحول وهذا السلوك الغذائي الشاذ، فقد سُجل أكل القطط والكلاب خلال أوقات المجاعة؛ فخلال مجاعة ١٦٦١-١٦٦٣م "انعدم الدجاج [بفاس] بالأصالة حتى لا يرى فيها ديك ولا دجاجة كما انعدمت وسقطت بالكلية من قريتنا أيضا بل قد سقطت منها أيضا القطوط، بحيث لا تسمع فيها لا صياح ديك ولا ماو قِط"،[٧٣] كما أُكلت "لحوم الحمير الأنيسة" [٧٤] والتي كانت توزن جهارًا لا خفية.

والظاهر أن استمرار الجفاف، وما رافقه من غلاء مفرط وانعدام تام للمواد الغذائية ولكل ما يمكن أن يشكل قوتًا لمحاربة الجوع، قد دفع بالبعض لأكل الجيف والدواب التي نفقت هي الأخرى بسبب المجاعة، وهو ما يؤكده الإفراني في حديثه عن الأزمة المناخية التي ألمت بالمغرب مطلع ستينيات القرن السابع عشر الميلادي، حيث وقع "غلاء مفرط بلغ الناس فيه غاية الضرر، حتى أكلت الناس الجيف"،[٧٥] كما "أُكلت الميتة جهارا" على حد تعبير القادري.[٧٦]

على أن أفظع السلوكات الغذائية التي أوردتها بعض المصادر، تلك التي استساغ فيها الجياع أكل جثث الهلكى ولحوم البشر، فبالرغم من كون المتون النصية لم تتوقف عند هذه السلوكات بشكل كاف، بقدر ما أشارت إليها بشكل مقتضب وبطريقة نمطيةٍ أحيانا، مما يعكس حقيقة تهرب هذه المصادر من إبراز هذه السلوكات المرفوضة دينيا، فبالرغم من كل ذلك، إلا أنها من جانب آخر عكست إشاراتها القليلة شيوع هذا السلوك إبان المجاعات ذات الوقع الشديد؛ يذكر القادري أنه من حوادث عام ١٦٥٣م "مجاعة كبيرة [...] وأكلت الجيف، وكثر الموت بالأزقة [...] وأكل الآدمي بوسط الصفارين جهرًا، وخلت الحومات" [٧٧] و"أكل الناس ولدًا من أولاد التازي".[٧٨] ولعل هذا ما يؤكد لجوء المغاربة إلى أطعمة "محرمة" في تجلي صريح لتنامي ظاهرة "الكانيبالية"، وما يعكسه ذلك من قدرة الجوع على إحياء سلوكات بدائية دفينة في الإنسان؛ فالجوع إذا تمكن من الإنسان، فإن نظرته لما حوله من القيم والمثل العليا تتغير بتغير سلوكه، إذ إن تواتر الأزمات واستمرارها، فرض على مغاربة القرنين ١٦ و١٧م النزوع إلى سلوكات غذائية اتسمت بالحدة من حيث طبيعتها؛ ذلك أن الجائع كثيرًا

ما تدفعه مخاوفه من الهلاك وحاجته الملحة للغذاء إلى سلك ما لا يتوافق والقيم الإنسانية.[٧٩]

لقد نتج عن الأزمات ذات الوقع الكبير حالات من الهستيريا الجماعية، فكثرت نتيجة لذلك ظاهرة الفرار عن الولد، وقتل الأطفال والانتحار، وبيع الأهل والأقارب لاسيما للنصارى؛ فمن الظواهر التي انتشرت خلال سنوات الجوع، اضطرار الشخص لبيع نفسه أو ذويه أملا في الحصول على ما يسد رمقه، وتقدم لنا أزمة ١٥٢٠-١٥٢٤م معطيات وافرة عن الموضوع خاصة بآسفي وأزمور؛ إذ كانت أعدادا "كثيرة تأتي من تلقاء نفسها، وعن طواعية "،[٨٠] في مشهد مخيف ومرعب عن حجم المآسي التي خلفها الجوع، وعن تفسخ واضمحلال القيم الإنسانية، حتى أن البعض باع أهله؛ فهذا رودريكس **(Rodrigues)** نفسه اشترى "من شخص يسكن خيمته ابنته وحفيدته"،[٨١] بل يورد قصة شقيقين تسابقا على بيع أنفسهما، أو أن يبيع أحدهما الآخر بقليل من الأموال،[٨٢] ولعل هذا ما جعل من ظاهرة بيع الأطفال والأهل موضوع نقاش ضمن كتب النوازل، كالسؤال عن "رجل باع حرة بمعظم الغلاء".[٨٣]

إلى جانب ذلك، أسهمت سنوات الغلاء ونقص المواد الغذائية في تنامي أعمال اللصوصية والحرابة؛ "ففي ظل الظروف العصيبة، حيث يسود القلق النفسي ويشتد الخوف على تأمين البقاء، كان كل فرد يحاول الحصول على غذائه بمختلف الوسائل، فتكثر أعمال النهب والسلب"،[٨٤] إذ غالبًا ما اقترنت الأزمات الغذائية باختلال الأمن وتنامي سلوك النهب وقطع الطريق؛ فعلى إثر المجاعة التي ألمت بالبلاد ما بين ١٥٢٠-١٥٢٤م كثر السطو بين المغاربة "حتى إنهم كانوا ينهبون بعضهم بعضا"،[٨٥] كما "صار جل الناس لصوصا"،[٨٦] وخلال جفاف ١٦٥١م "انتهب قمح كثير"،[٨٧] وهي شهادات تؤكد على شيوع الظاهرة وتناميها زمن الندرة، فضلاً عن ظواهر أخرى من قبيل سقوط المرأة في الفواحش، كما هو الحال بمراكش إبان مجاعة ١٦٢٧م التي أجبرت "حتى النساء العفيفات على ممارسة حرفة البغاء من أجل قطعة الخبز"،[٨٨] أو من قبيل تغيير الديانة وتنصر المغاربة والتحاقهم بالثغور البرتغالية.[٨٩]

رابعًا: الكرامة كآلية سيكولوجية لمواجهة المخاوف الغذائية

تكشف المخاوف الغذائية عن آليات سيكولوجية ركن إليها المغاربة زمن النوائب سعيًا للتخفيف من تداعيات الأزمات الغذائية، ويشكل الخطاب الكرامي أحد الملامح البارزة لحضور المقدس الصوفي إبان لحظات الحاجة والضنك الغذائيين. غير أن البحث في تجليات أدوار المقدس الصوفي زمن الندرة يقتضي الانطلاق من جملة من الملاحظات المرتبطة أساسًا بطبيعة المادة المصدرية التي يمكن الاستعانة بها في هذا الباب؛ فإلى حد قريب، اتسم تعامل المؤرخ مع الخطاب المنقبي بنوع من اللامبالاة باعتباره نصًا "خرافيًا" يتجاوزه التاريخ، بيد أن بعض الدراسات أكدت على أهمية أدب المناقب،[٩٠] وعلى ضرورة مقاربة النص المنقبي مقاربة تتجاوز سؤال الصدق والكذب، وثنائية الاعتقاد والانتقاد، وجدلية الزيف والحقيقة،[٩١] من خلال اعتباره شكلاً من أشكال التعبير عن عقلية معينة، وعن تصورات وأفكار أسهمت في تشكيل المخيال الجماعي.

وفق هذا التصور، تصبح المادة المنقبية نصًا تاريخيًا، يمكن للمؤرخ التعويل عليه لقراءة ذهنيات ومخاوف المجتمع وتفاعله مع أزماته المتعددة، وهو ما أكدته بعض الأبحاث التي أقرت "بأن التصوف ظاهرة إنسانية أفرزها مجتمع متأزم وخائف، يواجه بها الخوف من الطبيعة"،[٩٢] وأن "الفكر الكرامي ينشط إبان مرحلة الأزمة"،[٩٣] ليطرح البديل لها رغبة في تجاوزها. ما يؤكد ذلك، الحضور اللافت لموضوع الأزمات الغذائية في أدب المناقب، إذ لا يكاد يخلو أي تأليف من إشارات ترتبط بتفاعل الولي مع مختلف الكوارث المناخية وتجلياتها الاقتصادية والاجتماعية المختلفة. فليس من قبيل الصدفة أن تحفل هذه النصوص بمجموعة من الكرامات التي استهدفت تجاوز إكراهات المجال بما فيها أزمات القلة والخصاص الغذائيين. فهل تسعف الكرامات في دراسة جوانب من تاريخ "اللاشعور" الجماعي إبان الأزمات الغذائية؟

نلتمس أجوبة على هذه التساؤلات، انطلاقًا مما أمدتنا به كتب المناقب والتراجم عن دور الولاية في

أوقات الأزمات الغذائية وتفاعلها مع إكراهات الطبيعة، وذلك عبر الاستعانة بعينات من المتون والنصوص المنقبية بمغرب الفترة، والتي يمكن القول إنها عكست تفاعل المقدس الرمزي زمن المحن الغذائية انطلاقا من ثلاث أنواع من الكرامات:

ترتبط الأولى، بتطويع الطبيعة ونفي إكراهات المناخ، فتصور لنا الكرامة الولي وهو يُغيث الناس زمن اشتداد القحط والجفاف؛ فهذا الولي الصالح أبو الشتاء (ت ١٠٧٢هـ/١٦٦٢م) صاحب الأحوال، و"الذي ما كني بأبي الشتاء إلا بسبب أن الناس احتاجوا إلى الشتاء فلجأوا إليه فأمطروا في الحال".[٩٤] وقد يصل الأمر إلى حد طلب الغيث من الولي عنوة كحال جماعة أيت عتاب التي أجبرت على طلب الغيث من الولي محمد الدادسي الووزغيتي (ت ١٠٦٢هـ/١٦٥٢م)،[٩٥] في حين ارتبطت بعض الكرامات بالرغبة في معرفة أسرار الغيب، بهدف تجنب المشاكل والمصاعب المناخية والغذائية المحتملة، أو ما يصطلح عليه بكرامة "الكشف" أو الإدراك المسبق، وهي كرامات تنطلق من الهواجس الجماعية والفردية والسعي لمعرفة ما يخبئه المستقبل، وما قد يمنحه ذلك من أمل في قدوم الغيث أو إنذارٍ بقدوم الجفاف وغلاء الأسعار.[٩٦]

يرتبط النوع الثاني من الكرامات الصوفية بمواجهة مظاهر الجوع الناتج عن الجفاف عبر خاصية حماية المحصول الزراعي وحصول البركة في الطعام أو الحصول على الطعام في غير مكانه ووقته،[٩٧] وهي كرامات تدخل ضمن بلورة نسق خاص في السلوك الغذائي يتماشى والواقع البيئي الذي أفرزها؛ فالخوف من سنة فلاحية بيضاء، ظل يشكل هاجسًا بالنسبة للفلاح المغربي، وبالتالي وجد في الكرامة منفذا لضمان ما قد يصيب غلته طيلة الموسم الفلاحي من جفاف يؤدي إلى هلاك المزروعات، كما أن ندرة المواد الغذائية وتوالي سنوات القحط، أفرز هو الآخر خطابات صوفية تدل على البركة في الطعام وعلى اعتبار القليل منه قادرًا على سد رمق الجائع،[٩٨] وهي مواقف تجسد رغبة الجماعات في تجاوز الظروف الطبيعية عن طريق التحكم في المناخ، كما تعكس ذهنية المجتمع الذي "يأخذ ويعلل كل شيء باللجوء إلى الخيال وأوليات الدفاع عن الذات، [...] كما يرضي الوعي تجاه كل التحديات والحواجز ترضية سهلة".[٩٩]

في حين نجد النوع الثالث يقارب فعل الإطعام بأبعاده الرمزية والمادية المختلفة، ليشكل المقدس الصوفي مركزا لإطعام الجائعين زمن المسغبة، كحال أبو المحاسن (ت ١٠١٣هـ/١٦٠٤م) الذي زاره "من الفاسيين زهاء سبعين رجلا [...] فوافقوا قصعة من الطعام المألوف بالمغرب، المعروف بالكسكسو، وعليه مؤخر خروف مما يكفي عادة عشر رجال أو ما يقرب منهم، فأمر الشيخ بتقديمها للواردين؛ فأكلوا منها بأجمعهم طائفة بعد طائفة حتى شبعوا وبقي الطعام على حاله، وما من أحد منهم إلا وذكر عن نفسه أنه أكل من اللحم قطعتين أو أكثر. ثم انكفأ أولئك القوم إلى فاس يحدثون بما شاهدوا من ذلك [...] وقد ذكر بعض من قيدها أن جملة الآكلين منهم ومن غيرهم أربعمائة، وأنهم يجلسون عشر بعد عشرة".[١٠٠] أو كما هو الشأن بالنسبة إلى محمد أبو بكر الدلائي (ت ١٠٤٦هـ/١٦٣٦م) الذي "كان آية باهرة في إطعام الطعام للأضياف وغيرهم، وكانت له برمة أقل ما قيل أنها تسع من اللحم بقرة أو ثور، وكسكاسها أكثر من وسق دون ما يخص به العطايا".[١٠١]

هكذا إذن، تفاعل المقدس مع الأزمات التي نكبت البلاد خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وهو تفاعل تعكسه الكرامات الصوفية التي تحيل على مضامين ذهنية قائمة الرغبة في تجاوز ونفي إكراهات الطبيعة؛ فشعور الخوف من الجوع لازم نفسية الأفراد والجماعات خلال فترات الأزمة، لهذا كان الولي ملاذ الإنسان الذي يشعر بنوع من التهديد المصيري، كما شكل هذا الخوف نفسه أحد الأسس التي تنبني عليها هيبة الأولياء ونفوذهم الاجتماعي، وبذلك تجسد لنا هذه الكرامات آمال الجماعات المغلوبة على أمرها في الخلاص، من خلال التقرب من الولي صاحب الكرامات والخوارق، ولعل هذا ما جعل بعض المهتمين يرى في الكرامات صيرورة أولية للتوازن النفسي.[١٠٢]

خَاتِمَةٌ

من حصاد ما سبق، يبدو أن أزمات الجوع التي نابت إنسان مغرب القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، قد ولّدت انفعالات حسية شكل الخوف أبرز تمظهراتها، كما فرضت عليه سلوكًا غذائيًا قائمًا على هاجس تأمين البقاء، فكان الادخار السبيل الاحترازي الدائم، غير أن شبح الموت البطيء والخوف من الهلاك جوعًا، جعله ينحو نحو سلوكات غذائية شاذة وأخرى تتجاوز القيم الإنسانية وتطفو عبرها غريزة البقاء، ومحاولة خلق نسق ذهني وتوازن نفسي قائم على الفرار الغيبي من الجوع، هذا الأخير الذي يظل "آلة اجتماعية ونفسية طاحنة".

الإحالات المرجعية:

(١) حبيدة محمد، **المغرب النباتي الزراعة والأغذية قبل الاستعمار**، (الدار البيضاء: منشورات ملتقى الطرق، ٢٠١٨): ٩٥.

(٢)حقق تاريخ المخاوف الغذائية تقدمًا ملموسًا في الدراسات التاريخية الغربية بفعل عدد من المحاولات التي تناولت العلاقة بين الخوف والغذاء، ونذكر في هذا الصدد:

Ferrières Madeleine, Histoire des peurs alimentaires : du Moyen Age à l'aube du XXe siècle, (Paris: Seuil): 2002.

(٣) في الدراسة التي أنجزت حول الموقف من الموت، حاول المؤرخ محمد حقي الانتقال بالموت باعتباره حدثا بيولوجيا نحو دراسة أبعاده الذهنية، عبر الكشف عن منظومة التمثلات التي ترافق مشاهد الموت والاحتضار، إضافة إلى طقوس الدفن والعزاء وما يرتبط بها، لكنه في المقابل أغفل الحديث عن الأحاسيس المرتبطة بظاهرة الموت الناتج عن الأزمات الغذائية والبيولوجية. يراجع: حقي محمد، **الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط**، (بني ملال: مطبعة مانبال، ٢٠٠٧): ٨-٦٠.

(٤) شكل البحث في تاريخ الخوف أحد المواضيع التي استأثرت باهتمام بالغ ضمن نسق الإسطغرافيا الغربية، ويعد جون دولومو (J) Delumeau أحد الباحثين الذين راكموا من خلال أبحاثهم تجربة تستحق المناولة، ففي كتابه الأول الصادر سنة ١٩٧٨ بعنوان: **الخوف في الغرب بين القرنين ١٤ و١٨**، يعالج جون دولومو تاريخ الذهنيات من منظور يرصد مجتمعا أوربيا خائفا من الوباء والمجاعات والحروب وغياب الأمن، كما قدم أشكالا عديدة من المخاوف؛ كالخوف من البحر ومن الطاعون ومن القدر ومن الشيطان ومن السحر...، انظر كتابه:

Delumeau Jean, La Peur en Occident : XIV -XVIII siècles, (Paris : Librairie Arthème Fayard, 1978).

(٥) يقول جون دوليمينو DelumeauJean (J) في هذا الصدد: "من بين جميع الأحاسيس التي تمس قلب الإنسان، يبقى الخوف من دون شك الأكثر عنفا"، يراجع:

Delumeau Jean et Lequin Yves, Les Malheurs des temps : Histoire des Fléaux et des Calamités en France, (Paris : Librairie Larousse. 1987): 117.

(٦) كثيرا ما انساق الباحثون المغاربة نحو البحث في أنواع الأطعمة والمشروبات عبر تاريخ المغرب، دون تعميق البحث في أبعادها السوسيولوجية والنفسية، نذكر هنا على سبيل المثال؛ أعمال ندوة: **الأطعمة والأشربة في تاريخ المغاربة**، منشورات مجلة أمل: تاريخ – ثقافة – مجتمع، عدد ١٦، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٩).

(٧) العطري عبد الرحيم، **قرابة الملح الهندسة الاجتماعية للطعام**، (الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع المدارس، ٢٠١٦): ١٩.

(٨) حول الأزمات الغذائية والخسائر الديمغرافية التي نتجت عنها بمغرب القرنين ١٦ و١٧م، يراجع كل من:

Rosenberger Bernard et Triki Hamid, "Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles," Hespéris Tamuda XIV (1973): 109-175; Rosenberger et Triki, "Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles (suite)," Hespéris-Tamuda XV (1974): 5-103.

محمد استيتو، الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن ١٦م (الرباط: منشورات مركز ابن خلدون للدراسات والأبحاث والترجمة والتحقيق، ٢٠٢٠)؛ رحو حياة، **الهدر الديمغرافي في المغرب خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة ١٦-١٧م**، (وجدة: مكتبة الطالب، ٢٠١٢).

(٩) يقصد بالموت الجماعي الانهيارات الديمغرافية الناتجة عن الكوارث الطبيعية والبشرية من مجاعات وأوبئة وحروب، انظر: لويس فانسان توماس، **الموت**، ترجمة مروان بطش، (بيروت: منشورات مجد، ٢٠١٢): ١١.

(١٠) لطيف محمد عادل، **الخوف ببلاد المغرب في العصر الوسيط**، (تونس: دار زينب للنشر والتوزيع، ٢٠١٩): ١٤.

(١١) بوشرب أحمد، "أزمة ضمير المغربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر"، **مجلة كلية الآداب**، جامعة سيدي محمد ابن عبد الله، عدد خاص ٢، (فاس: ١٩٨٥): ٧٤.

(١٢) يقول يشوتي محمد في هذا الصدد: "الموت حقيقة وواقع بيولوجي يتحول إلى فعل ثقافي من خلال التمثلات التي تحاول إما قبوله أو رفضه أو تجاوزه". يشوتي محمد: "الإنسان والموت"، ضمن كتاب: **الوفيات والموت: مقاربات تاريخية وأنتروبولوجية**، تنسيق محمد استيتو، علال ركوك، رشيد يشوتي، (الرباط: منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، مطبعة الرباط نت، ٢٠١٧): ١٨.

(١٣) نلمس هذا الاقتران انطلاقا في الخطاب الديني الذي غالبا ما يربط الجوع بالخوف، كما جاء في الآية: [**الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**]، سورة قريش، الآية ٤، أو الآية: [**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ**]، سورة البقرة، الآية ١٥٥.

(١٤) أبو إدريس إدريس، **قضايا في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والإكولوجي للمغرب الحديث [ق١٦، ١٧، ١٨]**، (مكناس: مطبعة وراقة سجلماسة، ٢٠٠٨): ٨٧.

(١٥) بوشرب، "أزمة ضمير المغربي"، ٦٧-٩٦.

(١٦) لطيف عادل، **الخوف ببلاد المغرب**، ٢٨٨.

(١٧) رودريكس برناردو، **حوليات أصيلا، مملكة فاس من خلال شهادة برتغالي**، ترجمة أحمد بوشرب، (الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2007): ٢٩٦.

(١٨) **كتاب التواريخ أو تاريخ فاس**، تأليف أخبار من عائلة أبن دنان الغرناطية الفاسية، ترجمه عن العبرية عبد العزيز شهير، (تطوان: منشورات كلية الآدب والعلوم الإنسانية جامعة عبد الملك السعدي، ٢٠٠٦): ١٢-١٣.

(١٩) التمنارتي عبد الرحمان، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، تحقيق اليزيد الراضي، (الدار البيضاء: منشورات مطبعة السنتيسي، ١٩٩٩): ٣٤٠.

(٢٠) مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، نشر كولان، (الرباط، ١٩٣٤): ٩٩.

(٢١) الإفراني محمد الصغير، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٨٨): ٢٨١.

(٢٢) الضعيف محمد بن عبد السلام الرباطي، **تاريخ الضعيف الرباطي: تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان ١٠٤٣هـ/١٦٣٣م-١٢٣٨هـ/١٨١٢م**، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي، ج١، (الدار البيضاء: دار الثقافة للتوزيع والنشر، ١٩٨٨): ١٧٠-١٧١.

(٢٣) حجي محمد، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، ج١، (الرباط: منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٦): ٦٢.

(٢٤) استيتو، **الكوارث الطبيعية**، ٣٦.

(٢٥) عكس بعض الأمراض والأوبئة التي صورها العقل الجمعي باعتبارها شهادة للمسلم، كما هو الشأن بالنسبة للطاعون الذي صُور في عقلنا الديني باعتباره رحمة إلهية، وأيضا باعتباره شهادة للمسلمين، وهي جملة من الاعتقادات التي نجد مرجعيتها العقدية في النصوص الدينية والأحاديث النبوية التي رفعت مرتبة الموت بالطاعون إلى مرتبة الشهادة في سبيل الله، وهو التأويل الذي اتفق عليه للحديث النبوي: [**أتاني جبريل عليه السلام بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى بالمدينة وأرسلت الطاعون إلى الشام، فالطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ورجس على الكافرين**]. انظر: ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون في فضل الطاعون**، تحقيق أحمد عصام عبد القادر، (الرياض، دار العاصمة، ١٩٩٠): ١٨٠-١٨٢.

(٢٦) بوشرب، "أزمة ضمير المغربي"، ٧٧.

(٢٧) العياشي عبد الله بن عمر، **الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش**. (الرباط: مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، رقم د١٤٣٣): ٢٥٧؛ نشير كذلك إلى أن الخوف والذعر والهلع الجماعي من الأمراض والوباء، دفع بالبعض إلى محاولة التخلص في أقرب وقت من المصابين، فقد سجل المشرقي تواتر دفن المصابين وهم أحياء، كما سجل تنامي مشاعر الفردانية والأنانية بمغرب القرن ١٩م، فيقول: "ولما كثر الموت يبست القلوب واشتد الجفاء، وانتفت رحمة الله من قلوب الأغنياء وضاع الفقراء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم"، انظر: لمشرقي العربي، **أقوال المطاعين في الطعن والطواعين**، دراسة وتحقيق حسن الفرقان، (الرباط: منشورات التوحيدي، ٢٠١٤): ١٤٠.

(٢٨) ينقل لنا القادري تفاصيل اشتداد وطأة الجفاف بمدينة فاس، وما رافقه من نهب ومآسي خلال عام ١٠٧٣هـ/١٦٦٣م فيقول: "فبسبب النهب زاد الغلاء، وبلغ القمح نحو خمس دراهم شرعية للصاع النبوي، وأكلت فيه الجيف وأكل فيه الآدمي بوسط الصفارين ميتا، وكثر الموت بالأزقة دون ما في المارستان"، القادري محمد بن الطيب، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ج٢، (الرباط: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٨٢): ١٣٤.

(29) Rosenberger Bernard, "Cultures complémentaires et nourritures de substitution au Maroc (XVe-XVIIIe siècles)", Annales; Économies, Sociétés, Civilisations, N(o) 3-4, (1980) : 482.

(٣٠) تحتفظ الذاكرة الشعبية بعدد من الأمثال التي تحث على ضرورة التخزين والادخار لمواجهة محن الجوع مثل: "**اللِّي يَخْزَنْ القمح مَا يَنْدَمْ**" أو "**خَزَّانْ الدقيق ما يندم**"، و"**سعدات لِيِّ كْلاً من غْذَاتُو وْخَبَّعْ لَعْشَاتُو**". نجد أيضا هذا الاهتمام بالادخار في أدبيات الشعر، بحيث نظم الشعراء قصائد تحث عليه، ومنها هذه الأبيات لسيدي الحسين بن رحال (ت ١١٤٠هـ/١٧٢٧م):

إياك والتفريط في الأقوات
فهي إمام الدين والحياة
وكل أمر دونه يسهل
وكيف والجوع داء يقتل
فالقوت روح الجسم والحياة
وفقده طبعا هو الممات

انظر: ما أورده في هذا الصدد: البزاز محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ١٨، (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٢): ٣٥٣.

(٣١) ننبه إلى أن سلوك التخزين ترسخ في ذهنية وسلوك المسلم، من منطلق النص الديني، الذي دعا إلى تخزين فوائض **"البقرات السمان"** لتمضية سنوات **"البقرات العجاف"**، مما جعل الادخار تقليدا راسخا يضرب بجذوره في التاريخ الإسلامي، راجع سورة يوسف.

(٣٢) البياض عبد الهادي، "مرافق الادخار والخزن بالمغرب الوسيط: إسهام في دراسة سلوك تأمين الغذاء"، ضمن **التراث الثقافي بجهة سوس ماسة درعة**، تنسيق محمد آيت حمزة والوافي نوحي، سلسلة دراسات وأبحاث رقم ٣٥، (الرباط: منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، مطبعة المعارف الجديدة، ٢٠١٣): ٥٧-٧١.

(٣٣) لا نستبعد أن تكون الحصون التي شيدت زمن المنصور السعدي، والتي كانت ذات أهداف عسكرية، قد تضمنت بحكم الضرورة، مخازن لتخزين الحبوب والمياه، ففي مدينة فاس بنى المنصور حصنا فجاء "آية الإعجاز توطيدا وتحصينا وتشييدا متممي المآرب والمرافق مستكملي التحصين الموافق مسكن الحامية المنتقاة من جيش النار ودار قائدهم وخزائن البارود والرصاص وجباب المياه الرخوة الأجواف وآبار منحوتة في الصخر إلى قعر البحر من الماء العذب الفرات". الفشتالي عبد العزيز، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، (الرباط: مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، ١٩٧٢): ٢٦٤. وقد بلغ عدد الحصون بالمغرب السعدي حسب المصادر المعاصرة ٣٠ حصنا، انظر في هذا الصدد:

Dziubinski Andrzej, "L'armée et la flotte de guerre marocaines à l'époque de sultans de la dynastie Saadienne", Hespéris Tamuda, Vol XIII, (1972): 61-94.

(٣٤) أعدي علي، "التخزين بالمغرب الوسيط والحديث: إسهام في دراسة تاريخ السلوكيات"، **مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية**، المجلد ٣، عدد ١، (الجزائر: يونيو ٢٠١٩): ١٨٨-٢٠٧.

(٣٥) Rosenberger Bernard, "Calamités, sécurité, pouvoir : le cas du Maroc XVII-XVIII", Peuples Méditerranéens, N° 27-28, (Avril-Septembre 1984): 123.

(٣٦) البزاز، **المجاعات والأوبئة**، ٣٦٣. يراجع أيضا: بولقطيب الحسين، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، (الرباط: منشورات الزمن، ٢٠٠٢): ٦٩.

(٣٧) الوزان الحسن، **وصف إفريقيا**، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، ج١، (الرباط: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٨٠): ٢١٥.

(٣٨) المصدر نفسه، ١٠٥.

(٣٩) الزياني أبو القاسم، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف**، القسم الأول (من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله)، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، (الريصاني: مركز الدراسات والبحوث العلوية، ١٩٩٢): ١٥٤.

(٤٠) وندسون جون، **رحلة إلى مكناس**، ترجمة زهراء إخوان، (مكناس: منشورات عمادة جامعة مولاي إسماعيل، ١٩٩٣): ٦٩.

(41) Montagne Robert, "Un magasin collectif de L'anti-Atlas L'Agadir des Ikaunka", Hespéris, T IX, (1929): 145-226.

(٤٢) كما هو حال بعض القبائل التي اتخذت من قصر كرسيف قصبة لادخار حبوبها عندما كانت تسكن الصحراء. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج١، ٢٧٢-٢٧٣.

(٤٣) أعدي علي، "التخزين بالمغرب الوسيط والحديث"، ١٩٩.

(٤٤) المنوني محمد، **ورقات عن حضارة المرينيين**، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٠، (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٢): ١٤٦.

انتشرت أيضا بمنطقة دكالة مخازن جماعية عرفت باسم "التزوطات" وهي "أهرام صغيرة ذات سقوف دائرية". حول هذا النوع من المخازن، يراجع: الحزيب بوشتى، "المخازن الجماعية بدكالة: التازوطات نموذجا"، ضمن أعمال ندوة **المخازن الجماعية في الأطلس الكبير المركزي تراث مادي ورأسمال رمزي**، تنسيق سعاد بلحسن، محمد العالمي، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١١، (بني ملال: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠١٧): ١٦٦-١٧٨.

(٤٥) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج١، ١٩٤.

(٤٦) المصدر نفسه، ٢١٥، انظر أيضا الصفحات؛ ١٢١، ٢٣٣، ١٥٨.

(٤٧) ابن عسكر محمد الشفشاوني، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، (الرباط: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٧): ٤٥.

(٤٨) السوسي المختار، **المعسول**، ج١٧، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح، ١٩٦١)، ٢٥٧-٢٥٨.

(٤٩) المصدر نفسه، 258-259.

(٥٠) الوزان: **وصف إفريقيا**، ج١، الصفحات: ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٧٩.

(٥١) هذا السلوك له مرجعية دينية، مصداقا لقوله تعالى: [**وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ**]، سورة الأعراف، الآية ٣١.

(٥٢) ابن عيشون الشراط، **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، دراسة وتحقيق زهرة النظام، (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٧): ١٤٤.

(٥٣) لازالت مجموعة من الأمثال والحكم في هذا الصدد متداولة إلى اليوم مثل: **"كُولْ وَقِيَّسْ"**، و **"اللِّي خَبَّعْ مَنْ غْذَاتُو لَعْشَاتُو مَا يَتْشَفَّاوْ فِيهْ عْدَاتُو"** أو **"اللي خَبَّعْ مَنْ غْذَاهْ لَعْشَاهْ رَبِّي بْغَاهْ"**، و**"كُولْ واشْرَبْ وَاللِّي شَاطْ عَمْلُو فَقْرَابْ"**، وهي أمثال وحكم ترسخت في الذاكرة الجمعية للمغاربة، وعكست من جانب آخر طبيعة السلوك الغذائي الذي انطبع بالتقليل من الطعام وتوفير **"النعمة"** لدوائر الزمان.

(٥٤) الزياني، **البستان الظريف**، ١٥٤.
(٥٥) العطري، **قرابة الملح**، ١١٥.
(٥٦) العياشي، **الإحياء والانتعاش**، ٢٥٣.
(٥٧) هي نبتة مبصلة تعرف أيضا باسم الدغفل، كان يبحث عنها الجياع تحت الأرض ويصنعون منه كسكسا بئيسا. حبيدة، **المغرب النباتي**، ٨٩.
(٥٨) طيلة تاريخ المغرب شكلت نبتة "يَرْنيْ" ملاذا للجياع، بصم حضورها الذاكرة الجماعية حتى أضحت علامة يُؤَرِّخ بها، كما هو الحال بالنسبة "لعام يرني" ١٢٦٦هـ/١٨٤٩-١٨٥٠م، حيث "كان الغلاء الكبير والجوع المفرط [...] وصار يعرف عند أهل البادية بعام الخِبِّيزي وعام يَرْنيْ". الناصري أحمد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري – محمد الناصري، ج٩، (الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٥): ٦١. حول التأريخ بالكوارث الطبيعية وحضورها في الذاكرة الشفوية والتدوين التاريخي يراجع: السبتي عبد الأحد، **من عام الفيل إلى عام الماريكان: الذاكرة الشفوية والتدوين التاريخي**، (إيطاليا: منشورات المتوسط، ٢٠٢٢)، ١٣١-٢٢٢.
(٥٩) بوشرب، "أزمة ضمير المغربي"، ٧٧.
(٦٠) الإفراني، **نزهة الحادي**، ٢٤٧.
(٦١) الفاسي أبو حامد محمد العربي، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن**، دراسة وتحقيق الشريف محمد بن علي الكتاني، (فاس: منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد، ٢٠٠٣): ٩٧-٩٨.
(٦٢) القادري، **نشر المثاني**، ج٢، ٦٧-٦٨.
(٦٣) استيتو محمد، "من وسائل مواجهة الفقراء للمجاعات في المغرب خلال العصر الحديث (نماذج من القرنين ١٦ و١٧م)"، ضمن أعمال ندوة **المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب**، سلسلة ندوات ومناظرات عدد ٤، (الجديدة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٤): ٢٥٥.
(٦٤) الإفراني محمد الصغير، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، تحقيق عبد المجيد خيالي، (الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي، ٢٠٠٤)، ١٣٤.
(٦٥) رودريكس برناردو، **حوليات أصيلا، مملكة فاس من خلال شهادة برتغالي**، ترجمة أحمد بوشرب، (الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2007): ٢٩٨-٢٩٩.
(٦٦) أبو إدريس، **قضايا في التاريخ الاجتماعي**، ٢٨.
(٦٧) حبيدة، **المغرب النباتي**، ٩٣.
(٦٨) المرجع نفسه، ١١٤.
(٦٩) العياشي، **الإحياء والانتعاش**، ٢٥١.
(٧٠) يقول الزموري عبد الحق في هذا الصدد: "إن الخوف من الموت الذي يتحول لهاجس أو لرهاب جماعي يحول الأفراد إلى كائنات متوحشة". الزموري عبد الحق: "إدارة الألم زمن الجائحة"، ضمن كتاب: **الجوائح في الأزمنة المعاصرة: رؤى دينية وفلسفية**، تنسيق عبد العالي المتقي وعبد الله هداري، (أكادير: دار العرفان للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠): ٦٧.
(71) Houbaida Mohamed, Le Maroc végétarien, 15e–18e siècles. Histoire et Biologie, (Casablanca: éd Wallada, 2008): ٥٩.
(٧٢) هذا التحول في السلوك الغذائي تفاعل معه الخطاب الديني، بحيث لم يغفل تدبير ظرفية الأزمة الحرجة، فأجاز للإنسان انقاذ نفسه من الهلاك جوعا عبر استهلاك بعض الأطعمة المحرمة، إذ استنبط الفقهاء أحكاما وضوابطا لإباحة المحظور حماية للنفس من الهلاك وفق نظرية الضرورة. [**وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ**]، سورة الأنعام، الآية ١١٩.
(٧٣) العياشي، **الإحياء والانتعاش**، ٢٥٨.
(٧٤) المصدر نفسه، ٢٥٥.
(٧٥) الإفراني، **نزهة الحادي**، ٤٠٨.
(٧٦) القادري محمد بن الطيب، **حوليات نشر المثاني**، قطعة من كتاب نشر المثاني في مكتبة البودليان بجامعة أكسفورد، نشر وتقديم نورمان سيكار، (الرباط: المعهد الجامعي للبحث العلمي، ١٩٧٨): ٥٢.
(٧٧) القادري، **نشر المثاني**، ج٢، ٦٧-٦٨.
(٧٨) القادري، **حوليات**، ٤٨.
(٧٩) يقول دي كاسترو: "ليس هناك كارثة أخرى تحطم شخصية الإنسان وتدمرها كما يفعل الجوع، فإذا الفرد استبد به الجوع لا يتورع عن القيام بأي عمل شاذ، إذ يتغير سلوكه من أساسه، كما يحدث لأي حيوان نال منه الجوع". دي كاسترو جوزيه، **جغرافية الجوع**، ترجمة زكي الرشيدي ومراجعة محمود موسى، (القاهرة: دار الهلال، ١٩٧٠): ٦١؛ من جانبه طرح سيغموند فرويد نظريته حول الدوافع الغريزية، وأكد على مركزية "غريزة حفظ الذات" ضمن هذه الدوافع، وإلى اضطرار الفرد إلى إشباع حاجاته الفطرية انطلاقا من ممارسات قد تتجاوز إنسانيته وقيمه الخاصة. انظر: فرويد سيغموند، **مختصر التحليل النفسي**، ترجمة جورج طرابشي، (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨١): ١١-١٣.
(٨٠) رودريكس، **حوليات أصيلا**، ٢٩٨.
(٨١) المصدر نقسه، ٢٩٩.
(٨٢) نفسه، ٢٩٩-٣٠٠.
(٨٣) المجاطي محمد بن الحسن، **نوازل المجاطي**، دراسة وتحقيق هشام الكراس، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، ج٢، (مراكش: جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠١٣-٢٠١٤)، مرقونة): ٣٠٦-٣٠٧.
(٨٤) التمسماني خلوق عبد العزيز، "الظروف العامة للصوصية في مغرب القرن التاسع عشر ومشكلة الأمن بطنجة"، ضمن **مجلة دار النيابة**، العدد ١، (يناير، ١٩٨٤): ٢٧.
(٨٥) دي طوريس دييكو، **تاريخ الشرفاء**، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، (سلا، مطابع سلا، ١٩٨٨): ٦٤-٦٥.
(٨٦) الناصري، **الاستقصا**، ج٨، ٨٣.
(٨٧) القادري، **نشر المثاني**، ج٢، ١١٩.
(88) De Castries Henri, Les sources inédites de l'histoire de Maroc, 1er série -Dynastie SAADIENNE, Tome III, (Paris: Archives et bibliothèques de France, 1911), 167.
(٨٩) تحفل المصادر التاريخية بعدد من الإشارات التي تفيد انتشار ظاهرة التنصر في صفوف المغاربة والتحاقهم بالثغور المحتلة إبان الأزمات الطبيعية، فقد أرغمت المجاعة الكبرى لسنة ١٥٢٠-١٥٢٤م المغاربة على"عبور البحر للمجيء إلى البرتغال قصد التنصر ضمانا لقوتهم، الشيء الذي استحال عليهم وقتذاك ببلادهم، بسبب القحط الذي عمها [...] وقد انتقلت أعداد كبيرة جدا منهم، إلى حد أن ليشبونة وضواحيها أضحتا غاصتين بهم". انظر في هذا الصدد:

De Góis, Damião, Les Portugais au Maroc de 1495 à 1551, traduction français avec introduction et commentaire Ricard Robert, XXXI, (Rabat: Institut des Haute Etudes Marocaines, 1937): 228.

(٩٠) حاولت بعض الأعمال الإجابة عن سؤال العلاقة بين التاريخ وأدب المناقب، وأكدت في المحصلة على أن التاريخ اليوم يتعامل مع المناقب كمادة تاريخية، تسعف في الكشف عن مضمرات التاريخ بأبعاده المختلفة. انظر في هذا الصدد أعمال ندوة: **التاريخ وأدب المناقب**، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، (الرباط: دار عكاظ، ١٩٨٨).

(٩١) المنصوري عبد السلام، **بنية الخطاب المنقبي طلاق العقل وأوهام التاريخ**، (الرباط: مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، ٢٠١٧): ٨١.

(٩٢) الشاذلي عبد اللطيف، **التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري**، سلسلة أطروحات ورسائل عدد ٤، (الدار البيضاء: منشورات جامعة الحسن الثاني، ١٩٨٩): ٣١٥-٣١٦.

(٩٣) القادري بوتشيش إبراهيم، "واقع الأزمة والخطاب "الإصلاحي" في كتب المناقب والكرامات (أواخر ق٦هـ وبداية ق ٧هـ/١٢-١٣م)"، ضمن **الإسطغرافيا والأزمة**، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٣٤، (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٤): ٢٦-٤٩.

(٩٤) القادري، **نشر المثاني**، ج٢، ٥٨.

(٩٥) المصدر نفسه، ٦٢-٦٣.

(٩٦) الإفراني، **صفوة من انتشر**، ١٣٣.

(٩٧) تحفل كتب المناقب بهذا النوع من الكرامات راجع كل من: القادري، **نشر المثاني**، ج٢، ٧٩-٨٠؛ ابن عسكر، **دوحة الناشر**، ٧٧، ص ١٠٦؛ الفاسي، **مرآة المحاسن**، ١٤٧.

(٩٨) اعتبر البعض أن هذا الصنف من الكرامات يعكس في المقام الأول الخوف الذي يعتري المغربي من المجاعة ومن نقص الغذاء، إلى الحد الذي يبحث فيه عن حل دائم عبر اللجوء إلى الولي الذي يترك فسحة للأمل في تجاوز نقص الغذاء، من خلال حصول الكفاية من القليل أو تكثير القليل أو احضار غير المنتظر. الشاذلي، **التصوف والمجتمع**، ١١٣-١١٤. كما يتصل هذا النوع من الكرامات بما يعرف بكرامات تقوية البطن؛ "أن يشبع القليل من الطعام الرهط الكثير"، انظر: السبتي عبد الأحد، **بين الزطاط وقاطع الطريق أمن الطرقات في مغرب ما قبل الاستعمار**، (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٩): ١٤٧.

(٩٩) زيعور علي، **الكرامة والأسطورة والحلم القطاع اللاواعي في الذات العربية**، (بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٧): ٥-٧.

(١٠٠) الفاسي، **مرآة المحاسن**، ١٤٥.

(١٠١) القادري محمد بن الطيب، **التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار الحادية والثانية عشر**، تحقيق هاشم القاسمي العلوي، ج ٢، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣): ١٠٤.

(١٠٢) حجازي مصطفى، **التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور**، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥): ١٤٤.



ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

التغلغل الاستعماري في الصحراء المغربية
أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الميلادي
وردود الفعل المخزنية



عبد اللطيف قصور
أستاذ الثانوي التأهيلي
باحث في تاريخ المغرب بكلية علوم التربية
جامعة محمد الخامس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يروم هذا المقال تسليط الضوء على محطة هامة وحاسمة في تاريخ الصحراء المغربية وهي تلك المرتبطة بالسياق التاريخي للتغلغل الاستعماري الأوربي فيها، ولاسيما الإسباني والفرنسي منه، فضلاً عن الأطماع الإنجليزية أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، في مقابل ردود الفعل المغربية الرسمية –ردود المخزن المغربي– التي واجهت ذلك التغلغل في حينه وسط ظروف جسدت انسجامًا بين الجهود الرسمية للمخزن المغربي وممثليه بالصحراء، بغية تقدير الجهود الكبيرة التي بذلها المخزن المغربي دفاعًا على مناطقه الصحراوية آنذاك رغم وجود عراقيل جمة ترتبط في بعض جوانبها بإشكالية بعد المسافة الجغرافية بين عاصمة المغرب الممثلة في مدينة فاس والمناطق الصحراوية وما تطلبه من وقت زمني لتنقل المحلات السلطانية وكذا الرسل أو العيون وغيرهم، وضرورة مراقبة مجمل الأحداث التي تتعرض لها هذه المناطق لا سيما النشاطات الأجنبية واتخاذ الإجراءات والتدابير المناسبة لإفشال تلك النشاطات أو مواجهة أي مظاهر للتسرب أو تغلغل الاستعماري في الصحراء.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٤	يناير	٢٠٢٤
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٣	فبراير	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:
الصحراء المغربية؛ التغلغل الاستعماري؛ ردود الفعل المخزنية؛ تاريخ المغرب الحديث؛ الاستعمار الأوربي

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.260557 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
عبد اللطيف قصور. "التغلغل الاستعماري في الصحراء المغربية أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الميلادي وردود الفعل المخزنية".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ١٢٤ – ١٣١.

Corresponding author: abdellatifkassor89@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

ابتداءً يمكننا القول -لأن توطين الموقع الجغرافي مكمل للأبحاث التاريخية -أن إعطاء تحديد جغرافي دقيق ومفصل للصحراء المغربية يعتبر أمرًا صعبًا، ومرد الصعوبة إلى اتساع الرقعة الجغرافية التي تشغلها إذ تزيد عن ٢٧٠٠٠٠ كيلومتر مربع، يضاف إلى هذا شح الدراسات المتكاملة التي تتعرض للمنطقة وظروفها الطبيعية[١] فهذا الإقليم المغربي المتميز يقع جنوب المغرب ويحده إقليم طرفاية في الشمال، وموريتانيا في الجنوب وفي الشرق منطقة تندوف [٢] وغربًا المحيط الأطلسي، وتنقسم الصحراء المغربية إلى منطقتين رئيسيتين هما:

- منطقة الساقية الحمراء: وتبلغ مساحتها ٨٢٠٠٠ كيلومتر مربع، ومن أهم مدنها مدينة السمارة التي بناها ماء العينين [٣] أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ومدينة العيون التي أسسها الكولونيل الإسباني (Antonio de ORO) سنة ١٩٣٨.

- منطقة وادي الذهب: التي أطلق عليها الإسبان اسم ريودي أورو (Rio de ORO)، تقع جنوب منطقة الساقية الحمراء ومن أهم مدنها مدينة الداخلة، (فيلا سيسينيروس) سابقًا التي أسسها الإسباني (Emilio Bonelli) سنة ١٨٨٤[٤].

كما أن الصحراء المغربية تحظى بموقع استراتيجي هام سواء لطول سواحلها أو قربها من جزر الخالدات (كناریاس) التي تشكل معها مضيقا[٥] تمر عبره الخطوط البحرية المتجهة شمالاً وجنوبًا، ونذكر هنا أن الشاطئ الشمالي لا يبعد عن جزيرة فويرتيفانتور إلا بمائة كيلومتر ويفصل بين ميناء العيون ولاس بالماس ب ٢٠٠ كيلومتر فقط.[٦] وبالعودة لموضوعنا حول التغلغل الاستعماري الأوربي للصحراء المغربية وردود الفعل المغربية الرسمية ، أمكن لنا طرح الاستنتاج البديهي التالي، وملخصه أنه منذ أن شارف القرن التاسع عشر الميلادي على الانتهاء ومع بدايات القرن العشرين الميلادي قد لاح للعيان أن دولا أوربية بعينها -إسبانيا وفرنسا وبدرجة أقل بريطانيا - كانت تسابق الزمن لفرض واقع الاحتلال على المغرب، وأن هذه المساعي الأوربية وقبل أن تكلل بفرض توقيع عقد الحماية على المغرب في ٣٠ مارس ١٩١٢ كانت قد استبقت ذلك بتغلغلات استعمارية واحتلالات وضربات عسكرية متفرقة في جغرافية التراب المغربي كاحتلال وجدة من طرف فرنسا سنة ١٩٠٧ والعرائش من طرف إسبانيا، غير أن التسرب الاستعماري الأوربي للصحراء المغربية كان قبل هذه الاحتلالات السالفة الذكر وتعود جذوره المعاصرة إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي على الأقل وإلى مطلع القرن الموالي.

وبالتساوق مع هذا التسلط الاستعماري انبرت مقاومات مغربية متعددة لصده ودحره على غرار المقاومة بالريف والأطلس المتوسط والمقاومة الصحراوية وغيرها، على أن المخزن المغربي لم يكن في موقع المتفرج من مجريات هذه الأحداث في الفترة المعاصرة وما قبلها أيضًا فقد سبق له أن لقن الغزاة الأوربيين الطامعين في تملك التراب المغربي دروسا حربية قاسية ـ معركة وادي المخازن[٧]ـ في أوقات مبكرة ونعني بها المرحلة الأولى ١٤١٥ ـ ١٤٣٤ التي دشنها وصول البعثات التجارية والعلمية والاستكشافية مع بواكير الحقبة الحديثة بقيادة البرتغال أبرز الطامعين آنذاك، ومهما يكن فقد دقت هذه المرحلة ناقوس خطر أعطى إشارة البدء لمسلسل طويل من التدخل الأوربي في التراب المغربي وردود الفعل الرسمية والشعبية المغربية، يقول المؤرخ الفرنسي جاك هيرس في هذا الصدد "لقد بدأ كل شيء لما وضع البرتغاليون أقدامهم بمدينة سبتة سنة ١٤١٥، إذ انطلقوا فيما بعد لتأسيس سلسلة من المراكز التجارية"[٨].

بيد أن جذوة حماس البرتغاليين قد خبت لاحقًا في الوقت الذي تعاظمت فيه أطماع الفرنسيين والإسبان والإنجليز أواخر القرن التاسع عشر، فعمدوا إلى استهداف السيادة الترابية المغربية في العديد من المناطق ومن ضمنها الأقاليم الصحراوية الجنوبية، وبالتساوق مع الشح المصدري الذي يسم الكتابة التاريخية وطابع التخصيص في المراجع — اللهم ما ندر منها- حول موضوع المقال، يأتي هذا الأخير كمساهمة شخصية نبغي من وراءها إنارة ما أمكن من النقط الظليلة حول تاريخ التغلغل والاستعمار الأجنبيين في

الصحراء المغربية وكذا الردود المخزنية تجاه هذه الأحداث والوقائع التاريخية.

أولاً: التغلغل الإسباني في صحراء المغرب وردود الفعل المغربية الرسمية

تجلى الاهتمام الإسباني بالتغلغل في السواحل الجنوبية للمغرب منذ وقت مبكر في نهايات القرن ١٥ في سياق السباق الاستعماري البرتغالي الإسباني، وهكذا بعد احتلال إسبانيا لجزر الكناريا‌س سنة ١٤٧٦ تمكن دييغو غارثيا هيريرا كوخًا خشبيًا لجس نبض السكان أطلق عليه اسم سانتا كروز دي ماربيكينيا (Santa Cruz de Marpequena) أي الصليب المقدس للبحر الصغير، غير أن سنة ١٥٢٤ ظلت عالقة في الذاكرة الإسبانية والمغربية إذ عرفت حدثا هاما أوقف التطاول الإسباني على الصحراء المغربية، حيث هاجمت القبائل الصحراوية حصن هيريرا وأضرمت فيه النار وغنمت معداته الحربية لتنتهي أسطورة هذا الحصن إلى حدود ١٨٦٠ على الأقل.[٩]

وعلى عهد سيدي محمد بن عبد الله جرت سنة ١٧٨٥ محاولات لتحرير أسرى أمريكا الشمالية، وبعض الغرقى الناجين في واد نون، وذلك في إطار سياسة الانفتاح الدبلوماسي التي نهجها هذا السلطان تجاه إسبانيا لإيجاد حلول للمشاكل العالقة بين البلدين [١٠]، بيد أنه مع حلول سنة ١٨٦٠ ستعود الآلة الحربية الإسبانية إلى إحياء أسطورة الحصن بعد انتصارها على المغرب في حرب تطوان ١٨٥٩-١٨٦٠، فقد نصت المادة الثامنة من بنود الصلح الذي أعقب هذه الحرب في ٢٦ أبريل ١٨٦٠ على مساعدة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان (١٨٥٩-١٨٧٣) الإسبان على بناء مركز للصيد البحري في سواحل بلاده الجنوبية، في المقابل كان الإسبان يدعون أن البند الثامن المذكور كان ينص على تخلي سلطان المغرب لهم على قطعة من أرض الصحراء المغربية إلى الأبد وهذا هو جوهر المشاكل، فالنص العربي الذي بحوزة المغرب يتضمن كلمة مساعدة على بناء المركز وليس التخلي التام إلى الأبد[١١].

وانتهت مفاوضات المغرب – التي قادها الأمير مولاي العباس أخ السلطان — مع الإسبان في شخص المرشال أودنيل رئيس المجلس الحربي الإسباني بالفشل الذريع، بسبب مطالب إسبانيا المشتطة [١٢] التي رفضها العباس جملة وتفصيلاً، كما يظهر من رسالته إلى أخيه التي جاء فيها "... إنما شرطه الإسبان لا يقبل ولو بقي من الإنسان نفسه، وسيدنا يعلم من هذا أن هذا العدو لازال جادا في العيب..."[١٣]، ولم تستأنف المفاوضات بين المغرب وإسبانيا بسبب تعنت الأخيرة إلا في عهد الملك الإسباني ألفونصو الثاني عشر الذي تولى العرش سنة ١٨٧٥ ونظيره السلطان المغربي الذي بدأ عهد توليه العرش سنة ١٨٧٣، وهكذا تم الاتفاق في مدريد على إيفاد بعثة مغربية إسبانية مشتركة إلى سواحل المغرب الجنوبية قصد تعيين مركز الصيد الذي أسسه هيريرا والسماح للإسبان باستغلاله بموافقة سلطان المغرب دون أن تتضمن الموافقة التنازل النهائي عن جزء من التراب المغربي[١٤].

وآلت جهود البعثة الأولى إلى الفشل في تحديد موقع حصن هيريرا، أمام معارضة دبلوماسية ذكية[١٥] من السلطان الحسن الأول، فطالبت إسبانيا بساحل إفني [١٦]، ولتعزيز زعمها القائل بأن هذا الأخير هو الموقع الذي تبحث عنه عمدت إلى الاتصال ببعض الأهالي وخداعهم بقولها إنها تبحث هناك عن موقع مرسى بتفويض من السلطان وأغرتهم بالمال وعقدت معهم اتفاقا في ٢١ أبريل ١٨٧٨[١٧]، وقد حدث ذلك بعيدا عن أنظار المخزن بسبب الصعوبات التي يفرضها الوصول إلى الصحراء أو عبورها أومراقبتها[١٨].

ثم عرض السلطان الحسن الأول مبلغ ١٥ مليون فرنك نظير حذف المادة الثامنة من معاهدة ١٨٦٠، وهو العرض الذي قوبل برفض إسباني، وسعيًا منه للتخفيف من حدة التوتر قرر السلطان إيفاد بعثة مغربية أخرى إلى مدريد، نتج عن مفاوضاتها التوصل لاتفاق قضى بإرسال بعثة مشتركة أخرى للبحث عن الموقع، وقد وصلت هذه البعثة على ظهر السفينة (Ligeria) في يوليوز من سنة ١٨٨٣ إلى مرسى الصويرة ثم اتجهت نحو سواحل المغربية الجنوبية، لتنتهي جهود بحثها مجددًا بالفشل[١٩].

فوجهت الحكومة الإسبانية لوزيرها بطنجة أمرًا يقضي بالإسراع للحصول على موافقة السلطان الحسن الأول للتنازل لها على ساحل إفني، وهو ما رفضه السلطان، لكنه بالمقابل فتح مجالا آخر للحوار، فقدم مساعدته للإسبان على بناء مركز للصيد في ساحل إفني معتبرًا ذلك أنه لا يعني التنازل عن سلطته في هذه المناطق، بيد أن الوزير "ديو سضادو" كان يترجم مقترح السلطان إلى حكومته بعبارات التنازل عن ساحل إفني مما جعل الحسن الأول يستشيط غضبا، ووجه رسالة إلى محمد بركاش قال فيها: "... وأما الحيازة فلا، ويعلموهم بأن خديمنا الطالب عبد السلام السوسي كان اتفق مع منويل سلبل على توجيه المعنيين للبحث عن المحل وحيث يحققونه ويرجعون تكون حيازته على يد الدولتين على الوجه المناسب...."[٢٠]، وبذلك كان نصيب هذه البعثة في مسعاها الفشل أيضًا.

غير أن حماس إسبانيا لإيجاد موطئ قدم لها في أقاليم المغرب الجنوبية لم يتوقف إذ تمكن الملازم إميليو بونيللي Emilio Bonelli من تأسيس ثلاثة أكواخ خشبية قصد التجارة من جهة وجس نبض الساكنة من جهة أخرى، وذلك في منطقة وادي الذهب والمناطق المجاورة لها رغم المقاومة المستميتة التي اعترضت طريقه، وطلب من حكومة مدريد إعلان حمايتها على وادي الذهب، فترددت هذه الأخيرة مدة ثلاثة وخمسين يوما قبل الإعلان عن رأيها، مما يجعلنا نطرح سؤالاً جوهريًا عن قانونية هذه الحماية الإسبانية المزعومة على سواحل وادي الذهب المغربية [٢١]، وللخروج من هذه الورطة، وبعد أن أصبحت السفن الإسبانية تصل إلى إقليم وادي الذهب تباعا منذ سنة ١٨٨٤، أبلغت إسبانيا القوى الأوربية خبر بسط حمايتها على هذه المناطق الساحلية بتاريخ ٢٦ يناير ١٨٨٤[٢٢].

وأخذت البعثات الإسبانية تصل إلى المنطقة بهدف تسريع وثيرة التوغل في المناطق المغربية الداخلية وأهمها بعثة مارس وأبريل سنة ١٨٨٦م والتي أحبطت جهودها أمام محاربي أولاد دليم وبعثة ماي ويوليوز ١٨٨٦، برئاسة (Julio Cervera)، وتمكن أعضاء هده البعثة من زيارة منطقة كركر ومناطق أخرى لكنهم تراجعوا بعد تهديدهم بالقتل من طرف سكان المنطقة[٢٣]، أما السلطان الحسن الأول فرغم انشغاله بالقلاقل الداخلية وما الحقته ظاهرة الحماية القنصلية من أضرار بالبلاد، بالإضافة إلى توتر علاقته ببريطانيا، بعد استقرار هذه الأخيرة بساحل طرفاية منذ ١٨٧٨ ، فقد بذل قصارى جهده للدفاع عن وحدة بلاده خاصة في الأقاليم الجنوبية[٢٤] فقاد حركة نحو الجنوب لردع تحرشات الإسبان، وفور وصوله إلى بلاد وادي نون في ١٣ ماي ١٨٨٦، وفدت عليه جموع من شيوخ وأعيان وفقهاء القبائل الصحراوية، وجددوا بيعته له، وكلفهم بتشكيل فرق لحراسة السواحل الجنوبية ومنع السفن الأجنبية من الرسو، وتنفيذا لأوامر السلطان أغار القائد دحمان ولد بيروك على أهل الساحل سنة ١٨٨٩، واستولى على متاعهم وجيادهم وعبر واد الساقية الحمراء لمعاقبة العناصر القبلية المتعاونة مع الأجانب[٢٥].

وهكذا لم تجد إسبانيا بدًا من تلطيف الأجواء مع المغرب أمام الهجمات المستمرة والمتكررة على مراكزها في وادي الذهب[٢٦]، وبفضل سياسة السلطان وممثليه الحازمة في الصحراء انكمش الوجود الإسباني بساحل وادي الذهب، ولم تجرؤ إسبانيا على القيام بمغامرة في الصحراء إلا في سنة ١٩١٦ بعد تمكن حاكمها العسكري والسياسي الليوتنان كولونيل فرانسيسكو بنس (Francisco bens) من بناء مركز عسكري بساحل طرفاية [٢٧].

ثانيًا: التغلغل الفرنسي في صحراء المغرب، وردود الفعل المغربية الرسمية

يمكن القول أنه خلال الخمسة عشر سنة الأولى التي عرفت سيطرة فرنسا على الجزائر منذ ١٨٣٠م، فإن الفرنسيين لم يولوا أهمية كبيرة للصحراء لانشغالهم بقمع مقاومة عبد القادر الجزائري من جهة، وتوطيد نفوذهم في ممتلكات الأتراك الجزائريين من جهة ثانية[٢٨] وحتى عندما سحقت مدفعية المرشال بيجو جيش السلطان عبد الرحمن بن هشام في معركة إيسلي بتاريخ ١٤ غشت ١٨٤٤، ووقع المغرب على معاهدة للامغنية بتاريخ ١٨ مارس ١٨٤٥، والتي عينت الحدود بين المغرب والجزائر المحتلة آنذاك في جو من الغموض

والإلتباس[٢٩] فقد كان الفرنسيون يجهلون الجنوب، وكان رأي الحاكم العام للجزائر آنذاك في المناطق الجنوبية الصحراوية على النحو التالي "أن هذه الصحراء في نظرنا تشكل شيئا يشبه بحرًا مشتركًا بين البلدين الجزائر المحتلة والمغرب،... إننا نفكر كأسلافنا الأتراك في أن نقصر احتلالنا على التل، إن الأحداث لم تدفعنا لمحاذاة Les Huts Plateaux (الهضاب العليا) إنها بالنسبة لنا عتبة الصحراء"[٣٠]، وهكذا منذ سنة ١٨٧٨ عندما ظهر مشروع المهندس دوبونشيل عن سكة حديد الجزائر تومبوكتو عبر الصحراء، أصبح التوغل في الصحراء شعارا لفرنسا، فبدأت أعمال استطلاع قام بها الكولونيل فلاتزر، لصالح هذا المشروع ولكنه قتل سنة ١٨٨١ وتلت ذلك حركات ثورية بتحريض من المرابط " بوعمامة"[٣١] دفعت فرنسا إلى احتلال الزاب[٣٢].

ثم قامت فرنسا بتجهيز بعثات استكشافية وإرسالها إلى الصحراء المغربية بهدف إعداد تقارير استخباراتية عن المركز التجاري الذي أسسه البريطانيون منذ ١٩٧٨ في ساحل طرفاية ونظيره الإسباني الذي تم تأسيسه بساحل وادي الذهب منذ ١٨٨٤[٣٣]، واختارت لهذه المهمة المغامر كاميي دولس(Camille Douls)[٣٤] الذي سبق له زار المغرب سنة ١٨٨٥ ، وقد تمكن دولس من التسلل إلى وادي الذهب وعقد صفقات تجارية مع أولاد دليم بعد انتحاله صفة تاجر مسلم قادم من الجزائر، ورغم أن شيوخ الصحراء بمن فيهم ماء العينين[٣٥] قد اختبروا إسلامه، فقد اجتاز الاختبار بنجاح، قبل أن يكتشف أمره أثناء رحلة له نحو حوض نهر النيجر ويتعرض للقتل سنة ١٨٨٨.

ورغم مقتل دولس واصلت فرنسا إرسال بعثاتها للصحراء المغربية، فجهزت بعثة جديدة سنة ١٨٩٣ بقيادة كاستون دونيت (Gaston Donnet) وأرسلته للتجسس على مركز البريطانيين (Port victoria) في ساحل طرفاية[٣٦]، وخلال هذه الفترة استهدف المخطط الاستعماري الفرنسي إخضاع مجموع الجنوب الشرقي المغربي، الذي يعتبر منفذا في اتجاه الجنوب الصحراوي المغربي فأقدمت فرنسا على تشكيل عدة فرق عسكرية كلفت كل واحدة منها باحتلال واحة من الواحات الجنوبية الشرقية: تيدكلت والزوزفانة وتيكورارين[٣٧].

فاستنجد أهل توات المغاربة بالسلطان الحسن الأول بسبب تخريب فرنسا قصورهم لدفعهم للهجرة فجهز السلطان حركة نحو تافيلالت سنة ١٨٩٣، وعند وصوله قدم إليه وفود من أعيان توات وتديكلت وكورارة برئاسة أبي حسون بن الحاج محمد فجددوا له البيعة والولاء كما أمرهم بمنع عمليات البيع والشراء مع الفرنسيين[٣٨]، وأول ما قام به الحسن الأول أمام التحرشات الفرنسية في واحة توات [٣٩]، هو أنه عمل على تدويل هذه المسألة، فبعث بخصوص ذلك رسائل احتجاج واستنكار للحكومة الفرنسية وبرهن لها بالحجج والوثائق على مغربية هذه المناطق، كما أجرى اتصالات مع ممثلي الدول الأوربية المعتمدين بطنجة خاصةً إسبانيا وإيطاليا وبريطانيا وتوصل إلى إقناعهم بالتوقيع على مذكرة مارس ١٨٨٧ حول وحدة البلاد المغربية.

وقام السلطان بتعزيز حامية فيكر وأرسل حامية عسكرية نحو واحة تديكلت ونصب عاملاً على كورارة في يناير ١٨٩٢، وهو محمد أوسالو، وبالمقابل وفد عليه أهالي المنطقة وطلبوا منه السلاح والذخيرة لمواجهة التغلغل الفرنسي من جهة وتجديد السبعة له من جهة ثانية فحثهم على توحيد صفوفهم لإحباط المشاريع الفرنسية الاستعمارية[٤٠]، غير أن ذلك لم يزد فرنسا إلا إصرارا على تنفيذ مشاريعها التوسعية، وقد كان حدث وفاة الحسن الأول سنة ١٨٩٤ هو الحدث البارز الذي شجع فرنسا على تسريع وثيرة تنفيذ مشاريعها الاستعمارية ضد المغرب، إذ خلفه على العرش ابنه عبد العزيز، وهو في عمر ١٦ سنة بخبرة سياسية تكاد تكون منعدمة، حيث يذكر المؤرخون أن أبا أحمد (باحماد) الحاجب الملكي في عهد السلطان الحسن الأول، كان سياسيا ماكرا، أخذ بزمام الأمور لنفسه ونحى المولى امحمد الذي كان وليا للعهد وأجلس مكانه المولى عبد العزيز[٤١].

ثم سارعت فرنسا بعد احتلال واحة توات المغربية منذ ١٩٠٠ إلى احتلال العديد من النقاط على طول وادي زوزفانة جنوب شرق فكيك[٤٢] ووادي الساورة غرب توات لتضمن بذلك ربط توات بالجزائر[٤٣]، وفي السنة السالفة الذكر حاول عدة فرنسيين دخول أدرار، فاعتقلهم السكان، واعتبر مؤلف كتاب الجأش الربيط

(محمد الإمام) أن هذه أول مرحلة في الاهتمام الأوربي بما كان معروفًا بشنقيط[٤٤] غير أن سياسة فرنسا ضد المغرب لن تقف عند هذا الحد.

ثالثًا: أطماع بريطانيا في الصحراء المغربية

من الجدير بالذكر في البداية أن بريطانيا قد دخلت بدورها دائرة الاهتمام الأوربي بسواحل الصحراء المغربية، وهو ما شهد عليه حوادث غرق بعض السفن الإنجليزية قبالة السواحل الجنوبية، كالباخرة التي كانت متوجهة إلى البرازيل وغرق في رأس بجدور في أوائل سنة ١٧٧٧، حيث أنقذ السلطان سيدي محمد بن عبد الله كل أفراد طاقمها البالغ عددهم ١٣، وباتوا يشكلون مشكلا بالنسبة لإنجلترا لمدة طويلة قبل أن تتسلمهم من المغرب[٤٥]، ومع ذلك يبقى وقت بداية الاهتمام الإنجليزي بصحراء المغرب غير معروف على وجه التدقيق، إلا أنه خلال ١٠ أبريل سنة ١٨٧٩ قد تمكن تاجر بريطاني يدعى دونالد ماكنزي من إبرام اتفاق مع بعض شيوخ القبائل في طرفاية، لفتح منافذ للتجارة بين منطقة وادي نون وبريطانيا بعد إغرائهم بالهدايا الثمينة.

فاستشاط السلطان الحسن الأول غضبا واستدعى ممثل بريطانيا بالمغرب جون دريموندهاي[٤٦] للاحتجاج على انتهاك بريطانيا لسيادة السلطان على تلك المناطق، غير أن هاي فاجأ السلطان الحسن الأول بإعلانه أن ساحل طرفاية لا يقع تحت سيادته، فقرر السلطان دعم سيادته على كل الأقاليم الجنوبية ضد الأعداء فأصدر ظهيرا حسنيا عين بمقتضاه ماء العينين نائبا عنه في الصحراء وبلاد سوس، ورغم كل هذه الإجراءات والاحتجاجات واصل ماكنزي نشاطاته التجارية، فهاجمت قبيلة إزركين كوخه الخشبي وأحرقته، فأثنى السلطان على تصديها لمخططات ماكنزي[٤٧] ثم قام هذا الأخير بتحصين نفسه بالأسلحة والمدافع، ورغم خسائره الفادحة في العتاد والأرواح فقد واصل محاولاته، ولم يستسلم للأمر الواقع خشية التعرض للإنتقاد من شركائه في لندن[٤٨]، الذين كانوا يزودونه بما يحتاج من أموال لمواصلة نشاطاته.

فقرر السلطان نهج أسلوب المفاوضات لاسترجاع ساحل طرفاية وتطهيره من براثين الأجانب، فاستغل فرصة تواجده بمدينة طنجة لمعاينة الأسطول البريطاني، واجتمع بالوزير كرين وعبر له عن رغبته في حل المشاكل العالقة مع الحكومة البريطانية بخصوص مسألة المركز المقام في ساحل طرفاية وعرض عليه مبلغ ٥٠ ألف جنيه لقاء ذلك، واشترط[٤٩] عليه أن يكون هذا المبلغ مقسما على خمسة أقساط سنوية قيمة كل قسط ١٠ آلاف جنيه[٥٠]، فوافقت بريطانيا على مضض، وذلك بسبب الحصار الاقتصادي الذي ضربه عليها قائد السلطان في الجنوب دحمان ولد بيروك، ورغم أن ساحل طرفاية لم يعد بصفة نهائية إلى رحاب المغرب إلا في عهد السلطان عبد العزيز ١٨٩٤-١٩٠٧ فإن المفاوضات العسيرة التي قادها السلطان الحسن الأول تشهد على نضاله المستميت للدفاع عن تراب المغرب الجنوبي، فكان من أهم نتائج التفاوض الاعتراف بسيادة السلطان المغربي على الأراضي الواقعة بين وادي درعة ورأس بوجدور[٥١].

كما تجب الإشارة إلى مسألة مهمة وهي أن الدولة الأوربية المتنافسة على الترب المغربي في مناطقه الجنوبية الصحراوية ونخص بالذكر فرنسا وإسبانيا بريطانيا عندما تصادمت مصالحها في هذه المناطق قد لجأت في إبرام العديد من الاتفاقيات فيما بينها والتي منحتها مرونة أكثر في تحركاتها الاستعمارية، فإسبانيا كانت تلهث بحثا عن تعويضات في إفريقيا بعد أن فقدت مستعمراتها في أمريكا اللاتينية سنة ١٨٩٨، وهكذا بعدما خصت فرنسا نفسها في يوليوز من سنة ١٩٠٠ بمجموع موريتانيا الحالية، فإنها تخلت للإسبان عن شواطئ كركر وترس الجدباء الواقعة بين وادي الذهب ورأس بوجدور[٥٢]، فتم إبرام اتفاقية ٢٧ يونيو ١٩٠٠ بين فرنسا وإسبانيا الخاصة بتحديد الممتلكات الإسبانية والفرنسية في إفريقيا الغربية، وساحل الصحراء وخليج غينيا[٥٣].

وسجلت سنة ١٩٠٤ اتفاقًا آخر على حساب المغرب ومصر وهو الاتفاق الإنجليزي الفرنسي الودي بتاريخ ٨ أبريل ١٩٠٤ الذي أطلق يد فرنسا في المغرب ويد بريطانيا في مصر وذلك في جو من السرية التامة،

وأبرم اتفاق سري آخر بين فرنسا وإسبانيا في ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٤ بين وزير فرنسا في الخارجية ديلكاسي والسفير الإسباني دي ليون كاستيو، ويتكون من ١٦ فصلا وعينت في فصله الرابع حدود **إيفني**(٥٤).

خَاتِمَةٌ

يبدو إذن أن جهود الدول الأوربية الاستعمارية قد تضافرت بشكل لافت أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، فاعتمدت كل دولة على حدة – فرنسا بريطانيا على الخصوص – سياسة متشابهة بالاعتماد على إرسال البعثات التجارية والعلمية الممهدة للاستعمار الفعلي للمناطق المستهدفة في أقاليم المغرب الجنوبية وعندما تصادمت مصالحها في هذه الأقاليم لجأت إلى توقيع عدة اتفاقيات لتدبير تحركاتها، ونجحت في الأخير في التسرب إلى هذه المناطق المغربية رغم المقاومة المستميتة التي أبداها على الأخص السلطان الحسن الأول، غير أن التدخل الاستعماري في هذه المناطق لم يحدث دون اندلاع مقاومة موازية له، هي الجنوب التي قادتها القبائل الصحراوية المغربية، وبعض الزعامات القبلية الصحراوية التقليدية وأبرزها مقاومة الشيخ ماء العينين.

الإحالات المرجعية:

(١) نور الدين بلحداد، **التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية (١٨٦٠ - ١٩٣٤)**، سلسلة أطروحات ٢ منشورات معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة المعارف الجديدة،٢٠٠٨، ص١٣.

(٢) **مركز صحراوي** ذكره البكري باسم تندفس ويقع جنوب حمادة درعة حيث يشرف على سبخة شاسعة، تاريخيًا كان تابع لسلطان المغرب قبل أن تلحقه فرنسا بمستعمرتها الجزائر، وقد اشتهرت قبائله بالولاء للمغرب وخاصة أسرة ابن الأعمش الذي درس ماء العينين.

(٣) هو محمد المصطفى الملقب بماء العينين الابن الثاني عشر لمحمد فاضل بن مامين مؤسس الطريقة الفاضلية، أبرز ممثلي المخزن في الصحراء المغربية خلال القرن ١٩ وأهم وجوه المقاومة المغربية بهذه الأخيرة.

(٤) نور الدين بلحداد، **التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية (١٨٦٠-١٩٣٤)**، م. س.ص.١٦-١٤.

(٥) **المضيق** هو ممر بحري طبيعي يفصل بين يابستين، إذا شقه الإنسان يسمى قناة مثل قناة السويس.

(٦) فوزي الجود، **الساقية الحمراء ووادي الذهب معلومات عامة وأضواء على التطورات السياسية فيها**، ص: ١٣، بدون تاريخ.

(٧) معركة حدثت سنة ١٥٧٨ وتمكن فيها السعديون المغاربة من الحاق هزيمة ساحقة بالبرتغال.

(٨) محمد حبيدة، **تاريخ أوربا من الفيودالية إلى الأنوار**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الطبعة الأولى، الرباط، ١٤٣٤/٢٠١٠، ص: ١١٣.

(٩) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير الطبعة الأولى، الرباط٢٠١١، ص٦١-٦٢-٦٣.

(١٠) رامون لوريدوديات، **السياسة الخارجية للمغرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، الجزء الثاني**، منشورات الزمن، الإشراف العام عبد الكبير العلوي الإسماعيلي، ترجمة د. مولاي أحمد الكمون وود.بديعة الخرازي، مقدمة الترجمة د. جمال حيمر، نشر بدعم المديرية العامة للكتاب والأرشيف والمكتبات التابعة لوزارة الثقافة الإسبانية، الطبعة الأولى ٢٠١٢ - النجاح الجديدة، الدار البيضاء .... ص١٩٩-٢٠٠.

(١١) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص٦٨.

(١٢) من بين ما طالبت به إسبانيا إعدام ١٢ رجلاً من قبائل أنجرة التي اعتبرتهم مسؤولين عن هدم سور العسة الذي شيده الإسبان في حدود سبتة المحتلة من الحجارة وذلك أمام الملأ ليكونوا عبرة لغيرهم حسب زعمها.

(١٣) محمد داوود، **تاريخ تطوان**، الجزء الرابع، تحقيق حسناء محمد داوود، مطبعة الخليج العربي، بدعم من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، طبعة ٢٠٠٦، ص.٢٥٥.

(١٤) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ٧٢_٧٠.

(١٥) كان السلطان الحسن الأول على قدر كبير من الحنكة الدبلوماسية والسياسية بشهادة معاصريه، فكلن يعد الإسبان مرة بتطبيق مضمون المادة الثامنة من معاهدة صلح تطوان ١٨٦٠، ويتغافل ذلك في مناسبات أخرى

(١٦) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ٧٣.

(١٧) جامع بيضا، **المناورات الاستعمارية للنيل من السيادة المغربية على تخوم الصحراوية (عهد السلطان مولاي الحسن)**، ضمن أعمال ندوة **الصحراء المغربية من خلال التراث والتاريخ**، الطبعة الأولى، المحمدية، ٢٠٠٠، ص. ٤٩.

(18) D. Jacques-meunie : le maroc saharien des origines A1670. Bibliothèque Klinckseick, 1982 36 p.576.

(١٩) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص، ٧٩.

(٢٠) عبد الرحمان بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، الجزء الثالث، نشر مكتبة الثقافة الدينية وتوزيع دار الأمل الطبعة الأولى، ص. ٤٨٤-٤٨٣.

(٢١) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص٨٦.

(٢٢) عبد الحق ذهبي، **قضية الصحراء المغربية ومخطط التسوية الأممي دراسة قانونية وسياسية في مسارات التسوية في نطاق المنظمات الدولية**، الطبعة الأولى، الرباط ٢٠٠٣، ص٣٩.

(٢٣) نور الدين بلحداد، **مقاومة قبائل الصحراء للتسرب الإسباني في سواحل وادي الذهب (١٨٨٤-١٩٠٠م)**، ضمن أعمال ندوة علمية **حول مقاومة إقليم وادي الذهب من أجل الاستقلال واستكمال الوحدة الترابية للمملكة**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ص. ٥٧-٥٨.

(٢٤) إن ما يثير الانتباه والتساؤل هو أن جهود السلطان الحسن الأول للحفاظ على وحدة البلاد في الجنوب قد فاقت نظيرتها في الشمال، إذ كان الإسبان خلال هذه الفترة يتحركون بحرية نسبية ويعملون على احتلال العديد من الجزر المغربية في البحر الأبيض المتوسط.

(٢٥) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ٩٢.

(٢٦) نور الدين بلحداد، **التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية (١٨٦٠-١٩٣٤)**، ص٢٨٧.

(٢٧) نور الدين بلحداد، **التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية (١٨٦٠-١٩٣٤)**، م. س. ص. ١٠٢

(٢٨) محمد بوكبوط، **مقاومة الهوامش الصحراوي للاستعمار (١٩٣٨-١٨٨٠) صفحات مجهولة من صمود قبائل التخوم الشرقية من تافيلالت إلى واد نول**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط مارس، ٢٠٠٥، ص. ٢٣)

(٢٩) تعمدت فرنسا عدم تحديد الحدود بدقة، إذ جاء في الفصل الرابع ما يلي: "أن الصحراء لا حد فيها بين الجانبين، لكونها لا تحرث وإنما هي فقط مرعى لعرب الإيالتين التي تنزل فيها وتنتفع بخصبها ومائها".

(٣٠) محمد خير فارس، **المسألة المغربية ١٩١٢-١٩٠٠**، الطبعة الثانية بيروت، ص.٧

(٣١) أحد أبرز زعماء المقاومة الجزائرية والذي التفت حوله قبائل واحات الزوزفانة وفكيك لصد الزحف الاستعماري الفرنسي الذي بات يهدد منطقة القصور، منذ ١٨٨١.

(٣٢) محمد خير فارس، **المسألة المغربية ١٩١٢-١٩٠٠**، م.س. ص، ٧٢.

(٣٣) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ١٠٧.

(٣٤) تمكن من خداع قبائل أولاد دليم، إذ ادعى أنه مسلم جزائري ويسمى عبد المالك، كان ينطق الشهادتين، ويحسن الوضوء وشعائر الصلاة، وتزوج من إحدى بنات أولاد دليم لمدة خمسة أشهر، قبل أن يفتضح أمره وتتم تصفيته.

(٣٥) محمد المصطفى الملقب بماء العينين، هو الابن ١٢ لمحمد فاضل بن مامين مؤسس الطريق الفاضلية من رموز المقاومة المغربية المسلحة في الصحراء، كان ممثلا للمخزن في الساقية الحمراء.

(٣٦) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. صص ١٠٩-١٠٧.

(٣٧) محمد بوكبوط، **مقاومة الهوامش الصحراوي للاستعمار (١٩٣٨-١٨٨٠) صفحات مجهولة من صمود قبائل التخوم الشرقية من تافيلالت إلى واد نول**، م.س. ص،٢٧.

(٣٨) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص.١١٥

(٣٩) توات واحة تكثر فيها أشجار النخيل كانت تابعة للمغرب قبل أن تلحقها فرنسا بالجزائر المحتلة بين سنتي ١٩٠٠ و١٩٠٣م، وتشكل امتداداً طبيعيًا لواحة تافيلالت.

(٤٠) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص. ١١٣-١١٢.

(٤١) عبد الحق المريني، **قضايا ووجوه نظرات وتأملات**، مطبعة دار النشر المغربية عين السبع، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ٢٠٠٧، ص ٨٣.

(٤٢) تنطق فكيك بجيم مصرية وليس فجيج لأن هذه التسمية كان الاستعمار المسؤول عنها.

(٤٣) روس إن إذن، **المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي المواجهة المغربية للإمبريالية الفرنسية ١٨٨١ ١٩١٢**، ترجمة أحمد بوحسن، مراجعة عبد الأحد السبتي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، طبعة ٢٠٠٦، ص ٢٠٦.

(٤٤) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة، الطبعة الثالثة، الدار البيضاء، الجزء الثالث، ٢٠٠٢، ص. ٣١١-٣١٠.

(٤٥) رامون لوريدوديات، **السياسة الخارجية للمغرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله**، الجزء الثاني، م.س.ص، ٤٠.

(٤٦) هو السرجون دريموندهاي وزير بريطانيا المعتمد في المغرب ويعتبر كبير الهيئة الدبلوماسية الإنجليزية بالمغرب. وكانت تجمع علاقة ود شخصية بالسلطان الحسن الأول.

(٤٧) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ٣٤-٣٣.

(٤٨) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص. ٣٧

(٤٩) هنا أيضًا تبرز الحنكة السياسية والدبلوماسية للسلطان الحسن الأول، حيث اشترط دفع المبلغ على أقساط لأنه يعلم أن دفعه في مرة واحدة سيضر كثيرا بميزانية الدولة، لاسيما في تلك الفترة التي كان يعاني فيها المغرب ضائقة اقتصادية بسبب انتشار الانتفاضات القبلية، ورفض العديد من القبائل دفع الضرائب زد على ذلك ما كانت تسببه الحماية القنصلية من أضرار على بيت المال.

(٥٠) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص٥١-٤٧.

(٥١) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص. ٥٥-٥٢.

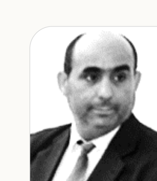
(٥٢) جرمان عياش، **دراسات في تاريخ المغرب**، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الطبعة الأولى، ص. ٣١٨.

(٥٣) نور الدين بلحداد، **التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية (١٨٦٠-١٩٣٤)**، م. س. ص.١٤٩.

(٥٤) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، الجزء الثالث، ص.٣١٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

ذعيرة تيزي عياش بالريف الأوسط سنة ١٩١٧
بين الوثيقة المكتوبة والرواية الشفوية ومحاولة التأصيل التاريخي



د. فريد المساوي
دكتوراه في التاريخ المعاصر
جامعة عبد المالك السعدي
تطوان – المملكة المغربية

مُلَخّص

في فترة الفراغ السياسي الذي حدث بمنطقة الريف شمال المغرب ما بين توقيع معاهدة الحماية سنة ١٩١٢م وبداية حرب الريف سنة ١٩٢١م، وبينما كانت منطقة الريف الأوسط لم تخضع بعد للحماية الإسبانية، كان أعيان القبائل يعملون على حفظ النظام عن طريق تطبيق القوانين العرفية وفرض مجموعة من الغرامات والعقوبات على مقترفي المخالفات والجنح، كانت إسبانيا تنفذ سياساتها الرامية إلى التغلغل عن طريق العملاء لزعزعة استقرار المجتمع وخلق الصراعات الداخلية لتسهيل تنفيذ مخططاتها، وأبرز ما كانت تعمل عليه هو تشجيع رفض تلك القوانين والغرامات. في هذه الظروف الدقيقة حكمت قبائل الريف الأوسط على قرية صغيرة تدعى "تيزي عياش"، بعد ثبوت اقتراف أحد المنتمين إليها لجريمة أخلاقية. وكان الحكم قاسيًا جدًا، يقتضي أن يتم إبادة القرية بأكملها حرقًا بعد أن تستخلص منها غرامة ثقيلة. وأمام هول هذا المصير، فإن هذه القرية التي بدا لها أن هذا الحكم مجحفا ومتعسفا في حقها، لم يكن أمامها إلا العودة إلى الخيارات القديمة المتمثلة في الدفاع عن طريق تكوين لف مؤازر بناء على استغلال رابطة الدم والنسب، وكانت سببًا في توقف تطبيق القوانين العرفية بالمنطقة إلى أن دخلت تحت تصرف زعيم المقاومة محمد بن عبد الكريم الخطابي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٢ ديسمبر ٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر: ٣١ يناير ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

المغرب؛ الريف؛ القانون العرفي؛ قبيلة؛ قرية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.354705



الاستشهاد المرجعي بالمقال:

فريد المساوي. "ذعيرة تيزي عياش بالريف الأوسط سنة ١٩١٧ بين الوثيقة المكتوبة والرواية الشفوية ومحاولة التأصيل التاريخي".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ١٣٢ – ١٤٢.



Corresponding author: faride87@gmail.com
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقَدِّمَةُ

إن العديد من الروايات الشفوية المتواترة بين مختلف المجموعات البشرية، والتي غفل عنها المؤرخون ولم يلتفتوا لها، أو لم يعيروا لها اهتماماً اعتقاداً منهم بأنها خالية من أية أهمية تاريخية، إلا أنها قد تكون عكس ذلك، وقد تشكل البديل الحقيقي لمشكل قلة المصادر التاريخية التي طالما اشتكى منها المؤرخون، خاصةً إن كانت الرواية معضدة بوثيقة مكتوبة غميسة بدورها ضمن مخلفات إحدى الأسر، وبقيت لعشرات السنين بين سجلات الأملاك وعقود البيع والشراء والأكرية القديمة.

سأقدم في هذا المقال نموذجًا من هذه الوثائق العائلية، والتي تم فيها توثيق أحد الأحكام العرفية التي لا تزال حاضرة بقوة في الذاكرة الجمعية لإحدى قرى الريف الأوسط بشمال المغرب، وهي قرية تيزي عياش التابعة لقبيلة أيت عبد الله، كيف لا والأمر كان يتعلق بإحراق القرية وتخريب مرافقها وتهجير سكانها. إنها عقوبة قاسية فعلاً، ولكن الأمر يتعلق بتطبيق القانون. فالتهاون في ذلك من شأنه أن يكون سببًا وذريعة لانتشار الفوضى والتسيب.

ولكن بالنسبة لسكان القرية وأعيانها هل سيقفون مكتوفي الأيدي، وينتظرون أن تجتمع عليهم القبائل وتشردهم بعد هدم بيوتهم وتخريب ممتلكاتهم، وبسبب جرم اقترفه شخص واحد؟ خاصة وأن المذنب قد قتل أثناء ضبطه متلبسا بارتكاب جريمته. أم يلجؤون إلى البحث عن أي حل يخرجهم من هذه الورطة مهما كان نوعه؟ ثم متى كان هذا وبناء على أي قانون صدر في حقهم هذا الحكم؟

أولاً: الوثيقة المكتوبة

١/١–نص الوثيقة

الحمد لله بمحضر من يضع شكله إثر تاريخه حيث اجتمعت القبائل كبني ورياغل ونواحيها على آل تزي عياش أولاد عبد السلام بن عمر بن محمد ضما اليعقوبي من أيت موسى على سبة[١] أخيهم محمد بن عمار بن محمد حيث قتله محمد ضما بن حماد بن محمد بن سعيد أزكري[٢] في النقابة[٣] وطلبوهم القبائل المذكورون بالذعيرة وأدوها الأولاد المذكورون على الدخاخين[٤] وهي مايتان ريالا وثمانية وسبعين ريالا فضة سكة قارض من ضرب صبنيول دمره الله وحازوا جميع أملاكه في ذلك العدة المذكورة أما ما كان وتعين وبأن تيز عياش وأحوازه في بني عبد الله جبلا ومحلا (من أي شيء كان) أراض وديار قائمة وواهية ما صار سعرا مقوم[٥] وبقي عام وما قدم[٦] (واستطاب) الغلل من حبه[٧] هي من أراد من الورثة أن يأخذ قسمته فيؤدي (حقه) في تلك العدة فيأخذها وإلا فلا نصيب له في الأملاك المذكورة (تقييدًا) صحيحًا وحضورًا عامًا على ما تأكد وقيد لماسكهم ليكون حجة بيدهم وتقدمت الشهادة نحو سنة مع حفظ الشهادة إلى الآن ... في أواسط شهر الله صفر الخير عام ستة وثلاثين وثلاثمائة وألف (أواخر شهر نونبر ١٩١٧م).

عبد ربه طاهر بن الحاج عمر لطف الله به آمين وعبد ربه سبحانه ...... (غير واضح).

٢/١–ملاحظات على الوثيقة

- كتبت الوثيقة بأسلوب ركيك إلى حد الغموض أحيانا وتحتوي على العديد من الأخطاء اللغوية، وهذا طبيعي جداً، ففي الزمن الذي وقعت فيها هذه الحادثة لم يكن بالريف أناس ذوي مستوى تعليمي جيد، بل كل ما كان هنالك هم بعض الفقهاء والطلبة الحافظين للقرآن الكريم، أما مستوى تكوينهم في اللغة فيكون ضعيفا في الغالب.
- تتحدث الوثيقة عن اجتماع القبائل "كبني ورياغل ونواحيها" وليس قبيلة بني ورياغل وحدها، وهنا يمكن أن نستشف أنه كانت هناك عهود بين مختلف القبائل على تعميم بعض القوانين العرفية فيما بينها وتطبيقها على مستوى نفوذها الترابي، ولا نعرف ما هي القبائل وكم كان عددها.
- تقدم لنا نسب ساكنة قرية تيزي عياش "أولاد عبد السلام بن عمر بن محمد ضما اليعقوبي من أيت موسى".
- تذكر بوضوح حادثة مقتل "بومزوغ" في (النقابث) "أخيهم محمد بن عمار بن محمد حيث قتله محمد ضما بن حماد بن محمد بن سعيد أزكري في النقابة"، ولا تذكر أية تفاصيل أكثر، وربما مع ثبوت تورطه في

الهجوم وحفر "النقابة" فلم تعد التفاصيل مهمة مثل دوافعه وأسبابه ولا كيفية تنفيذ ذلك.

- تذكر بوضوح أيضًا أن القبائل طالبت إخوانه بأداء الذعيرة وقدرها "مايتان ريالا وثمانية وسبعين ريالا فضة سكة قارض من ضرب صبنيول"، وأنهم أدوها مقسمة فيما بينهم "على الدخاخين"، وأنهم حازوا جميع أملاكه "في العدة المذكورة" بمعنى قيموا ثمنها وأسقطوها من مبلغ الذعيرة.
- أما ما بعد هذا، والذي يتعلق بالقرية "تيزي عياش" فغير واضح نظرًا لرداءة الوثيقة وركاكة اللغة، وحتى ما حاولنا كتابته أثناء التخريج لم يكن واضحًا بما يكفي وربما وقعنا في أخطاء وعدم التوفق في القراءة الصحيحة لبعض الكلمات، ولهذا فإن جملة ما نفهم منه أن مجموعة القبائل قد فرضت على القرية ذعيرة عامة على أن يؤديها الجميع مقسمة فيما بينهم، وقامت بتقويم محاصيل القرية وأملاكها، على أن تصادر منهم وتخصم من مبلغ الذعيرة، ومن استطاع منهم أداء ما عليه فليحسب الحصة التي تلزمه ويؤديها ليبرئ ذمته ويجني غلته، ومن لم يفعل ذلك فلا حصة له في الغلال.
- وقع الوثيقة عدلان يبدو أن اسم أحدهما هو طاهر بن الحاج عمر، ويبدو اسمه واضحًا ومتبوعًا بعبارة "لطف الله به آمين"، وأما الثاني فاسمه غير واضح وتتعذر قراته نظرًا لاختلاط الاسم بالتوقيع، ما عدا عبارة "عبد ربه سبحانه" التي بدأ بها الإمضاء.

ثانيًا: الرواية الشفوية

تقول الرواية الشفوية[٨] المتواترة في المنطقة إن محمد بن عمر موح امحند الملقب ب "بومزوغ" من قرية تيزي عياش، وهي إحدى قرى فرقة أيت عبد الله من قبيلة أيت ورياغل، كان معروفًا بالطيش وارتكاب بعض السلوكات المنحرفة من حين لآخر، وشاع يوما أنه كان يؤذي أرملتين كانتا تسكنان وحدهما في منزل بأحد أطراف القرية من جهة الطريق المؤدي إلى قرية أيت زكري المجاورة، وكان يذهب إلى منزلهما ليلا ويتحرش بهما، وربما لاحقهن حيثما ارتحلن. وقد اشتكت منه الأرملتان لدى وجهاء القرية، وأيضًا لدى أقاربهما بقرية أيت زكري، وكان أهل القرية يحذرون "بومزوغ" من عاقبة أفعاله الذميمة وسلوكاته المنحرفة التي تتنافى مع جميع القوانين والأخلاق والأعراف، وينصحونه بالاستقامة والتعقل والتزام أعراف وأخلاق القبيلة، إلا أنه لم يكن يعير أي اهتمام لنصائحهم.

وأمام الشكايات المتكررة للأرملتين، فكر بعض أقاربهن في وسيلة للإيقاع به متلبسا، بحيث كلفوا واحدا منهم وهو المسمى محمد بن حمادي بن موح سعيد من قرية أيت زكري، والذي أتى خفية إلى المنزل الذي تقطنه الأرملتين، واختبأ في أحد أركانه ينتظر الوقت الذي قد يأتي فيه المتهم "بومزوغ" ليفاجأه ويقبض عليه، أو ينتقم منه هنالك في عين المكان. وفي إحدى الليالي، بينما الأرملتين في بيتهما، ومحمد بن حمادي أزكري في ركنه المعتاد، سمعوا صوتا يشبه نقرا على جدار المنزل، وعرفوا حينها أنه هناك، لكن ما الذي يفعله؟ إنه يضرب "النقابث" أو "النقابة"، وهي عملية إحداث ثقب في الجدار بغاية التمكن من التسلل إلى الداخل، وهذه العملية كانت معروفة في المجتمع كعمل يقترفه اللصوص والمهاجمون على البنايات المحصنة التي لا يتمكنون من فتح أبوابها، وهي جريمة كبرى في نظر الشرع والعادات والقوانين العرفية، خاصة حين تكون مقرونة بهدف ارتكاب فاحشة عظيمة.

أمهل محمد بن حمادي المهاجم "بومزوغ" إلى أن يتم الثقب في الجدار حتى تكتمل جريمته، وكان ينتظره في صمت وفي الظلام داخل المبنى وبيده قادوم من النوع المعروف محليا بالحديدة. وحين أتم الحفر جرب أولا إدخال عكاز وضع فوقه ثوب ليتأكد إن هناك أحد يتربص به بالداخل، ولكن المتربص كان ذكيا واستطاع رغم الظلام أن ينتبه لذلك، فانتظر وهو ثابت في مكانه دون حراك، وبعد قليل بدأ "بومزوغ" بالتسلل، فأدخل رأسه في ثقب "النقابة"، وحين ميزه محمد بن حمادي جيدا وتأكد أنه هو بالفعل هوى عليه بقادومه بكل قوته بضربة قاضية على رأسه أردته قتيلاً.

حين تمت تصفية "بومزوغ" تأكد الأهالي، ومنهم مجلس القبائل، من صحة الشائعة التي كانت منتشرة عنه، ومعنى هذا أن القرية أصبحت بأسرها متهمة. ذلك

أنها لم تستطع ثنيه ومنعه من اقتراف ممارساته المخلة بالحياء والمنافية للدين ولأعراف القبائل، ثم لأنها كانت تحميه وتتجاوز عنه، وتحاول المماطلة والتشكيك في الشائعة. وإذا كان "بومزوغ" قد لقي مصيره الذي يستحقه، فإن القرية بدورها كانت تنتظرها عقوبة شديدة وأليمة، وهي دفع ذعيرة مالية ثقيلة بالإضافة إلى مصادرة كل ممتلكاتها وتخريب مرافقها وإحراق دورها ونفي أهلها.

فكر شيوخ القرية مليا في المصير الذي ينتظر قريتهم، لقد علموا أن أعيان مجلس القبائل تداولوا المسألة في الكواليس، وكيفوها بطريقة ما مع القوانين العرفية المعمول بها آنذاك، وقرروا أن يحكموا بإنزال العقوبة المشار إليها، إلا أن موعد الإعلان الرسمي عن العقوبة لم يكن قد حل بعد. وهذا يعني أن أمام القرية بعض الوقت للتصرف إن كان هنالك مخرج ممكن يخرجهم من هذه الورطة، فأهل القرية كانوا يرون أنهم أبرياء ولا يستحقون أن يحكم عليهم بهذه القساوة. هنا جرب شيوخ القرية أن يستميلوا لصالحهم الشيوخ الذين يعتقد أنهم تربطهم بهم عصبية أو رابطة الدم أو المصاهرة، وبالفعل فقد ظهر الكثير من شيوخ الأفخاذ والفرق التي وعدتهم بأن تقف إلى جانبهم مهما كلف الثمن، وخاصة المنتمون إلى فرقة أيت عبد الله، وهي فرقة يهاب جانبها داخل القبيلة والمنطقة بشكل عام.

وحين حل موعد إعلان الحكم وإشهار العقوبة، وذلك في اجتماع كان مجلس القبائل قد دعا إلى عقده في الهواء الطلق بقرية "أيت زكري" قريبا من ضاية تدعى "تاكرمانت امعنصار". وكان أهل تيزي عياش قد جمعوا حلفا قويا، وحضر جميع عناصره إلى عين المكان، وكلهم يحملون بنادق أخفوها داخل جلابيبهم، وقد تعاهدوا على رفض العقوبة والدفاع عن القرية مهما كلفهم ذلك من ثمن، حتى وإن اقتضى الأمر نسف ذلك الاجتماع بالقوة. وحين تداول أعضاء المجلس في مختلف الحيثيات وقرروا ما قرروا، كلفوا واحدا منهم بالنطق بالعقوبة بصوت عال ليعلم بها جميع الحاضرين:

- أيها الناس.. حسب القرار الذي اتخذه وحكم به مجلس القبائل، فإن تيزي عياش ستلزم بدفع...

ليقاطعه واحد من الحلف المؤازر لقرية تيزي عياش، وقد أخرج بندقيته من تحت جلبابه، وأشار بسبابته إلى فوهتها:

- يا شيخ.. يا فلان.. سندفع لك ما يخرج من هذه الفوهة!.

هنا قام الشيوخ أعضاء مجلس القبائل مندفعين وعلامات الغضب بادية على وجوههم. واندفع عناصر الحلف المؤازر أيضا وقد امتدت أيديهم لتحاول سل البنادق من تحت الجلابيب.. وقام جميع الحاضرون مندهشون لا يعرفون ما سيفعلون.. بدأت هتافات وصيحات تعلو هنا وهناك.. فقد النظام وتفرق الناس في المكان يتناقشون في ثنائيات أو مجموعات صغيرة، واختلفوا فيما بينهم بين مؤيد لمجلس القبائل ومع استمرار تطبيق العرف، وبين مؤازر لقرية تيزي عياش وموقفها، والاكتفاء بكون المذنب قد لقي حتفه وكفى.

وكان كل من الفريقين المتنازعين (مجلس القبائل وحلف أيث عبد الله) معبأ تعبئة تامة، ويبدو على أهبة الاستعداد للمواجهة في حالة تطلب الأمر ذلك. وفي الأخير، ولتجاوز هذا الجو المشحون، وتجنب حدوث أية كارثة محتملة، تم إلغاء إتمام هذا الاجتماع وتأجيل المحاكمة إلى أجل غير مسمى، وتفرق الجمع شيئًا فشيئًا، وهكذا نجت قرية تيزي عياش من العقوبة، ولكن ظلت صفة تلازمها عندما يذكرها الناس لمدة طويلة وكأنها وصمة عار، "تيزي عياش ثارزا رحق" بمعنى تيزي عياش: أنهت تطبيق القانون.

ثالثًا: السياق التاريخي للحدث

٣/١-الفراغ السياسي ونشاط عملاء إسبانيا

تعود الوثيقة إلى أواخر سنة ١٩١٧م كما يظهر ذلك من التاريخ الهجري المثبت بوضوح في آخرها (أواسط صفر ١٣٣٦هـ) وهو الموافق للتاريخ المذكور. ولا بد من التطرق للسياق التاريخي ومميزات هذه الفترة سواء على مستوى الريف والمنطقة الخليفية التي شكل جزءا منها، أو حتى على المستوى العالمي. وذلك لفهم أفضل للإطار الذي وقعت فيه هذه الحادثة مما يجعل منها حدثًا تاريخيًا له أهميته في تاريخ الريف المعاصر.

على مستوى الريف، خاصة الريف الأوسط، كان هناك فراغ سياسي كبير. بحيث بعد توقيع معاهدة الحماية سنة ١٩١٢م، وإلى حدود انطلاق المقاومة الريفية بزعامة محمد بم عبد الكريم الخطابي سنة ١٩٢١م، كان الريف لا يحكمه أو يتزعمه أحد. ذلك أن خليفة السلطان(٩) لم يكن قد بسط نفوذه بعد على المنطقة، وكذلك إدارة الحماية الإسبانية التي كانت تخوض بعض الحروب بالريف الشرقي، كانت لا تزال تحاول في المناطق الأخرى، كالريف الأوسط، نهج سياسة التغلغل السلمي التي كان يقودها الجنرال خوردانا اعتمادًا على بعض العملاء(١٠)، وتحاول خلق الصراعات الداخلية لتسهيل مخططاتها. يقول جرمان عياش في هذا السياق إن استشهاد الشريف أمزيان في ماي ١٩١٢م ترك فراغا كبيرا، خاصة وأن المخزن كان قد ارتمى فعليًا في أحضان الحماية، وترك بصفة نهائية هذه الوحدات القبلية وشأنها، والتي أصبحت تتلمس طريقها بحثًا عن بعضها البعض، وأن تجد من الآن فصاعدا سبل الوحدة. بيد أن الفئة القليلة من الأعيان، المأجورة من طرف إسبانيا، والتي كانت الأوامر من مليلية، كانت تعمل بالعكس على تأجيج الخلاف، مستغلة نفوذها الذي تزايد شأنه(١١)".

في هذه الظرفية التي كان فيها أعيان القبائل يحاولون التعويض عن ذلك الفراغ السياسي بتعميم تطبيق القوانين العرفية(١٢)، وربما نقل المحلية منها أو التي تخص جماعات الأسر أو الأفخاذ إلى مستويات أعلى لتلتزم بها كل القبيلة أو مجموعات القبائل، وذلك من أجل الحفاظ على أمن وسلامة المجتمع من الفتن، كانت سياسة إسبانيا تتدخل عن طريق أتباعها لتعمل على هدم وتقويض أسس المجتمع الريفي. فإلى جانب تسبب أولئك العملاء في الكثير من الصراعات والنزاعات عبر تضخيم الخلافات بين السكان مهما كانت بساطتها، كانوا كذلك يشجعون على رفض أداء الغرامات، وعدم الانصياع للعقوبات التي كانت الزعامات القبلية تحكم بها على مقترفي الجرائم، ففتح ذلك الباب على مصراعيه على الفوضى والاقتتال(١٣).

بدأت هذه السياسة بشكل ممنهج منذ تأسيس مكاتب الشؤون الأهلية (Oficinas de Asuntos Indigenas) سنة ١٩٠٨م، ومن هنا بدأت الأزمة. وقد صرح الجنرال خوردانا بعد ست سنوات بأنه أذكى نيران الحرب حسب مشيئته هنا وهناك(١٤). كما صرح العقيد ريكلمي أمام لجنة التحقيق التابعة للكورتس يوم ٢٩ يوليوز ١٩٢٣م، متحدثا عن أحد عملائه من أعيان بني ورياغل: "كانت الخطة ترتكز على العمل بشكل تصبح معه قبيلة بني ورياغل في حالة حرب مستمرة، عن طريق تحطيم المنظومة المسماة ب "منظومة الغرامات". لقد كانت القبيلة تفرض غرامة عندما تقع جريمة قتل، وبذلك يستتب السلم. إلا أن الخطة التي اعتمدتها كانت تقوم بالضبط على الحيلولة دون أداء هذه الغرامة. منذئذ وقع اللجوء إلى التراشق بطلقات النار في الأسواق التي تعطل جمعها، وتمخضت عن ذلك المطالبة بالثأر، وبديون الدم. كان القتل يتم من قرية لأخرى، ولم تتمكن القبيلة إطلاقا من التوصل إلى اتفاق بينها للالتحاق بأولئك الذين كانوا يحاربوننا. لقد تمكننا من الحفاظ على هذا الوضع طوال سنوات عدة. كانت الحرب دائما بينهم، ولم تكن أبدا ضدنا"(١٥).

وليس المقصود من هذا الحديث عن التدخل الإسباني، وخاصة ما يتعلق بتشجيع رفض أداء الغرامات، هو أن رفض "تيزي عياش" أداء الذعيرة التي فرضت عليها يندرج ضمن هذه السياسة، أو كانت لهم علاقة بمدبري سياسات إسبانيا بالريف، فهذه المسألة غير واردة بتاتا، بل بالعكس فقد عرف أهالي هذه القرية بمواقفهم الصارمة تجاه الخونة والعملاء الذين كان أغلبهم معروفون في المجتمع، كما أن رفضهم لم يكن سببه الأساسي الذعيرة في حد ذاتها، فهي يمكن أن يوجد لها حل، ولكن ما بعدها من تخريب القرية فإنه حكم مجحف ولا يوجد ما يبرر إنزاله بالقرية وأهلها. ولكن المقصود من هذا الكلام هو أن تزامن رفضهم وملاءمته مع أهداف سياسة خوردانا كان من شأنه أن يجعله أكثر تأثيرا ووقعا على أعيان القبيلة ومجلسها، ولا شك على القبائل الريفية بأكملها.

٢/٣-الظروف الاقتصادية وأحوال السكان

عرفت هذه الفترة على المستوى العالمي أحداثا كبرى وحروبا مدمرة، مثل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨م)، والثورة الروسية (١٩١٧م)، إضافة إلى الحروب التحريرية في الكثير من بلدان العالم، مع ما يرافق الحروب عادة من توقف العديد من الوحدات الإنتاجية، وانقطاع الطرق التجارية، وقلة وغلاء المنتجات الغذائية وغيرها. ولذلك فمن الطبيعي أن تكون لهذه الحروب آثارا سلبية على الاقتصاد العالمي، وأن تتأثر على وجه الخصوص الاقتصاديات الصغرى للبلدان الضعيفة والمحاصرة. يقول مؤرخ تطوان محمد داود: "وحل عام ١٣٣٦هـ (١٩١٧م)، ولا نذكر عنه إلا أن أوله كان كالذي قبله (...) الحرب الأوربية الكبرى هي الشغل الشاغل لأفكار الناس في مختلف الدول والشعوب. ولقد كان من لطف الله بهذه الجهات، أن إسبانيا الحامية لهذه الناحية، بقيت في الحياد، فلم تكتو هذه المنطقة بنار تلك الحرب الضروس"[١٦]. وإذا كان يقصد أن المنطقة لم تتأثر بالنتائج المباشرة للحرب من قتل وتدمير، لأنها كانت خارج مجال اشتعالها، فإن التأثر بنتائج الحرب على المستوى الاقتصادي كان قائما لا محالة.

بالإضافة إلى الأزمة الناتجة عن الحرب الكونية، عرفت منطقة الريف خلال هذه الفترة موجات من الجفاف التي امتدت لسنوات طويلة. فهذا جرمان عياش يشير إلى أن إسبانيا عندما بدأت عملياتها الحربية في الريف سنة ١٩٢١م، كانت قد مضت عليه خمس سنوات متتالية من الجفاف وفقدان المحاصيل، ولذلك كانت تراهن على هذه المسألة كعامل قوة بالنسبة لها، وأنه "بدلا من أن يحس الكثيرون بالرغبة في محاربة إسبانيا، فإنهم كانوا سيأملون منها، وهي طوق النجاة الوحيد، أن تتفضل بتشغيلهم مقابل حفنة من الشعير، في تعبيد الطرق لجيشها في هذه الجهة أو تلك، أو في الحصاد هنالك بأرض الأندلس"[١٧].

وأشار محمد داود إلى تأخر هطول المطر سنة ١٩١٧م في القبائل الجبلية حتى كاد الناس يقنطون، فاجتمعوا من مختلف الجهات والمناطق والقرى حول ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش كما كانت العادة، حيث قرؤوا القرآن، وذبحوا الذبائح، ووزعوا الصدقات، وأطعموا الضعفاء طلبا للغيث[١٨]. والمعلوم أنه حين تصاب منطقة جبالة بالجفاف وقلة المطر، فإن منطقة الريف يكون جفافها، في غالب الأحوال، أقسى وأشد وطأة. ذلك أن منطقة جبالة تسجل فيها عادة معدلات عالية من التساقطات، إلا أن تلك المعدلات تنخفض بشكل تدريجي كلما اتجهنا شرقا، إلى أن تصبح في الريف الشرقي نادرة جداً.

لا شك إذن أن عامل الجفاف والقحط وتأزم الأحوال الاقتصادية قد ساهم بدوره في تملص السكان من أداء الغرامات التي كانت تفرض على ذويهم المتورطين في ارتكاب الخطايا والجرائم، خاصة تلك التي تكون باهظة وتفوق قدراتهم وطاقاتهم. وهنا لا يكون أمامهم حلا آخر سوى البحث عمن يؤازرهم ويدافع عنهم لتجنب أي عقاب آخر في حال عدم أدائهم لتلك الغرامات.

رابعًا: حول وضع (السيبة) والقوانين العرفية

اتسم الوضع العام بالريف خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالضعف النسبي لحضور المخزن، ولكن ذلك لا يعني غياب سلطته بشكل تام[١٩]. وفي المقابل شكلت الزعامات القبلية المتكونة من الفلاحين الميسورين والمعضدين بوفرة ذريتهم وأقاربهم مجالس يمارسون من خلالها سلطتهم التي كانوا يتقاسمونها أو يتنازعونها عن طريق التفويض أو المشاركة، وذلك في مستويات: مجموعة الأسر، والفخذ، ومن الممكن أحيانا القبيلة بأسرها[٢٠]. يقول جرمان عياش عن الرأي الذي يذهب إليه البعض من كون الريف عاش في استقلال تام عن السلطة المركزية، بأن ذلك ما يظهر إذا ما استحضرنا السلط الواسعة التي كانت تمارسها مجالس منبثقة مباشرة من السكان المحليين، وفي شتى المجالات دون استثناء مجال العدالة، فكل ذلك كان يتم في غياب تام لسلطة الدولة. ويضيف إلى ذلك أنه خلال النزاعات التي قامت منذ ١٨٦٠م بين الأوربيين والقبائل الريفية، كان السلطان نفسه يتعلل بعجزه عن إخضاع هذه القبائل[٢١].

ولكن كل هذا لا يعني الغياب التام لسلطة المخزن، فقد كانت تلك الزعامات المقترحة من قبل السكان لا بد أن تعرض على المخزن ليوافق عليها، كما لا يجب أن نغفل حضور المخزن في النقط المحاذية لمدينة مليلية والجزر المحتلة، وحضوره في شكل محلات من حين لآخر لتسوية مختلف المشاكل والقضايا الكبرى. إن سلطة القبائل كانت بمثابة مكمل لدور المخزن في التسيير الذاتي، إذ كان دورها البت في القضايا الصغرى الداخلية في المستويات المشار إليها، وحين تكون المسألة أكبر من ذلك كنزاعات السكان مع الأجانب مثلا، فلا بد أن تعرض على المخزن. يقول محمد أقضاض أن ظاهرة "السيبة"[٢٢] لم تكن في هذه المنطقة تعني الفوضى والتقاتل، وإنما تعني في أحد معانيها أن السلطة المركزية كانت ضعيفة الحضور، ما دامت قبائل الريف تتجاوز مشاكلها بنفسها، وتؤدي ضرائبها وتساهم بأبنائها في الجيش السلطاني حين يستنفرها لمواجهة العدو[٢٣].

فالذين يقولون بهذا الرأي، هم أنفسهم من يقدمون لنا صورة عن الريف بأنه كان غارقا في الفوضى والاقتتال الداخلي، وأكثر من ذلك فهم يرجعون ذلك إلى أزمنة قديمة لكونه يعود إلى خصائص الريفيين أنفسهم وقد لازمتهم طوال حياتهم، ولكنهم في الواقع إنما أسقطوا وضعية عاشها الريف في فترة قريبة جراء تدخلات ومكائد الإسبان ليجعلوها بهتانا ممتدة في جذور التاريخ. فحسب جرمان عياش فالريفيون عرفوا بالفعل في عهد قريب من السهل تأريخه قلاقل خطيرة. إلا أن هذه القلاقل كانت بمثابة أزمة طارئة قطعت بصورة مفاجئة المجرى العادي للحياة التي عاشها الريف في السابق، مما جعلها توسم في عقول الأجيال الحديثة بطابع مأساوي وتعطى لها تأويلات ملحمية. والحال أن السوسيولوجيين لم يأخذوا هذه الحكايات الأسطورية كأحداث تاريخية فحسب، بل وأصروا كذلك على أن يفسروا على ضوئها تاريخ الريف كله منذ العهود الغابرة، ضاربين عرض الحائط بشهادات الريفيين أنفسهم[٢٤].

بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه فغياب سلطة المخزن أو ضعف حضورها لا يعني بالضرورة سيادة الفوضى والاقتتال، فالقبائل التي أسست المجالس لتسير من خلالها علاقاتها الداخلية، ووضعت قوانين عرفية لتحتكم إليها، ما لجأت إلى ذلك إلا لضعف حضور المخزن، وتفاديا لحدوث تلك الفوضى المزعومة. فسكان القبائل كغيرهم لابد أن تنشب فيما بينهم نزاعات من حين لآخر، والتي قد تكون بسبب حدود القطع الأرضية أو ملكيتها، وإهانة الكرامة، أو حجز القطيع إذا تعدى على أرض مزروعة في ملك الغير، أو الاعتداء على الحريم. "ولأجل ضمان نوع من الاستقرار وتقليلا للكوارث التي تنجم عن ذلك، كان من المفروض على رؤساء القبائل (إمغارن) أن يضعوا تقنينات للحد من تفاحش العداوة، فكانوا يعقدون مؤتمرات تدعى (أكراو) وغالبا ما يكون في محل الأسواق، وكان لزاما على كل قبيلة أو خمس أو فخذ أن يكون لديها أمغار يتكلم باسمها، وعليه لزاما أن يحضر في المؤتمر بأية طريقة كانت، تحرسه جماعة من الاغتيال في الطريق، وعليه أن يتجنب الطريق المطروقة للجميع"[٢٥].

نلاحظ من بعض القوانين العرفية لبعض الأفخاذ أن العقوبات المتعلقة بالتجاوزات الصغيرة الداخلية المتعلقة بالإخلال بالسير العام لنمط النشاط الفلاحي وتربية الماشية ونظام الري، إضافة إلى مسألة إكرام الضيف، فإن عقوباتها كلها كانت عبارة عن غرامات متفاوتة. ومثال ذلك ما سنه مجموعة من أعيان تماسينت في اجتماع عقدوه في ٢٤ ماي ١٨٦٨م، واتفقوا على تعيين شيخ جديد وهو علي بن عزوز بن محمد بن عزوز، كما سنوا هذه القانون:

"جماعة تماسينت اتفقوا أيضا على العراصي إذا انقبض[٢٦] في الليل عشرة مثاقيل، وفي النهار يعطي خمسين مثقالا دراهيم، وإذا مات في السرق ما يغرم أبدا، وإذا انسل السكين يعطي دورو، وإذا طلع المكحل (البندقية) عند أحد من الجماعة المذكورة يعطي عشرة مثاقيل للشيخ، وإذا وقع لكسيب (المواشي) من المعز والبقر والغنم والحمار في الزرع وغيره من متاع الناس إثنى عشرة موزونة، وإذا بات الضيف في جماعة تماسينت كلهم يقدموا عنده، وإذا منع يعطي معز أو دورو بوجهه، وإذا قطع كرموس النصارى (ثمرة الصبار) يعطي خمسة أواق..."[٢٧].

وفي حالة ما إذا كان الجرم المقترف هو القتل فيتم الاتفاق غالبا على فرض غرامة باهظة يؤديها القاتل. حيث يحدد يوم يذهب فيه أفراد القبيلة إلى قرية الجاني لأخذ الغرامة، وعلى أفراد جماعته أن تؤدي ما فرض عليه، وإلا فإن أولئك الجموع سيستعملون وسائلهم لأخذ الغرامة، إما بالاستيلاء على الماشية أو بيع الأرض والممتلكات، وبين القبائل اتفاقيات في هذا الشأن تلزم بها كل التي وقعت عليها[٢٨]. وبالإضافة إلى الغرامات فإن القتل والجرائم الكبرى التي تتعلق بتهديد استقرار الجماعة أو تمس بكرامتها، فإن بعض القوانين مثل قانون بني عادية أو (أيث عضية) ينص على تطبيق عقوبة قاسية، إذ بالإضافة إلى الذعيرة الباهظة، فإن العقوبة تقتضي إنزال الخراب بالقاتل وتجريده من متاعه هو وأفراد عائلته، بإحراق جميع متاعهم، ونفيهم[٢٩]. وهذا ما نقرأه في الاتفاق الذي انعقد بين جماعات هذه الفرقة:

"جميع بني عضية كافتهم صغيرا وكبيرا وهم جماعة أيت تزوراخث وجماعة أيث الربضة وجماعة أيث خربوش وجماعة أيث منوذ وجماعة أيث أجذير وجماعة أيت تيزي وجماعة إغميرن وجماعة أيث فارس. وذلك أنهم لما قدموا بجموعهم لضريح الولي الصالح سيدي الحاج عمر بالربضة (...)، عقدوا الصلح بينهم صلحا تاما، وتعاهدوا بالضريح على المصحف الكريم على أن لا تكون الغرة بينهم أبدا، لا بقتل ولا بسرقة ولا بتحويس (مصادرة المواشي أو الممتلكات) ولا بغير ذلك، وأن من قتل منهم أحدا فإن جميع مداشر بني عضية المذكورين يجتمعون عليه بجميعهم ويحرقونه هو وفرقته من إخوانه، ويخرجونهم من ديارهم، ويأخذون منهم ألف ريـال ذعيرة..."[٣٠]

من هنا يتبين أن هذه العقوبات وقساوتها تتناقض مع ما ادعاه بعض السوسيولوجيين من التطبيع مع القتل أو التسامح معه، وكان من شأنه أن يفرض الاستقرار واستتباب الأمن في المجتمع لولا السياسات الإسبانية السابقة الإشارة إليها، والتي استهدفت هذه القوانين وحاربتها. وهذا يدل أيضا على حداثة أعمال العنف التي سادت المجتمع الريفي وكونها محصورة في حوالي الثمان سنوات التي سبقت اندلاع حرب الريف.

خامسًا: ذعيرة تيزي عياش وحرب السبع سنوات

إن قصة "حرب السبع سنوات"[٣١] التي تحدث عنها الكثير من السوسيولوجيين الغربيين على اعتبار أنها حدثت بقبيلة أيث ورياغل، والتي يبدو أنهم استقوا أحداثها من روايات شفوية متباينة ومتضاربة، وتختلف عن بعضها البعض في الكثير من التفاصيل، يبدو لنا أنها في الواقع ما هي إلا تلك الحرب (الباردة) التي خلفتها مشكلة الذعيرة موضوع حديثنا هذا. فإذا كان جاك دومين وروبير مونتاني، اللذين لم يكونا - حسب جرمان عياش - إلا شخصا واحدا، قد تحدثا عن روايتين مختلفتين في هذا الشأن، فإن ذلك يعتبر مسارا تصحيحيا للصورة التي كونها الكاتب عن هذه الحرب منذ بداية اهتمامه بالريف، وإذا كان الأول قد أرجع الحرب إلى ١٩٠٠م أو قبل ذلك، وأنها دارت بين أيث علي، وأيث يوسف وعلي، فإن الثاني يرجعها إلى حوالي ١٩١٥م، كما يورد أن بني عبد الله كانت أحد أطرافها. ونلاحظ نفس التطور التصحيحي حدث فيما يتعلق بسبب الحرب. فإذا كان السبب في نظر روبير مونتاني هو هلاك كلب أحد الطرفين، فإنه بالنسبة لدافيد هارت هو منع امرأتين من ولوج أحد أسواق النساء[٣٢].

تقول إحدى أشهر الروايات المعتمدة من لدن من تطرقوا لـ "حرب السبع سنوات" إن مجموعة من أعيان القبيلة (أيث ورياغل) قرروا في إحدى الاجتماعات سن قانون يمنع نساء القبيلة من ارتياد أسواق النساء التي توجد بالقبائل الأخرى. ولما علم "الحاج حدو" شيخ فرقة أيث علي بخرق هذا القانون من طرف امرأتين من أجدير، حيث ذهبتا إلى سوق "الأحد" الخاص بالنساء الذي بقبيلة تمسمان المجاورة، غضب لأنهما دخلتا أرضا لقبيلة أخرى، وأمر أن تدفع كل واحدة منهما غرامة قدرها "دورو"[٣٣]. ولكن "سي زيان الخطابي" الذي كان يرأس "أيث يوسف وعلي" رفض أداء الغرامة باعتباره المسؤول عن المرأتين، ولكونهما – في نظره – لم يرتكبا جريمة تستحقان عليها العقوبة ودفع الغرامة. وكان هذا الحدث سببا في إشعال الحرب بين اللفوف[٣٤].

وإذا كان في هذه الرواية مما يتقاطع مع رواية ذعيرة تيزي عياش، وجود امرأتين في مركز موضوع سبب الحرب، فإننا نلاحظ أيضا أن شيخ أحد الفريقين يدعى الحاج حدو، وقد كان الشيخ الذي يمثل تيزي عياش أيضا يدعى الحاج حدو، وهو حدو بن امحند بن علي الذي مثل سائر أيث عبد الله أيضا في الكثير من اجتماعات القبيلة، إذ ذكره أحمد البوعياشي كواحد من زعماء القبائل المشاركين في الاجتماعات الأولى استعدادا لخوض معارك حرب الريف ضد الإسبان(٣٥)، كما ذكر أباه امحند ابن علي المساوي، ممثلا لبني عبد الله في الاستعداد لحرب بوحمارة، مع إضافة في الهامش أنه كان من رؤساء بني عبد الله ومن الشجعان الكبار(٣٦).

إن الحرب لسبع سنوات متواصلة كقتال دائم داخل قبيلة أيث ورياغل، هي محض خيال من وضع السوسيولوجيين الأوربيين الذين بالغوا في تصوير الريف قبل التدخل الاستعماري كحلبة قتال دامي، أما في الواقع فما كان هو انقسام في القبيلة إلى طرفين متنازعين، ربما كان لكل طرف لف من المؤازرين يضم جهات من قبائل أخرى. أما الفترة التي حدثت فيها فهي بلا شك ضمن فترة الفراغ السياسي الذي امتد من توقيع الحماية سنة ١٩١٢م إلى انطلاق حرب الريف سنة ١٩٢١م. وربما تخللت هذه الفترة الممتدة على مدى سبع سنوات أو أكثر بقليل، نقط اصطدام وحرب حقيقية في أماكن شتى ولأسباب مختلفة، ولكن سرعان ما يتم تطويقها وفضها، وهذا ما يفسر تعدد الروايات وتضاربها، وما جعل بعض الدارسين أمثال جرمان عياش يرى في القصة "حدثا حرفته الأسطورة، وأخرجته سلفا عن نطاق التاريخ"(٣٧).

ينقل لنا الأستاذ عبد الحميد الرايس عن رواية لف أيت يوسف وعلي بأن نتيجة هذه الحرب كانت لصالحهم. وقد فرضوا غرامة ثقيلة على خصومهم أيث علي، إلا أنهم تعاملوا معهم بتسامح فيما يتعلق بإحراق منازل الذين لم يستطيعوا دفع الغرامة(٣٨)، وهذا لا أراه يستقيم وكونه تهاونا في تطبيق قانون تم من أجله خوض حرب لسبع سنوات. وهذا بدوره مما يؤكد عدم صحة نسبة هذه الحرب إلى هذين الطرفين، ذلك أنه في حالة تيزي عياش ما كان سببا في التخلص من عقوبة إحراق وتخريب القرية هو جمع اللف والتعصب والامتناع عن ذلك بالقوة، وهذا ما تؤكده الرواية الشفوية، هذا فضلا عن وجود روايات شفوية متواترة تنسب حرب السبع سنوات إلى قتال حدث بين أيث عبد الله من جهة وبقية أخماس القبيلة من الجهة الأخرى، وخاصة أيث حذيفة وأيث بوعياش.

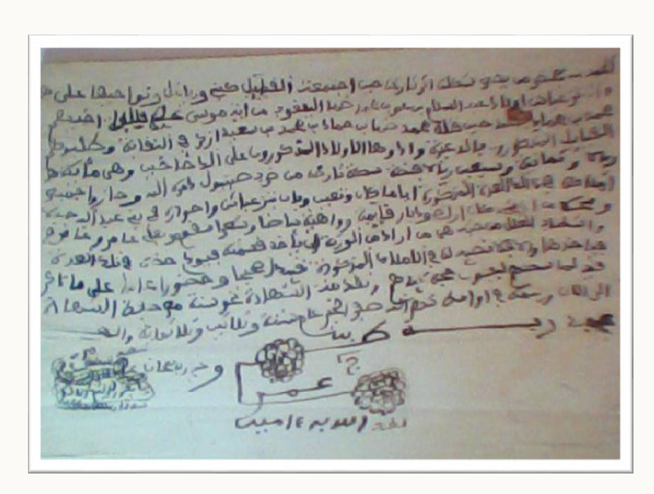
خاتمةٌ

إن الجريمة التي اقترفها المدعو "بومزوغ" هي في نظر المجتمع الريفي قبل فترة الحماية جريمة كبرى تتعلق بالعرض، وهي تمس بشرف وكرامة القبيلة، بل وبكرامة المجتمع الريفي بأكمله آنذاك. ولم يكن المجتمع ليتساهل في مثل هذه الخطايا. خاصة وأنها تزامنت مع فترة شهدت صراعا بين أعيان القبائل الذين يودون سد الفراغ الذي تركه غياب السلطة المخزنية بتعميم تطبيق القوانين العرفية، وبين حزب "أصدقاء إسبانيا" الذين كانوا يعملون من أجل إقبار تلك القوانين وشل العمل بها بهدف تكريس الفراغ السياسي وإنتاج الفوضى في المجتمع.

إن أهالي قرية "تيزي عياش" لم يكن ولو واحدا منهم من المتعاملين مع الإسبان، ولا ممن يسخرون من قبل قوى معينة، بل إنهم انخرطوا جميعا وببسالة في الحرب الريفية التي قادها المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي ابتداء من سنة ١٩٢١م. إلا أن دافعهم لرفض أداء الغرامة، وخرقهم للقانون العرفي، ورفضهم لحكم مجلس القبائل هو إنقاذ قريتهم وبني جلدتهم من قانون - رغم كل المبررات لسنه - إلا أنه يبقى قاسيا جدا أن ينفذ في حق قرية بأكملها والمذنب شخص واحد ينتمي إليها، مهما توفرت من مبررات لذلك. كما لا نستبعد مساهمة العامل الاقتصادي، أي الجفاف وقلة المحصول الزراعي، في رفض أداء الذعيرة.

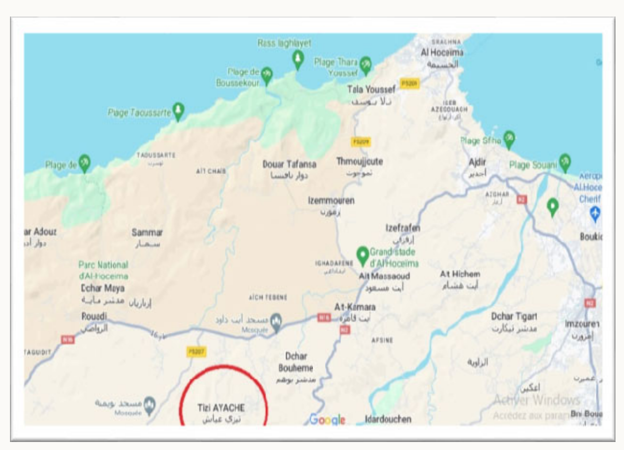
إن حجم هذه الحادثة التي قسمت القبيلة إلى نصفين متنازعين، بل مجتمع الريف الأوسط بأكمله انقسم بين منضم إلى هذا اللف أو ذاك، وتسببت في تجميد العمل بالقوانين العرفية، على ما يبدو هو السبب

الحقيقي لما سمي ب "حرب السبع سنوات"، خاصة وأن تاريخ ١٩١٧م هو تاريخ تحرير الوثيقة، وفي هذا التاريخ إنما كانت القضية قد انتهت ومنذ ذلك الحين تفرق الجمع، أما المشكلة فقد بدأت قبل ذلك ببضع سنوات. وأما بقية الروايات فإنها في الغالب نتجت في المناطق البعيدة من طرف أناس سمعوا بالحدث دون الإلمام بتفاصيله، ويتضح ذلك من تشابه عناصر الروايات، كما أن من الناحية المنطقية فهذا الحدث من شأنه أن يتسبب في مشكلة من هذا الحجم أما مسألة ذهاب امرأتين إلى سوق خارج القبيلة فيكفي منعهما من تكرار ذلك لتحل المسألة، وحتى الغرامة التي فرضت عليهما كان يكفي أن يتعاون السكان على جمعها وتؤدى لتنتهي القضية، أما في قضيتنا هذه فليس المشكلة في الذعيرة في حد ذاتها، بل في ثبوت انتهاك حرمة الأرملتين.



صورة رقم (٢) الوثيقة،
حصلت عليها من السيد عبد المومن بن مرزوق المساوي من قرية تيزي عياش[٣٩]

الملاحق



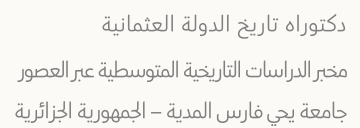
خريطة رقم (١)
توضح موقع قرية تيزي عاش (الدائرة الحمراء).
المصدر: google maps

الإحالات المرجعية:

(١) بمعنى "بسبب أخيهم".
(٢) نسبة إلى قرية "أيت زكري" المجاورة لتيزي عياش.
(٣) بالأمازيغية الريفية "النقابث" وهي إحداث ثقب في الجدار قصد التمكن من التسلل إلى الداخل.
(٤) بمعنى أداها إخوته معا بالتساوي حسب الأسر. الدخاخين جمع دخان إشارة إلى الكانون وتعني المسكن العائلي.
(٥) بمعنى تم تقييم جميع ممتلكاتهم وغللهم.
(٦) مرت سنة دون أن يؤدوا.
(٧) يعني تقرر أن تصادر غللهم.
(٨) الرواية متواترة يرويها جميع الشيوخ بالمنطقة بنفس التفاصيل.
(٩) حين اقتسم الاستعماران الفرنسي والإسباني مناطق النفوذ بالمغرب، بقي السلطان يباشر مهمته بالمنطقة التي صارت تحت النفوذ الفرنسي، بينما عين خليفة ينوب عنه في منطقة الاحتلال الإسباني.
(١٠) كان المؤرخ محمد داود من المؤيدين والمشيدين بسياسة الجنرال خوردانا مقارنة مع من جاؤوا بعده، وكأنه يريد القول أنه إن كان لا بد من الاستعمار، فعلى الأقل أن يدخل عن طريق نهج سياسة الإقناع والاستمالة السلمية أفضل من الحرب المدمرة، وقد قال في هذا الصدد: "ومثل سياسة خوردانا لا تكلف الدولة الكثير، لا من الأموال ولا من العتاد ولا من الأنفس، إلا أنها تسد الطريق أمام الضباط الذين يريدون الترقي ولو بقتل جنودهم، وأمام أصحاب المعامل الذين يريدون ترويج بضائعهم الجهنمية، ولو بحرق الأخضر واليابس، وأمام التجار الذين يمدون الجيوش بالمآكل والمشارب والملابس، ويربحون بالواحد العشرات، وأمام أصحاب المواصلات الذين تتوقف حركاتهم وتصدأ آلاتهم، وأمام هؤلاء وأولئك وغيرهم من الذين لا يهدأون إلا بفتنة الناس، ولا يعيشون إلا بموت الغير، ولا يهمهم إلا أن يثروا، ولو أفلست الدولة، وهلك الشعب، وضاع شباب الأمة ورجال مستقبلها ما بين قتيل وجريح". محمد داود، **تاريخ تطوان**، الجزء ١١، مراجعة وإضافات حسناء محمد داود، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي تطوان ٢٠٠٩، ص١٨٠. ثم قال عن موت خوردانا وتولي الإقامة العامة من طرف الجنرال برنكير، وما تلي ذلك من تحول في السياسة الإسبانية بشمال المغرب: "مات الجنرال خوردانا في ٢٠ نونبر ١٩١٨م، (...) وتغلب جانب المخالفين للسياسة الخوردانية الريسونية، فأسندت الحكومة الإسبانية وظيف المقيم العام بالمغرب، إلى الخنرال برنكير، وهو كهل فيه اندفاع الشباب وأنفة العسكريين، فقطع ما كان خوردانا قد وصله من جعل السياسة مع الريسوني وأتباعه (...) وقرر احتلال القبائل الجبلية، وإخضاعها لسلطة الاحتلال طوعا أو كرها..." نفسه، ص١٨٢.
(١١) جرمان عياش، **أصول حرب الريف**، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق، نشر الشركة المغربية المتحدة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٢، ص١١١.
(١٢) يحكى أن "بومزوغ" الشخص المعني في هذه القضية، حين كان إخوته ينصحونه بالعدول عن أفعاله غير اللائقة، كان يعاندهم ويحلف مهددا بأن يثير عليهم غضب الناس ابتداء من منطقة أشجار الأرز، ويقصد كتامة (والله حتى أتيدحارگغ خكوم م لاحد الليزر). وقد يعني هذا أن نطاق الالتزام بتطبيق القانون المعمول به آنذاك يمتد إلى جبال كتامة.
(١٣) محمد أقضاض، **الاحتراق والتوهج: الريف بين ١٨٦٠ و١٩٢٠**، ط١، دار النشر الجسور، وجدة ٢٠٠١، ص١٥٩.
(١٤) جرمان عياش، **أصول حرب الريف**، م س، صص.١١٣-١١٤
(١٥) نفسه، ص.١١١
(١٦) محمد داود، م س، ص.١٨١
(١٧) جرمان عياش، **أصول حرب الريف**، م س، صص.٣٠٥-٣٠٦
(١٨) محمد داود، م س، ص.١٨١
(١٩) يزخر الأرشيف المخزني بالرسائل المتبادلة بين السلطة المركزية والقواد والعمال بالريف، وكذلك بين السلطان ونائبه بطنجة، وكذلك مع أمناء الثغور والمراسي، والتي تتعلق بقضايا الريف وكل كبيرة وصغيرة مما يهم المنطقة.
(٢٠) جرمان عياش، "**المجتمع الريفي والسلطة المركزية المغربية (١٨٥٠-١٩٢٠)**"، دراسات في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى الدر البيضاء ١٩٨٦، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ص.١٩٣
(٢١) نفسه، ص.٢٠٣
(٢٢) يقسم عادة مغرب ما قبل الحماية إلى قسمين: بلاد المخزن وهي تلك المناطق الخاضعة كليا لسلطة المخزن، وبلاد السيبة وهذه الكلمة تعني في العرف المغربي الفوضى وغياب السلطة، وتشمل القبائل والمناطق النائية التي لم يكن للمخزن للحضور فيها بقوة وعلى الدوام وكان يغلب فيها تطبيق القوانين العرفية.
(٢٣) محمد أقضاض، م س، ص.١٥٩.
(٢٤) جرمان عياش، **أصول حرب الريف**، م س، ص.١٠٢
(٢٥) محمد أقضاض، م س، ص.١٥٨.
(٢٦) يعني إذا تم ضبط اللص متلبسا بالسرقة في البساتين المزروعة.
(٢٧) Emillio Blanco Ezaga, El Rif, la ley rifeňa los canones rifeňos, Ceuta, 1939, p.39
(٢٨) أحمد البوعياشي، **حرب الريف التحريرية ومراحل النضال**، الجزء الأول، نشر عبد السلام جسوس وسوشبريس، ١٩٧٤، ص.٤٠٩.
(٢٩) جرمان عياش، "**المجتمع الريفي والسلطة المركزية المغربية (١٨٥٠-١٩٢٠)**"، م س، ص.٢٠١
(30) Emillio Blanco Ezaga, op.cit, p.55
(٣١) يقول عبد الحميد الرايس، وهو واحد من أبرز الباحثين في تاريخ الريف المعاصر: "إن التاريخ لم يسجل من قبل أن الصراعات قد بلغت مستوى من التعقيد والشمولية بحيث اخترقت الجسم القبلي كله أفقيًا وعموديًا، بل تجاوزته إلى خلق أحلاف خارجية من قبائل مجاورة دخلت كلها ضمن دائرة الصراع الدموي كما وقع بسبب إحداث هذه السوق". عبد الحميد الرايس، "**سوسيولوجيا الأسواق النائية في الريف**"، ص٥٥-٧٧، مجلة حوليات الريف، العدد الأول، ١٩٩٨، ص.٦١.
(٣٢) جرمان عياش، "**المجتمع الريفي والسلطة المركزية المغربية (١٨٥٠-١٩٢٠)**"، م س، ص.١٩٩.
(٣٣) عملة كانت تعتمد محليًا وقدرها نصف درهم أو خمسون سنتيمًا، إلا أنها قديمًا كانت لها قيمة كبيرة.
(٣٤) عبد الحميد الرايس، م س، ص.٥٦.
(٣٥) أحمد البوعياشي، **حرب الريف التحريرية ومراحل النضال**، الجزء الثاني، نشر عبد السلام جسوس وسوشبريس، ١٩٧٥، ص.٥٨
(٣٦) أحمد البوعياشي، **حرب الريف التحريرية ومراحل النضال**، الجزء الأول، م س، ص.٤٣٨-٤٣٩.
(٣٧) جرمان عياش، "**المجتمع الريفي والسلطة المركزية المغربية (١٨٥٠-١٩٢٠)**"، م س، ص.١٩٩.
(٣٨) عبد الحميد الرايس، م س، ص.٥٧.
(٣٩) وثيقة عائلية توثق حكم مجلس قبائل الريف الأوسط أواخر شهر نونبر ١٩١٧ القاضي بإنزال العقوبة بقرية تيزي عياش التابعة لخمس أيث عبد الله، والمتمثل في دفع الذعيرة وإحراق القرية.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

حركة الإصلاحات في الدَّولة العثمانيَّة ونُضُوبِهَا سبعينيَّات القرن التاسع عشر الميلادي من خلال كتاب (الأزمات الشَّرقيَّة) لهنري لورنس

د. حسن بربورة
دكتوراه تاريخ الدولة العثمانية
مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور
جامعة يحي فارس المدية – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

بدأت حركة التَّنظيمات في الدَّولة العثمانيَّة سنة ١٩٣٩م لتحديث الدَّولة انطلاقًا من النَّموذج الأوربي، واستمرَّت حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، لكن ذلك لا يعني أنَّ الإصلاح كان تقليدًا لأوربا، فالعُثمانيِّين حاولوا التَّحديث باعتباره السبيل الوحيد لإنقاذ الدَّولة، وكانت التَّنظيمات هي الجانب الحكومي لهذا الاعتقاد، حيث صدرت مجموعةً كاملةً من اللَّوائح والقوانين، تجعل الجميع مواطنين عثمانيين بدلًا من رعايا، وكُتِبَ قانونٌ مدنيٌّ جديدٌ، طبَّق مفهوم المساواة ودفع الضرائب، وأُدخلَت إصلاحاتٌ على الخدمة العسكريَّة، كما أصبح التَّعليم هدفًا أساسيًا لدولة التَّحديث. وإذا كان السُّؤال ما إذا نَجَحَ الإصلاح أم لا؟ فبعض المؤرِّخين اليوم يقولون نعم بالتَّأكيد قد نجح، والتَّحديث الذي ورثته تركيا اليوم، كما ورثته بقية الدُّول التي كانت ضمن ولاياتها، كان جُزءًا من حركة التَّنظيمات. لكن يرى آخرون عكس ذلك، فحركة التَّنظيمات التي أقدمت عليها الدَّولة كانت أحد أهمِّ أسباب هدمها بيد أبنائها وباسم الإصلاح. فكيف شَخَّصَ هنري لورنس في كتابه: (الأزمات الشَّرقيَّة) واقع ودوافع حركة الإصلاحات في الدَّولة العثمانيَّة؟ وما أسباب نُضُوبِهَا سبعينيات القرن التاسع عشر الميلادي حسب وجهة النَّظر الغربيَّة؟

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٥ يناير ٢٠٢٤
تـاريخ قبــول النشــر: ٠٩ فبراير ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الإصلاحات العثمانيَّة؛ الدولة العثمانية؛ القرن التاسع عشر الميلادي؛ الأزمات الشَّرقيَّة؛ هنري لورنس

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.260798 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حسن بربورة. "حركة الإصلاحات في الدَّولة العثمانيَّة ونُضوبِها سبعينيَّات القرن التاسع عشر الميلادي من خلال كتاب (الأزمات الشَّرقيَّة) لهنري لورنس".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ١٤٣ – ١٥٤.

Corresponding author: hassen.barboura gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

عَانَت الدولة العثمانيَّة في مراحلها الأخيرة من عَوامِلَ ضَعف وانهيارٍ شَديدَة، وهي التي انقسم الدَّارِسون فيها بين نظرتين: تمثَّلت الأولى في اختفاء المبرِّرات لاستمرار خلافة دينيَّة وَسَطَ عَالَمٍ مُتَطَوِّرٍ من الدُّول القوميَّة الحديثة، إضافةً لعدم توازن مُؤسَّسات الدَّولة؛ ضَعف إمكَانَاتها؛ وفَسَاد جِهَازِهَا الإداري، بينما تمثَّلت النَّظرة الثَّانية في آراء المدافعين عن الدولة العليَّة، والذين يُعزُونَ ضَعفَهَا وتَراجُعهَا إلى العوامل الخارجيَّة، وأساسها الحروب المتواليَّة، وتدخلات الامبرياليَّة الغربيَّة. فالغرب الاستعماري كان ولا يزال السَّبب الرَّئيسي دومًا وراء تأخُّر المسلمين.

ومهما كانت الأسباب، فقد تحتَّم على السُّلطة العثمانيَّة تَبَنِّي حركة إصلاحٍ طويلة، مهَّدت لظهور التَّنظيمات التي بدأت منذ إعلان خطٍ كلخانة سنة ١٩٣٩م لتحديث الدَّولة انطلاقًا من النَّموذج الأوربي، واستمرَّت حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وهذا في إطار سعي الدولة الجاد للاستفادة من منظومة القوانين الغربيَّة في شتَّى الميادين، فالعُثمانيِّون حاولوا التَّحديث باعتباره السَّبيل الوحيد لإنقاذ الدَّولة، وكانت التَّنظيمات هي الجانب الحكومي لهذا الاعتقاد (انظر التعليق رقم ١)، حيث صدرت مجموعةً كاملةً من اللَّوائح والقوانين، تجعل الجميع مواطنين عُثمانيِّين بدلًا من رعايا، وكُتِبَ قانونٌ مدنيٌّ جديدٌ، طبَّق مفهوم المساواة ودفع الضَّرائب، وأُدخِلَت إصلاحاتٌ على الخدمة العسكريَّة، كما أصبح التَّعليم هدفًا أساسيًا لدولة التَّحديث، بالمقابل كانت حركة التَّنظيمات بمثابة مُغامرةٍ كَبيرَة، وجُرأة من طرف السُّلطات العثمانيَّة، لأنَّ المسلم العثماني كان يرى في الأنظمة القديمة رُوحَ الشَّريعة، وأنَّ تغييرها يعني المساس بما هو مُقدَّس (محمد صادق رفعت باشا، ٢٠١٧: ١٢).

وإذا كان السُّؤال ما إذا نَجَحَ الإصلاحُ أم لا؟ فبعض المؤرِّخين اليوم يقولون نعم بالتَّأكيد قد نجح، فالتَّنظيمات خلال القرن ١٩م كانت بِدَايَاتَ تَقَدُّمٍ وعَوَامِلَ نُهُوضٍ، والتَّحديث الذي ورثته تركيا اليوم، كما ورثته بقية الدُّول التي كانت ضمن ولاياتها، كان جُزءًا من حركة التَّنظيمات. لكن يرى آخرون عكس ذلك، فحركة التَّنظيمات التي أقدمت عليها الدَّولة نتج عنها تغريبٌ وتشويهٌ للعقائد والأفكار، وساهمت في إجراء تَحَوُّلَاتٍ خطيرةٍ في الدولة، وأحد أهمِّ أسباب هدمها بيد أبنائها وباسم الإصلاح.

أولاً: تقديم المصدر

هنري لورنس أستاذ كرسي التَّاريخ العربي المعاصر في الكوليج دو فرانس منذ سنة ٢٠٠٣، ولد سنة ١٩٥٤م وأكمل دراسته في باريس، وبدأ في دراسة اللغة العربيَّة. وحصل على شهادة الدراسات المتقدِّمة (DEA) من جامعة السوربون سنة ١٩٧٩م، وفي الدراسات التَّاريخية في العام الموالي، وعلى أطروحة (المرحلة الثَّالثة)، وشهادة Inalco في احتراف اللُّغة العربيَّة سنة ١٩٨١م، كما حصل على منحة دراسية في معهد الدِّراسات العربيَّة بدمشق، وعُيِّن أستاذًا بجامعة القاهرة سنوات (١٩٨٢-١٩٨٣م)، لينتقل بعدها للعمل أستاذًا للتَّاريخ المعاصر في جامعة السوربون (١٩٨٣-١٩٩٠م)، كما شغل منصب مدير مركز الدراسات والأبحاث حول الشَّرق الأوسط المعاصر CERMOC ببيروت، ثم المدير العلمي للمعهد الفرنسي للشَّرق الأدنى (هنري لورنس، ٢٠٢٢: د.ص).

أصدر لورنس حوالي أربعين كتابًا تاريخيًا، منها ما يزيد عن عشرين عملًا في التَّاريخ العربي والإسلامي، إضافةً إلى عشرات المقالات، ونذكر من بين أهمِّ مُؤلَّفاته: الكتاب الموسوعي (مسألة فلسطين) في عشرة أجزاء، (١٩٩٩)؛ كتاب كليبر في مصر كليبر القائد العام (١٩٩٥)؛ كتاب الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر، الاستشراق المتأسلم في فرنسا (١٦٩٨-١٧٩٨)، وكتاب: اللعبة الكبرى: المشرق العربي والمنافسات الدولية (١٩٩١) Le(انظر التعليق رقم٢)، ومؤخرًا أصدر لورنس كتابه (التَّاريخ المفروض) الصَّادر عن دار النشر فايار في ٢٠٢٢، وضَمَّنَهُ أفكاره عن كتابة التَّاريخ، وخلاصة خبرته الطَّويلة (علي الكفراوي، ٢٠٢٣: د.ص).

أمَّا كتاب (الأزمات الشرقيَّة: المسألة الشَّرقية واللُّعبة الكُبرى ١٧٦٨- ١٩١٤م)، فهو من الكتب العميقة في تحليلها لما يُسمَّى غربيًا بالمسألة الشَّرقية (انظر التعليق

رقم٣)، ويستعرض فيه المؤرِّخ بتحليل مُستَفيض، وبنَظرَة مُتعمِّقة -رغم أنَّها غربيَّة المنحَى- ملابسات وأحداث القرن ١٩م، الذي مَثَّل مُنعطَفًا تاريخيًّا حاسمًا للدَّولة العثمانيَّة، أو ما اصطُلِحَ عليه أُوربيًّا بالرَّجُلِ المريض (انظر التعليق رقم٤)، فَضلاً عن الأحداث التي صاغت أهميَّة هذا القرن ومسألته الشَّرقيَّة، ثمَّ النَّتائج المترتِّبة عليه في مُستَهَلِّ القرن ٢٠م، وُصُولاً للحرب العالميَّة الأولى، ويقع الكتاب ضمن جزئين (انظر التعليق رقم٥)، صدر (الجُزء الأوَّل) منه موضوع الدِّراسة سنة ٢٠١٧م، ضمن ٣٠٤ صفحة، ووُضِعَت كواجهة له لوحة الفنان الفرنسي الشَّهير (دي لاكروا)، والشَّهيرة بمذبحة خيوس (أبريل ١٨٢٢م) (انظر التعليق رقم٦)، وهي واحدةٌ من أُولى الصُّور الحديثة لأهوال الحرب العثمانيَّة-اليونانيَّة (Jean piere Naugrette, 2017: 202). وقد نَقَلَ الكتاب إلى اللُّغة العربيَّة المترجم بشير السِّباعي (انظر التعليق رقم٧)، وصدر عن المركز القومي للتَّرجمة بالقاهرة في طبعته الأولى سنة ٢٠١٨م، وتصدَّرت النُّسخة العربيَّة صورةً للقُوات البريطانيَّة أمام مقر الحُكم العثماني في بوابة يافا، غربي البلدة القديمة للقدس، بعد هزيمة العثمانيِّين سنة ١٩١٧م (انظر التعليق رقم٨).

يقول لورنس في تقديمه لكتابه: عبر الدبلوماسيَّة أَمكَنَ قيام السِّلم ووقوع الحرب بين الأمم، وعند استحضار دبلوماسيَّة القرن ١٩م الطَّويل، والذي ينتهي نهايةً مأساويةً سنة ١٩١٤م باندلاع الحرب العالمية الأولى، وتاريخ المسألة الشرقيَّة، يمكن القول أنَّ هناك (زمنًا مفقودًا)، كون أنَّ علاقات القرن ١٨م لم تَتَبَدَّد بعد، ويرجع ذلك إلى سببين: أوَّلهما عُمقُ الذَّاكرة التي تشملها المسألة الشرقيَّة، فإنَّها وإن كانت تُمثِّل الماضي بالنسبة للغرب، فإنَّها لا تزال مسألةً حيَّةً بالنسبة للشُّعوب التي تعنيها من خلال آثارها، فالدولة العثمانيَّة من المنظور الغربي إبَّان الفترة الحديثة كانت هي مُمَثِّلُ الشَّرق أو حضارة الإسلام، وكان تراجعها تراجعًا للإسلام نفسه (أحمد سالم سالم، ٢٠١٨: ٢١). ثانيًا: تلازم المسألة الشرقيَّة مع اللُّعبة الكُبرى (انظر التعليق رقم٩)، ومواجهاتها بين روسيا وبريطانيا منذ أواخر القرن ١٨م وحتى اندلاع الحرب العالميَّة الأولى.

وفنُّ (اللُّعبة الكبرى) الذي يقصده لورنس في كتابه هو (التَّلاعب)، وهو تعبير استعمله الضُبَّاط الانجليز أثناء مَدِّ نفوذهم في أفغانستان وآسيا الوسطى، في وجه التَّوسُّع الروسي في تلك المناطق خلال القرن ١٩م، وبما أنَّ قوة الدول الأوربيَّة كانت متعادلةً، استُبدِلَ الغزو المباشر بسياسة نُفُوذٍ أَقَلَّ تَكلُفَة. في انتظار ما سوف يكون عليه مستقبل الدولة العثمانيَّة: هل ستنجو وتبقى عبر القدرة على تجديد نفسها من خلال تَبَنِّي صِيَغَ الغرب، أم سَتَسقُط وتجعل من الدول الأوربيَّة وريثةً لها، أم سَتُخلِي مكانها لِدُوَلٍ قوميَّة (هنري لورنس، ٢٠٠٣: ١٢). هكذا فإن لورنس يحاول من خلال كتابه إعادة النَّظر في جذور المسألة الشرقيَّة مُتعدِّدَة الجوانب، والمرتبطة بالاعادات المتعاقبة لِصَوغِ الدولة العثمانيَّة (انظر التعليق رقم١٠).

ويستعرض المؤرِّخ أفكاره في الكتاب من خلال أزيدَ من خمسين مبحثًا، يبدأها بوصف المسألة الشرقيَّة في المبحث الأوَّل، ثمَّ التَّباين الكبير بين الشَّرق والغرب، الذي ونتيجة الارتباط المتبادل بين الكُتَل الديمغرافيَّة، والكيانات الاقتصاديَّة الكبرى آنذاك، أدَّى إلى تهميش العالم الإسلامي، مقابل الانتصار السَّاحق لأوربا الصناعيَّة في القرن ١٩م، وانقلاب المعطيات الجيوسياسيَّة العالميَّة، لينتقل بعدها للحديث عن الدولة العثمانيَّة بين الأساطير والواقع، ولا يَفُوتُهُ التَّفصيل في تأثير الثَّورة الفرنسيَّة على العُثمانيِّين، ويدخل انطلاقًا من المبحث الثامن (نشأة الأمَّة اليونانيَّة) في الأزمات الشرقيَّة التي بدأت تَعصِفُ بالدولة العثمانيَّة، من خلال (التَّمرُّد اليوناني، ونظام مؤتمر فيينا ١٨١٥م)، والبحث عن حلٍّ دبلوماسي، وُصُولًا إلى تشريح أوَّلَ أزمَة شرقيَّة وأُصُولَ اللُّعبة الكبرى، خاصَّةً مع إدراك الدولة العثمانيَّة أكثر لضرورة الإسراع في عمليَّة الإصلاح، في ظلِّ تسارع الأزمات الأخرى مُمَثَّلَةً في: المسألة المصريَّة والتَّشكُّل الجديد للقوَى، ثمَّ اندلاع حرب القرَم ضدَّ روسيا (١٨٥٣-١٨٥٦م) وأعقابها، واستحالة تحقيق الاستقرار، فَأَزمَةُ كريت وظهور النَّزعة السَّلافيَّة، فالحرب الروسيَّة العثمانيَّة (١٨٧٧-١٨٧٨م) وانعقاد مؤتمر برلين، المسألة البلغاريَّة ودور فارس في اللُّعبة الكبرى، ليختم لورنس دراسته بإعلان الدُّستور العثماني

وعلاقة الدُّول العُظمى بإصداره، وخلال كل ما سبق يُلقِي بإِطْلَالَات سريعةٍ على الحركة الصهيونيَّة، وثورة تركيا الفتاة، وصولًا إلى أزمة خريف ١٩٠٨م والانقلاب على السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، وبداية سَيرِ الدولة العثمانيَّة نحو الهاوية، انطلاقًا من الحروب البلقانيَّة الأولى فالثَّانية، والتَّرتيبات السياسيَّة الجديدة، وتكوين مناطق النُّفُوذ.

ثانيًا: حركات الإصلاح في الدولة العثمانية حتى القرن التاسع عشر الميلادي

منذ النِّصف الثَّاني من القرن السادس عشر الميلادي، وبعد الأزمة التي شهدتها الدَّولة العثمانيَّة، كان الضَّعف قد بدأ يَدُبُّ في جميع مؤسَّسات الحكم العثماني، وقد عبَّر رجال الإصلاح العثمانيُّون، كُلٌّ من موقعه وتخصُّصه عن الخلل الذي شهدته مختلف المُؤسَّسات، فَكُتِبَت العديد من المؤلَّفات، وأُرسلت الكثير من تقارير السُّفراء، كما سبقتهما العديد من رسائل الإصلاح التي حملت الكثير من الأفكار والتَّصوُّرات لتشخيص واقع الدَّولة، والدعوة إلى إصلاح مؤسَّساتها قبل فوات الأوان، وضرورة اعتماد إصلاحات سياسيَّة، تُحدِّدُ العلاقة بين السُّلطة والمجتمع (عبدالحي الخيلي، ٢٠٢١: ٣٧)، كما تنبَّه الكثير من المصلحين إلى خطورة امتداد تلك الأزمة إلى الولايات التي بدأت تَتَّجِهُ نحو الانفصال التَّدريجي عن السُّلطة المركزيَّة، ووصفوا تلك العلاقة بأنَّها أصبحت مَوجُودَةٌ بالاسم مَعدُومةُ الجِسمِ (قوجي بك، ١٣٠٣هـ: ١١٨).

غير أنَّ أغلب الأفكار والمقترحات التي طُرِحَت ظلَّت في عُمُومِهَا وإلى غاية نهاية القرن السابع عشر الميلادي محكومةٌ بالأُطُر التَّقليديَّة وعقدة التفوُّق؛ وضرورة الاكتفاء بالموروث الإسلامي العثماني؛ وعدم الالتفات إلى العالم المحيط، سيما أعداء الدَّولة العليَّة من الأوربيِّين، وهو ما حال دون استشعار المُتَغَيّرات الحقيقيَّة المحيطة بالدَّولة، ولم تَتَطَوَّر إلى إصلاحات سياسيَّةٍ أعمق إلَّا خلال القرن الثامن عشر الميلادي، حين حاولت السُّلطة ترجمة بعض أفكار الإصلاح إلى مشاريع سياسيَّة، غير أنَّ أفكار الإصلاح في عمومها لم تكن واقعيةً، إذ ظلَّت تُصَوِّرُ الأمور بِرُمَّتِهَا في إطار سياسي تقليدي، وكانت مطالب إصلاحيَّة فضفاضةً، وركَّزت في أغلبها على العودة إلى النِّظام القديم، والأكيد أنَّ الأمر يعود لجهلهم بالهياكل السياسيَّة الجديدة التي ظهرت في أوربا منذ النِّصف الثَّاني للقرن ١٥م، وللتغيُّرات والتَّجديدات التي ظهرت في التَّركيب الاجتماعي الاقتصادي، وفي المجال العسكري، وبذلك ظَهَرَ عَجزُهُم رغم صدقِهِم، عن التَّنَبُّه وإدراك الظُّروف الخارجيَّة التي أدَّت إلى اختلال موازين القوَى بين الشَّرق والغرب (أكمل الدين إحسان أوغلى، مج٢، ١٩٩٩: ٢٣٥-٢٣٦)، كما ارتبطت حركة الإصلاح نفسها عمليًا بِصِرَاعٍ مَرِيرٍ بين أنصار (النِّظام الجديد)، والنُّخب المحافظة وحُلفائها (عبد الحي الخيلي، ٢٠٢١: ٤٦).

أمَّا الإصلاحات المتأثِّرة بأوربا، فانطلقت فعليًا عهد السُّلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠م)، حين بدأ الإصلاحي يأخذ شكلًا مُختَلِفًا عمَّا كان عليه في القرن ١٧م، وأقرَّ السُّلطان بضرورة الانفتاح على أوربا والاقتباس منها (مبدر محمد علي أحمد، ٢٠١٤: ٦٩)، فتمَّ استقدام أحد الضُبَّاط الفرنسيِّين وهو (دو رشفور De Rechefor) الذي تقدَّم بمشروعٍ للإصلاح العسكري سنة ١٧١٨م، إلَّا أنَّ الظُّروف لم تسمح بتنفيذه، ثم امتدَّت فكرة الإصلاح بعد ذلك إلى النَّواحي العامَّة، فأرسل الصَّدر الأعظم إبراهيم داماد عددًا من السُّفراء إلى العواصم الأوروبيَّة، وكلَّفهم بكتابة تقارير مفصَّلة كلٌّ عن رحلته لتستفيد الدَّولة من مشاهداتهم في البلادٍ التي زاروها، وكان من نتائج ذلك ظهور عهد (التُّوليب) الذي استمرَّ إلى غاية ثورة الانكشاريَّة على السلطان بِحُجَجٍ شَتَّى، ما اضطرَّ السُّلطان أحمد الثَّالث لقطع رأس صهره الوزير إبراهيم، لكن ذلك لم يكن كافيًا للانكشاريَّة إلى غاية خلع السُّلطان نفسه (محمد جلبي أفندي، ٢٠٠٣: ٢٧-٢٨)، والحاصل أنَّ تلك الإصلاحات قد ركَّزت على الأخذ بمظاهر التَّقدُّم الأوربي لا بِأُصُولِه.

وفي نهاية القرن الثامن عشر الميلادي شاركت الدَّولة العثمانيَّة في حربين قاسيتين واحدةً ضدَّ روسيا (١٧٦٨-١٧٧٤م)، وأخرى ضدَّ روسيا والنمسا-المجر (١٧٨٧-١٧٩٢م) وتعتبر معاهدة كوجوك قينارجه ١٧٧٤م، والتي مُنحت بموجبها شبه جزيرة القِرم استقلالها، بداية لأزمةٍ داخليَّة خطيرةٍ فتحت النقاش

مجددًا حول مستقبل السَّلطنة، وإن اختلفت التَّوصيات المتعلِّقة بالإصلاحات العسكريَّة، فإنها أجمعت على ضرورة استخدام الخبرات الأوربيَّة، والاقتباس من تقنياتها لاستدراك التَّخلف (أوديل مورو، ٢٠١٨: ٢٢؛ ثريا فاروقي، ٢٠٠٨: ٢٠٦-٢٠٧)، ويعتبر سليم الثَّالث (١٧٨٩-١٨٠٧م) رائد الإصلاح في القرن ١٨م، حيث وَفَوْرَ انتهاء الحرب الروسيَّة العثمانيَّة ١٧٩٢م، شرع في وضع برنامج تحديثٍ للدَّولة وإعادة النَّظر في كافَّة مؤسَّساتها (أكمل الدين إحسان أوغلى، ١٩٩٩:٧٩)، لكن سنة (١٨٠٥-١٨٠٦م) كانت نقطة تحوُّل في تاريخ الدولة، فعندما اتَّجهت إلى تطبيق (النِّظام الجديد) في منطقة الروملِّي، اندلعت ثورة الانكشاريَّة مطالبين بإلغاء الإصلاحات وإقالة السُّلطان، وانتهى الأمر بخلعه في ٢٩ ماي ١٨٠٧م (إدوارد شيفرد كريسي، ٢٠١٩: ٤١٨؛ كينروس، ٢٠٠٣: ٤٨٩)، ومقتله لاحقًا على يد الانكشاريَّة، ليتولى السُّلطان محمود الثَّاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) العرش سنة ١٨٠٨م، والذي فرضت عليه التَّطورات إجراء تغييرات مهمَّة، وتنفيذ برنامج إصلاحٍ واسعٍ، هَدَفَ من خلاله إلى استرداد هيبة وقوة الدَّولة، خاصَّةً بعد أن بدأت مظاهر الضَّعف تزداد بشكلٍ متواصلٍ، فضلًا عن فشل محاولات إصلاح المؤسَّسات في العهود السَّابقة، وأدرك أنَّ أيَّ إصلاحٍ عامٍّ لا يمكن أن يتمَّ قبل إصلاح الجهاز العسكري، فجرى في الأوَّل من جوان ١٨٢٦م محاولة إعادة تنظيم المؤسَّسة العسكريَّة بتأسيس فرقة الاشكنجيان، إلَّا أنَّ الانكشاريَّون انتفضوا وخرجوا عن السَّيطرة مَرَّةً أخرى (ماجدة مخلوف، ٢٠٠٩: ٣٩)، ونهبوا قصر الصَّدر الأعظم، وطالبوا بإسقاط الإصلاحيِّين، عندها اعتمد السُّلطان محمود الثَّاني على سلاح المدفعيَّة والضُبَّاط المؤيدين وعلى العلماء، وقُمِعَت يوم ١٥ جويلية ١٨٢٦م آخر ثورةٍ كبيرةٍ للانكشاريَّة، وهي الحادثة التي أُطلق عليها الواقعة الخيريَّة Vakayihayriye (أوديل مورو، ٢٠١٨: ٢٥؛ أحمد صالح علي، ٢٠١٧: ٦١)، وصدر المرسوم السُّلطاني من السُّلطان بإنشاء جيشه الجديد (العساكر المحمدية المنصورة) Asakir-i Mansure-i Muhammediye من فرقتي المدفعيَّة والفرسان، وفرَقٍ أخرى جرى تجديدها (أحمد صالح علي، ٢٠١٧: ٦١)، وتمَّ الاستعانة بمدربين وفنِّيين أجانب رُوس، إنجليز وبروسيون (روبير مانتران، مج٢، ١٩٩٣: ٥٥)، كما أقدم السُّلطان على إصلاح الجهاز الإداري، لكن رغم ذلك لم تتَّضح في عهده خطوطًا واضحةً للسياسة الدَّاخليَّة والخارجيَّة، كما ظهرت بعد عهد التَّنظيمات، وإنَّما اقتصر الأمر على إنشاء بعض المؤسَّسات في كل جانب، لكن يبقى أنَّ هناك ثلاثُ إصلاحاتٍ باتت آثارها واضحةً للعيان على مؤسَّسات الدَّولة وعلى المجتمع العثماني، وهي الإصلاحات العسكريَّة، الاقتصاديَّة والتعليميَّة، أمَّا باقي الإصلاحات ومنها الإداريَّة فقد بقيت محدودةً (ليلى دامس عقيل الرويلي، ٢٠١٣: ١٠٩-١١٠)، وهذا رغم سعي السُّلطان لاستحداث حكومة على الطِّراز الأوربي، حيث أدخل إصلاحاتٍ كثيرةٍ على الباب العالي(Bernard Lewis, 2015: 98).

ومن خلال الوقوف على تجربة الإصلاح التي قادها محمود الثَّاني، يظهر أنَّها جاءت ببعض النَّتائج الإيجابية كالقضاء على مراكز السُّلطة القديمة المتمثِّلة بالإنكشارية وإضعاف نفوذ رجال الدِّين، فضلًا عن انهيار أصحاب الإقطاع وأعيان الولايات، مما قوَّى سُلطة الحكومة المركزيَّة، إلَّا أن ذلك كُلُّه لم يكن كافيًا للوقوف بالدَّولة من جديد في وجه التَّحديات، وظلَّ البحث قائمًا عن مزيد من الإصلاح لمؤسَّسات الحُكمِ في الدَّولة.

لتظهر مرحلةً جديدةً من الإصلاحات، وهي ما عُرِفَ بمرحلة التَّنظيمات ١٨٣٩-١٨٧٦م التي ركّز مشروعها لا سيَّما خط شريف كلخانة (نوفمبر١٨٣٨) على نقطتين أساسيتين: عدم تفرُّد السُّلطان بإصدار القرارات السياسيَّة، وخُضُوعه لما يتمُّ صدوره من قوانين من جهة، وتحويل النِّظام الاستشاري إلى برلمانٍ وحُكُومَة دستوريةٍ من جهةٍ أخرى (أورخان أوقاي، ١٩٩٩: ٢٧١).

ثالثًا: الإصلاحات في ظِلِّ تطبيق مبدأ القوميَّات والهُدنة الهشَّة (أزمة ١٨٣١-١٨٤١م)

منذ العقد الثَّالث من القرن التاسع عشر الميلادي، شهدت الدولة العثمانية عديد التَّطورات السِّياسيَّة والإداريَّة، خاصَّةً ما تعلَّق بمجال إصلاح المؤسَّسات ونظمها الإداريَّة المقتبسة من الغرب الأوربي وبالأخصِّ

فرنسا، ومحاولة وَضعهَا في قالب عثماني (أحمد صدقي شقيرات، ٢٠٠٢: ٢٦٥) ، وقد تنازع تيَّار الإصلاح آنذاك اتجاهان: تيار الإصلاح اللِّيبرالي من جهة، وتيار الأصالة والمحافظين الذين دافعوا أمام حركة التَّغيير والتَّغريب، لكنَّه ورغم الاستجابة القويَّة لهم من قطاعات الأمَّة المختلفة، لم يكن لهم نُفُوذُ وسُلطَةُ النُّخبة العثمانيَّة المثقَّفة ثقافةً غربيَّةً في أوساط الحُكم، يُؤكِّد ذلك ما جاء في مُقدِّمة خط كلخانة: (إنَّ المؤسَّسات الحديثة الموجودة في هذه الأيام في أوربا، لا يوجد مَثِيلُهَا في البلاد العثمانيَّة، ولا بُدَّ أن تُستَورَدَ هذه المؤسَّسات من الغرب) (نوفل نعمة الله نوفل، ١٨٨٣: ٣-٤).

ويرى لورنس أنَّ الإصلاح في الدَّولة العثمانيَّة يعتبر (نتاجٌ تركيبيٌّ) لرغبة النُّخبة العثمانيَّة في إقامة دولة حديثة، قادرة على مواجهة التَّهديدات الأوربيَّة من جهةٍ، وسعي دول أوربا للحفاظ على الدولة العثمانيَّة لتحقيق التَّوازن الأوربي من جهةٍ ثانية (انظر التعليق رقم١١)، لكن ورغم الخطاب الأوربي المعلَن للحفاظ على الدولة العثمانيَّة، إلَّا أنَّ الأوضاع بدأت تَرتَسِمُ انطلاقًا من ثلاثينيَّات القرن التاسع عشر الميلادي، سواءً من خلال الأوضاع في البلقان، وظهور ولاياتٍ عثمانيَّة تتمتَّع بالحُكمِ الذَّاتي (صربيا، مولدافيا، ووالاشيا)، ودولةً مستقلةً (اليونان)، حيث جرى مبدأ الاعتراف بمبدأ القوميَّات، بِحُكمِ أنَّ غالبيَّة السُّكَّان مسيحيِّين (أرثوذكس بالأخصِّ)، أو من خلال رفض الاعتراف بقوميَّةٍ عربيَّةٍ في الجزائر، أو في المناطق الممنوحة لإبراهيم باشا في الشَّام، حيث لا تُوجد جماعاتٌ سُكَّانيَّةٌ مسيحيَّةٌ، ما دفع بها اتجاه الاستعمار. وهنا يصل لورنس إلى فكرةٌ مفادها أنَّ مبدأ القوميَّات الذي طبَّقته الدُّول الأوربيَّة —وفي تحيُّزٍ تامٍّ منها- كان يَخُصُّ المسيحيِّين دون غيرهم (هنري لورنس، ٢٠١٨: ٥٩-٦٠).

أمَّا الوضع الثَّالث فَمَثَّلتهُ المناطق المركزيَّة في الدولة العثمانيَّة حيث الأغلبيَّة المسلمة، والتي كان عليها تأييد الإصلاحات كَأَقَلِّ الحُلُولِ سُوءًا، في ظلِّ الاندفاع الرُّوسي جنوبًا، ودفاع بريطانيا عن مستعمراتها شرقًا، إضافةً للأطماع المتوسطيَّة الفرنسيَّة، وعلى هذا الأساس بشكلٍ عام، كان هناك تَوَافُقُ آراءٍ مَسكُوتٌ عنه، له قيمةٌ عامَّةٌ في إفريقيا وآسيا، (بحكم تطبيق مبدأ القوميَّات على الجماعات السُّكَّانيَّة المسيحيَّة، التي ليس بالإمكان تطبيق الاستعمار الأوربي عليها) (هنري لورنس، ٢٠١٨: ٦٠).

أمَّا فيما يخصُّ الإصلاحات السياسيَّة في ظلِّ وضع الهدنة الهشَّة بين السُّلطان محمود الثَّاني ووالي مصر محمد علي باشا، أو ما عُرِفَ بأزمة ١٨٣١-١٨٤١م، فقد كان هذا الأخير يعتقد بأنَّه قدَّم الكثير من الخدمات للدَّولة العثمانيَّة، لذا طلب مكافأته من السُّلطان محمود الثَّاني بمنحه ولاية الشَّام إلى جانب ولاية مصر له ولأبنائه وراثيًا، لكنَّ السُّلطان رفض ذلك، فقرَّر الحصول على مطالبه عسكريًا، حيث استطاع ابنه إبراهيم باشا الاستيلاء على بلاد الشَّام، وهزم الدَّولة العثمانية أكثر من مرَّة، وعندما أرسل محمود الثَّاني آخر جيوشه لوقف تَقَدُّمِه انتصر عليه في منطقة قونية (يوسف حسين عمر، ٢٠١٦: ٣٥).

وفي ظلِّ التقدُّم المصري وتنامي قوة محمد علي باشا، استنجد السُّلطان بروسيا، والتي استجابت بتقديم مساعداتٍ عسكريَّة عاجلة، كما وقَّعت مع الدَّولة العثمانيَّة اتفاقيةً (هونكار اسكله سي) Hunkar Iskelesi سنة ١٨٣٣م، والتي نصَّت على تقديم المساعدة مقابل إغلاق العثمانيِّين للمضايق في وجه السُّفن الحربيَّة عند الحاجة ضمنيًا عند طلب روسيا (إدوارد شيفرد كريسي، ٢٠١٩: ٦٣٨)، ممَّا شكَّل صدمةً وقلقًا للدبلوماسيَّة الأوربيَّة وخاصَّةً بريطانيا التي اعتبرت الاتفاقيَّة معاهدة حمايةٍ وليس تحالف (J.C. Hurewitz, 1948: 261)، ورأت أنَّ خير ما تقوم به هو التَّوسُّط لعقد سلامٍ، كما استخدمت فرنسا علاقاتها الوديَّة مع محمد علي لإقناعه بتسوية خلافه مع السُّلطان وتحت الضَّغط توصَّل الجانبان إلى توقيع اتفاقيَّة (كوتاهية) Kutahya في ١٨ أفريل ١٨٣٣م، والتي لم تكن سوى هدنةً مؤقَّتةً، حيث سعى محمود الثَّاني إلى إعادة تنظيم قواته، وبناء أسطولٍ حربيٍّ بمساعدة بريطانيا، من أجل طرد إبراهيم باشا من بلاد الشَّام، وتجدَّدت المواجهات وبالتالي تجدَّد النَّشاط الدُّبلوماسي في أوربا (يلماز أوزتونا، مج٢، ١٩٨٨ : ١٧).

وسَعَى الطرفان لانتهاج اقتصاد حرب، يُعلي من شأن الجيش والمؤسَّسات المتَّصلة به، حيث سعى السُّلطان محمود الثَّاني للإصلاح من خلال إنشاء المدارس الحديثة التي تختَّص أولًا بالاحتياجات العسكريَّة، وقام بإعادة تشكيل هيئة دبلوماسيَّةً تشمل مترجمين، وجرى إصلاح كُلًّا من الإدارة المركزيَّة، ونظام التَّجنيد العسكري، من خلال تكوين جنود الاحتياط وفقًا للنَّموذج الأوربي، كما تمَّ إعادة المركزة، مُمَثَّلةً في السَّيطرة المباشرة على طرابلس الغرب سنة ١٨٣٥م، وهذا رغم فقدان تونس، وبداية الاستقلال النِّسبي للمناطق الكرديَّة، ومن جهة أخرى وفي المجال الاقتصادي فقد ألغَى السُّلطان الاحتكارات التِّجاريَّة في كل أنحاء الدولة العثمانيَّة، وحدَّد الامتيازات من خلال الموافقة على الاتفاقية الأنجلو-عثمانية سنة ١٨٣٨م (هنري لورنس، ٢٠١٨: ٦٠).

والحصيلة أنَّ إصلاحات محمود الثَّاني كانت محدودةً، بخسارته العديد من الأراضي وتبعيَّته لدول أوربا، وكانت إصلاحاته سُلطَوِيَةٌ، أمَّا إبراهيم باشا فقد سعى في إصلاحاته لتنظيم إدارةٍ حديثةٍ في سوريا، بإنشاء المجالس المحليَّة، وفرض التَّجنيد الإلزامي والضَّرائب. وبعد انتهاء الهدنة الهشَّة باستئناف محمود الثَّاني للحرب ضدَّ محمد علي باشا سنة ١٨٣٩م، تعرَّض للهزيمة في (نزيب) في ٢٤ جوان ١٨٣٩م، ومات السُّلطان محمود الثاني دون عِلمِهِ بالهزيمة (هنري لورنس، ٢٠١٨: ٦٠-٦١).

وبعد توريث السُّلطان عبد المجيد، عَرَضَت الدُّول الخمس الكبرى وَسَاطَتَهَا، وفقًا لحسابات كُلِّ طَرَف، لتتخذ الأزمة بعد ذلك بُعدًا أوربيًا، حيث وبعد توقُّفُ الحرب توصَّل كل من بالمرستون -ممثلًا لبريطانيا- لتفاهُمٍ مع النمسا وقيصر وروسيا (نيقولا الأوَّل)، شَرطَ تَخَلِّي محمد علي عن سوريا، لكن فرنسا اعترضت على ما اعتبرته إعادة لبناء تحالف ١٨١٤-١٨١٥م على حسابها، لكن تمكَّنت بريطانيا في النِّهاية من توقيع معاهدة لندن في ١٥ جويلية ١٨٤٠م، وجرى توجيه إنذارٍ لمحمد علي بضرورة تسليم الأسطول العثماني وسوريا في غضون عشرة أيامٍ، وفي حالة الرَّفض فَسَيُقَابَلُ بِتَحرُّكٍ عسكري ضدَّه (هنري لورنس، ٢٠١٨: ٦١-٦٢).

وبعد رفض محمد علي الأوَّلي، بسبب تدخُّل الأسطول البريطاني في المتوسط ودَعمِه لِلمُنتَفِضِينَ في الشام، رَضَخَ محمد علي وأَمَرَ بسحب قواته من سوريا، مقابل احتفاظه بِحُكمِ مصر والسُّودان باسم السُّلطان، لتعود فرنسا إلى اللُّعبة الدبلوماسيَّة -بعد إذلالها- بوصفها إحدى الدُّول الخمس المُوقِّعَة على اتفاقيَّة المضايق في ١٣ جويلية ١٨٤١م (هنري لورنس، ٢٠١٨: ٦٢).

رابعًا: التَّنظيمات ونُضُوب الإصلاحات سبعينيَّات القرن التاسع عشر الميلادي

عندما تولَّى السُّلطان عبد المجيد العرش العثماني (١٨٣٩-١٨٦١م) أصبح الاتِّجاه غربيًا هو السِّياسة الرَّسميَّة للدَّولة العثمانيَّة، وكان له دورٌ مهمٌّ مع رجال دولته في تشجيع المثقَّفين العثمانيِّين على هَجرِ التَّعليم والثَّقافة الإسلاميَّة التَّقليديَّة، والاندفاع نحو التَّعليم الأوروبي (محمد حرب، ٢٠٠٣: ٣٣-٣٤)، وكُرِّسَ ذلك عبر انتشار الكتب وظهور الصحافة، وتوسُّع حركة التَّرجمة، والمعرفة باللُّغات الأجنبيَّة، إضافةً لانتشار النَّشاطات المذهبيَّة التي لا تنفصل عن الصِّراع على السُّلطة (هنري لورنس، ٢٠١٨: ١٣٤)، والأهمَّ من هذا كُلِّه هو موقف المثقَّفين من أسلوب الحُكمِ نفسه، إذ تأثَّرت النُّخبة العثمانيَّة بأفكار الثَّورة الفرنسيَّة، وكان لِكُلِّ هذا دوره في البناء الجديد للمثقَّف العثماني (انظر التعليق رقم١٢)، الذي استطاع قلب مفاهيم الحُكمِ، ونجح المصلحون العثمانيُّون في أن يُنشئوا في غضون بضعة عقود، إدارةً مركزيَّةً تُماثل في شكلها الإدارة المركزيَّة في فرنسا (بول دومون، ١٩٩٣: ٨٤).

لكن اضطرَّت الدولة العثمانية مع نهاية حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م) إلى بداية الاقتراض من الأسواق الماليَّة الأوربيَّة، مما سبَّب أزمةً مُستَدَامةً في الميزانيَّة، وعزَّز التَّبعيَّة لرأس المال الأجنبي باستمرارٍ (هنري لورنس، ٢٠١٨: ١٣٤)، وحاول السُّلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦م) بدوره به أن ينهض بالدَّولة، ويواصل مسيرة الإصلاح والتَّحديث لمواجهة الحركات الانفصاليَّة في شبه جزيرة البلقان، والدُّيون الماليَّة التي أربكت ميزانيَّة الدَّولة، لكن ومن خلال زياراته الأوروبيَّة أسهَمَ أكثر في

ازدياد نفوذ طبقة المثقَّفين العثمانيِّين، الذين رجَّحُوا كفَّة أوروبا والغرب على كفَّة الأصالة (محمد حرب، ٢٠١٧: ٣٤)، واضطرَّ السُّلطان في ١٢ ماي ١٨٧٦م وتحت ضغوط الإصلاحيِّين والدُّول الأوربيَّة، إلى تشكيل حكومةٍ جديدة، لكن سرعان توتَّرت العلاقات بين السُّلطان وبين هذه الوزارة، وتمكَّن الإنقلابيون في السُّلطة من عزل السُّلطان الذي انتحر (قُتِلَ) بعد أيام قليلة، وتم تولية مراد أفندي (السُّلطان مراد الخامس) (هنري لورنس، ٢٠١٨: ١٤٣)، كما سارع الانقلابيُّون مرَّةً أخرى في ٣١ أوت ١٨٧٦ إلى السَّيطرة على توجيه الحُكم بخلع السُّلطان مراد، وتعيين السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، الذي تحالف معهم مؤقَّتًا من أجل وقف الأطماع الأوربيَّة، وأعلن الدُّستور في ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦م.

غير أنَّه وبعد أقل من عامٍ من التَّجربة البرلمانيَّة وبعد اندلاع الحرب الرُّوسيَّة-العثمانيَّة في ١٩ أفريل ١٨٧٧م وَجَدَ السُّلطان عبد الحميد نفسه يتَّخذ قراره بِحَلٍّ مجلس المبعوثان، وتعطيل العمل بالدُّستور، والتَّصدي للطُّموحات القوميَّة لسكان بعض أقاليم الدَّولة، لتنتهي المشروطيَّة الأولى في ١٤ فيفري ١٨٧٨م (بول دومون، ١٩٩٣: ١٥٥).

لقد شهدت السَّنوات الأولى من حكم السُّلطان عبد الحميد الثَّاني إثارة الشكِّ حول المبادئ التي استندت عليها دبلوماسيَّة التَّنظيمات (فرانسوا جورجو، ١٩٩٣: ١٦٥) ، حيث لم يترك السُّلطان عبد الحميد الثَّاني الشُّؤون الدُّبلوماسيَّة بيد الحكومة، بل أمسك مقاليدها بيده حماية للدَّولة، وللحدِّ من التَّدخُّل الأجنبي والحفاظ على حالة السِّلم والحياد، بالابتعاد عن التكتُّل في العلاقات الدوليَّة والاحتفاظ مع الدُّول الكبرى بمستوى من العلاقات يُمكن التَّحكم فيه، وعدم الانسياق إلى علاقات لا تُعرَفُ عواقبها (أكمل الدين إحسان أوغلى، ١٩٩٩: ٢٣٩).

وإذا كان لورنس يرى أنَّ عهد السُّلطان عبد الحميد الثَّاني كان مرحلةً لِنُضُوبِ حركة الإصلاح العثماني، نتيجة الاستبداد السُّلطاني، وجيو-سياسيَّة سبعينيات القرن ١٩م، فإن السُّلطان وإن اجتهد في إضعاف نفوذ الإصلاحيين المتأثِّرين بالغرب، فإنَّه وبالمقابل كان مُنفتحًا على المستجدَّات، راغبًا في تطوير التَّعليم، أملًا في ظهور مثقَّف عثمانيٍّ جديد لا ينحاز للغرب (محمد حرب، ٢٠١٧: ٣٧-٤١)، إذ كانَ يُريد للإصلاح أن يَنبُعَ من داخل دولته، لا أن يأخذه من الغرب، وأَفَادَ من الغرب بطريقته الخاصَّة، حيث أنشأَ وطبَّق الإدارة المركزيَّة في جميع ولايات الدَّولة (زين الدين وحيد محفوظ، ٢٠١٦: ١٢٢) ، وبالتَّالي فإنَّ النِّظام السِّياسي الذي صاغه كان نتاج ردِّ فِعلٍ مُزدَوَجٍ ضدَّ إضعاف سلطة السُّلطان الذي رافق سياسة التَّنظيمات، وضدَّ النَّزعتين اللِّيبراليَّة والدُّستوريَّة للاصلاحيِّين.

وفي إطار التَّيارات الفكريَّة التي شهدتها الدَّولة العثمانيَّة أواخر عهدها، يرى لورنس أنَّه يمكن رَصدُ تيارين: تيار العثمانيِّين الفتيان، وتيار الإصلاح الإسلامي الدَّاخلي والنِّضال ضدَّ الاستعمار، فالعُثمانيين الفتيان رأوا أنَّ ضَعفَ حركة التَّنظيمات يَكمُنُ في بُعدِهَا السُّلطوي، الذي يفرض الحداثة من فوقٍ على شعبٍ مُسلمٍ مُحَافِظ، ولذلك وباسم الدفاع عن الإسلام، سعوا لتكوين دولة ليبراليَّة إسلامية، من خلال إعادة تفسير بعض المفاهيم، كَوَصفُ البَيعَة بأنَّها عَقدٌ قَابِلٌ للفسخ بين السُّلطة والشَّعب، ووُصفِ الشُّورى بالتَّمثيل السِّياسي..، وبالتَّالي فقد سَعَوا إلى ما يمكن اعتباره (أَسلَمَةَ الإصلاحات)، والبرهنة على أنَّ اللِّيبراليَّة ليست مَشرُوعًا قادمًا من الغرب (هنري لورنس، ٢٠١٨: ١٣٤-١٣٥).

أمَّا التَّيار الثَّاني فقد وجد تجسيدًا له في شخصيَّة جمال الدين الأفغاني، الذي يَمزُجُ بين الرَّغبة في تجديد الفكر الإسلامي، والفعل السِّياسي ضدَّ السَّيطرة الأوربيَّة، وتدريجيًا يُفصِحُ هذا التَّيار عن عَدَائِه لاستبداد السُّلطات الإسلاميَّة القائمة، وعن الدَّعوة لوحدة جميع المسلمين (هنري لورنس، ٢٠١٨: ١٣٥-١٣٦).

خاتِمَةٌ

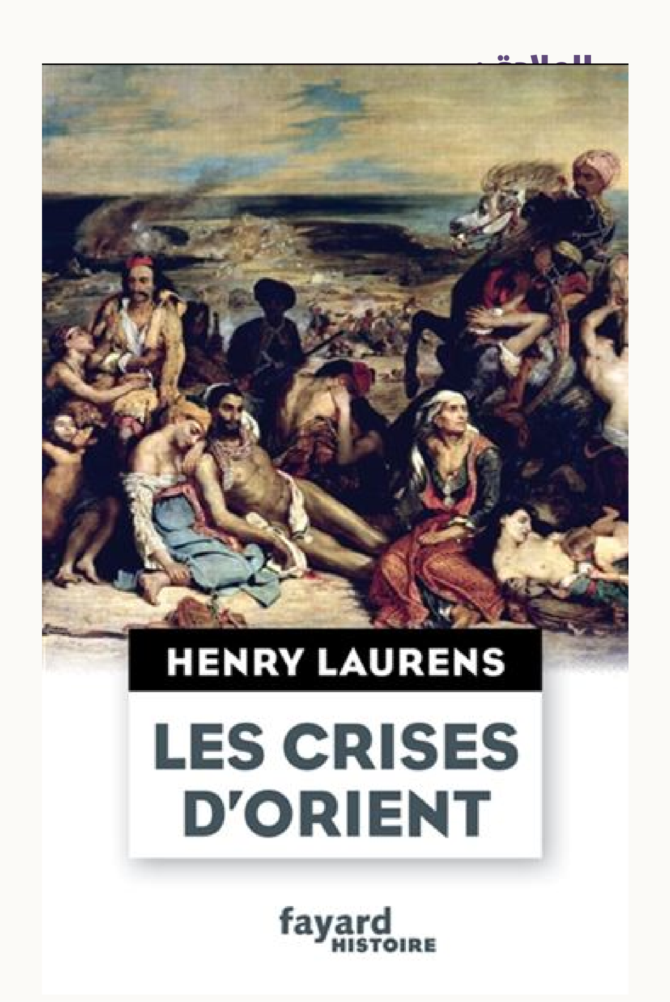
يتَّفق أغلبُ المؤرِّخين على أنَّ (الاستشراق) قد شكَّل منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي أسلوبًا غربيًا للسَّيطرة على الشَّرق، مُؤكِّدين أنَّه دراسةٌ مُنحازةٌ مدفوعةٌ بأغراضٍ استعماريَّة ووُجهَاتِ نَظَرٍ مُسبَقَة، ونظرةٍ دُونية لِشُعُوبِ الشَّرق، مهما حاولت أن تبدو علميةً وموضوعيَّةً.

ولعلَّه يمكن لنا أن نستثني هنا –بشيءٍ من التَّحفُّظ– دراسة لورنس، الذي يرى أن تطور العلوم الإنسانية في أوربا، وظُهُور المكتبة الشرقية (هرلبو سنة ١٦٩٧م)، هو نَفسُهُ العام الذي بدأ فيه الانحدار العثماني، واختلال التوازن الهش بين العثمانيين وأوربا، وذلك بعد أن بدأت الظُّروف والعوامل تتغير في المجالات الفكرية كما في المجالات السياسية (أحمد سالم سالم، ٢٠١٨: ٢١).

ويمكن القول أنَّه ومنذ الهزيمتين العسكريَّتين اللَّتين تعرَّضت لهما الدولة العثمانيَّة سنوات: (١٦٨٣–١٦٩٩)، (١٧١٦–١٧١٨م) أدركت ضرورة إصلاح مؤسَّساتها الحاكمة أكثر فأكثر، خاصَّةً بعد الاختلالات الكُبرى التي شهدتها، نتيجة الخسائر العسكريَّة المُتلاحقة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين.

ونتيجةً لفشل محاولات تجديد المؤسَّسات من الدَّاخل وِفقًا للثَّوابت الإسلاميَّة، لجأ المصلحون إلى الحل الأسهل وهو استيراد النَّماذج الأوربيَّة، وبذلك فقد عرفت حركة الإصلاح العثماني مراحل طويلةً، وشهدت محطَّات عدَّة، بدايةً بمحاولات الإصلاح التي فرضتها الحاجة الدَّاخليَّة، ثُمَّ محاولات النُّخبة العثمانيَّة اعتماد نموذج الإصلاح الأوربي من خلال تحديث المؤسَّسة العسكريَّة ومؤسَّسات الدَّولة الأخرى، على غرار ونسق ما حدث في روسيا القيصريَّة، وأخيرًا الإصلاحات المفروضة فرضًا وباتفاقات دوليَّة من طرف الدول الأوربيَّة، وهي ما عُرف اصطلاحًا بمرحلة التَّنظيمات ١٨٣٩–١٨٧٦م، والتي كانت أحد أهمِّ أسباب هدمها بيد أبنائها وباسم الإصلاح، وهذا رغم محاولات السُّلطان عبد الحميد الثَّاني لتدارك ما فات، بعد إثارته للشكِّ حول المبادئ التي استندت عليها دبلوماسيَّة مرحلة التَّنظيمات، والتَّساؤُلات التي طَرَحَهَا حول مدى نجاعة سياسة تغريب المؤسَّسات والمجتمع، فَقَضَتِ الدَّولة نصف القرن الأخير من عُمُرِهَا بِحُكمٍ فرديٍّ دستوريٍّ، إلَّا أنَّ السُّلطان عبد الحميد ورغم استبداده السِّياسي، فقد كان من أكبر أنصار التَّحديث في سائر المجالات، واستخدم استبداده بنجاحٍ –كما يشير المؤرخ ستانفورد شو– من أجل إكمال الإصلاحات التي بدأها رجال التَّنظيمات، وَتَمكَّن من تحديث الطبقة البيروقراطيَّة، فكانت النَّتيجة إدارةً مُخلِصَةً وأمينَةً كُفُؤَةً طَوالَ عهده، تسلَّمت زِمَامَ الأمور من جيل التَّنظيمات.

الملاحق



الملحق رقم (١)

واجهة النسخة الأصلية من الكتاب

Laurens Henry. (2017). **Les crises d'Orient, Question d'Orient et Grand Jeu 1768-1914** (Tome.1).Paris: Fayard.



ملحق رقم (٢)

واجهة الترجمة العربية للكتاب

هنري لورنس. (٢٠١٨). الأزمات الشرقية: المسألة الشرقية واللعبة الكبرى ١٧٦٨-١٩١٤ (المجلد ١). (بشير السباعي، المترجم) القاهرة: المركز القومي للترجمة.

التَّعليقات والهوامش:

(١) يربط البعضُ آليًا بين التَّنظيمات وحركة الإصلاح، والأجدر أن تُربَطَ بنظام الامتيازات الأجنبيَّة، إذ تُعتَبرُ نتيجةً طبيعيةً لها، فالتَّنظيمات محاولاتٌ غربيَّةٌ تقع في إطار الضُّغوط الأوربيَّة على الدولة العثمانيَّة، وإن كان هدفها المعلَن هو التَّحديث، فإنَّ هدفها الحقيقي كان استهداف الدولة العثمانيَّة ذاتها. **ينظر:** (قيس جواد العزاوي، ٢٠٠٣، ٣٧).

(٢) للاطِّلاع على قائمة كاملة بالأعمال التاريخية للمؤرِّخ هنري لورنس والمتمثلة في ٣٧ كتابًا وحوالي ١١٠ مقالاً علميًا. **ينظر:** (College de France, 2022,3-11)

(٣) **المسألة الشرقيَّة:** يصفها صطفى كامل: (اتَّفق الكُتَّاب والسِّياسيون على أنَّ المسئلة (المسألة) الشرقيَّة هي مسئلة النِّزاع القائم بين بعض دول أوروبا وبين الدولة العليَّة بشأن البلاد الواقعة تحت سُلطانها، وبعبارةٍ أخرى هي مسئلة وجود الدولة العليَّة نفسها في أوربا، وقد قال كُتَّابٌ آخرون من الشَّرق ومن الغرب بأنَّ المسئلة الشرقيَّة هي مسألة النِّزاع المستمر بين النَّصرانية والإسلام). بالمقابل يتساءل لورنس عن مصطلح المسألة الشرقيَّة التي أوجدتها القوة الفوضوية والتَّدميريَّة للغرب في العالم الإسلامي، وأوجدت كَرَدِّ فعلٍ كُلَّ الحركات السياسيَّة، الاقتصاديَّة، الدينيَّة والفكريَّة في هاته المجتمعات، مُكرِّرًا العبارة التي أطلقها المؤرخ البريطاني توينبي بعد زيارته لمنطقة الأناضول سنة ١٩٢١م، ومشاهدته للخراب الذي خلفته الحرب اليونانية-التركية: (ليس هُنَاكَ مسألةً شرقيَّةً بل مسألةً غربيَّةً!)، وهي عبارةٌ يجب فهمها بمعنيين: فالمسألة الشرقيَّة هي تعبيرٌ عن المواجهة بين الدُّول الغربيَّة العُظمى من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى كان المحرِّك الأساسي لها هو محاولة تغريب المجتمعات الشرقيَّة من خلال تأكيد مبدأ القوميَّات وتبنِّي مفهوم الدولة الحديثة. **ينظر:** (مصطفى كامل، ١٨٩٨: ٥؛ هنري لورنس، ٢٠١٨، ٢٨٠؛ أحمد سالم سالم، ٢٠١٨، ٢١).

(٤) كان ظهور المصطلح لأوَّل مرَّةٍ في ظلِّ التَّشاؤُم البريطاني حِيَالَ إمكانيَّة إصلاحٍ حقيقي في الدولة العثمانيَّة، حيث فُهِمَ الأمر من جانب روسيا بِوَصفِهِ انضمامًا لفكرة اقتسام وُدِّي للأملاك العثمانيَّة، فَتَقَدَّمَ نيقولا الأوَّل في ٩ جانفي ١٨٥٣م بعرضه الشَّهير على السَّفير قائلاً: (إنَّ تركيا لهي في اختلالٍ كاملٍ، ويجب أن نتفاهم بشأنها، أَعتَبِرُ أَنَّ بين أيدينا رَجُلاً مريضًا، أَقُولُ لك بصراحةٍ إنَّه قد يكون سُوءُ حَظٍّ عظيمٍ، لو تعيَّن عليه الإفلات في يومٍ من هذه الأيام). **ينظر:** (هنري لورنس، ٢٠١٨: ٨١).

(٥) أَطلَقَ لورنس في باريس الجزء ٢ من كتابه Les crises d'Orient، وقد مهّد له في ختام الجزء الأوَّل، وأكَّد عزمه على متابعة بحث فصول الأزمات الشَّرقية، وعبَّر أنَّ دافعه لمواصلة البحث في الموضوع هو إظهار أن النِّظام السياسي للشرق

الأدنى والأوسط قد تمَّ تشكيله إلى حدٍّ كبيرٍ من خلال الجغرافيا السياسيَّة التي يرجع تاريخها إلى أواخر القرن ١٨م، ودورة انعدام الاستقرار في الشَّرق ليست وضعًا استثنائيًّا بقدر ما هي طورٌ جديدٌ في الأزمات الشَّرقيَّة. **ينظر:** (منى أبو النصر، ٢٠١٩: د.ص).

(٦) كان للفُنُون في زمن ما قبل الوسائل الإعلاميَّة نفس الدَّور الدعائي للإعلام اليوم في التَّرويج للأخبار أيًّا كان صحتها، ولكي يَتَّسِمَ ذلك بالمصداقيَّة كان لابد من استخدام بعض الشخصيَّات العامَّة المشهورة في مجالها، فكانت لوحة الفنَّان الفرنسي الشهير أوجين دي لاكروا (1798-1863)، والتي حملت عنوان (مذبحة خيوس). ويُعلِّق المؤرخ أحمد سالم على اللوحة التي كانت في إطار التَّرويج للثَّورة اليونانيَّة على العثمانيين: رغم أنَّ دي لا كروا لم يذهب إلى اليونان أبدًا، إلَّا أنه لم يتوانى عن رسم مشهدٍ من خياله، صَوَّر فيه اليُونانيين مُستضعفين يُقتلون في العراء تحت نير (الاضطهاد العُثماني!). وبالفعل استطاعت مثل تلك الأعمال الزَّائفة أن تُؤتي أُكُلَهَا، وتدفع بالرَّأي العام الأوروبي بأكمله إلى حيث يُراد له.

(٧) **بشير السباعي:** مؤرِّخٌ ومترجمٌ مصري، ولد في ١٥ يناير ١٩٤٤، في محافظة الشَّرقية (شمال شرق القاهرة)، نقل عن الروسية، الإنكليزية والفرنسية نحو سبعين عملاً، كما ترجم العديد من الأعمال لكبار مؤرخي فرنسا أمثال أندريه ريمون، وريشار جاكمون، وهنري لورنس. **ينظر:** (جريدة المدن، ٢١ أفريل ٢٠١٩)

(٨) ما يُلاحظ على التَّرجمة -وهو ما أشار إليه أيضًا المؤرِّخ المصري أحمد سالم- أنَّ كثيرًا من الفقرات قد تعدَّت ركاكة الصِّياغة إلى ما هو أبعد من ذلك، من حيث التباس المعنى واختلال التَّراكيب، ما يعوق تمامًا عن التَّشبُّع بمضمون عملٍ بمثل هذا الثِّقَل، والذي يحتاج لِصِيَاغَةٍ مُتَأَنِّيَةٍ مُتَفَرِّدَة، و مُرَاجَعَةٍ دقيقةٍ تَرقَى لمستوى التَّأليف، خاصَّةً وأنَّ المؤلِّف يستعمل في تحليله للأحداث الكثير من المصطلحات الغربيَّة الفلسفيَّة التي تحتاج شرحًا وافيًا، ولا ندري إن كان المترجم قد قام بنقله إلى العربية كاملاً، أم اقتصر دوره على المراجعة فقط.

(٩) **اللُّعبة الكُبرى:** المصطلح جزءٌ من عنوان الكتاب، ويعتبر الجاسوس البريطاني كونوللي هو صاحب المصطلح في وصفه للمسألة الشرقيَّة، وهذا في رسالته إلى المندوب السياسي البريطاني في قندهار (١٨٤٠-١٨٤٢)، ثم العراق ١٨٤٤م رولنسون. وقد أعدم كونوللي في بخارى بعد اكتشاف أمره سنة ١٨٤١م، أمَّا المصطلح فقد انتشر أكثر بعد استخدامه من طرف روديارد كبلينغ في روايته (كيم) سنة ١٩٠١م. **ينظر:** (هنري لورنس، ٢٠١٨: ٥٠، ٧٠، ٧١؛
Naugrette, 2017 :202-203).

(١٠) للاستزادة حول موضوع الأزمات الشرقيَّة. **ينظر:**
Henry Laurens, Automne 2017 : 9-16).

(١١) لم تتوقَّف الدُّول الأوربيَّة منذ الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١م) عن العمل لضرب النفوذ العثماني في مناطق سيطرته، ولم يكن بمقدورها القضاء عليها نهائيًا بسبب أنَّها ظلَّت مع ضعفها عاملاً حاسمًا من عوامل توازن القوى الأوروبي خلال القرن ١٩م، وهو ما يُؤَكِّدُهُ لورنس بالقول: (يُثبِتُ الباب العالي أنَّ قُوَّة الدَولة العثمانيَّة إنمَّا تَكمُنُ في ضَعفِهَا، أي أنَّ استقرار النِّظام السِّياسي الأوربي الذي هزَّته للتَّو (١٩٤٨م) الثَّورات الفرنسيَّة والبلجيكيَّة والبولنديَّة يَتَطَلَّبُ الحِفَاظَ عليها). **ينظر:** (هنري لورنس، ٢٠١٨: ٥٧؛ أحمد سالم سالم، ٢٠١٨: ٢١).

(١٢) كان في مقدّمة هؤلاء إبراهيم شناسي (١٨٢٦-١٨٧١م) الذي أقام في فرنسا في الفترة (١٨٤٩-١٨٥٥م)، والشَّاعر نامق كمال، وغيرهما من أمثال: ضيا باشا، علي سعاوي، نوري بك، محمد بك رشاد بك، صبحي باشا، زادة آية الله بك، الذين أنشأوا مجموعة (العثمانيِّين الجدد) بهدف إحداث تغييرٍ في مسار الحكم في الدَّولة. **ينظر:** محمد حرب، ٢٠١٧: ٣٧؛
Bernard Lewis, 2015 :141,150).

قائمة المصادر والمراجع:

- إحسان أكمل الدين أوغلى. (١٩٩٩). **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة** (ج١-٢، د.ط). (صالح سعداوي، المترجم) استانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون الإسلامية ارسيكا.
- أحمد سالم سالم. (٩ أكتوبر, ٢٠١٨). **"في تاريخ الصراع الامبريالي والمسألة الشرقية"**. جريدة القدس العربي .

أحمد صالح علي. (٢٠١٧). **الاصلاحيون في الدولة العثمانية في القرن ١٩م دراسة لإصلاحات مدحت باشا** (المجلد ١). القاهرة: المكتب العربي للمعارف.

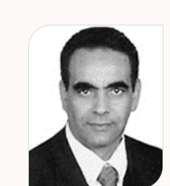
- أحمد صدقي شقيرات. (٢٠٠٢). **تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني ٨٢٨-١٣٤١هـ/١٤٢٥-١٩٢٢م** (الإصدار ١). الأردن: دار الكندي للنشر والتوزيع.
- إدوارد شيفرد كريسي. (٢٠١٩). **تاريخ الأتراك العثمانيين** (المجلد ١). (أحمد سالم سالم، المترجم) الدوحة: دار جامعة حمد بن خليفة للنشر.
- أوديل مورو. (٢٠١٨). **الدولة العثمانية في عصر الإصلاحات رجال النظام الجديد العسكري وأفكاره ١٨٢٦-١٩١٤** (المجلد ١). (كارمن جابر، المترجم) قطر-بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- ثريا فاروقي. (٢٠٠٨). **الدولة العثمانية والعالم المحيط بها** (المجلد ١). (حاتم الطحاوي، وعمر الأيوبي، المترجمون) بيروت: دار المدار الإسلامي.
- جون باتريك كينروس. (٢٠٠٣). **القرون العثمانية قيام وسقوط الإمبراطورية التركية** (د.ط). (ناهد ابراهيم دسوقي، المترجمون) الاسكندرية: منشأة المعارف.
- **الدستور** (الإصدار ١، د.ط). (١٨٨٣). (نوفل نعمة الله نوفل، المترجمون)، (خليل الخوري، تحقيق)، بيروت: المطبعة الأدبية.
- دون مؤلف. (٢١ أفريل, ٢٠١٩). **"بشير السباعي يرحل قبل اكمال ترجمة الأزمات الشرقية"**، تم الاسترداد من موقع جريدة المدن، جريدة الكترونية: https://cutt.us/tC98J
- روبير مانتران. (١٩٩٣). **تاريخ الدولة العثمانية** (الإصدار ٢، المجلد ١). (بشير السباعي، المترجم) القاهرة-باريس: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع.
- زين الدين وحيد محفوظ. (٢٠١٦). **الإدارة العثمانية في مرحلة التنظيمات ١٨٣٩-١٩٠٩م**. (علاء الدين إبراهيم، المحرر) سوريا: جامعة تشرين.
- عبد الحي الخيلي. (٢٠١٢). **"النخبة المثقفة وأزمة السلطة في البلاد الإسلامية بين القرنين ١٦-١٨م: المغرب والدولة العثمانية نموذجا (دراسة مقارنة)"**. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- عبد الحي الخيلي. (يناير, ٢٠٢١). **"المؤرخون العثمانيون وإصلاح الدولة دراسة من خلال المصادر التاريخية"**. أسطور .
- علي أحمد مبدر محمد. (٢٠١٤). **الدولة العثمانية عهد السلطان أحمد الثالث ١٧٠٣-١٧٣٠م** (المجلد ١). عمان- الأردن: دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع.
- علي الكفراوي. (٣٠ سبتمبر, ٢٠٢٢). **"المعرفة والسلطة، المؤرخ الفرنسي هنري لورنس ينتقد إدوارد سعيد ويناقش أسئلة النهضة الشرقية"**. تاريخ الاسترداد ٢٦ أكتوبر, ٢٠٢٣. https://cutt.us/BVPiP.
- قوجي بك. (١٣٠٣هـ). **قوجي بك رسالة سي**. استانبول: ابو الضياء مطبعة سي.
- قيس جواد العزاوي. (٢٠٠٣). **الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط** (المجلد ٢). بيروت: الدار العربية للعلوم.
- ليلى دامس عقيل الرويلي. (٢٠١٢-٢٠١٣). **السُّلطان محمود الثَّاني وإصلاحاته ١٨٠٨-١٨٣٩**. (وليد العريض، المشرف) الأردن: جامعة اليرموك.
- ماجدة مخلوف. (٢٠٠٩). **تحولات الفكر والسياسة في التاريخ العثماني رؤية أحمد جودت باشا في تقريره إلى السلطان عبد الحميد الثاني** (المجلد ١). القاهرة: دار الآفاق العربية.
- محمد جلبي أفندي يرميسيكيز. (٢٠٠٣). **جنة النساء والكافرين** (المجلد د.ط). (خالد زيادة، المحقق) القاهرة: رياض الريس للكتب والنشر.

محمد حرب. (٢٠١٧). **المثقفون والسلطة تركيا نموذجا** (المجلد ١). مصر: دار البشير للثقافة والعلوم.

- محمد حرب. (يناير-مارس, ٢٠٠٣). **"تطور علاقة المثقف بالدولة في العصر العثماني وقدرته على تغيير مسار الحكم"**. حوليات آداب عين شمس .
- محمد شعبان صوان. (٢٠١٩). **"السلطان عبد الحميد النجاحات والإخفاقات في قراءة المؤرخ ستانفورد شو"**. تأليف محمد الهامي، السلطان عبد الحميد الثاني في الذاكرة العربية (الإصدار ٢، المجلد ١). اسطنبول: دار الأصول العلمية.
- محمود صادق رفعت باشا. (٢٠١٧). **من فيينا إلى فيينا رحلة محمود صادق رفعت باشا إلى إيطاليا ١٨٣٨** (المجلد ١). (زيد عيد الرواضية، المحرر) ابوظبي- بيروت: السويدي للنشر والتوزيع- المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- مصطفى كامل. (١٨٩٨). **المسألة الشرقية** (المجلد ١). مصر: مطبعة الآداب.
- منى أبو النصر. (١٥ مايو, ٢٠١٩)."**هنري لورنس: النظام في الشرق الأدنى والأوسط شكلته الجغرافيا السياسية**". الشرق الأوسط . **موقع الكوليج دور فرانس**. (Octobre, 2022). https://www.college-de-france.fr/sites/default/files/media/document/2022-07/2022-Laurens-Henry-Cv-Publications.pdf.
- هنري لورنس. (٢٠٠٣). **المغامر والمستشرق** (المجلد ١). (بشير السباعي، المترجم) القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- هنري لورنس. (٢٠١٨). **الأزمات الشرقية: المسألة الشرقية واللعبة الكبرى ١٧٦٨-١٩١٤** (المجلد ١). (بشير السباعي، المترجم) القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- يلماز أوزتونا. (١٩٨٨). **تاريخ الدولة العثمانية** (الإصدار ١). (عدنان محمود سلمان، المترجم) استانبول: منشورات مؤسسة فيصل للتمويل.
- يوسف حسين عمر. (٢٠١٦). **سياسة بريطانيا اتجاه الدولة العثمانيَّة ١٨٣٩-١٩٠٩** (المجلد ٢). ساربروكن ألمانيا: دار نور للنشر.
- Hurewitz, J. (1948). **Diplomacy In The Near And Middle East, A Documentary Record 1535-1914** (Vol. 1). London: D.Van Nostrand Co.
- Lewis, B. (2015). **The Emergence of Modern Turkey** (Vol. 2). London: Royal University Press.
- Nuagrette, J.-P. (2017, Septempre). **Les Crises d'Orient, 1768-1914 by Henry Laurens**. Revue des Deux Mondes .

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

قراءة تاريخية في القضايا الكبرى من سياسة الرئيس شارل ديغول (١٩٥٨ – ١٩٦٧)



أ.د. ميلود بلعالية
أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة حسيبة بن بوعلي
الشلف – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

يتناول عنوان مقالنا شخصية شارل ديغول (١٨٩٠-١٩٧٠)، ودوره العسكري والسياسي في تاريخ فرنسا المعاصر، ولقد استهدف شارل ديغول مؤسس الجمهورية الخامسة عام ١٩٥٨ القضاء على الثورة الجزائرية وعزلها عن الشعب (١٩٥٨-١٩٦٢) وامتلاك الأسلحة الاستراتيجية لتحقيق التوازن بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي (١٩٦٠-١٩٦٧)، إلا أن الرئيس الفرنسي كان عليه تجاوز العقبات الثلاث التي اعترضت تنفيذ سياسته الخارجية في استعادة المكانة الدولية الضائعة لفرنسا بعد انهيار الجمهورية الثالثة عام ١٩٤٠ تحت ضربات الجيش الألماني، من جهة، والرغبة في تثبيت عظمة فرنسا في عقيدة الرئيس شارل ديغول (١٩٥٨-١٩٦٩) من جهة أخرى، فكانت هذه القضايا: القضية الجزائرية والقضية الألمانية وقضية الوفاق بين الشرق والغرب. يهدف موضوع المقال إلى تحليل القضايا الرئيسية الثلاثة في سياسة الرئيس شارل ديغول، وإبراز العقبات الكأداء التي اعترضت شارل ديغول داخل فرنسا وفي الخارج في سبيل القضاء على الثورة الجزائرية، وفي تحقيق المعجزة الاقتصادية لفرنسا في أوروبا، والرغبة في تحقيق حلم شارل ديغول في بناء عظمة فرنسا المستقلة عن المظلة الأمريكية في قيادة حلف الأطلسي وبناء عالم متعدد القطبية. توصلنا إلى نتائج منها أن مخطط ديغول في القضاء على الثورة الجزائرية واحتوائها ومنع تدويل القضية الجزائرية قد باء بالفشل الذريع، وأن سياسة ديغول لم تحقق أماني مؤسس الجمهورية الخامسة في استرجاع المكانة الدولية لفرنسا.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٩	يناير	٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر:	٢٢	فبراير	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

القضية الجزائرية؛ القضية الألمانية؛ الثورة الجزائرية؛ حلف الأطلسي؛ شارل ديغول

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.354926 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

ميلود بلعالية. "قراءة تاريخية في القضايا الكبرى من سياسة الرئيس شارل ديغول (١٩٥٨-١٩٦٧)".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ١٥٥ – ١٦٦.

Corresponding author: m.belalia@univ-chlef.dz
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique



مُقَدِّمَةُ

غادر شارل ديغول فرنسا في ١٧ جوان ١٩٤٠ إثر انهيار الجمهورية الثالثة. وعمل منذ تلك المرحلة من تاريخه السياسي وحتى توليه الحكم سنة ١٩٥٨ على استعادة المكانة الدولية لبلاده، ويكون هذا التوجه الذي عبر عنه مؤسس الجمهورية الخامسة هو الدافع وراء الكثير من المواقف التي اتخذها تجاه القضايا السياسية، وخاصة تلك التي استهدف منها إعادة تكوين الإمبراطورية الاستعمارية في الجزائر. أما القضايا الأوروبية التي واجهت فرنسا في مرحلة الحرب الباردة فإن موقف الرئيس شارل ديغول من الحلف الأطلسي والقضية الألمانية واحتكار الولايات المتحدة للسلاح النووي كان عامل إضعاف للسياسة الأمريكية تجاه الاتحاد السوفيتي، فتميز موقفه من الوحدة الأوروبية على أساس أن تلعب فرنسا دوراً أساسيًا في قيادتها، وهذا ما يفسر رفض الرئيس الفرنسي انضمام بريطانيا إلى السوق الأوروبية المشتركة.

فما هي مبررات نزاع الرئيس شارل ديغول مع خصومه في الخارج وهو الذي كان يعتقد أنه خليفة لشارلمان ونابليون اللذين وحدا أوروبا حسب زعمه؟ وما هي الخلفية التاريخية والإستراتيجية التي كانت وراء تصرفات ديغول تجاه القضايا الأساسية في برنامج الجمهورية الخامسة؟ وكيف تمكن ديغول قبول ما يحد من حريته في العمل في سبيل وصول فرنسا إلى مرتبة الدول النووية، وهو الذي سبق أن رفض نداء الضمير العالمي ممثلا في قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة لوقف التجارب النووية في الصحراء الجزائرية عام ١٩٦٠؟

يهدف هذا البحث دراسة أهم القضايا التي وضعها الرئيس الفرنسي في سياسة الجمهورية الخامسة بقصد بناء عظمة فرنسا حسب زعمه لاسترجاع المكانة الدولية المفقودة لفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية، وإبراز خيبة أمال الرئيس الفرنسي في القضاء على الثورة الجزائرية (١٩٥٨-١٩٦٢)، وكشف حدود سياسة الرئيس شارل ديغول في الاستقلالية عن الزعامة الأمريكية والرهان على الوفاق بين الشرق والغرب (١٩٦٦-١٩٦٧) لبناء علم متعدد الأقطاب على حساب القطبية الثنائية.

واعتمدنا على المنهج الوصفي والتحليلي في دراسة توجهات الرئيس شارل ديغول العقد الأول من سياسة الجمهورية الخامسة والصعوبات التي اعترضت تجسيد هذه السياسة المبنية على الاضطهاد الاستعماري في الجزائر. ومواجهة النظام الدولي القائم على الثنائية القطبية التي وضعه الأمريكيون والسوفييت المنتصرون في الحرب العالمية الثانية.

أولاً: ظروف تأسيس الجمهورية الخامسة سنة ١٩٥٨

بعد فشل العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦، بدأت ثلاث جماعات تعمل ضد الجمهورية الرابعة: المستوطنون وجنرالات الجيش الفرنسي في الجزائر، وبعض الديغوليين في فرنسا. من المعروف أن قادة الجيش الفرنسي والمستوطنين في الجزائر كانوا ضد وجهة النظر التي عبر عنها شارل ديغول في مؤتمره الصحفي في جوان ١٩٥٥. لذلك كانوا متحفظين تجاهه، ولكنهم كانوا بحاجة إلى زعيم يتمتع بمثل شعبيته. ولذلك كان من الممكن التقاء الجماعات الثلاث، وهذا ما بدأ الديغوليون يسعون إليه. عندما شكل فليكس غايار حكومته في نوفمبر ١٩٥٧ كان وزير الدفاع الجديد جاك شابان دلماس الشخصية السياسية التي كانت تسعى لتطوير الوضع لصالح شارل ديغول إلى جانب جاك سوستيل الذي كان حاكما عاما للجزائر (١٩٥٥-١٩٥٧) والذي اتخذ موقفا متشددا لصالح سياسة الجزائر الفرنسية (ديغول، ١٩٧١، الصفحة ٧٨).

١/١-ظروف عودة ديغول إلى السلطة سنة ١٩٥٨

في ٨ فيفري ١٩٥٨ واجهت حكومة فليكس غايار أزمة دولية بسبب قيام طائرات فرنسية بقصف ساقية سيدي يوسف التونسية، فهبت صيحات الاستنكار في العالم، ورفعت الحكومة التونسية شكوى بذلك إلى الأمم المتحدة، وتشكلت لجنة أنجلو-أمريكية للمساعي الحميدة، إلا أنها لم تصل إلى نتيجة، (Soustelle, 1962, p 34) ولكن الرأي العام الفرنسي احتج لقبول الحكومة مثل هذا التدخل الأجنبي، فسقطت في

منتصف شهر أفريل ١٩٥٨. وفي ٩ ماي وجه رئيس الجمهورية الرابعة روني كوتي دعوة إلى بيير فليملان من حزب الحركة الجمهورية الشعبية لتشكيل الحكومة. (Le Monde, 13 mai 1958)

واجتمع البرلمان في باريس في ١٣ ماي ١٩٥٨ للتصويت على تكليف فليملان، بينما كان اليمين المتطرف بقيادة بيير لاغايارد رئيس الحركة الطلابية يحتل مقر الحاكم العام في الجزائر. أما الجنرال جاك ماسو، فقد ترأس لجنة الإنقاذ العام بالتنسيق مع الجنرال راؤول سالان. وعندما وافق البرلمان على تكليف فليملان تشكيل الحكومة أعلن ماسو أن لجنته: "لا تقبل بسلطة حكومة التخاذل برئاسة فليملان وأنها تعتمد على ديغول لإنقاذ فرنسا"(Massu, 1972, p 72).

على ضوء الموقف الجديد طلب الجنرال سالان في ١٤ ماي ١٩٥٨ بالعودة إلى الهدوء وهو بهذا كان يحاول تخفيف الفجوة التي نشأت بين السلطات الفرنسية المتنافسة في باريس. وفي ١٥ ماي ١٩٥٨ تحدث شارل ديغول عن انهيار الدولة، وعن استعداده لتسلم مقاليد الحكم، ولكنه لم يذكر متى وكيف، إلا أن نقاشا برلمانيا جرى بين الأحزاب الفرنسية حول كيفية الرد على تصريح ديغول، ولكن مفتاح الموقف البرلماني كان في أيدي الاشتراكيين، فإذا صوتوا لصالح ديغول استطاع كسب الأغلبية في البرلمان، أما إذا انضموا إلى الشيوعيين ضد ديغول فسيصبح الديغوليون أقلية.

في الحقيقة كان غي موليه وفنسان أوريول يؤيدان ديغول، ولكن أعضاء الحزب الاشتراكي كانوا ضده ويطالبونه بإدانة جنرالات الجيش الفرنسي في الجزائر كشرط مسبق للقبول بترشيحه لمنصب رئيس الحكومة (ديغول، ١٩٧١، الصفحة ٩٦). وفي المؤتمر الصحفي الذي عقده في ١٩ ماي ١٩٥٨ في قصر أورسيه كشف ديغول عن تكتيكه قائلاً: "أهنئ الجيش لنجاحه في التغلب على الاضطرابات في الجزائر، لماذا يريدون مني إدانة تدخله في الوقت الذي عجزت فيه الحكومة" (ديغول، ١٩٧١، الصفحة ٩٨). وكان هذا رده على مطالب الاشتراكيين، ولكنه ما لبث أن أعرب عن: "تقديره تجاه غي موليه وعن استعداده لبسط سيطرة الدولة وإعادة ثقة الفرنسيين بها"(ديغول، ١٩٧١، الصفحة ٩٨). وبهذا اتضح أن عودته إلى الحكم لن تكون مجرد تغيير حكومة، لأنه لا يزال مصراً على أن تعطى له صلاحيات خاصة دون أي مساس بالجمهورية، قائلا: "والآن سأعود إلى قريتي لأبقى فيها تحت تصرف الوطن" (ديغول، ١٩٧١، الصفحة ٩٩).

في هذه الأثناء توجه فليملان إلى الرئيس روني كوتي ليقدم استقالته، ولذلك طلب من شارل ديغول في ٢٨ ماي ١٩٥٨ الاجتماع مع رئيس مجلس النواب لوتروكيه الذي كان ضد ديغول ورئيس مجلس الشيوخ مونيرفيل الذي أظهر بعض التفهم تجاه مطالب ديغول بسلطات خاصة شرط أن تكون مدتها محدودة بستة أشهر، ومما قاله ديغول لتروكيه: "إذا تبعك المجلس فلن يكون أمامي سوى الانسحاب والاعتزال من جديد وتركك تتفاهم مع المظليين" (ديغول، ١٩٧١، الصفحة ١٠١).

في ٢٩ ماي ١٩٥٨ أرسل الرئيس كوتي برقية إلى البرلمان بغرفتيه يوضح فيها أن الحرب الأهلية على الأبواب وأنه قرر استدعاء أشهر الفرنسيين لإنقاذ الجمهورية. واستقبل ديغول ليتفق معه على المرحلة النهائية من العمل المشترك. كما أن ديغول عمل على تبديد شكوك الاشتراكيين عندما استقبل في كولومباي في ٣٠ ماي أوريول وموليه وطمأنهما بتعابير مؤثرة إلى إخلاصه للجمهورية. وبهذا الدعم الاشتراكي زال آخر حاجز على طريق ديغول إلى السلطة. فبدأ ديغول بتشكيل حكومته واختار غي موليه نائبا للرئيس، كما اشترك فيها بيير فليملان والخبير المالي أنتوان بيناي (Lacouture, 1985, p 541).

وفي ١ جوان ١٩٥٨ عرض ديغول برنامجه على البرلمان، وطالب بسلطات استثنائية لمواجهة الموقف في الجزائر وفرنسا، كما طلب الموافقة على وضع مشروع دستور يعرض على الفرنسيين للاستفتاء، وتم تكليف ديغول بأغلبية ٣٢٩ صوتا ضد ٢٢٤ وامتناع ٣٢ عن التصويت (Vaisse, 1998, p 695). واشتدت معارضة بيير مندس فرنس وفرنسوا ميتران الذي قال: "في عام ١٩٤٠ كان رفيقاه الشرف والوطن، أما اليوم فقد أصبحا القوة والرجعية (Mitterand, 1969, p78).

٢/١-قراءة في ظروف عودة ديغول إلى الحكم

ظل شارل ديغول يشكو من ابتعاده عن السلطة طوال اثني عشر سنة، إلا أن غيابه كانت له ناحيته الايجابية: ففي السنوات الأولى التي تلت نهاية الحرب لم يكن العالم مستعدا لتقبل شخص مثل ديغول فأوروبا كانت مرتبطة اقتصاديا بالولايات المتحدة والحرب الباردة لا تسمح لدولة ضعيفة مثل فرنسا بأن تلعب دورا هاما بصورة مستقلة (Guichard, 1980, p 65).

أما في سنة ١٩٥٨ فقد أصبحت الأمور مختلفة: فأوروبا أصبحت أكثر قوة ناعمة، بينما تقدمت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي نحو الانفراج، لأن الحرب أصبحت مستحيلة، كما أن قضية الهند الصينية وأزمة السويس فتحتا أعين الفرنسيين بحتمية القضاء على النظام الاستعماري. ولا شك في أن ابتعاد ديغول عن الحكم في الفترة (١٩٤٦-١٩٥٨)، أعطته الوقت لكي يتكيف مع الحقائق الجديدة (الشقيري، ١٩٨٢، الصفحة ٢٥٤). وعاد ديغول إلى السلطة، ولكنه لم يكن أكثر من رئيس حكومة، والبرلمان الذي منحه سلطات استثنائية يستطيع أن يسحب منه هذه الصلاحيات، ويقرر إقالته إذا رغب بذلك عند حلول شهر أكتوبر ١٩٥٨. كما أن روني كوتي كان لا يزال رئيسا للجمهورية ونظام الجمهورية الرابعة لا يزال قائما لذلك كانت أولوية شارل ديغول العمل على تدعيم مركزه عن طريق وضع دستور جديد (العقاد، ١٩٦٤، الصفحة ١٥٠).

وبهذا كلف ميشيل دوبريه بإعداد الخطوط العريضة لهذا الدستور. ولكن كانت هناك أولويات ملحة أخرى كالجزائر التي زارها في الفترة من ٤ إلى ٧ جوان ١٩٥٨ للتفاهم مع جنرالات الجيش الفرنسي، والأزمة المالية التي استطاع في ٧ جوان بمساعدة الوزير انتوان بيناي وضع حد لنزيف احتياط الذهب والعملة الصعبة. كما تم وضع سياسة تقشف صارمة مع تجميد الزيادة في الأجور لمدة عام، مما أدى إلى عودة الثقة تدريجيا وزيادة احتياطات البنك المركزي الفرنسي من الذهب والعملات (الخولي، ١٩٩٢، الصفحة ١٢٥).

٣/١-إعلان الجمهورية الخامسة سنة ١٩٥٨

في ١٤ أوت ١٩٥٨ نشر نص مشروع الدستور الذي جاء مطابقا لإرادة شارل ديغول في منح رئيس الجمهورية سلطة توجيه شؤون الدولة مع تعزيز السلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية. وجرى الاستفتاء على الدستور في ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ فجاءت النتيجة ٨٥% من الفرنسيين شاركوا في الاستفتاء منهم ٧٩% صوتوا لصالح الدستور الجديد. وأصبح ديغول رئيسا للجمهورية الخامسة يحدد الخطوط العريضة لسياسة الدولة ويفرضها على حكومة يختار هو رئيسها. كما أصبح باستطاعته حل البرلمان مرة واحدة في العام مع الدعوة إلى انتخابات جديدة بعد التشاور مع رئيس الحكومة ورئيسي مجلسي النواب والشيوخ. وصت المادة ١٦ من الدستور أن: "للرئيس الحق في حالات الطوارئ باتخاذ التدابير التي تتطلبها الظروف

(http ://www.conseil-constitutionnel.fr/constitution/1959/599.htm)

وأثارت هذه العبارة قلق الكثيرين في فرنسا، ولكن شارل ديغول طمأن الجميع إلى أنه لن يستخدمها، إلا في ظروف قاهرة. وبهذا تقلصت سلطة البرلمان، فالبرلمان حسب الدستور الجديد يقر القوانين والميزانية ويستطيع حجب الثقة عن الحكومة، إلا أن الوزير لم يعد يستطيع الجمع بين الوزارة وعضوية البرلمان. وهذا ما كان ينادي به شارل ديغول. وأخيرا فقد البرلمان صلاحيات انتخاب رئيس الجمهورية، وعلى ضوء ذلك أصبح شارل ديغول مرشح الرئاسة لذلك أسس أنصاره لهذا الموعد الانتخابي تنظيما سياسيا جديدا تحت اسم الاتحاد من أجل الجمهورية الجديدة (Marchais, 1964, p 65).

٤/١-نقل السلطات إلى شارل ديغول

في نوفمبر ١٩٥٨ جرت الانتخابات البرلمانية حيث فاز الاتحاد من أجل الجمهورية الجديدة بـ٢٠٦ مقاعد في البرلمان الجديد من أصل ٥٧٦، أكدت هذه النتيجة الأغلبية المريحة لديغول في تشكيل حكومة بمساعدة حلفائه البرلمانيين. وهكذا أصبح انتخاب ديغول كرئيس للجمهورية مجرد إجراء شكلي: ففي ٢١ ديسمبر ١٩٥٨ حصل ديغول على ٧٨% من مجموع أصوات الهيئة الانتخابية.(Pflimlin, 1991, p 296) في ٢٨ ديسمبر ١٩٥٨ وقبل أن يتسلم ديغول سلطته الدستورية ألقى خطابا في الإذاعة والتلفزيون خصص معظمه للتدابير المتخذة لتقوية الاقتصاد الفرنسي قبل اختبار السوق الأوروبية المشتركة عمليا في ١ جانفي ١٩٥٩. حيث كتب

في مذكراته: "أنها كانت جيدة بالنسبة للوطن، ولكنها كانت قاسية على المواطن" (ديغول، ١٩٧١، الصفحة ١٠٥).

ونتيجة لهذه التدابير زادت الضرائب وتقلص الإنفاق الحكومي الخاص بالإعانات الاجتماعية، وتم تخفيض قيمة الفرنك الفرنسي بنسبة ١٧,٥% لتسهيل المعاملات التجارية مع الخارج. وبهذه الإجراءات كانت فرنسا تستعد للدخول في منافسة مع ألمانيا الغربية وإيطاليا وهولندا داخل السوق الأوروبية المشتركة. وبذلك نجحت الجمهورية الخامسة في بدايتها في هذا التحول الذي فشلت الجمهورية الرابعة على تنفيذه. وفي ٨ جانفي ١٩٥٩ وصل شارل ديغول إلى قصر الإليزيه، وأصبح يحكم بموجب سلطات دستورية (Boissieu, 1982, p 177).

ثانيًا: القضية الجزائرية (١٩٥٨-١٩٦٢)

أثناء زيارة الجنرال ديغول للجزائر في ٤ جوان ١٩٥٨ تجنب استخدام تعبير دمج الجزائر بفرنسا، بينما كان غلاة المستوطنين وجنرالات الجيش الفرنسي في الجزائر يتمنون سماعه. وأدرك ديغول أنه سيكون من الصعب تطبيق سياسة الإدماج، لأن متابعة هذه السياسة ستؤدي إلى حرب استعمارية طويلة في الجزائر التي سلكت بوضوح طريق الاستقلال التام. وحاول إدخال عاملين جديدين على الوضع في الجزائر: أولهما تشكيل المجموعة الفرنسية التي كان يستهدف منها إثارة اهتمام قيادة الثورة الجزائرية، وثانيهما خطة شال للقضاء على الثورة.

١/٢-سياسة ديغول تجاه القضية الجزائرية عام ١٩٥٩

رغم تزايد حدة جرائم فرنسا في حق الشعب الجزائري أثناء تطبيق خطة شال في الولايات الثورية الستة، إلا أن ذلك لم يقض على الثورة الجزائرية: ففي الفترة الواقعة بين ٢٧ و٣٠ أوت ١٩٥٩ قام ديغول بجولة في الجزائر لمعاينة أهداف خطة شال، ومنها استبعاد إلحاق هزيمة ثانية بفرنسا على غرار ديان بيان فو (قليل، ١٩٩١، الصفحة ٣٣٩)، ولكن الاستنتاجات التي خرج بها ديغول من هذه الجولة، جاءت مناقضة لاستنتاجات جنرالاته: فقد اعتقد هؤلاء بأن تبقى الجزائر فرنسية تحت حماية الجيش، أما ديغول فقد أدرك أن الشعب الجزائري كان يريد تقرير مصيره بنفسه، وأن معظم الرأي العام العالمي كان يساند القضية الجزائرية، كما أن إطالة الجيش الفرنسي في الجزائر سيكلف فرنسا ثمنا باهظا. ولذلك حاول ديغول أثناء جولته إقناع الجنرالات بوجهة نظره (قليل، ١٩٩١، الصفحة ٣٤١).

وقرر ديغول عدم تأخير القطيعة النهائية مع أنصار الجزائر فرنسية، طالما أن هؤلاء مصرون على موقفهم المتصلب تجاه حق تقرير المصير للشعب الجزائري، يضاف إلى ذلك أن ديغول كان يريد التأثير على الجمعية العامة للأمم المتحدة عند اجتماع الدورة الرابعة عشرة لمناقشة القضية الجزائرية. وكان يستهدف كسب تأييد الولايات المتحدة التي ساندت فرنسا بالامتناع عن التصويت في الدورة الثالثة عشرة للجمعية العامة أثناء مناقشة القضية الجزائرية (الشقيري، ٢٠٠٥، الصفحة ١٢٥).

٢/٢-موقف شارل ديغول من تقرير مصير الجزائر عام ١٩٥٩

عندما قام الرئيس الأمريكي أيزنهاور بزيارة لفرنسا في ٢ سبتمبر ١٩٥٩ طلب منه الرئيس شارل ديغول دعم الولايات المتحدة، ولكن أيزنهاور لم يعد بشيء وكتب ديغول في مذكراته: "ستبذل فرنسا قصارى جهدها للمصالحة مع الثورة الجزائرية، كما تأمل من الولايات المتحدة تفهم الموقف الفرنسي، رغم ما يسببه لها ذلك من صعوبات". ورفض الرئيس أيزنهاور الالتزام بانتظار الإعلان عن سياسة فرنسا في الجزائر، ودراسة مدى تطابقها مع ميثاق الأمم المتحدة، إلا أن ديغول أعرب عن تحفظه، حيث كتب في مذكراته: "هناك مسألتان مختلفتان فيما يتعلق بالوضع في الجزائر: الحاجة إلى ترك الشعب الجزائري يعبر عن إرادته بحرية عن طريق التصويت، ثم وجود منظمة جزائرية تريد فرض حكومة بالقوة...وفرنسا لم تعترف ولن تعترف أبدا بهذه المنظمة" (قليل، ١٩٩١، الصفحة ١١٣).

يبدو أن ديغول لم يكن مستعدًا لقبول مطالب الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، لذلك لم يكن عرضه للسلام سوى مناورة سياسية رغم تعاطف الولايات المتحدة، ولكن ديغول أعلن في ١٦ سبتمبر ١٩٥٩ القرار الآتي: "إن فرنسا مستعدة لأن تعطي الشعب الجزائري حقه في تقرير مصيره بالتصويت الحر، حيث يمكنه اختيار الاستقلال عن فرنسا، كما فعلت غينيا أو الإدماج مع فرنسا أو الاستقلال مع مشاركة فرنسا ضمن المجموعة الفرنسية وضمان مساعدتها. بعد انتهاء الحرب ستكون هناك فترة انتقالية قد تدوم حتى أربع سنوات قبل تقرير المصير الذي سيحدد ديغول موعده. بانتظار ذلك يحق للجهاز السياسي المساند للثورة الاشتراك في الانتخابات كغيره من الحركات السياسية" (ديغول، ١٩٧١، الصفحة ١١٤).

جاء تعبير حق تقرير المصير على لسان ديغول ليغير الموقف، ويحدث انطباعا في حركة عدم الانحياز وفي الولايات المتحدة، فوضع حدا لما يسمى بالجزائر الفرنسية. وكان من الطبيعي أن تحتج الأقلية الفرنسية وجنرالات الجيش الفرنسي في الجزائر ضد ديغول. ولذلك شكل غلاة المستوطنين واليمين المتطرف في ٢٤ جانفي ١٩٦٠ تنظيما مسلحا أطلق عليه اسم جبهة الوطنية الفرنسية (Soustelle, 1964, p 65). أما الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية استقبلت تعبير حق تقرير المصير بشكل إيجابي، ولم تستبعد إمكانية التفاوض ضمن شروط معينة، ولكن الثورة الجزائرية ظلت على موقفها الأصلي الذي تبنته في مؤتمر الصومام في ٢٠ أوت ١٩٥٦: وهو أنه لا وقف لإطلاق النار قبل الاستقلال التام ولا مفاوضات إلا حول الاستقلال، فإذا توقف الكفاح والنضال سيكون من الصعب استئنافه في حال رحيل ديغول عن الحكم ولجوء خلفائه إلى تغيير السياسة الفرنسية. (قليل، ١٩٩١، الصفحة ١٨٩).

٣/٢-رد فعل الأقلية الفرنسية في الجزائر

في ١٦ جانفي ١٩٦٠ تفجر الوضع في أوساط المستوطنين بمدينة الجزائر. فأدلى الجنرال ماسو بحديث لصحيفة Suddeutshe Zeitung الألمانية، جاء فيه: "إن الجيش لم يعد يفهم سياسة ديغول، وأن قادة هذا الجيش لا يطيعونه طاعة عمياء، استدعاء ديغول إلى السلطة عام ١٩٥٨ كان خطأ يدل على التسرع" (Le Monde, 17 janvier 1960). مما أدى بديغول إلى استدعاء ماسو ووجه له توبيخا شديدا دون أن يحيله على محكمة عسكرية. وللضغط على ديغول دعا اليمين المتطرف في الجزائر بقيادة أورتيز وسوزيني ولاغايارد إلى إضراب عام في ٢٤ جانفي ١٩٦٠ وإقامة المتاريس في الجزائر العاصمة. وحدد سوزيني أهداف التمرد بقوله: "لقد دقت الساعة لقلب النظام سوف تبدأ الثورة في الجزائر لتنتهي في باريس" (Le Monde, 25 janvier 1960)، إلا أن هذه الحركة المتطرفة لم يدعمها أي حزب أو زعيم سياسي في المتروبول باستثناء كبار الكولون وأفواج المظليين وعناصر فرقة اللفيف الأجنبي في الجزائر. أما مفتاح الموقف فكان في يد الجنرال شال الذي كان من أنصار الجزائر الفرنسية، إلا أنه بقي مواليا للجنرال ديغول. وبدأ ما سمي بأسبوع المتاريس. في ليلة ٢٤-٢٥ جانفي وجه ديغول عبر الإذاعة نداء طلب فيه من المتمردين إلقاء السلاح، كما أمر الجيش بتنفيذ الأوامر، ومؤكدًا أنه لن يقدم أية تنازلات. واعتصمت قوات الجبهة الوطنية الفرنسية خلف المتاريس في الجزئر العاصمة بالتواطؤ مع المظليين المكلفين بمقاتلتها. وفي ٢٨ جانفي انسحب الجنرال شال الحاكم العام وديلوفربيه إلى إحدى القواعد الجوية خارج مدينة الجزائر خوفا من اختطافهما، كما رفض سائر الجنرالات الانضمام إلى المتمردين. (Massu,1972, p 79).

وفي ٢٩ جانفي وجه ديغول نداء بواسطة التلفزيون إلى الفرنسيين طالبهم فيه بدعمه مؤكدا على حق الجزائريين في تقرير مصيرهم، ولكنه أنكر أنه يريد القطيعة بين الجزائر وفرنسا، حيث كتب في مذكراته: "المشكلة لا يمكن أن تحسم بانتصار عسكري، بل عندما يعبر الشعب الجزائري عن إرادته بكل حرية وكرامة وأمان"، وأحدث هذا النداء صدى من خلال برقيات التأييد لديغول، ما أدى إلى اختفاء المتمردين، وفي أول فيفري ١٩٦٠ استسلم كل من أورتيز ولاغايارد. وتم إنقاذ ديغول في حين قدم رئيس الحكومة ميشيل دوبريه استقالته، لأنه لم يكن موافقا على حق تقرير مصير

الجزائر بينما ترك الحكومة جاك سوستيل الذي كان من أنصار دمج الجزائر بفرنسا (ديغول، ١٩٧١، الصفحة ١١٢).

بعد أسبوع المتاريس في مدينة الجزائر لجأ قادة حركة التمرد إلى إسبانيا لتأسيس حركة أخرى بالتنسيق مع الجنرال سالان المقيم في مدريد. كما غادر الجنرال شال الجيش في جانفي ١٩٦١ بعد فشل خطته في الجزائر، إلا أنه لم ينضم مباشرة إلى المتمردين الذين شكلوا أثناء فيفري ١٩٦١ حركة جديدة أطلقوا عليها اسم منظمة الجيش السري ونفذت هذه المنظمة عدة هجمات بالقنابل في باريس.

٤/٢–موقف الثورة الجزائرية

قامت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بإرسال جواب إيجابي على اقتراح ديغول يوم ١٤ جوان ١٩٦٠ والذي طلب فيه: "الحضور لإيجاد نهاية مشرفة للقتال الدائر وتأمين مصير المقاتلين" (بن خدة، ١٩٨٦، الصفحة ٨٥). وصل وفد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية إلى مطار أورلي في ٢٥ جوان ١٩٦٠، حيث أنزل أعضاؤه في عمالة مولان، ولكن الاتصالات توقفت في ٢٩ جوان، لأن ديغول ظل يرفض مطالب الجزائريين بفتح مباحثات رسمية. وأفشل ديغول فرصة العودة للتفاوض بعد توقف المباحثات في مولان (Lacouture,1986, p 354). وكتب في مذكراته: "لأنها كانت المرة الأولى التي يجلس فيها الطرفان المتحاربان على مائدة واحدة، إلا أن قادة الثورة لم يقوموا بأية مبادرة إضافية" (ديغول، ١٩٧١، الصفحة ١١٢).

٥/٢–رد فعل الرأي العام الفرنسي

بدأ رد اعل الرأي العام الفرنسي بالضغط من أجل تقديم تنازلات في الجزائر: ففي ٥ سبتمبر ١٩٦٠ ظهر بيان ١٢١ الذي وقعه مثقفون يساريون يحض المجندين الفرنسيين على رفض الخدمة العسكرية في الجزائر. ووجد ديغول في هذا الضغط الداخلي فرصة مناسبة لكي يعلن في ٤ نوفمبر ١٩٦٠، أنه اختار طريق الجزائر جزائرية. وأحدث منصبًا جديدًا هو الوزير المكلف بالشؤون الجزائرية برئاسة لويس جوكس. كما أن المناخ الدولي بدأ يتحول ضد الاستعماري الفرنسي في الجزائر. فزادت عزلة فرنسا في الأمم المتحدة، نتيجة النشاط الدبلوماسي لممثل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في نيويورك مدعوما بالكتلة الافرواسيوية في الدفاع عن عدالة القضية الجزائرية، وتدعم هذا النشاط باعتراف الاتحاد السوفيتي في أكتوبر ١٩٦٠ بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وانتخاب جون كينيدي في نوفمبر رئيسا للولايات المتحدة، وهو الذي ظل منذ سنة ١٩٥٧ في مجلس الشيوخ يدافع عن حق الجزائريين في تقرير المصير. وفي الفترة الواقعة من ٩ إلى ١١ ديسمبر ١٩٦٠ قام ديغول بجولة في الجزائر، غير أن المظاهرات هتفت في وجهه بحياة الجزائر المسلمة، وأرغمته بالعودة إلى باريس (الشقيري، ١٩٨٢، الصفحة ١٤٩). وصرح ديغول: "أن الحكومة الفرنسية تستطيع فور إيقاف الاشتباكات والاغتيالات أن تنظم مع مختلف الاتجاهات الجزائرية وبخاصة المقاتلين شروط إجراء الاستفتاء". كما صوتت اللجنة الرابعة برئاسة عدنان الباجه جي مندوب العراق على لائحة حق الشعب الجزائري في تقرير المصير والاستقلال (بن خدة، ١٩٨٦، ص ٨٨).

٦/٢–مفاوضات إيفيان (١٩٦١–١٩٦٢)

في ٣٠ مارس ١٩٦١ أعلنت الحكومة الفرنسية والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية عن بدء المفاوضات الرسمية بتاريخ ٧ أفريل في مدينة إيفيان بعد أن تخلى ديغول عن وقف إطلاق النار كشرط مسبق، إلا أن عقبة جديدة ظهرت عندما أثار لويس جوكس شكوك الوفد الجزائري بالإعلان عن عزمه على إشراك الجزائريين المعتدلين (المصاليين) في المفاوضات. وبهذا تأجلت المفاوضات، مما دفع اليمين المتطرف في الجزائر للإسراع في العودة إلى التمرد في مدينة الجزائر بقيادة الجنرال شال بعد أن تسلل أعضاؤه إلى الجزائر بطرق مختلفة. وفي ليلة ٢٢ أفريل ١٩٦١ قام شال مع سالان وجوهو وزيلر بانقلاب ضد ديغول. وفي ليلة ٢٣ أفريل ألقى ديغول خطابا أدان فيه قادة التمرد من الجنرالات المتقاعدين وطالب أتباعهم بعدم التورط معهم (بن خدة، ١٩٨٦، الصفحة ٩٥).

في فرنسا ذاتها ما لبث الرأي العام، أن أيد ديغول كما فعل في جانفي ١٩٦٠، غير أن ديغول اكتفى بتطبيق البند السادس عشر من الدستور وأمر بإلقاء القبض

على الانقلابيين. وفي ٢٧ افريل استسلم شال ثم زيلر، أما سالان وجوهو فضلا الانتقال إلى العمل السري في صفوف منظمة الجيش السري. وعندما بدأت المفاوضات في إيفيان بتاريخ ٢٠ ماي ١٩٦١ كان موقف الوفد الفرنسي، قد ضعف كثيرا نتيجة المحاولة الانقلابية. فظلت الأقلية الفرنسية في الجزائر تساند منظمة الجيش السري، ولذلك لم يكن من السهل الحصول من الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية على ضمانات لهذه الأقلية في الجزائر المستقلة. أما الهدف الأخر للوفد الفرنسي، فكان تأمين المصالح الإستراتيجية والاقتصادية الفرنسية في الجزائر، إلا أن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية لم تكن مستعدة لتقديم أي تنازل في هذا المجال. ولذلك دخلت المفاوضات في طريق مسدود عند نهاية شهر جويلية ١٩٦١. بل تضاعفت الأعمال الإرهابية لمنظمة الجيش السري. ومنها اغتيال رئيس بلدية إيفيان لمجرد أن مدينته كانت مقرا للمفاوضات وفي سبتمبر ١٩٦١ حاولت منظمة الجيش السري اغتيال ديغول بواسطة كمين نصبته له قرب باريس (Vaisse,1983, pp 414-512).

٢/٧-اعتراف فرنسا باستقلال الجزائر في جويلية ١٩٦٢

عمل شارل ديغول على إيجاد وسيلة لتخليص فرنسا من عبء الحرب الاستعمارية في الجزائر. ولذلك فكر في خلق منطقة ساحلية تكون خاضعة للسيادة الفرنسية يشكل فيها الأوروبيون والجزائريون الموالون لفرنسا الأغلبية، يضاف إليها منطقة البترول في الصحراء الجزائرية (العقاد، ١٩٦٤، الصفحة ١٧٤)، إلا أن هذا المشروع رفضته الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، ولم تؤيده حركة عدم الانحياز أو الأمم المتحدة. وفي ١ جانفي ١٩٦٢ أعلن: "أن فرنسا تنوي فك الارتباط مع الجزائر" (ديغول، ١٩٧١، الصفحة ١١٢).

واستؤنفت مفاوضات إيفيان في نهاية جانفي ١٩٦٢ وبرزت الخطوط العريضة للاتفاق في يومي ١٧ و١٨ فيفري ١٩٦٢ ثم اجتمع الوفدان في جلسة ختامية في إيفيان يوم ٧ مارس ١٩٦٢. وتم التوقيع على الاتفاقيات في ١٨ مارس ١٩٦٢، وأصبح وقف إطلاق النار ساري المفعول اعتبارا من منتصف يوم ١٩ مارس، وبقيت هذه الاتفاقيات خاضعة لموافقة فرنسا والجزائر بموجب استفتاء عام كانت النتيجة معروفة سلفا، ولكن الإجراءات أخذت مجراها بناء على رغبة ديغول الذي كان يريد أن يبدو الاستقلال وكأنه منح من قبل فرنسا ولم ينتزع انتزاعا. وعين المندوب السامي كريستيان فوشي لكي يرأس عملية نقل السلطات في الفترة الانتقالية. وتضمنت بنود الاتفاق ما يلي: يحق للمواطنين من البلدين أن يعيشوا ويعملوا في البلد الأخر، تعتبر أملاك الفرنسيين الباقين في الجزائر مكفولة، تعتبر الجزائر سيدة على الصحراء وتتعاون معها فرنسا في استثمار البترول كما تحتفظ بمنشآتها الخاصة بالأبحاث النووية، تتلقى الجزائر مساعدة اقتصادية وتقنية وتبقى ضمن منطقة الفرنك، التعاون الثقافي يستمر، وتبقى بعض القواعد الجوية بالإضافة إلى المرسى الكبير بين أيدي الفرنسيين لمدة خمسة عشر عامًا (بن خدة، ١٩٨٦، الصفحة ١٢٥).

تم الاستفتاء داخل فرنسا بتاريخ ٨ افريل ١٩٦٢ ووافق عليه ٩٦% من مجموع المصوتين. وحاول ديغول أن يظهر الاتفاقيات وكأنها جاءت مطابقة لرغباته: فعلى الورق كانت تحقق نوعا من المشاركة بين فرنسا والجزائر. ورغم تخلي الفرنسيين عن السيادة في الجزائر احتفظوا ببعض الحقوق فيما يتعلق بالبترول وبمراكز التجفيرات النووية. كما تم الحصول على بعض الضمانات لصالح المستوطنين، إلا أن موقف منظمة الجيش السري والكولون جرد هذه الاتفاقيات من مضمونها قبل سريان مفعولها. وأخيرا تم اعتقال الجنرالين جوهو في مارس وسالان في أفريل، ولكن منظمة الجيش السري اختارت لنفسها قادة جددا أشد تطرفا ما لبثوا أن أعلنوا سياسة الأرض المحروقة فأوعزوا إلى الأقلية الأوروبية بعدم مغادرة البلاد، إلا بعد تدمير الجزائر، ودعا ثلاثمائة ألف شخص بالعودة إلى أوروبا خلال شهر ماي ١٩٦٢ وكانت الحكومة الفرنسية توقعت أن حوالي مائة ألف شخص فقط سيعودون إلى فرنسا خلال ستة أشهر. في هذه الأثناء كانت المحكمة العسكرية حكمت على جوهو بالإعدام الحكم، ولكن لم يحكم على سالان إلا بالسجن المؤبد.

وفي ١٧ جوان ١٩٦٢ تخلت منظمة الجيش السري فجأة عن مواصلة الإرهاب ووقعت مع جبهة التحرير الوطني على هدنة، إلا أن الأوان كان قد فات، ولم يبق في الجزائر أخيرا سوى ١٠٠ ألف أوروبي من أصل مليون الأمر الذي سهل حل المسائل المشتركة فيما بعد. (بن خدة، ١٩٨٦، الصفحة ١٢٥)

جرى الاستفتاء في الجزائر في أول جويلية ١٩٦٢ حيث أجابت الأغلبية الساحقة بـ"نعم" على السؤال المطروح الآتي: "هل ترغب في أن تصبح الجزائر دولة مستقلة متعاونة مع فرنسا وفق الشروط المحددة في بيان ١٩ مارس ١٩٦٢؟".(بن خدة، ١٩٨٦، الصفحة ١٢٥). وفي ٥ جويلية ١٩٦٢ أعلنت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية استقلال الجزائر. وفي ٢٠ سبتمبر جرت انتخابات الجمعية الوطنية التأسيسية، وفي ٢٥ سبتمبر أعلن فرحات عباس رئيس الجمعية الوطنية التأسيسية قيام الجمهورية الجزائرية الديمقراطية والشعبية، وفي ٢٦ سبتمبر انتخبت الجمعية التأسيسية أحمد بن بلة رئيسا لحكومة الجمهورية الجزائرية (قليل، ١٩٩١، الصفحة ٣٥٤).

أما ديغول فقد ركز اهتمامه في اتجاه تحديث فرنسا والدور الأساسي الذي يجب أن تلعبه في أوروبا. ومما كتبه في مذكراته:" مدحني ماو تسي تونغ واعتبرني أعظم رجل دولة في زمانه قائلا: لأنه عرف متى يجب عليه أن يقول "لا" ومتى يجب أن يقول "لا" فقد رفض الانحناء أمام النازيين عام ١٩٤٠ من موقف الضعف، ولكنه تراجع أمام الجزائريين من موقف لا يمكن وصفه بالضعف. لذلك يعتبر وكأنه انتصر أمام الرأي العام العالمي في الحالتين" (ديغول، ١٩٧١، الصفحة ١٢٢).

ثالثًا: القضية الألمانية (١٩٥٨ – ١٩٦٢)

كان ديغول يرغب في إجراء تغيير جذري على طبيعة علاقاته مع الكتلة الغربية. ففي مذكرات الأمل وصف أهدافه كما يلي: "تخليص فرنسا ليس من الحلف الأطلسي الذي أريد له الاستمرار، بل من الدمج تحت الوصاية الأمريكية، وتزويد فرنسا بقوة. أريد سلوك هذا الطريق دون أن يؤثر ذلك على الصداقات التقليدية لفرنسا" (Vaisse,1983, p 414).

١/٣-موقف الرئيس شارل ديغول من أزمة برلين الغربية

أدت ظروف الحرب الباردة سنة ١٩٥٨ إلى نشوب أزمة برلين، وكان للحلفاء الغربيين في مدينة برلين إدارة ثلاثية (أمريكية وبريطانية وفرنسية) منذ مؤتمر بوتسدام في جويلية ١٩٤٥. وأدت هذه الأزمة الخطيرة التي دامت حتى صيف ١٩٦٢ إلى تأخير الانسحاب الفرنسي من الحلف الأطلسي، وتأخير الانفتاح الذي كان ديغول يسعى إلى تطبيقه مع الاتحاد السوفيتي (Duroselle,1983, p 414).

٢/٣-بداية الأزمة سنة ١٩٥٨

بدأت أزمة برلين عندما طلب الاتحاد السوفييتي من الحلفاء الغربيين الثلاث في ٢٧ نوفمبر ١٩٥٨ سحب قواتهم من برلين لتصبح مدينة حرة، كما هدد في حال عدم الاستجابة لطلبه بأنه سيعمد خلال مهلة ستة أشهر إلى توقيع معاهدة سلام منفرد مع ألمانيا الشرقية تبطل حق احتلال الحلفاء لبرلين الغربية، علاوة على ذلك لن يعود وصول الحلفاء إلى برلين الغربية ممكنا، إلا عبر أراضي ألمانيا الشرقية أو أجوائها. ولم يدخل الطلب السوفيتي في تفاصيل العواقب التي قد تترتب على الرفض، ولكن كان واضحا أن إحداها سيكون حصار برلين الغربية الذي لن يتمكن الحلفاء من رفعه إلا باستخدام القوة (Carmoy,1967, p 196) . وأعلن ديغول أن على الغرب رفض التفاوض تحت التهديد، حيث قال لوزير الخارجية الأمريكي جون فستر دالاس (١٨٨٨-١٩٥٩)، وهو زير الخارجية في عهد الرئيس دوايت ايزنهاور من ١٩٥٣ حتى ١٩٥٩، وكان شخصية مؤثرة في بداية الحرب الباردة، واتخذ موقفا عدائيا ضد الشيوعية في جميع أنحاء العالم ودعا إلى دعم فرنسا في حربها ضد الفيت منه بقيادة الزعيم هوشي منه في الهند الصينية، وكان يعتقد على نطاق واسع أنه رفض مصافحة شوان لاي في مؤتمر جنيف سنة ١٩٥٤. كما أنه لعب دورا كبيرا في عمليات المخابرات المركزية الأمريكية لإسقاط حكومة محمد مصدق الوطنية في إيران عام ١٩٥٣ التي أممت الشركات البريطانية والأمريكية الاحتكارية للبترول الإيراني، إضافة إلى قلب حكومة غواتيمالا عام ١٩٥٤ (Encyclopedia Unversalis, Article: Dulles). في ١٥ ديسمبر١٩٥٨

وجاء فيه، "يجب ألا نرضخ للتهديد، فيجب علينا قبول التحدي".

في شهر ماي ١٩٥٩ عقد مؤتمر القمة الرباعي في جنيف، وسمح لألمانيا الشرقية بالحضور مع ألمانيا الغربية، بناء على طلب الاتحاد السوفييتي. وانتهت مهلة الإنذار دون أن يفعل الزعيم السوفيتي خروتشوف أي شيء في برلين الغربية. وفي شهر أوت توقفت المحادثات دون اتخاذ أي قرار، إلا أن الجو أصبح أكثر انفراجا، كما وافق خروتشوف على زيارة الولايات المتحدة بناء على دعوة إيزنهاور (Lacouture,1983, p 380).

٣/٣-موقف الرئيبي شارل ديغول من مؤتمر القمة الرباعي سنة ١٩٦٠

بعد زيارة الزعيم السوفيتي خروتشوف لفرنسا في الفترة من ٢٣ مارس إلى ٤ أفريل ١٩٦٠ التي انتهت بالاتفاق على تطوير علاقات التعاون التقني والثقافي بين البلدين، قام الرئيس شارل ديغول بزيارات رسمية خلال شهر أفريل ١٩٦٠ إلى كل من بريطانيا وكندا والولايات المتحدة. وأنعقد مؤتمر القمة الرباعي في باريس بتاريخ ١٥ ماي ١٩٦٠، ولكنه فشل إذ ما لبث أن توقف قبل الدخول في المباحثات الجدية بسبب إثارة مسألة طائرة التجسس الأمريكية U-2 التي أسقطت فوق الاتحاد السوفيتي في ١ ماي، (Cocatre,1970, p 49)فطالب الزعيم خروتشوف باعتذار فوق طاقة الرئيس أيزنهاور، إلا أن ديغول استفاد من هذا الخلاف السوفيتي-الأمريكي، فدعم موقف أيزنهاور ضد الطلب السوفيتي، مما أكسبه احترام الأمريكيين. ورغم ذلك لم يتأثر الانفراج الدولي، لأن خروتشوف أعلن أنه لن يتخذ أي قرار حول برلين الغربية قبل أن يتيح لنفسه فرصة مناقشة القضية الألمانية مع الرئيس الأمريكي الذي سيحل محل أيزنهاور في جانفي ١٩٦١.

٤/٣-رد فعل الرئيس شارل ديغول على موقف الرئيس جون كينيدي (١٩٦١-١٩٦٢)

في خطاب ألقاه الرئيس الأمريكي جون كينيدي يوم ٢٥ جويلية ١٩٦١ ألمح فيه إلى تنازلات محتملة لتجنب الصدام في برلين الغربية. وعليه استؤنفت المفاوضات الرباعية في باريس من ٥ إلى ٧ أوت١٩٦١ وسط تصلب موقف الرئيس شارل ديغول. وفي ١٣ أوت ١٩٦١ أمر الاتحاد السوفيتي ببناء جدار برلين على طول حدود القطاعات الثلاث التي يحتلها الحلفاء الغربيون لوضع حد للنازحين من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية (Dulphy,1995, p 115).

مما لا شك فيه أن تصلب الرئيس شارل ديغول كان من الأسباب الرئيسية التي إلى أدت إلى بناء جدار برلين، إلا أن وجهة نظره التي برر فيها رفضه للمفاوضات أمام الرأي العام الفرنسي، جاء فيها: "لا يمكن للمفاوضات أن تكون مثمرة، إلا إذا قدم الغربيون التنازلات من جانب واحد. مهما يكن من أمر، فقد صمد الحلفاء الغربيون في مواقفهم داخل برلين الغربية، وهذا ما كان مستشار ألمانية الاتحادية أديناور يحرص عليه" (Duroselle,1983, p 803).

وجاءت أزمة الصواريخ السوفيتية في كوبا ٢٢ أكتوبر ١٩٦٢ التي كان الزعيم خروتشوف يستهدف من ورائها انسحاب الحلفاء الغربيين من برلين الغربية، إلا أن تصميم الرئيس جون كينيدي على استخدام القوة مهما كلف الأمر أدى في النهاية إلى تراجع خروتشوف، واضطر لسحب الصواريخ من كوبا في ٢٧ أكتوبر. وبهذا وضعت أزمة كوبا حدا للفترة الأكثر توترا في الحرب الباردة بين الشرق والغرب، وعلق عليها الرئيس شارل ديغول قائلا: "طالما أنهما لا تخوضان الحرب لا بد أن تتوصلا إلى السلام". إلا أن الفرصة الجديدة التي أتيحت أمام الرئيس الفرنسي لتطبيق أفكاره حول الانفراج الدولي لم تظهر، إلا بصورة تدريجية. وزاد من آمال فرنسا الاتفاق الذي عقد في ٢٩ نوفمبر ١٩٦٢ بين فرنسا وبريطانيا من أجل إنتاج مشترك لطائرة كونكورد (Cerny,1986, p 242).

رابعًا: قضية الوفاق بين الشرق والغرب (١٩٦٦ – ١٩٦٧)

باشر ديغول فترته الرئاسية الثانية في ٨ جانفي ١٩٦٦ وهو يشعر أن استقلالية القرار السياسي لفرنسا كهدف استراتيجي لسياسته الخارجية لم يتحقق بشكل كامل. فعندما أعلن الانسحاب من الحلف الأطلسي كان ينوي زيارة الاتحاد السوفيتي في منتصف العام.

١/٤-موقف الرئيس شارل ديغول من الحلف الأطلسي سنة ١٩٦٦

كتب ديغول إلى جونسون في ٧ مارس ١٩٦٦ رسالة يعلمه فيها بأن فرنسا ستنسحب من البنية الاندماجية والنشاطات العسكرية للحلف الأطلسي مع بقائها عضوا. وكان الهدف من هذه الرسالة جعل الرئيس الأمريكي يتقبل ما سيخسره عن طريق لفت نظره إلى ما يمكنه الاحتفاظ به إذا قبل قرار ديغول. وقد اقترحت فرنسا في الوقت نفسه التفاوض حول إقامة اتصالات مع القيادات الرئيسية للحلف الأطلسي ومناقشة الشروط التي قد تقوم القوات الفرنسية الموجودة في ألمانيا الغربية على ضوئها بالتعاون مع القوات الأطلسية في حالة الحرب (Brozo,1996, p 186).

وتم الاتفاق على أن تخرج القوات الفرنسية المتمركزة في ألمانيا الغربية من دائرة القيادة الأطلسية في الأول من افريل ١٩٦٧. كما عين ضباط ارتباط فرنسيون في أهم مؤسسات الحلف (Gorce,1974, p 49). وبهذا تم تجنب القطيعة كما ظلت القوة النووية الفرنسية الضاربة تستفيد من منظومة الإنذار المبكر التابعة للحلف الأطلسي في حالة حدوث هجوم جوي. وهكذا أنتقل مقر الحلف الأطلسي من باريس إلى بروكسل عاصمة بلجيكا(Grosser, 1984, p 251) .

٢/٤-موقف الرئيس شارل ديغول من الوفاق مع الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٦٧

خطا الرئيس شارل ديغول خطوة نحو الاستقلال الاستراتيجي بشكل تضمن له استقبالاً حاراً في الاتحاد السوفيتي وتزيد من اهتمام العالم بهذه الزيارة. وهذا ما حدث فعلا عندما وصل إلى موسكو في ٢٠ جوان ١٩٦٧. فمن بين جميع زيارات الرئيس الفرنسي السابقة كانت هذه أهمها من حيث مغزاها السياسي (Mauric,1970, p 79). فأصبحت فرنسا قوة مهيمنة في أوروبا الغربية، كما رأى ديغول أن الوقت قد حان لإقناع الاتحاد السوفيتي بقبول فكرة الاتفاق مع فرنسا على إقامة نظام للأمن الأوروبي يتفق مع مصالحه مثله في ذلك أي اتفاق أخر مع الولايات المتحدة، فإذا نجح ديغول أو خلفاؤه في تحقيق هذا الهدف عندئذ تكون أوروبا الأوروبية، قد قامت فعلا. واستقبل الرئيس شارل ديغول بحفاوة لم يعرفها قبله أي زعيم غربي. فقد احتشدت الجماهير لاستقباله في كافة المدن الكبرى التي زارها، وذلك بتشجيع من السلطات السوفيتية، إلا أن السوفييت أفهموه أن صيغته المفضلة" أوروبا من الأطلسي إلى الاورال" لا تعني شيئا بالنسبة لهم (Jouve,1967, p 652).

اصطحب السوفييت ضمن برنامج الزيارة الرئيس الفرنسي عبر الأورال لزيارة المركز العلمي في نوفوسيبيريسك داخل سيبيريا، كما زار قاعدة إطلاق الصواريخ في بايكونور في آسيا الوسطى التي لم يسمح لأي زعيم غربي بزيارتها من قبل. وخصص وقت طويل للمحادثات الثنائية في الكريملين، حيث كرس الجزء الأكبر منها للقضية الألمانية. وأعرب السوفييت خلالها عن طلبهم توقيع معاهدة سلام على أساس الاعتراف بالدولتين الألمانيتين وبالحدود الغربية لبولونيا، وامتناع الدولتين الألمانيتين عن التزود بالسلاح النووي، ووضع نظام خاص فيما يتعلق ببرلين الغربية. وبعد عقد معاهدة السلام تكون الدولتان الألمانيتان حرتين إذا رغبتا في البقاء عضوين في الحلف الأطلسي وحلف وارسو، ولكن جواب الرئيس شارل ديغول، جاء بصيغة جديدة: "إن بقاء ألمانيا منطقة للنزاع بين الدولتين العظميين يشكل تهديدا دائما للسلام. عندئذ تستطيع ألمانيا تحقيق مصيرها، أي إعادة الوحدة شريطة قبول ألمانيا الجديدة بحدودها القائمة والعدول عن الأسلحة النووية" (Vaisse,1983, p 414).

وكانت فرنسا على اتفاق مع الاتحاد السوفييتي حول النقطتين الأخيرتين، ولكنها لم تكن تريد أن تعترف بألمانيا الشرقية. إذ كان حل الرئيس الفرنسي يستلزم تصفية الكتلتين، وتخلي السوفييت عن سيطرتهم على ألمانيا الشرقية. وحاول إقناع السوفييت بأن أي شكل من أشكال إعادة توحيد ألمانيا هو الثمن الذي يستحق أن يدفع لضمان انسحاب القوات الأمريكية من أوروبا الغربية. كما حاول إقناعهم بضرورة تبني أقل عداء تجاه بون. مذكرا إياهم أن فرنسا قبلت المصالحة مع ألمانيا الغربية، وإذا فعل السوفييت الشيء نفسه عندئذ يصبح الانفراج ممكنا في أوروبا. بعد ذلك تصبح القارة الأوروبية مدعومة بدعامتين قويتين متكافئتين: في الشرق الاتحاد السوفيتي وفي الغرب حلف فرنسي-

ألماني تكون فيه فرنسا وحدها هي التي تمتلك الأسلحة النووية (Martin,1971, p 48).

ولم يبد الزعيم السوفيتي ليونيد بريجنيف أية رغبة في التخلي عن المشروع السوفيتي، ولكنه أعجب بفكرة ديغول حول الحل الأوروبي للقضية الألمانية، فاقترح تنظيم مؤتمر أمن أوروبي بدون الولايات المتحدة. وبلغت المحادثات أوجها عندما قال الرئيس شارل ديغول بعد أن استمع إلى بريجنيف يعرض السياسة الخارجية السوفيتية: "من هذا استنتج أن أهداف الحكومة السوفيتية هي سلمية". واستنادا إلى المصلحة المشتركة في الأمن الأوروبي، تقرر القيام مستقبلا بإجراء مشاورات منتظمة فرنسية-سوفيتية مع توسيع المبادلات التجارية والعلمية والثقافية

(Robertson,1969, p 48).

خَاتِمَةٌ

الحقيقة أن عودة شارل ديغول إلى السلطة سنة ١٩٥٨ لم تتم إلا لأن الجيش الفرنسي هدد بانقلاب عسكري إذا لم يوافق البرلمان على قبوله كرئيس للحكومة، غير أن سياسة الرئيس الفرنسي في الجمهورية الخامسة، وخاصة تجاه القضايا الرئيسية (١٩٥٨-١٩٦٧) لم تتحقق فيها جميع أهدافه، كما اعترف هو بذلك في مذكرات "الأمل"، ولكنه هو الذي ساهم بشكل فعال في تزويد فرنسا بالسلاح النووي وأتاح لها قدرًا كبيرًا من الحرية تجاه العملاقين.

أما سياسته تجاه القضية الجزائرية (١٩٥٨-١٩٦٢)، فبالرغم من مناوراته تعلقه الشديد بالإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، فإنه رضخ للاعتراف بالسيادة الكاملة للجزائر المستقلة.

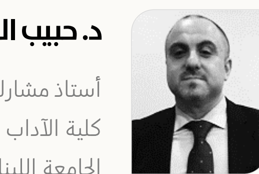
أما مواقفه على الصعيد الخارجي، ورغم أنها اكتسبت لفرنسا أهمية رمزية أكثر من النتائج المادية، فقد ساهم الرئيس شارل ديغول في استعادة مكانة فرنسا في العالم دون يحقق الهدف الاستراتيجي في سياسة الجمهورية الخامسة في الاستقلالية عن الزعامة الأمريكية للكتلة الغربية، أو المساهمة في بناء عالم متعدد الأقطاب.

قائمة المراجع:

- ديغول شارل، ١٩٧١، **مذكرات الأمل** (١٩٥٨-١٩٦٢)، ترجمة أحمد عويدات، وسموحي فوق العادة، منشورات عويدات، بيروت.
- الشقيري أحمد، ١٩٨٢ **قصة الثورة الجزائرية**، دار العودة، بيروت.
- العقاد صلاح، ١٩٦٤، **الجزائر المعاصرة**، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة.
- الخولي لطفي، ١٩٩٢، **عن الثورة في الثورة وبالثورة**، قسنطينة (الجزائر).
- قليل عمار، ١٩٩١، **ملحمة الجزائر الجديدة**، ج٣، دار البعث، قسنطينة (الجزائر).
- بن خدة بن يوسف، ١٩٨٦، **نهاية حرب التحرير في الجزائر**، اتفاقيات إيفيان، تعريب لحسن زغدار ومحل العين جبايلي، مراجعة عبد الحكيم بن الشيخ الحسين، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر.
- مقلد إسماعيل صبري، ١٩٧٩، **الإستراتيجية والسياسة الدولية**، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.
- Soustelle Jacques,1962, L'espérance trahie (1958-1961), éd de L'Alma, Paris.
- Le Monde, 13 mai 1958.
- Massu Jacques, 1972, Le torrent et la digue, Plon, Paris.
- Vaisse Maurice, 1998, La Grandeur-la politique étrangère du général de Gaulle de 1958 à 1969, Librairie Fayard, Paris.
- Mitterand François, 1969, Ma part de vérité, éd Fayard, Paris.
- Boissieu Alain (de), 1982, Pour servir le general, 1946-1970, Plon, Paris.
- http ://www.conseil-constitutionnel.fr/constitution/1959/599.htm
- Marchais Georges, 1973, Le défi démocratique, éd Grasset, Paris.
- Pflimlin Pierre, 1991, Mémoires d'un européen: de la IVe à la Ve République, éd Fayard, Paris.
- Guichard Olivier, 1980, Mon general, Grasset, Paris.
- Soustelle Jacques, 1964, 28 ans de gaullisme, éd La Table ronde, Paris.
- Le Monde, 17 janvier 1960.
- Le Monde, 25 janvier 1960.
- Lacouture Jean, 1986, De Gaulle.3. Le souverain 1959-1970, éd Seuil, Paris.
- Lacouture Jean, 1985, De Gaulle.2. Le Politique, 1944-1959, éd Seuil, Paris.
- Maurice Vaisse, 1983, Alger, le putsch, éd Complexe, La mémoire du siècle, Bruxelles 1983.
- Carmoy Guy (de), 1967, La politique étrangère de la France 1944-1966, éd la Table ronde, Paris.
- Cocâtre Zilgien André, 1970, Diplomatie française et problèmes internationaux contemporains, éd Cujas, Paris.
- Dulphy Anne, 1995, La politique extérieure de la France depuis 1945, Nathan, Paris.
- Duroselle Jean Baptiste, 1993, Histoire diplomatique de 1918 à nos jours, Dalloz, 11e éd, Paris.
- Cerny Philip, 1986, Une politique de gandeur, Aspects idéologiques de la politique extérieure de De Gaulle, Flammarion, Paris.
- Bozo Frédéric, 1996, Deux stratégies pour l'Europe: De Gaulle, les Etats-Unis et l'Alliance atlantique, 1958-1969, Plon/Fondation du general de Gaulle, Paris.
- Gorce Paul-Marie (de la), de Gaulle entre deux mondes, Fayard, Paris.
- Grosser Alfred, 1984, Affaires extérieures : la politique de la France 1944-1984, éd Flammarion, Paris.
- Mauriac Claude, 1970, Le nouveau bloc-notes (1965-1967), éd Flammarion, Paris.
- Edmond Jouve, 1967, Le general de et la construction de l'Europe, P.U.F, Paris.
- Martin N. 1971, L'Institut Charles de Gaulle, De Gaulle et le système des blocs, Exposé à Paris.
- Robertson. A, 1969, La doctrine du general de Gaulle, éd Fayard, Paris.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

إمبراطور اليابان المستقبلي
إمبراطورات حملن اللقب



د. حبيب البدوي
أستاذ مشارك التاريخ الحديث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الجامعة اللبنانية – الجمهورية اللبنانية

مُلَخّص

في عام ٢٠٢١، أكد البيت الإمبراطوري الياباني على استمرار معايير الخلافة، محددًا أن يجب أن يكون الخلف "أحد الأحفاد الذكور من سلالة الإمبراطورية الذكور"، مما يعني توجيه الضوء نحو الأمير هيساهيتو باعتباره الإمبراطور المستقبلي. ورغم التوافق الشبه الكامل في البيت الإمبراطوري بشأن هذا القرار، فإن الحكماء التقليديين نصحوا بعدم تغيير الأعراف التي امتثل لها البيت الإمبراطوري لمئات السنين. ومع ذلك، يطرح التهديد الديموغرافي الذي يواجه اليابان تساؤلات حول إمكانية إحياء تقليد تعيين "إمبراطورة" لتسلم العرش. هل سيكون الإمبراطور القادم من الجيل الجديد قادرًا على تحقيق هذا التغيير؟ أم سيظل النظام الإمبراطوري مستمرًا تحت سيطرة الذكور؟ تم استخدام منهجين لإتمام هذه الدراسة: المنهج التاريخي والتحليلي. استندت الدراسة إلى مجموعة واسعة من المصادر، بما في ذلك الدستور الياباني والمجلات العلمية والكتب التاريخية. كما تم التعاون مع المجتمع الأكاديمي الياباني لتحقيق أفضل مقاربة لهذا الموضوع الحساس باللغة العربية. تأتي هذه الدراسة لتسليط الضوء على تطورات تاريخية واقعية، متناولة الأحداث والتحولات في إطارها التاريخي والثقافي، وتسعى إلى تقديم تحليل شامل يعكس التأثير المحتمل للتهديدات الديموغرافية على الهيكل التوارثي للعرش الإمبراطوري في اليابان.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٣	يناير	٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر:	١٥	فبراير	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الدراسات اليابانية؛ الدستور الياباني؛ الإمبراطور؛ إمبراطورات في التاريخ؛ قوانين الأسرة الإمبراطورية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.262513 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حبيب البدوي، "إمبراطور اليابان المستقبلي: إمبراطورات حملن اللقب".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون؛ مارس ٢٠٢٤. ص ١٦٧ – ١٨٤.

Corresponding author: habib.badawi@ul.edu.lb
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

منصب الإمبراطور في اليابان[١] بالنسبة للشعب الياباني مستمد من معنى "ذو السيادة السماوية"، فهو قائد الدولة، وعميد العائلة الإمبراطورية، وأعلى سلطة لديانة الشينتو. من نواحٍ متعددة، يشبه النظام الياباني الحالي الأنظمة الملكية في ممالك الغربية، حيث يكون الملك أو الملكة شخصية رمزية. وهذا هو الحال في يابان اليوم، حيث الإمبراطور دون سلطة تنفيذية أو عسكرية داخل الدولة اليابانية[٢]. فهو، كما ينص دستور العام ١٩٤٧ رمز الدولة ووحدة الشعب =المادة ١=[٣]، وبالتالي يؤدي وظائف رئيس الدولة بمشورة وموافقة مجلس الوزراء =المادة ٧=[٤].

إنَّ مكانة الإمبراطور اليابان كبيرة جدًا في نفوس الشعب الياباني، وهذا يظهر جليًا في طقوس ديانة الشنتو التي يؤديها بشخصه عند كل مناسبة رسمية[٥]. هذه الأعراف المتوارثة لم يرِد ذكرها في الدستور أو القوانين الحكومية الأخرى، بل هي استمرار للطقوس والتقاليد والأعراف التي كان أباطرة اليابان يؤدونها منذ أكثر من ألفي عام[٦].

إن الإرث والتاريخ الياباني يشير إلى أن العائلة الإمبراطورية هي من نسل إلهة الشمس أماتيراسو أوميكامي[٧]، فهم وسطاء بين العالم الدنيوي والآلهة[٨]. من هنا كانت المهابة المقدسة للسلالة الإمبراطورية، ولذلك حتى في فترات الضعف والتراجع حافظت العائلة الحاكمة على هيبتها وقدسيتها في المجتمع لدرجة لم يجرؤ المنافسون على عزلها أو استبدالها. إنها أقدم سلالة حاكمة في العالم استمر حكمها من عام ٦٦٠ قبل الميلاد حتى يومنا الحاضر، حيث حكم ١٢٦ إمبراطورًا بتسلسل زمني سلس، باستثناء فترة ٥٦ عامًا في القرن الرابع عشر، حيث انقسمت العائلة إلى فرعين متنافرين بين مقاطعتين شمالية وجنوبية[٩]، بعدها ظَلَّتِ العائلة موحدة، وكان هناك دائمًا إمبراطورًا واحدًا اعترف به الجميع.

أولاً: الحالات الاستثنائية لحمل نساء البلاط اللقب الإمبراطوري

في الموروث الشعبي تعتبر اليابان أرضًا باركها الإله شينكو[١٠] وحض على استمرارية الخط الذكوري، حيث ينص قانون البلاط الإمبراطوري على أن "الأبناء الذكور فقط في سلالة الذكور المنحدرة من النسب الإمبراطوري" هم حكام البلاد. ونظرًا لأنَّ الأباطرة كانوا بدرجة عالية من الاكتفاء المادي والسلطة الروحية، كان عليهم ضمان استمرارية نسلهم المتواصل اَلْمُكَوَّن من عشرة آلاف جيل **Bansei-Ikkei**[١١] وتأمين الذكور لحمل المسؤولية، إلا أن هناك حالات استثنائية اعتلت فيها النساء العرش الإمبراطوري، مع التنويه إلى أنهن كن من أصلاب النسب الذكوري المستمر.

١/١–الإمبراطورات الثمانية

كانت الآلية المنطقية لضمان استمرارية تناوب حكم الأسرة الإمبراطورية، هي السماح أحيانًا لامرأة بتولي العرش عند تعذر العثور على وريث ذكر، مع شرط أن تكون ابنة إمبراطور أو أمير إمبراطوري. كانت الإمبراطورات الحاكمات إما عذارى أو أرامل، ولم يكن بإمكانهن الزواج، لأنَّه لا يمكن أن يكون هناك من هو أعلى منهن[١٢].

لقد خلفهن رجال من سلالة الذكور أو، في حالة واحدة، أميرة إمبراطورية أخرى. ونجد في تسلسل حكام اليابان ثماني إمبراطورات حاكمات. فمن أواخر القرن السادس الميلادي وحتى أواخر القرن الثامن، سادت اليابان ست نساء، اعتلت اثنتان منهن العرش مرتين تحت أسماء مختلفة، وتلكنّ الإمبراطورات هنّ:

الإمبراطورة سويكو (٥٩٢–٦٢٨): الإمبراطورة سويكو[١٣] هي ابنة الإمبراطور كينميي[١٤] وقد اعتلت العرش بعد اغتيال سلفها الإمبراطور سوشون[١٥] من قبل أحد أفراد عشيرة سوغا القوية[١٦]، وذلك بسبب تأييده لعشيرة مونوبوبي المحافظة[١٧]. ففي ظل عدم التوصل لتوافق فوري على من سيخلف العرش، وقع الاختيار على سويكو لكون والدتها كانت من عشيرة سوغا مما يحقق الاستقرار السياسي. حكمت سويكو

في عصر ازدهرت فيه البوذية وتم بناء المعابد في نارا وإيفاد البعثات إلى الصين.

الإمبراطورة كوغيوكو (٦٤٢–٦٤٥) / الإمبراطورة سايميي (٦٥٥–٦٦١): تولت الإمبراطورة كوغيوكو[١٨] العرش في وقت غاب فيه الاتفاق على هوية من سيخلف العرش بعد وفاة زوجها الإمبراطور جوميي[١٩]، وذلك في ظل رغبة عشيرة سوغا بتولي أحد أفرادها العرش مجدداً. وقد تنحت عن العرش بعد بضع سنوات وأصبح شقيقها الأصغر الإمبراطور كوتوكو[٢٠]. لكن بعد تسع سنوات توفى أخوها الإمبراطور، فطُلِب منها من جديد تولي العرش تحت اسم سايميي، ليستمر عهدها حتى وفاتها عام ٦٦١[٢١].

الإمبراطورة جيتو (٦٩٠–٦٩٧): الإمبراطورة جيتو[٢٢] هي ابنة الإمبراطور تينجي[٢٣] وزوجة سلفها الإمبراطور تينمو[٢٤]. بعد وفاة زوجها تينمو عام ٦٨٦ عُهد لها بالعرش الإمبراطوري إلى جانب الوريث الشرعي، ابنها الأمير كوساكابي[٢٥]، لكونه أصغر من أن يحكم. استمرت بالحكم حتى بلوغ ابنها سن الرشد عام ٦٨٩، حيث كان من المفترض تتويجه كإمبراطور رسمي، إلا أنه توفي في نفس العام. لذلك حكمت مباشرة حتى أصبح حفيدها كبيراً بما يكفي لخلافتها، وهو الإمبراطور مونمو[٢٦].

الإمبراطورة غينميي (٧٠٧–٧١٥): الإمبراطورة غينميي[٢٧]، هي الأخت الصغرى نصف الشقيقة للإمبراطورة جيتو وابنة الإمبراطور تينجي، وكانت أيضا زوجة الأمير كوساكابي وأم الإمبراطور مونمو. تسلمت العرش عند وفاة ابنها الامبراطور مونمو لأن حفيدها كان صغيراً في السن، وهو أصبح لاحقا الإمبراطور شومو[٢٨].

الإمبراطورة غينشو (٧١٥–٧٢٤): الإمبراطورة غينشو[٢٩] خَلَّفت والدتها الإمبراطورة غينميي، لأنَّ والدها كان الأمير كوساكابي ابن الإمبراطور تينمو، فهي كانت من النسل الذكوري الإمبراطوري الرئيسي. هي المرأة الوحيدة التي أعقبت امرأة أخرى في الخلافة الإمبراطورية. قامت برعاية جمع سجل نيهون شوكي[٣٠]، الأثر الخالد في الحضارة اليابانية، الذي اكتملت كتابته عام ٧٢٠، أثناء فترة حكمها، وهو ثاني أقدم سجل مدون ياباني.

الإمبراطورة كوكين (٧٤٩–٧٥٨) / الإمبراطورة شوتوكو (٧٦٤–٧٧٠): الإمبراطورة كوكين هي ابنة الإمبراطور شومو، وكانت أول امرأة يتم تعيينها رسميا باعتبارها المرشح الأولى في خلافة العرش عندما توفي أخوها بعمر مبكر. اعتلت العرش لأقل من عقد قبل أن تتنازل لاحقا لصالح ابن عمها الإمبراطور جونّين[٣١]. خلال فترة حكمه اشتد الصراع على السلطة بينه وبين أنصارها المحافظين، حيث كانت تحظى بدعم من الرهبان البوذيين. حصل الصدام العسكري انتصر به مؤيدوها، لتحكم لمدة ست سنوات باسم الإمبراطورة شوتوكو[٣٢].

الإمبراطورة مييشو (١٦٢٩–١٦٤٣): الإمبراطورة ميشو[٣٣] تولت العرش خلفا لوالدها الإمبراطور غو ميزونوو[٣٤] الذي لم يكن لديه أبناء ذكور في الوقت الذي تنازل فيه عن العرش بعد صراع بين شوغونية توكوغاوا[٣٥] والبلاط الإمبراطوري. ومن الأحداث اللافتة في هذا الصراع هي "حادثة الرداء الأرجواني"[٣٦]، حيث قام الإمبراطور بإهداء ملابس أرجوانية أنيقة لعشرة من الكهنة المرموقين، متجاوزاً بذلك مرسوم الشوغون الذي حظر التفاعل بين البلاط والكهنوت لعامين بهدف كسر الرابطة التي تجمع بين الإمبراطور والدوائر الدينية في بلاده. بالنهاية تدخل الشوغون بصلف، وصادر الهدايا الإمبراطورية، وضغط لتنحية الإمبراطور. وُلد للإمبراطور غو ميزونوو صبي بعد تنحيه عن السلطة، لذلك تنازلت الإمبراطورة مييشو عن العرش من تلقاء نفسها عندما بلغ أخوها سن الرشد، ليكون الإمبراطور غو-كوميو.[٣٧]

الإمبراطورة غو- ساكوراماتشي (١٧٦٢-١٧٧٠): غو ساكوراماتشي[٣٨]، هي ابنة الإمبراطور ساكوراماتشي[٣٩]، وقد اعتلت العرش بعد وفاة الإمبراطور موموزونو[٤٠]، لأن ولي العهد المعين الذي من المفترض أن يخلفه كان لا يزال صغيراً. تنازلت لاحقا عن العرش وأصبح ولي العهد الطفل هو الإمبراطور غو-موموزونو.[٤١]

٢/١–المحظيات لضمان الذرية

كانت الطريقة الكلاسيكية للأباطرة لضمان النسل هي الحفاظ على الحريم. أعتبر الاحتفاظ بعددٍ كبير من المحظيات امتيازا ورمزًا للمكانة الإمبراطورية. كان للأباطرة، بالإضافة إلى الزوجة الرئيسية، زوجات أخريات من مختلف الرتب[٤٢]. إن العلاقة مع العديد من النساء تهدف للتأكد من أنَّه سيكون هناك دائمًا ابن ذكر لضمان استمرارية السلالة الحاكمة. ولم يقتصر الاحتفاظ بالحريم على الأباطرة فقط، إنما شمل أيضًا الشوغونات والأرستقراطيون الكبار. وكان من المعتاد أن يكون حريم الشوغون أكثر عددًا من حريم الإمبراطور، لأنَّ له قدرة مادية أكبر تتيح له الاحتفاظ بمزيدٍ من المحظيات[٤٣].

كان هذا النظام يعمل بشكلٍ دقيق في معظم الأوقات، لكنَّه لم يخل من مشاكل. فمن الممكن أن يؤدي الاحتفاظ بالعديد من المحظيات إلى وجود عدد كبير جدًا من الأبناء، مما يضع عبئًا على موارد البلاط الإمبراطوري ويتسبب بتفجر نزاعات على الخلافة. ففي فترة هيان[٤٤]، أدى العدد الكبير لحريم الإمبراطور إلى ظهور الكثير من الأمراء من أبناء الإمبراطور، هذا جعل الأباطرة من وقتٍ لآخر "يشذبون" ذريتهم من وقتٍ لآخر عن طريق منح بعض أبنائهم أو أحفادهم ألقاب خاصة لتأسيس عائلات عامة مستقلة، تدعى شينكا[٤٥]، وكان هذا هو أصل عدة عشائر فرعية[٤٦]. ظهر هناك أيضًا خطر معاكس يتمثل في قِلَّة عدد الأبناء. وكانت وفيات الأطفال في الأسرة الإمبراطورية عالية دائمًا بتأثير عدة عوامل منها زواج الأقارب، وانخفاض سن الأمهات، وحظر لمس الأطباء لأجساد أطفال الإمبراطور.

في أواخر فترة إيدو[٤٧]، انخفض تعداد الحريم بحيث كان عدد الأبناء الإمبراطوريين بالكاد يُوَفِّر الاستمرارية في النسل الحاكم. وهكذا، من بين سبعة عشر طفلاً للإمبراطور كوكاكو[٤٨]، نجا ابن واحد فقط من طفولته ليصبح الإمبراطور نينكو[٤٩]. وبالمثل، من بين أطفال الإمبراطور نينكو الخمسة عشر، نجا ابن واحد فقط ليصبح الإمبراطور كومي[٥٠]. وكذلك من بين أطفال الإمبراطور كومي الستة، نجا ابن واحد فقط ليصبح الإمبراطور ميجي[٥١]، ولم ينج من أطفال الإمبراطور ميجي الأربعة عشر سوى ابن واحد مريض، أصبح لاحقًا الإمبراطور تايشو[٥٢].

كانت المجموعة الرئيسية لأباطرة القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إما عقيمون أو فقدوا أطفالهم. ونتيجة لذلك، فإنَّ جميع الأباطرة الذين ولدوا في ذلك الوقت، من نينكو إلى تايشو هم من أبناء المحظيات. في كل تلك الحالات، تمَّ تبني الوريث المستقبلي من قبل الزوجة ليصبح ابنها الرسمي، نظرًا لأنَّ الخلافة الإمبراطورية قائمة بالأساس على استمرارية الخط الذكوري البيولوجي "الدم النقي"، فإن التبني الوحيد المتاح للإمبراطور هو أن يتبنى ابنًا من داخل عائلته، في حين أن تبني ابن من عائلة أخرى هو أمر غير متاح. حافظت هذه القيود على احتكار العائلة الإمبراطورية للعرش ومنع العائلات القوية الأخرى، أمثال فوجيوارا أو توكوغاوا، من وَضْع أبنائهم على كرسي العرش بطرق ملتفة خلال الزواج أو التبني.

٣/١–العائلات الجانبية لدعم النسل الرئيسي

لم تكن المحظيات دائمًا هي الحل. فإذا كان الإمبراطور نفسه عقيمًا، أو مات قَبْل أن يُنجِب ولدًا، فلا يمكن أن تساعده محظية. في فترة كاماكورا[٥٣]، تمَّ تطوير نظام يتم بموجبه أن يكون ابن الإمبراطور، الذي لم يكن مقدرًا له خلافة العرش، أن يصبح على رأس أسرة أميرية، مياكي[٥٤]. وبذلك سيحمل هو وورثته، من رؤساء تلك العائلة، لقب الأمير الإمبراطوري، شينو[٥٥] وسيكون لهم الحق في اعتلاء العرش في حالة فشل النسل الرئيسي في إنجاب وريث. أعيد تفعيل هذا النظام مجددًا في عام ١٤٢٨، عندما توفي الإمبراطور شوكو[٥٦] عن عمرٍ يُناهز ٢٦ عامًا دون أن يترك خلفًا له. ليتولى العرش رئيس عائلة فوشيمي البالغ من العمر تسع سنوات، وهو الإمبراطور جو هانازونو[٥٧]، حفيد إمبراطور البلاط الشمالي سوكو[٥٨].

آخر مرة تمَّ فيها تطبيق هذا النظام كانت في عام ١٧٨٠، عندما توفي الإمبراطور غو- مومزونو عن عمرٍ يناهز ٢١ عامًا دون أن ينجب وريثًا، ليعتلي العرش الإمبراطور كوكاكو[٥٩]، من عائلة كانين، وهو حفيد الإمبراطور هيغاشياما[٦٠]، ومنذ حقبة الإمبراطور كوكاكو حتى الوقت الحاضر، ولسبعة أجيال، ولأكثر من

٢٠٠ عام، كان العرش ينتقل بسلاسة من الأب إلى الابن، وهي ظاهرة غير مسبوقة في التاريخ الطويل للعائلة الإمبراطورية[٦١].

ثانيًا: ميجي: توسيع العائلات المصاحبة، وإقصاء النساء من العرش

لم يلغِ الإصلاح ميجي[٦٢] مؤسسة المحظيات الإمبراطورية. فمع استعادة الإمبراطور لموقعه المحوري في إدارة الدولة الحديثة، أصبَحَ ضمان استمرارية سلالته الشغل الشاغل للحكومة. لم تستطع هاروكو[٦٣] زوجة الإمبراطور ميجي أن تنجب أطفالاً، لذلك في عام ١٨٧١، عندما كان الإمبراطور الشاب يبلغ من العمر ١٩ عامًا، انضم إلى حاشيته اثنتان محظيات سوكوشيتسو[٦٤]، اختارتهما الإمبراطورة من بين سيدات البلاط نيوكان[٦٥]، ومن ثم وصل العدد إلى تسع محظيات[٦٦].

	المحظية	Nyokan	الأطفال على قيد الحياة
١	هامورو ميتسوكو	Hamuro Mitsuko	
٢	هاشيموتو ناتسوكو	Hashimoto Natsuko	
٣	سونو ساتشيكو	Sono Sachiko	أربع بنات
٤	تشيغوسا كوتوكو	Chigusa Kotoko	
٥	أوغورا فوميكو	Ogura Fumiko	
٦	كاتاكورا توشيكو	Katakura Toshiko	
٧	أنينوكوجي يوشيكو	Anenokoji Yoshiko	
٨	إمازونو أياكو	Imazono Ayako	
٩	ياناغيهارا ناروكو	Yanagihara Naruko	ابن واحد

توفيت كل من هامورو ميتسوكو وهاشيموتو ناتسوكو في عام ١٨٧٣، بعدما أنجبتا أطفالاً توفوا بدورهم[٦٧]. آخر محظية، ياناغيهارا ناروكو[٦٨]، هي من أنجبت الوريث الموعود، يوشيهيتو، الذي بلغ سن الرشد على الرغم من مرضه، وأصبح الإمبراطور تايشو[٦٩].

ونظرًا لأنَّ المحظيات في حد ذاتهن لا يقدمن ضمانًا لاستمرارية النسل، قامت حكومة ميجي بتوسيع آلية العائلات الثانوية. فبين عامي ١٨٧٠ و١٩٠٦، أسس عشرة أفراد من عائلة فوشيمي، وهي العائلة الثانوية الوحيدة التي لم يتضاءل عديدها بحلول ذلك الوقت، عائلات جانبية جديدة وترأسوها كأمراء إمبراطوريين[٧٠]. وعلى الرغم من أنَّ قادة ميجي حافظوا على نظام المحظيات الإمبراطوريات ووسعوا نظام العائلات الثانوية، إلا أنَّهم ألغوا الآلية الثالثة لضمان الاستمرارية الإمبراطورية، وهي آلية الأباطرة الإناث[٧١]. تناقض قرارهم باستبعاد النساء من العرش مع التقاليد اليابانية، وتناقض مع سياستهم الخاصة في رفع مكانة المرأة من خلال تعليم أفضل ومهن حديثة، كما تناقض مع نموذج الدولة الغربية الرائدة في ذلك الوقت، المتمثل بمكانة بريطانيا العظمى، لكن السلطات اليابانية فَضلَت حصرية للذكور لتولي عرش البلاد. كان مبرر ذلك أنَّ النساء لم يخدمن في الجيش، وبالتالي لم يكن بإمكانهن ممارسة دور الإمبراطور المهم الجديد كقائد أعلى للقوات المسلحة.

حَظَرَ دستور ميجي لعام ١٨٨٩، رسميًا ولأول مرة في التاريخ الياباني إمكانية الأباطرة الإناث. حيث نصت المادة ٢ منه على ما يلي: "العرش الإمبراطوري يخلفه ذكور الإمبراطورية، وفقًا لأحكام قانون البيت الإمبراطوري"[٧٢]. رغم ذلك، تمتعت هاروكو زوجة الإمبراطور ميجي بمكانة أعلى من أسلافها. ولقد مُنحت أرفع الألقاب الإمبراطورية، وهو كوغو[٧٣]، والذي كان حتى ذلك الحين مخصصًا للزوجات ممن كنّ بنات الأباطرة. لقد مثَّلت هاروكو نموذجًا للمرأة اليابانية العصرية. فكانت ترتدي الملابس الغربية وترافق زوجها في المهام الرسمية، وتنشط في تعزيز تعليم المرأة ورفاهها الاجتماعي. ولقد حددت بنشاطها الاخيري

والاجتماعي معايير الإمبراطورة الحديثة، والتي تشارك في شؤون الدولة داعمة لزوجها الإمبراطور.

ثالثًا: نهاية عهد المحظيات في أوائل القرن العشرين

انتهت منظومة المحظيات الإمبراطوريات، التي كانت موجودة منذ أكثر من ألف عام ونصف، مع بداية القرن العشرين، وذلك بالتزامن مع دخول الطب الغربي الحديث إلى القصر الإمبراطوري، والسماح للأطباء بلمس وعلاج وتطعيم أطفال الإمبراطور وأحفاده وجميع أفراد العائلة الحاكمة. والأهم، انخفض معدل وفيات الرضع في الأسرة الإمبراطورية بشكل كبير[٧٤]. كما وصل أغلب الأمراء الإمبراطوريين إلى مرحلة النضج، وبذلك أصبحت المحظيات بمثابة ترف جنسي لا علاقة له بوراثة العرش.

تبعًا لذلك، حظر القانون المدني لعام ١٨٩٨، بمسمى ميمبو[٧٥]، تعدد المحظيات. وعلى الرغم من أنَّ الإمبراطور ميجي استمر في الاحتفاظ بمحظياته، أصبح ابنه الإمبراطور تايشو أول ملك أحادي الزواج في اليابان. أنجبت زوجته الأميرة ساداكو[٧٦] أربعة أبناء أصحاء عاشوا حياة طويلة. أشهرهم، الإمبراطور هيروهيتو[٧٧]، الأكبر سنًا، والذي حكم البلاد حتى عمر ٨٨ عامًا[٧٨]. في عام ١٩٢٧، بعد وقت قصير من بداية عصر شووا، تمَّ إغلاق صالات البلاط المخصصة للمحظيات الباقيات[٧٩]. ولكن، أنجبت زوجة الإمبراطور هيروهيتو، الأميرة ناغاكو[٨٠]، أربع بنات واحدة تلو الأخرى، وتمَّ التفكير مرة أخرى في إمكانية وجود محظية إمبراطورية. حبّذ الإمبراطور الشاب في البداية هذه الفكرة، لكنَّه سرعان ما تخلى عنها بعد اعتراض زوجته[٨١]. تمَّ حل تلك المعضلة في عام ١٩٣٣، عندما أنجبت ناغاكو، التي كان عمرها آنذاك ٣٠ عامًا فقط، ولدين وخمس فتيات، ماتت منهن ابنة واحدة فقط في سن الطفولة.

رابعًا: احتلال الحلفاء يلغي العائلات الجانبية

مع نهاية الحرب العالمية الثانية[٨٢]، خشي اليابانيون من قيام الأمريكيين بإلغاء النظام الإمبراطوري وقتل الإمبراطور وجميع أفراد أسرته. أعدَّ الجيش خطة لإخفاء رئيس عائلة كيتاشيراكاوا، البالغ من العمر ثماني سنوات، ليقوم بإحياء السلالة الإمبراطورية مستقبلاً[٨٣]. لقد أدى الاحتلال بقيادة الولايات المتحدة إلى إضفاء الطابع الديمقراطي على اليابان، مع إبقاء الإمبراطور هيروهيتو على العرش. وجهت دعوات غربية إلى هيروهيتو لتحمل مسؤولية الحرب والاستقالة، لكن الجنرال ماك آرثر[٨٤] والحكومة اليابانية عارضوا هذه الخطوة الاستفزازية خوفًا من أنَّها قد تشعل اضطرابات شعبية[٨٥].

تمَّ تقليص مكانة الإمبراطور من سلطة ذات سيادة كاملة إلى منصب رمزي، وتمَّ إلغاء الطبقة الأرستقراطية، التي كانت تشغل موقعًا مركزيًا في النظام الحاكم[٨٦]، وذلك عبر حل الطبقة الأرستقراطية اليابانية اَلْمُكَوَّنَة من طبقة النبلاء القديمة والنبلاء الجدد. نصت المادة ١٤ من دستور عام ١٩٤٧ على أنَّ "كل الناس متساوون أمام القانون ... لا يُعترف بالنبل والنبالة"[٨٧]. وضعت هذه الجملة الواحدة حدًا للطبقة الأرستقراطية، التي أحاطت بالإمبراطور لمدة خمسة عشر قرنًا، حيث خدمته بإخلاص أحيانًا، وسيطرَت عليه مرات أخرى.

أدى تفكك الطبقة الأرستقراطية إلى إلغاء العائلات الثانوية. ولما كان بعض الأمراء الذين ترأسوا هذه العائلات قد شغلوا مناصب بارزة في الجيش والبحرية، قررت سلطات الاحتلال التخلص منهم، من أجل تخفيف سطوة الإمبراطور على الجيش والقوات المسلحة. ومع ذلك، فإنَّ الإمبراطور بقي حتى وقت قريب القائد العام للقوات المسلحة، وإخوته الثلاثة، الذين شَغَلوا مناصب عسكرية عليا لم يجردوا من ألقابهم كذلك. خفض قانون البيت الإمبراطوري لعام ١٩٤٧[٨٨] أعداد الأسرة الإمبراطورية[٨٩]، والتي تضمنت رؤساء العائلات الجانبية، إلى جانب عائلة إمبراطورية، والتي تألفت فقط من أبناء وأحفاد إمبراطور في خط الذكور، وزوجاتهم وبناتهم غير المتزوجات. ليمنع هذا التعريف الجديد، الذي استبعد أحفاد الأباطرة من العائلة الإمبراطورية ظهور عائلات جانبية جديدة.

تلبية لتلك الإملاءات الأميركية، بتاريخ ١٨ تشرين الأول ١٩٤٧، قام أحد عشر من الأمراء السابقين، وهم رؤساء العائلات الفرعية المنحلة كيو مياكي[٩٠]، بزيارة القصر لتوديع الإمبراطور هيروهيتو، والإمبراطورة ناغاكو، والإمبراطورة الأرملة ساداكو[٩١]، في زيارة بروتوكولية وداعية. بعدها تحولوا وعائلاتهم من أفراد الطبقة الأرستقراطية إلى أسر من عامة الشعب. ومنذ ذلك الحين، كان يجب أن يكون أي زواج بين أمير إمبراطوري أو أميرة مع عامة الناس، لأنَّ العائلة الإمبراطورية كانت صغيرة جدًا بحيث لا يمكن الزواج بين أفرادها. وأكَّد قانون البيت الإمبراطوري الجديد على أنَّ المرأة العادية التي تتزوج أميرًا تنضم إلى العائلة الإمبراطورية وتصبح أميرة، في حين أنَّ الأميرة الإمبراطورية التي تتزوج من عامة الناس تترك الأسرة وتصبح من العامة.

خامسًا: قانون البيت الإمبراطوري يُبقِي على إقصاء النساء

نصَّ دستور عام ١٩٤٧ على المساواة بين الجنسين. حيث نصَّت المادة ١٤ على أنَّه "لا يجوز التمييز بسبب العرق، أو العقيدة، أو الجنس، أو الحالة الاجتماعية، أو الأصل العائلي"[٩٢]. وفقًا لذلك، على عكس دستور ميجي، لم يذكر الدستور الجديد شيئًا عن جنس الإمبراطور. مع ذلك، فإنَّ قانون البيت الإمبراطوري الجديد، الذي تمَّ سنه مع الدستور، حافظ على الملكية الذكورية. ونصَّت المادة الأولى من ذلك القانون على أنَّ العرش "يخلفه الذكور من سلالة الذكور". وهكذا، فإنَّ إقصاء المرأة من العرش لم يُلغَ، بل تحول فقط من الدستور الذي يصعب تغييره إلى قانون يمكن تغييره بأغلبية نيابية في البرلمان.

مقاربة السلطات اليابانية حينها تمحورت حول أنَّ النساء لا يمكن أن يصبحن أباطرة لأنهن لا يستطعن قيادة القوات المسلحة، ورد الأميركيون بأن هذا الموقف التقليدي لم يعد صالحًا بعد الآن، حيث تمَّ قطع الصلة بين الإمبراطور والجيش وفقًا للدستور الجديد.

وفي مفاوضات ما وراء الستار (كتلك التي أبقت الإمبراطور هيروهيتو على كرسي العرش)، تمَّ التغاضي الأميركي عن حصرية اللقب الإمبراطوري للذكور، وذلك من أجل تهدئة المحافظين الذين أُجبِروا قسرًا على قبول العديد من التغييرات في مكانة الإمبراطور نفسه. فلقد أصدر البلاط الإمبراطوري في الأول من كانون الثاني ١٩٤٦ مرسومًا من أجل اليابان الجديدة **Shin Nippon Kensetsu ni Kan suru Shōsho** أعلن فيه إنسانية الإمبراطور هيروهيتو **Humanity Declaration Ningen-sengen** وأنه ليس سليل الآلهة **Akitsumikami**[٩٣].

بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ تمكين المرأة من الحكم كان من شأنه أن يفتح قضية خلافية حول ما إذا كان سيتم على أساس المساواة بين الجنسين، من هنا تجنب الأميركيون متاهة الدخول في جدل داخلي عقائدي يمس المجتمع الياباني[٩٤].

اليوم، دون محظيات ودون عائلات جانبية ومع أسرة إمبراطورية محدودة العدد، تعتمد استمرارية السلالة الآن على قدرة عدد قليل من الأميرات الشابات على إنجاب الأبناء. أوجد هذا الوضع الخطر مخاوف احتمالية عدم وجود وريث لتولي العرش مستقبلاً.

مع إنهاء مرحلة الاحتلال الأميركي المباشر، كان للإمبراطور هيروهيتو ولدان هما أكيهيتو[٩٥] (الإمبراطور أكيهيتو) وماساهيتو (الأمير هيتاشي[٩٦])، بينما أنجب شقيقه الأمير ميكاسا[٩٧] إبنًا واحدًا هو توموهيتو[٩٨]. وبحلول عام ١٩٦٥، أنجبت ميتشيكو[٩٩]، زوجة ولي العهد أكيهيتو، ولدين هما: ناروهيتو[١٠٠] (الإمبراطور ناروهيتو) وفوميهيتو (الأمير أكيشينو[١٠١])، في حين أنجب الزوجان ميكاسا ولدين آخرين، يوشيهيتو (الأمير كاتسورا[١٠٢]) ونوريهيتو (الأمير تاكامادو[١٠٣])، وهؤلاء جميعًا مؤهلين لخلافة العرش.

ومع ذلك، فإنَّ الظاهرة العقم غير العادية في الأسرة الإمبراطورية موجودة في ثلاثة أجيال متتالية في القرن العشرين. فمن بين أبناء الإمبراطور تايشو الأربعة، أنجب منهم اثنين فقط، هيروهيتو وميكاسا، أطفالاً، بينما كان الاثنان الآخران عقيمان[١٠٤]. ومن ابني الإمبراطور هيروهيتو، فقط أكيهيتو كان لديه ذرية،

بينما هيتاشي ظلَّ بلا أطفال. إبني الإمبراطور أكيهيتو، أنجب أكيشينو أطفالاً بعد فترة وجيزة من الزواج، بينما رزق الإمبراطور ناروهيتو والإمبراطورة ماساكو[١٠٥] ابنة واحدة، هي الأميرة توشي[١٠٦].

بحلول نهاية القرن العشرين، كان الخطر الذي بدا بعيدًا قبل خمسين عامًا أظهر أبعاد أزمة خطيرة. فمنذ ولادة الأمير أكيشينو في عام ١٩٦٥ وحتى نهاية القرن، ولدت ثماني فتيات في العائلة الإمبراطورية[١٠٧]، مقابل صبي واحد فقط هو الأمير هيساهيتو[١٠٨].

في العام ٢٠٠٥ صدرت وثيقة حكومية تطرح أن "الحفاظ استقرار الخلافة في نسل الذكور كما كان ممارسًا منذ العصور القديمة يظهر أن تحقيقه صعب للغاية"، لذلك "من الضروري إفساح المجال لتولي إمبراطورة أو إمبراطور من خط الإناث"، وأن "مثل هذه الخطوة ستحظى بموافقة واسعة النطاق من الشعب الياباني"، من هنا سيكون من المناسب "تبني مبدأ الباكورة، حيث تُمنح الأسبقية للمنحدرين مباشرة من الإمبراطور، مع ترتيب الخلافة بين الإخوة والأخوات من صلب الإمبراطور على أساس العمر، بغض النظر عن الجنس"[١٠٩].

Emperor (male)
Female A (female of male lineage)
Male B (male of male lineage)
Male C (male of female lineage)
Female D (female of female lineage)
Female E (female of male lineage)
Male F (male of male lineage)
Male G (male of female lineage)
Male H (male of female lineage)
Male I (male of female lineage)
Female J (female of male lineage)
Male K (male of male lineage)

عندما تولى الراحل شينزو آبي[١١٠]، حفيد رئيس الوزراء السابق كيشي نوبوسوكي[١١١]، رئاسة الوزراء في ولايته الأولى[١١٢]، استبعد احتمال حكم الإمبراطورات وخط نسائي في ذلك الوقت، بناء على وجهة نظره المحافظة. وبالنظر إلى طول عمر اليابانيين، الذي يُعَدّ الآن الأعلى في العالم[١١٣]، بدا أنَّ الخلفاء الذكور للعرش الياباني متوافرون حتى نهاية هذا القرن. مع ذلك، فإنَّ اعتماد السلالة على إنتاجية شخص واحد، هو خطر وجودي بحد ذاته، والمراهنة على قدرته في المستقبل على أن يكون أب، يترك السلالة الإمبراطورية في وضع غير مستقر. ومن هنا تم طرح أنه إذا لم يتِم تبني خط أنثوي، فيجب العمل على استعادة العائلات الثانوية/ الجانبية بشكل ما.

كان تنازل الأباطرة متكررًا في الماضي. فحتى القرن التاسع عشر، استقال ما يقرب من نصف الأباطرة اليابانيين إما بإرادتهم أو بناءً على مطالب مراكز القوى في البلاد.

في ١٣ تموز ٢٠١٦، ذَكَرت هيئة الإذاعة اليابانية الوطنية أنَّ الإمبراطور أكيهيتو ينوي التنازل عن العرش لصالح ابنه الأكبر ولي العهد الأمير ناروهيتو خلال بضع سنوات لكبر سنه. وهو أول حدث تنازل عن العرش داخل العائلة الإمبراطورية منذ الإمبراطور كوكاكو في عام ١٨١٧[١١٤]. تطلب تنازل الإمبراطور المحتمل عن العرش تعديلاً لقانون الأسرة الإمبراطورية، الذي كان لا يحتوي على أحكام لمثل هذه الخطوة[١١٥].

في ٨ آب ٢٠١٦، ألقى الإمبراطور خطابًا متلفزًا نادرًا، أكد فيه تقدمه في السن وتدهور صحته[١١٦]، وتمَّ تفسير هذا الخطاب على أنَّه إشارة ضمنية إلى نيته الأكيدة بالتنازل عن العرش[١١٧]. وكان الخبر الصاعق في الأول من كانون الأول ٢٠١٧[١١٨]، حينما أعلن رئيس الوزراء شينزو آبي أنَّ الإمبراطور أكيهيتو سيتنحى في ٣٠ نيسان٢٠١٩، وذلك بعد اجتماع لمجلس القصر الإمبراطوري[١١٩].

في ١٩ أيار ٢٠١٧، أصدر مجلس الوزراء الياباني مشروع القانون الذي من شأنه أن يتيح لأكيهيتو التنازل عن العرش. وفي ٨ حزيران ٢٠١٧، أقر البرلمان الوطني مشروع قانون لمرة واحدة للسماح لأكيهيتو بالتنحي،

وللحكومة أن تبدأ بترتيب عملية تسليم المنصب إلى ولي العهد الأمير ناروهيتو[١٢٠]. وأخيرًا تمَّ التنازل رسميًا عن العرش في ٣٠ نيسان ٢٠١٩[١٢١].

في عام ٢٠٢١ صدر تأكيد عن البيت الإمبراطوري ينص على أن الخلافة يجب أن تكون "من قبل أحد الذرية الذكور المنحدرين من النسل الذكوري للسلالة الإمبراطورية"[١٢٢]، وبذلك تحدد بأن الأمير هيساهيتو سيصبح إمبراطور المستقبل. جاء ذلك بعد اتفاق المتخصصين بالإجماع تقريبا أثناء جلسة الاستماع على أنه لا ينبغي تغيير قواعد البيت الإمبراطوري حاليًا إلى حين اعتلاء الأمير هيساهيتو العرش، ومن الحكمة تجنب إجراء تعديلات كبيرة أثناء وجود وريث فعلي من الجيل التالي.

فهل يبقى المقام الإمبراطوري الياباني محصورًا بالذكور مستقبلاً، أم أن الخطر الديمغرافي الداهم سيضطر حكماء اليابان للجوء من جديد إلى إحياء عُرف "الإمبراطورة المرأة"؟

خاتِمَةٌ

تتطلب دراسة التاريخ إعادة تقييم دائمة وإعادة تفسير مستمرة لالتقاط تعقيدات التجارب الإنسانية والهياكل المجتمعية وديناميكيات السلطة. لسوء الحظ، غالبا ما تم تجاهل أدوار الفئات المهمشة، مثل القيادات النسائية عبر تهميشها في الروايات التاريخية. في سياق التاريخ الإمبراطوري الياباني، ركزت الروايات تقليديا على الشخصيات الذكورية، تاركة مساهمات الأباطرة الإناث في الظل. ومع ذلك، فمن خلال الانخراط في التحليل المستقبلي من خلال عدسة أكاديمية تهدف إلى حل اللغز الحالي لزوال العائلة الإمبراطورية، يمكن للمؤرخين تحدي الروايات الأيديولوجية من خلال إلقاء الضوء على الأصوات التي تم تجاهلها والمساهمة في فهم أكثر دقة للتنوع الاجتماعي على رأس السلطة في ماضي اليابان وحاضرها.

تأثر تأريخ التاريخ الإمبراطوري الياباني بشدة بالتحيزات الأبوية، مما أدى إلى تهميش الشخصيات النسائية. هذه التحيزات متأصلة بعمق في الهياكل المجتمعية التي تعطي الأولوية لسلطة الذكور. تفاقمت هذه العقلية بسبب القوانين الرسمية التي غالبا ما تتجاهل الإمبراطورات أو تقلل من مساهماتهن في مجرى التاريخ الياباني. بالإضافة إلى ذلك، حجب تأثير التفسيرات الغربية أهمية الأباطرة الإناث في تشكيل التنمية السياسية والثقافية لليابان. ونتيجة لذلك، غالبا ما تم إبعاد تجارب وإنجازات تلك النساء القائدات إلى هوامش الخطاب التاريخي، مما أعاق فهمنا للمؤسسة الإمبريالية اليابانية.

يقدم التحليل المستقبلي منهجية لإعادة النظر في عهود الأباطرة الإناث والكشف عن أهميتهن الحقيقية في تشكيل التاريخ الإمبراطوري لليابان. وخلافا للاعتقاد السائد على نطاق واسع، لعبت هؤلاء النساء أدوارا محورية في الحكم الفعلي، والرعاية الثقافية، والتأثير الديني. من خلال الخوض في استراتيجيات الحكم والقرارات السياسية للحكام الإناث، يمكن للباحثين إلقاء الضوء على وكالتهم وتأثيرهم في تشكيل المشهد السياسي في اليابان. تقدم دراسات الحالة مثل

الإمبراطور كوكين / شوتوكو رؤى قيمة حول تعقيدات حكم الإناث والتحديات التي واجهنها في مجتمع يهيمن عليه الذكور.

إن إعادة التقييم النقدي للروايات الجندرية في التاريخ الإمبراطوري الياباني أمر ضروري لتعزيز فهم أكثر شمولا لماضي اليابان وتشكيل حكمها المستقبلي. من خلال تحدي الصور النمطية والتركيز على تجارب الشخصيات النسائية، يمكن للمؤرخين المساهمة في سرد أكثر شمولاً يعترف بتعقيدات التنوع الاجتماعي في تشكيل الأحداث التاريخية. يتطلب هذا النهج الحديث التزاما بتضخيم الأصوات المهمشة والاعتراف بقدرة المرأة على شغل مناصب السلطة.

علاوة على ذلك، تمتد الآثار المترتبة على هذا التحليل المستقبلي إلى ما هو أبعد من الأوساط الأكاديمية إلى المناقشات المعاصرة المحيطة بتولي السلطة في اليابان. من خلال الاعتراف بمساهمات الأباطرة الإناث تاريخيا يمكن للمجتمع الياباني تحدي المعايير التقليدية الراسخة والدعوة إلى إمكانية صعود إمبراطورة إلى سدة العرش الإمبراطوري الياباني. هل سيظل الموقف الإمبراطوري الياباني مقصورا على الذكور في المستقبل، أم أن الخطر الديموغرافي الوشيك سيجبر الحكماء اليابانيين على اللجوء مرة أخرى إلى إحياء عادة "الإمبراطورة الأنثى"؟

الإحالات المرجعية:

(١) Emperor of Japan Tennō **إمبراطور اليابان**

Yanabu, A. (1996). THE TENNŌ SYSTEM AS THE SYMBOL OF THE CULTURE OF TRANSLATION. Japan Review, 7, 147–157. http://www.jstor.org/stable/25790969

(2) The Japanese monarchy is the world's oldest. Learn about its history—and its future. (2019, April 29). National Geographic. https://www.nationalgeographic.com/culture/topics/reference/japanese-monarchy/

(3) The Constitution of Japan. (Accessed July 27, 2019). Prime Minister of Japan and His Cabinet. https://japan.kantei.go.jp/constitution_and_government_of_japan/constitution_e.html

(٤) **المادة:7**

يتولى الإمبراطور تأدية المهام التالية حسب توصيات وموافقة الوزارة وذلك نيابة عن الناس :

المصادقة على سريان التعديلات الدستورية والقوانين والقرارات الوزارية والاتفاقيات.

إعلان انعقاد الدايت.

إعلان حل مجلس النواب.

إعلان الانتخابات العامة لأعضاء الدايت.

المصادقة بالإمضاء على تعيينات وإقالة وزراء الدولة وغيرهم من المسؤولين الرسميين حسب القانون.

المصادقة بالإمضاء على العفو العام والخاص وكذلك على العقوبات وسحب أو إعادة الحقوق .

منح أوسمة الشرف والتقدير.

الموافقة بالإمضاء على أوراق ووثائق التصديق والاعتماد وغيرها من الوثائق الدبلوماسية حسب نصوص القانون.

مقابلة السفراء والوزراء الأجانب.

القيام بمهام الاحتفالات الرسمية والمراسيم.

حبيب البدوي (٢٠١٧) **الدستور الياباني: دراسة مقارنة**، بيروت: دار النهضة العربية.

(5) NEWS, K. (2019, November 15). Japanese emperor performs overnight Shinto ceremony to mark succession. Kyodo News+. https://english.kyodonews.net/news/2019/11/f1decd0aa0e3-japans-emperor-to-perform-thanksgiving-ceremony-as-key-succession-rite.html

(6) Blacker, C. (1990). The Shinza or God-Seat in the Daijōsai: Throne, Bed, or Incubation Couch? Japanese Journal of Religious Studies, 17 (2/3), 179-197. Retrieved January 24, 2021, from http://www.jstor.org/stable/30234017

(٧) Amaterasu Amaterasu-Ōmikami **إلهة الشمس السماوية** التي تدعي العائلة الإمبراطورية اليابانية أنها تنحدر منها. ولدت من العين اليسرى لوالدها إيزاناغي Izanagi، أحد الإلهين اللذين أنجبا العالم

وقلبه أرخبيل اليابان، والذي أهدى لها عقد من الجواهر وجعلها مسؤولة عن تاكاماغاهارا Takamagahara أي "السهل السماوي العالي"، مسكن كل كامي kami. وأنجبت من إله العاصفة سوسانو Susanoo، الذي يحكم البحر، عدة أطفال قبل أن يتفجر الخلاف بينهما.

Takeshi, M. (1978). Origin and Growth of the Worship of Amaterasu. Asian Folklore Studies, 37(1), 1-11. doi:10.2307/1177580

(8) Kirkland, R. (1997). The Sun and the Throne. The Origins of the Royal Descent Myth in Ancient Japan. Numen, 44(2), 109-152. Retrieved January 24, 2021, from http://www.jstor.org/stable/3270296

(9) Norhtern and southern courts--the rest of the story. (Accessed July 27, 2019). https://figal-sensei.org/hist157/Textbook/Rest%20of%20the%20Story.htm

(١٠) **أرض الآلهة Land of the gods Shinkoku 神国**

Toshio, K., & Rambelli, F. (1996). The Discourse on the "Land of Kami" (Shinkoku) in Medieval Japan: National Consciousness and International Awareness. Japanese Journal of Religious Studies, 23(3/4), 353-385. Retrieved January 24, 2021, from http://www.jstor.org/stable/30233578

(١١) **السلالة الإمبراطورية Unbroken Imperial line Bansei-Ikkei التي لا تنقطع.**

Yu, A. C. (Accessed July 28, 2019). Bansei-ikkei (Unbroken imperial line). Japanese Wiki Corpus. Retrieved January 24, 2021, from https://www.japanese-wiki-corpus.org/emperor/Bansei-Ikkei%20(Unbroken%20Imperial%20line).html

(12) Midori, W., Paskowitz, S., & Paskowitz, T. (2001). The Gender System of the Imperial State. U.S.-Japan Women's Journal. English Supplement, (20/21), 17-82. Retrieved January 24, 2021, from http://www.jstor.org/stable/42772173

(١٣) **الإمبراطورة سويكو Empress Suiko Suiko-tennō** (٥٥٤ - ٦٢٨)، الحاكم الثالث والثلاثين لليابان، وفقاً للترتيب التقليدي للخلافة. حكمت سويكو من ٥٩٣ حتى وفاتها في ٦٢٨. في تاريخ اليابان. وفقاً للأساطير اليابانية مرضت الإمبراطورة في ربيع عام ٦٢٨، مع كسوف كلي للشمس يناظر مرضها الخطير ثم ماتت في نهاية الربيع، وتبع ذلك العديد من العواصف البرد مع حجارة البرد الكبيرة، قبل أن تبدأ طقوس حدادها. كانت سويكو أول امرأة من بين ثماني نساء تولت دور الإمبراطورة الحاكمة.

Tamura Encho. (1968). The Establishment of State Buddhism in Japan. 九大コレクション | 九州大学附属図書館. https://api.lib.kyushu-u.ac.jp/opac_download_md/2244129/pa001.pdf

(١٤) **الإمبراطور كينمي Emperor Kinmei Kinmei-tennō** (٥٠٩–٥٧١)، هو الحاكم التاسع والعشرون من السلالة الإمبراطورية اليابانية الحاكمة، وأول من أثبتت وجوده السجلات التاريخية بعيدًا عن الأساطير التراثية.

Varley, H. Paul. (1980). Jinnō Shōtōki: A Chronicle of Gods and Sovereigns. New York: Columbia University Press. P. 121.

(١٥) **الإمبراطور سوشون Emperor Sushun Sushun-tennō** (٥٥٣ – ٥٩٢)، هو الإمبراطور الثاني والثلاثون في اليابان حسب قائمة أباطرة اليابان. كان ضحية صراع العشائر القوية على الساحة اليابانية.

On Emperor Sushun. (2018, June). Buddhism & Ten Worlds Intro Mtg July 17th – Myosenji Buddhist Temple. https://nstmyosenji.org/wp-content/uploads/2018/05/06-2018-Gosho.pdf

(١٦) **عشيرة سوغا Soga clan Soga uji**، كانت واحدة أكثر العائلات نفوذًا في اليابان، ولعبت دورًا هاما في نشر البوذية فيها انطلاقًا من كوريا. كما لعبت عائلة سوغا دورًا كبيرًا بالتحكم في القصر الإمبراطوري وأثرت على الكثير من قرارات السلطة.

Watts, I. M. (2012). Clan influence in Asuka Japan: Asukadera and the Soga clan. MINDS@UW Home. https://minds.wisconsin.edu/bitstream/handle/1793/64664/Watts_Ian_Thesis.pdf?sequence=1&isAllowed=y

(١٧) **عشيرة مونوبوبي Mononobe Clan Mononobe uji**، عارضت إدخال المفاهيم البوذية إلى الأراضي اليابانية بدعوى أن الآلهة المحلية سوف تتأثر بعبادة الآلهة الأجنبية، وخاضت حربًا طاحنة دفاعًا عن البلاط وللحفاظ على مبادئها.

Masanobu Suzuki. (2016). Clans and Religion in Ancient Japan: The mythology of Mt. Miwa. London: Routledge. P. 21.

(١٨) **الإمبراطورة كوغيوكو Empress Kogyoku Kōgyoku-tennō** (٥٩٤-٦٦١)، أول عهد (٦٤٢-٦٤٥) الحاكم الخامس والثلاثين والسابع والثلاثين لليابان، وفقًا للترتيب التقليدي للخلافة، وتميزت بوصولها إلى العرش في مناسبتين وفقًا للتسلسل الزمني التالي:

٦٤٢: صعدت العرش باسم الإمبراطورة كوغيوكو، ولكن تنحت أثر جريمة ارتكبها ابنها.

٦٤٥: تنازلت لأخيها الإمبراطور كوتوكو.

٦٥٤: توفي أخوها، لتعود مسألة وراثة العرش الإمبراطوري إلى الواجهة.

٦٥٥: تسلمت السلطة من جديد تحت اسم **Empress Saimei Saimei-tennō الإمبراطورة سايمي.**

٦٦١: حكمت حتى وفاتها، ليعود الصراع على العرش من جديد.

Ponsonby-Fane, Richard. (1959). The Imperial House of Japan, Kyoto: Ponsonby Memorial Society. pp. 49-51.

(١٩) **الإمبراطور جوميه Emperor Jomei Jomei-tennō** (٥٩٣ – ٦٤١)، هو الإمبراطور الرابع والثلاثون في اليابان حسب قائمة أباطرة اليابان. يعد من الحكام الذين قادوا اليابان في الحروب وساهم في تحقيق النصر، فقد عُرف عنه الحنكة في قيادة المعارك وعملية تنظيم الجيش.

Varley (2008), Op. cit., p. 44, pp. 129 – 130.

(٢٠) **الإمبراطور كوتوكو** Emperor Kotoku Kōtoku-tennō (٥٩٦ – ٦٥٤)، هو الإمبراطور السادس والثلاثون في اليابان حسب قائمة أباطرة اليابان. عندما تولى السلطة اتبع النظام الصيني في تشكيل حكومة جديدة للبلاد. وأنشأ عددا كبيرا من الطرق. وأطلق على تلك الحركة الإصلاحية بعنوان "التغيير الكبير". وفي ظل تلك الحكومة المنظمة والخاضعة لقوانين مكتوبة بدأت اليابان تظهر كدولة متحضرة.

Ike, N. (1944). Kotoku: Advocate of direct action. The Far Eastern Quarterly, 3(3), 222. https://doi.org/10.2307/2048873

(21) Aoki, Michiko Y. "Jitō Tennō: The Female Sovereign," in Heroic with Grace: Legendary Women of Japan. Chieko Irie Mulhern, ed. Armonk: NY: M.E. Sharpe, 1991, pp. 40–76.

(٢٢) **الإمبراطورة جيتو**Empress Jito Jitō-tennō (٦٤٥ - ٧٠٣)، الملك الحادي والأربعين لليابان، وفقًا للترتيب التقليدي للخلافة. خلفت زوجها الإمبراطور تينمو لتضمن وصول ابنها الأمير كوساكابي.

Empress Jitō. (2019, November 1). A History of Japan - 日本歴史. https://historyofjapan.co.uk/wiki/empress-jito/

(٢٣) **الإمبراطور تينجي** Emperor Tenji Tenji-tennō (٦٢٦ – ٦٧٢)، كان الإمبراطور تينجي عادلاً وقريبًا من شعبه، ونظم قصيدة يصف فيها معاناة الفلاحين حينما يقومون بحراسة الصوامع في الليالي الباردة بينما تتساقط قطرات الماء من الأسقف على أكمام أرديتهم.

Emperor Tenji. In the autumn fields. (2012, September). One Thousand Summers. https://onethousandsummers.blogspot.com/2012/09/hyakunin-isshu-poem-1-emperor-tenji.html

(٢٤) **الإمبراطور تينمو** Emperor Tenmu Tenmu tennō (٦٣١ - ٦٨٦)، هو الإمبراطور الأربعون لليابان، وفقًا للترتيب التقليدي للخلافة. اعتمد في أواخر حياته عيشة الرهبنة، ويتميز أنه من صلبه تسلم أربعة من أحفاده العرش في اليابان.

Morse, Samuel. (2012). Imperial Politics and Symbolics in Ancient Japan: The Tenmu Dynasty, 650-800. Harvard Journal of Asiatic Studies. 72. 159-164. 10.1353/jas.2012.0009.

(٢٥) **الامير كوساكابي** Prince Kusakabe Kusakabe no miko (٦٦٢ – ٦٨٩)، كان الطفل الوحيد لأمه الإمبراطورة جيتو. في عام ٦٨١ تم تعيينه ولي العهد، وفي صيف عام ٦٨٦ أصيب والده الإمبراطور تينمو، بالمرض وأعطى السلطة الإمبريالية لزوجته الإمبراطورة جيتو. بعد وفاة والده قاد مراسم الجنازة وبناء القبر الإمبراطوري، ولكن قبل التتويج الرسمي، توفي في عام ٦٨٩ عن عمر يناهز ٢٨ عامًا.

Michael I. Como. (2008). Shotoku: Ethnicity, Ritual, and Violence in the Japanese Buddhist Tradition. Oxford: Oxford University Press.

(٢٦) **الإمبراطور مونمو** Emperor Monmu Monmu-tennō (٦٨٣ - ٧٠٧) كان الإمبراطور الثاني والأربعون في اليابان وفقا للتواريخ التقليدية. وهو خليفة أبيه الأمير كوساكابي، واستمر في الحكم حتى وفاته.

Varley (2008), Op. cit., pp. 137 – 140.

(٢٧) **الإمبراطورة جينمي** Empress Genmei Genmei-tennō (٦٦٠ - ٧٢١)، الحاكم الثالث والأربعين لليابان وفقًا للترتيب التقليدي للخلافة. تشير الروايات إلى أنها اعتلت المنصب الإمبراطوري بعد الإمبراطور مومو شعر أن ابنه الصغير، أي حفيدها، كان لا يزال صغيرًا جِدًّا على تحمل الضغوط التي تصاحب كرسي العرش.

Ponsonby-Fane (1959), op. cit., p. 56.

(٢٨) **الإمبراطور شومو** Emperor Shomu Shōmu-tennō (٧٠١ - ٧٥٦)، كان الإمبراطور الخامس والأربعون في اليابان وفقا للتواريخ التقليدية، وهو أول من تزوج من خارج السلالة الإمبراطورية، رغم أم زوجته كانت من العائلات النافذة.

Varley (2008), Op. cit., pp. 141-143.

(٢٩) **الإمبراطورة غينشو** Empress Gensho Genshō-tennō (٦٨٣- ٧٤٨)، هي الملكة الرابعة والأربعين لليابان، وفقًا للترتيب التقليدي للخلافة. كانت الإمبراطورة الوحيدة الحاكمة في تاريخ اليابان التي ورثت لقبها من إمبراطورة أخرى وليست من سلف ذكر.

Brown, Delmer M. and Ichirō Ishida, eds. (1979). Gukanshō: The Future and the Past. Berkeley: University of California Press. Pp. 271-272.

(٣٠) **سجلات اليابان** The Chronicles of Japan Nihon Shoki هو ثاني أقدم كتاب في التاريخ الياباني الكلاسيكي. يُطلّق على الكتاب أيضًا اسم Nihongi **السجلات اليابانية**. وهو وثيقة مهمة للمؤرخين وعلماء الآثار ومتخصصو الدراسات اليابانية لأنَّه يتضمن السجل التاريخي الأكثر اكتمالاً عن اليابان القديمة.

Nihongi: Chronicles of Japan from the earliest times to A.D. 697. (2014, September 6). Wikisource, the free library. Retrieved January 25, 2021, from https://en.wikisource.org/wiki/Nihongi:_Chronicles_of_Japan_from_the_Earliest_Times_to_A.D._697

(٣١) **الإمبراطور جونين** Emperor Junnin Junnin-tennō (٧٣٣ - ٧٦٥) كان الإمبراطور السابع والأربعون في اليابان. وفقا للتواريخ التقليدية. كان دوره هامشيًا في الحكم، واقتصر دوره على الشعائر الدينية والطقوس الرسمية.

Varley (2008), Op. cit., p. 143.

(٣٢) **الإمبراطورة كوكين** Empress Koken Kōken-tennō (٧١٨- ٧٧٠)، كانت الحاكم السادس والأربعين لليابان. عاشت الصراع بين المناهج البوذية الوافدة والاعتقادات الدينية المحلية. وبعد تنازلها عن العرش، عادت بضغط أنصارها لتصبح الحاكم والثامن والأربعين في اليابان تحت اسم Empress Shotoku Shōtoku-tennō **الإمبراطورة شوتوكو**.

Aoki, Michiko Y. "Jitō Tennō: The Female Sovereign," in Heroic with Grace: Legendary Women of Japan. Chieko Mulhern, ed. Armonk, NY: M.E. Sharpe, 1991, pp. 40–76.

(٣٣) **الإمبراطورة مييشو** Empress Meisho Meishō-tennō (١٦٢٣ - ١٦٩٦)، الحاكم الإمبراطوري رقم ١٠٩ لليابان، وفقًا للترتيب التقليدي للخلافة. حكمت اسميًا تحت سلطة حكم الشوغون العسكري الصارم، والذي سعى للحد من تأثير البلاط الإمبراطوري حتى على الصعيد الديني المحلي.

Empress Meishō (1623–96) and Cultural Pursuits at the Japanese Imperial Court. (Accessed September 18, 2019). University of San Francisco. https://www.usfca.edu/sites/default/files/pdfs/app_xii1_1_lillehoj_0.pd

(٣٤) Emperor Go-Mizunoo Go-Mizunoo-tennō **الإمبراطور غو- ميزونو** (١٥٩٦ - ١٦٨٠). الإمبراطور الثامن بعد المئة في اليابان وفقا للترتيب الأباطرة الحاكمين. خلال فترة حكمه كانت اليابان تعاني من الصراعات الداخلية والأطماع الخارجية. خلال عهده خاضت اليابان عدة حروب وقد أدت الصراعات الداخلية إلى إضعافها، الأمر الذي دفع الإمبراطور إلى قمع التمردات الداخلية بعنف من أجل توحيد البلاد لصد الهجمات الخارجية.

Varley (2008), Op. cit., p. 44.

(٣٥) **Tokugawa shogunate Tokugawa bakufu شوغونية توكوغاوا،** كان نظامًا سياسيًا إقطاعيًا في اليابان يحمل الطابع العسكري. تعد الفترة التي ساد فيها هذا النظام بفترة إيدو. استمر حكم الشوغون، أي الحاكم العسكري، في الفترة الممتدة بين ١٦٠٣ و١٨٦٨، حتى انتهت بعهد الإمبراطور المصلح ميجي.

Bolitho, Harold. (1974). Treasures Among Men: The Fudai Daimyo in Tokugawa Japan. New Haven: Yale University Press.

(٣٦) **Purple Robe Incident shi-e jiken حادثة الرداء الأرجواني**

Williams, D. (2009). The Purple Robe Incident and the Formation of the Early Modern Sōtō Zen Institution. Japanese Journal of Religious Studies, 36(1), 27–43. http://www.jstor.org/stable/30233852

(٣٧) Emperor Go-Komyo Go-Kōmyō-tennō **الإمبراطور غو- كوميو** (١٦٣٣ - ١٦٥٤) كان الإمبراطور العاشر بعد المائة في اليابان وفقا للترتيب الأباطرة. تم توليه الحكم عندما بلغ العاشرة من عمره، وقد عُرف منذ صغره بحبه لركوب الخيل وكان يحضر ساحات القتال. عندما كبر تمكن من قيادة الجيش الإمبراطوري للتصدي للانتفاضات الفلاحية.

Varley (2008), Op. cit., p. 44.

(٣٨) Empress Go-Sakuramachi Go-Sakuramachi-tennō **الإمبراطورة غو- ساكوراماتشي** (١٧٤٠ - ١٨١٣)، كانت الحاكم السابع عشر بعد المائة في اليابان، وعلى عهدها بدأت المطامع الخارجية تتوجه نحو الأراضي والخيرات اليابانية.

Ponsonby-Fane (1959), op. cit., p. 120.

(٣٩) Emperor Sakuramachi Sakuramachi-tennō **الإمبراطور ساكوراماتشي** (١٧٢٠-١٧٥٠)، كان الإمبراطور الخامس عشر بعد المائة في اليابان وفقا للترتيب الأباطرة. وسط سيطرة الشوغون، حاول الإمبراطور استعادة بعض صلاحياته، أقله على الصعيد الديني. وفعلاً ترأس "مهرجان الحصاد" بعد أن غاب الحضور الإمبراطوري عنه لأكثر من ٢٥ سنة.

Ponsonby-Fane (1956), op. cit, p. 321.

(٤٠) Emperor Momozono Momozono-tennō **الإمبراطور مومozono**

(٤٠) Emperor Momozono Momozono-tennō **الإمبراطور موموزونو** (١٧٤١ - ١٧٦٢) كان الإمبراطور السادس عشر بعد المائة في اليابان وفقا للترتيب الأباطرة. تميز عهده بالهدوء والاستقرار.

Ponsonby-Fane, R. (1959). Kyoto: the Old Capital of Japan, 794–1869. Kyoto: Ponsonby Memorial Society. p. 321

(٤١) Emperor Go-Momozono Go-Momozono-tennō **الإمبراطور غو موموزونو** (١٧٥٨-١٧٧٩)، هو الإمبراطور الـ ١١٨ لليابان ، وفقاً للترتيب التقليدي للخلافة. سمي على اسم والده. اقتصرت الأحداث خلال فترة حكمه على سلسلة من الكوارث الطبيعية بخاصة عام ١٧٧٢. كان مهادنًا للحكم العسكري.

Ponsonby-Fane (1959), op. cit., p. 120.

(42) McMAHON, K. (2013). The Institution of Polygamy in the Chinese Imperial Palace. The Journal of Asian Studies, 72(4), 917-936. Retrieved January 24, 2021, from http://www.jstor.org/stable/43553235

(43)Secrets of the shogun's harem. (2008, February 28). Lesley Downer | A Passion for Japan. https://www.lesleydowner.com/secrets-of-the-shoguns-harem/

(٤٤) Heian period Heian jidai **فترة هييان،** هي آخر قسم في التاريخ الياباني الكلاسيكي، يمتد من سنة ٧٩٤ إلى ١١٨٥. سُميت الفترة على اسم العاصمة هيان كيو، أو كيوتو الحديثة. إنَّها فترة في التاريخ الياباني كانت فيها التأثيرات الصينية في تراجع ونضجت الثقافة الوطنية. تعتبر فترة هييان ذروة ازدهار البلاط الإمبراطوري الياباني وتشجيعه للفنون، بخاصة الشعر والأدب.

21 from female sovereign to mother of the nation: Women and government in the Heian period. (2017). Heian Japan, Centers and Peripheries, 15-34. https://doi.org/10.1515/9780824862817-005

(45) Shillony, B. (2013). Ben-ami Shillony - Collected writings. Routledge. P. 32.

(٤٦) أشهرهم عشيرتي تايرا Taira وميناموتو Minamoto.

Minobe, S. (1982). The World View of "Genpei Jōsuiki". Japanese Journal of Religious Studies, 9(2/3), 213-233. Retrieved January 24, 2021, from http://www.jstor.org/stable/30233948

(٤٧) Edo period Edo jidai **فترة إيدو** (١٦٠٣ -١٨٦٨)، خضعت فيها اليابان لحكم الشوغون shōgun، أي الحاكم العسكري. حيث قامت الحكومة العسكرية لدرء المخاطر الخارجية لتطبيق سياسة **ساكوكو Sakoku**، بعنى عزلة اليابان عن العالم الخارجي، وتم منع الأجانب من دخول اليابان لمدة ٢٠٠ عام تقريبًا. أدت هذه الفترة إلى استقرار العلاقات الخارجية وتطور الثقافة المحلية. كذلك تم تحسين وسائل النقل وتنشيط التجارة الداخلية، مع ملاحظة بدء حركة ترجمة العلوم الغربية إلى اللغة اليابانية.

Historical Overview Japan in the Tokugawa Period. (Accessed July 29, 2019). International Programs |. https://international.uiowa.edu/sites/international.uiowa.edu

/files/file_uploads/japan_in_tokugawa_period_and_modernity.pdf

(٤٨) Emperor Kokaku Kōkaku-tennō الإمبراطور كوكاكو (١٧٧١-١٨٤٠)، هو الإمبراطور رقم ١١٩ لليابان، وفقاً للترتيب التقليدي للخلافة. حكم كوكاكو من ١٦ كانون أول ١٧٨٠ حتى تنازله عن العرش في ٧ أيار ١٨١٧ لصالح ابنه. بعد تنازله عن العرش، حمل اسم Daijō Tennō الإمبراطور المتنازل، حتى وفاته في عام ١٨٤٠. ولم تتكرر حالة التنازل في السلالة اليابانية الحاكمة إلا في عصرنا الحالي، أي بعد ٢٠٢ سنة.

Pike, J. (2016, August 8). 119th sovereign, emperor Kokaku (AD 1780-1816). GlobalSecurity.org. https://www.globalsecurity.org/military/world/japan/emperor_kokaku.htm

(٤٩) Emperor Ninko Ninkō-tennō الإمبراطور نينكو (١٨٠٠-١٨٤٦)، هو الإمبراطور رقم ١٢٠ لليابان وفقاً للترتيب التقليدي للخلافة. شَهِدَ عهده مزيدًا من التدهور في سلطة شوغون، حيث ساهمت الكوارث الطبيعية، وأهمها المجاعة القاسية والاعاصير المتلاحقة، إلى جانب الفساد وزيادة التدخل الغربي، على تآكل ثقة الشعب بالحكم العسكري الرابض.

Ponsonby-Fane (1959). Op. cit., Pp. 122-123.

(٥٠) Emperor Komei Kōmei-tennō الإمبراطور كوميه (١٨٣١ - ١٨٦٧)، هو الإمبراطور رقم ١٢١ لليابان وفقاً للترتيب التقليدي للخلافة. خلال فترة حكمه وصلت طلائع التدخل الأميركي السافر في الشؤون الداخلية اليابانية لتحقيق "الفتح القسري". عارض الإمبراطور الخضوع للأجانب، رغم مكانته الرمزية فقط حينها، ورفض فتح اليابان أمام القوى الغربية.

Ibid. Pp. 123-135.

٥١ Emperor Meiji Meiji-tennō الإمبراطور ميجي (١٨٥٢-١٩١٢) هو الإمبراطور الثاني والعشرون بعد المائة لليابان وفقاً للترتيب التقليدي للخلافة، حيث حكم من ٣ شباط ١٨٦٧ حتى وفاته. كان الإصلاح الميجي Meiji Restoration Meiji Ishin هو العلامة الفارقة لعهده، ففي وقت قياسي حصل تغير سريع شَهِد تحول اليابان من دولة إقطاعية انعزالية إلى قوة عالمية صناعية. كما كانت فترة تحول مذهل في المجتمع الياباني. كان ذلك بمثابة نهاية النظام الإقطاعي الياباني وأعاد هيكلة الدولة تماما، ليتغير واقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية في اليابان.

Keene, D. (2005). Emperor of Japan: Meiji and his world, 1852–1912. Columbia University Press.

(52) Taisho Democracy - Institute of Developing Economies. (Accessed September 7, 2019). https://www.ide.go.jp/library/English/Publish/Periodicals/De/pdf/66_04_09.pdf

(٥٣) Kamakura period Kamakura jidai فترة كاماكورا (١١٨٥-١٣٣٣) هي فترة خصبة من التاريخ الياباني تمثل في الحكم العسكري لشوغونية كاماكورا Kamakura shogunate Kamakura bakufu. اشتهرت هذه الفترة بظهور طبقة المحاربين الساموراي وتأسيس الإقطاع بشكل رسمي في اليابان.

Yanaga, C. (1939). Source Materials in Japanese History: The Kamakura Period, 1192-1333. Journal of the American Oriental Society, 59(1), 38-55. doi:10.2307/593943

(٥٤) Miyake مياكي: الفروع الجانبية للعائلة الإمبراطورية.

Miyake. (Accessed September 17, 2019). Geocities Archive Geocities Mirror / The 90s Archive (1990s 2000s nineties) / The Early web. https://www.oocities.org/jtaliaferro.geo/miyake.html

(٥٥) الأبناء والأحفاد الشرعيون للإمبراطور في خط الذكور هم Shinno الأمراء الذكور وNaishinno الأميرات لإناث. الأحفاد الشرعيون للإمبراطور من الجيل الثالث والأجيال اللاحقة في خط الذكور هم O الأمراء الذكور، وJo-o الأميرات الإناث (قانون البيت الإمبراطوري، المادة٦).

The imperial family - The imperial household agency. (Accessed September 17, 2019). 宮内庁. https://www.kunaicho.go.jp/e-about/seido/seido02.html

(٥٦) Emperor Shoko Shōkō-tennō الإمبراطور شوكو (١٤٠١-١٤٢٨) هو الإمبراطور ١٠١ لليابان، وفقاً للترتيب التقليدي للخلافة. تعاظم أثناء ولايته نفوذ رجال البلاط الأقوياء أثناء ولايته.

Ponsonby-Fane (1959), op. cit., pp. 105-106.

(٥٧) Emperor Go-Hanazono Go-Hanazono-tennō الإمبراطور غو هانازونو (١٤١٩-١٤٧١)، هو الإمبراطور ١٠٢ لليابان وفقاً للترتيب التقليدي للخلافة. في بداية حكمه تحكم عمه بمقاليد السلطة، ولكن عاد وحكم منفردًا لحوالي ثلاثين عامًا.

Rin-siyo, S. (1834). Nipon o Dai itsi ran; OU, Annales des empereurs du Japon. Pp. 331-351.

(٥٨) Emperor Suko Sukō-tennō الإمبراطور سوكو (١٣٣٤ - ١٣٩٨)، كان ثالث أباطرة المحكمة الشمالية خلال فترة المحاكم الشمالية والجنوبية في اليابان. خلال هذه الفترة، وُجد بلاط إمبراطوري شمالي في كيوتو، وبلاط إمبراطوري جنوبي في يوشينو. إيديولوجيًا، تصارع البلاطان لخمسين عامًا، حتى استسلم البلاط الجنوبي للشمالي عام ١٣٩٢. منذ القرن التاسع عشر، اعتُبر أباطرة البلاط الإمبراطوري الجنوبي الأباطرة الشرعيين لليابان.

Sansom, S. G. (1961). A history of Japan: 1334-1615. P. 82.

(٥٩).Ibid. p. 423, pp.433-434

(٦٠) Emperor Higashiyama Higashiyama-tennō الإمبراطور هيغاشياما (١٦٧٥ - ١٧١٠)، هو الإمبراطور رقم ١١٣ لليابان، واضطر للتنازل عن العرش في عام ١٧٠٩. أدت حالة السلام والعزلة في اليابان خلال عهده إلى حلول استقرار اقتصادي نسبي، وبالتالي ازدهرت الفنون والمسرح والعمارة.

Ponsonby-Fane, Richard. (1956). Kyoto: The Old Capital of Japan, 794–1869, p. 342.

(٦١) إذا تجاهلنا الأباطرة الأسطوريون، فمعظمهم خلفهم أبناؤهم.

Hommichi, T. (1950). Japanese mythology and emperor system & origin of the world.

(62) Beasley, W. (1972). The Meiji restoration. Stanford University Press.

(٦٣) **الإمبراطورة شوكين Empress Shoken Shōken-kōgō** (١٨٤٩-١٩١٤) زوجة ومستشارة إمبراطور اليابان ميجي. كانت واحدة من مؤسسي جمعية الصليب الأحمر اليابانية، التي اشتهر عملها الخيري طوال الحرب الصينية اليابانية الأولى.

Keene (2005), op. cit., Pp. 106-108, 350-351.

(٦٤) **زوجة Seishitsu**، هو المصطلح المستخدم باللغة اليابانية في فترة إيدو للإشارة إلى الزوجة الرسمية لأحد الموظفين الرسميين عاليي المستوى. وغالبًا ما كان الإمبراطور وكذلك الشوغون يتزوجون عدة مرات لضمان إنجاب وريث لهم. بينما كانت **المحظية Sokushitsu** تتمتع بوضع مميز مقارنة بالزوجات الأخريات. كان الإمبراطور ميجي آخر من استخدم هذا المفهوم العائلي.

The forces of homology—Hirohito, emperor of Japan and the 1928 rites of succession. (Accessed September 19, 2019). ResearchGate.
https://www.researchgate.net/publication/262905509_The_Forces_of_Homology-Hirohito_Emperor_of_Japan_and_the_1928_Rites_of_Succession

(٦٥) **الوصيفة Nyokan**، موظفة تدبير في البلاط الإمبراطوري، حيث اعتنت بخزانة ملابس الإمبراطور، والعناية به، وتقديم وجبات الطعام، وحضور طقوس البلاط. أُلغِيت وظيفة سيدة الانتظار في عام ١٩٢٤.

Rowley, G. G. (2013). An imperial concubine's tale: Scandal, shipwreck, and salvation in seventeenth-century Japan. Columbia University Press.

(٦٦) كان للإمبراطور ميجي خمسة عشر طفلاً، من بينهم خمسة أمراء وعشر أميرات، لكن عشرة منهم ماتوا بسبب مرض يشبه التهاب السحايا في طفولتهم. كان المقربون من العائلة الإمبراطورية متخوفين من أن نِسَب العائلة المالكة كان في خطر. إحدى النظريات أنَّ سبب هذا المرض سببه مسحوق الوجه المحتوي على الرصاص الأبيض الذي كانت تستخدمه ممرضات وخادمات أسرة الإمبراطور.

Fukase Y. [The Cause of Death of the Emperor Meiji's Infants]. Nihon Ishigaku Zasshi. 2015 Sep;61(3):255-66. Japanese. PMID: 26775339.

(67) Midori, W., Paskowitz, S., & Paskowitz, T. (2001). The Gender System of the Imperial State. U.S.-Japan Women's Journal. English Supplement, (20/21), 17-82. Retrieved January 25, 2021, from http://www.jstor.org/stable/42772173

(٦٨) **ياناغيهارا ناروكو Yanagihara Naruko** (١٨٥٩-١٩٤٣)، كانت محظية للإمبراطور ميجي، وهي والدة الإمبراطور تايشو، وآخر محظية أنجبت إمبراطورًا يابانيًا.

Keene (2005), op. cit., p. 320.

(٦٩) **الإمبراطور تايشو Emperor Taisho Taishō-tennō** (١٨٧٩-١٩٢٦) هو إمبراطور اليابان رقم ١٢٣ وفقًا للترتيب التقليدي للخلافة، والحاكم الثاني للإمبراطورية اليابانية الحديثة من ٣٠ تموز ١٩١٢ حتى وفاته في عام ١٩٢٦. كانت مراسم تنصيب تايشو حدثا تم الاحتفال به علانية بحضور ممثلين عن دول مختلفة. كما أسست بشكل راسخ مركزية الإمبراطور في اليابان في ظل دستور ميجي وتميز عصره "بديمقراطية التايشو".

Ramesh S. (2020) The Taisho Period (1912–1926): Transition from Democracy to a Military Economy. In: China's Economic Rise. Palgrave Macmillan, Cham. https://doi.org/10.1007/978-3-030-49811-5_6

(٧٠) كانت هذه العائلات الجديدة هي: ناشيموتوNashimoto ، وياماشينا Yamashina، وكيتاشيراكاوا Kitashirakawa، وكوني Kuni، وكايا Kaya، وهيجاشيفوشيمي Higashifushimi ، وأساكا Asaka، وهيجاشيكوني Higashikuni، وتاكيدا Takeda، وكانين Kan'in. تزوجت بنات الإمبراطور ميجي الأربع، وبعد ذلك بنات الإمبراطور شوا الأربع، من أفراد هذه العائلات.

Japanese monarchy: Past and present. (2006, November 1). ResearchGate.
https://www.researchgate.net/publication/4809028_Japanese_Monarchy_Past_and_Present

(71) The imperial household law (1889). (Accessed September 20, 2019). PiratePanel. https://core.ecu.edu/hist/tuckerjo/1889law.html

(٧٢) حبيب البدوي (٢٠١٧) الدستور الياباني: دراسة مقارنة، بيروت: دار النهضة العربية.

(٧٣) **Kōgō لقب زوجة إمبراطور اليابان.**

Louis-Frédéric. (2002). Japan encyclopedia. Harvard University Press. P. 543.

(74) Oberländer C. (2005) The Rise of Western "Scientific Medicine" in Japan: Bacteriology and Beriberi. In: Low M. (eds) Building a Modern Japan. Palgrave Macmillan, New York. https://doi.org/10.1057/9781403981110_2

(٧٥) **Civil Code of 1898 Mimpō**: القانون المدني ضمن إصلاحات الإمبراطور ميجي. كان القانون نتيجة حركات مختلفة للتحديث بعد الإصلاح الميجي عام ١٨٦٨. كان قانوناً محليًا يوائم منظومة القوانين الغربية، في المسعى الياباني "للحاق بالغرب".

The Meiji Civil Code Addresses the Role of Women. (Accessed November 2, 2019). University of Colorado Boulder. https://www.colorado.edu/ptea-curriculum/sites/default/files/attached-files/mogafactorygirlshandout1.pdf

(٧٦) **الإمبراطورة تيمي Empress Teimei Teimei-kōgō** (١٨٨٤ - ١٩٥١)، ولدت باسم **الأميرة ساداكو Sadako** Kujo Kujō **Sadako كوجو**، وهي زوجة الإمبراطور تايشو ووالدة الإمبراطور هيروهيتو. شغلت منصب إمبراطورة اليابان من ٣٠ تموز ١٩١٢ إلى ٢٥ كانون أول ١٩٢٦.

Taishō: An enigmatic emperor and his influential wife. (2008). The Emperors of Modern Japan, 227-240. https://doi.org/10.1163/ej.9789004168220.i-348.97

(٧٧) **الإمبراطور هيروهيتو Emperor Hirohito Showa-tennō** (١٩٠١-١٩٨٩) هو الإمبراطور الرابع والعشرون لليابان وفقًا للترتيب التقليدي

للخلافة، وُلد هيروهيتو في ٢٩ نيسان عام ١٩٠١ في العاصمة اليابانية طوكيو. درس في مدرسة خاصة، وتم تعيينه وليًا للعهد بعمر الخامس عشر. تسلم مهام والده الإمبراطور تايشو الذي اشتد عليه المرض عام ١٩٢١، وتم تنصيبه إمبراطورًا عام ١٩٢٦، ليحكم حتى عام ١٩٨٩ ويكون الأطول حكمًا في التاريخ الياباني. عاش فترة Dai Nippon Teikoku **إمبراطورية الحرب اليابانية** وقرار قصف ميناء بيرل هاربور، إلا أنه هو من أعلن استسلام البلاد للحلفاء في آب عام ١٩٤٥ "حفاظًا على بقاء الجنس الياباني". في مرحلة الاحتلال الأميركي المباشر وما بعدها، أصبح منصب الإمبراطور شرفيًا حسب الدستور الجديد.

Bix, H. P. (2009). Hirohito and the making of modern Japan. Collins. Harper

(٧٨) توفي الابن الثاني الأمير تشيتشيبو Prince Chichibu عن عمر يناهز ٥١ عامًا، وعاش الابن الثالث الأمير تاكاماتسو Prince حتى سن ٨٢ عامًا، أما الأصغر الأمير ميكاسا Prince Mikasa فقد عاش ١٠٠ عام.

Emperor Taishō of Japan (Yoshihito). (2020, December 24). Royalty. https://www.unofficialroyalty.com/emperor-taisho-of-japan-yoshihito/

(٧٩) Lebra, T. (2007). Identity, gender, and status in Japan. Global Oriental. P. 308.

(٨٠) Empress Kojun Kōjun-kōgō **الإمبراطورة كوجون** (١٩٠٣-٢٠٠٠)، زوجة الإمبراطور هيروهيتو ووالدة الإمبراطور أكيهيتو. ولدت باسم الأميرة ناغاكو، غير أنها اتخذت عند التتويج اسم "كوجون"، والذي يعني "العطر النقي". بقيت الإمبراطورة كوجون الإمبراطورة الزوجة من ٢٥ كانون أول ١٩٢٦ إلى ٧ حزيران ١٩٨٩، وهي أطول فترة بين كل الإمبراطورات السابقات في تاريخ اليابان.

Koyama, Itoko. (1958). Nagako, Empress of Japan (translation of Kogo sama). New York: J. Day Co.

(81) Ibid., pp. 73-87.

(82) Hasegawa, T. (2007). The end of the Pacific war: Reappraisals. Stanford University Press.

(83) Hata, Ikuhiko. (1994). The five decisions of Emperor Shōwa. Tokyo: Bungei shunjū. Pp. 116-119.

(٨٤) Douglas MacArthur **دوغلاس ماك آرثر** (١٨٨٠-١٩٦٤)، الرجل المحوري في فترة "اليابان تحت الاحتلال" والقائد العام لسلطات الاحتلال. خدم في الفلبين كقائد للقوات الأميركية وفي عام ١٩٣٧ قدم استقالته لكن بعد هجوم بيرل هاربور وإعلان اليابان الحرب على الولايات المتحدة استدعاه الرئيس الأميركي روزفلت وأعاده إلى الجيش وجعله برتبة فريق حيث قام بفتح جبهة شاسعة في جنوب شرق آسيا والمحيط الهادي. كانت استراتيجيته تعتمد على الانقضاض على الجزر التي تحتلها اليابان الواحدة تلو الأخرى وصولا إلى الجزر اليابانية الأُم. بعد انتصار الولايات المتحدة على اليابان أصبح الحاكم العسكري أثناء احتلال اليابان في الفترة بين ١٩٤٥ و١٩٥١.

"Douglas MacArthur." U.S. Department of the Interior. Last modified August 11, 2020. https://www.doi.gov/american-heroes/douglas-macArthur.

(85) Shillony, B. (2005). Enigma of the emperors: Sacred subservience in Japanese history. Pp. 217-219.

(٨٦) حبيب البدوي (٢٠١٧) تاريخ اليابان السياسي بين الحربين العالميتين، طبعة ثانية، بيروت: دار النهضة العربية.

(٨٧) حبيب البدوي (٢٠١٧) الدستور الياباني: دراسة مقارنة، بيروت: دار النهضة العربية.

(٨٨) The Imperial Household Law of 1947 Kōshitsu Tenpan، هو قانون الأسرة الإمبراطورية لعام ١٩٤٧، وهو يحكم خط الخلافة الإمبراطورية وعضوية العائلة الإمبراطورية والعديد من الأمور الأخرى المتعلقة بإدارة الأسرة الإمبراطورية.

The imperial household laws (1947). (Accessed November 2, 2019). PiratePanel. https://core.ecu.edu/hist/tuckerjo/1947law.html

(٨٩) Imperial Family Kōzoku **العائلة الإمبراطورية**، والتي تضم الإمبراطور وزوجته الإمبراطورة، وكذلك جميع أصوله وفروعه.

The Advisory Council on the Imperial House Law. (Accessed November 2, 2019). Prime Minister of Japan and His Cabinet. https://japan.kantei.go.jp/policy/koshitsu/051124_e.pdf

(٩٠) Old Imperial Family Kyū-Miyake **عائلة كيو-مياكي الإمبراطورية القديمة**، وتضم رابطة الدم الإمبراطوري منذ الأزل المكتوب، ولكن تمت إزالة العديد من فروع النسب (العائلات الفرعية) من انتمائهم للعائلة الإمبراطورية من قِبَل سلطات الاحتلال الأمريكية في تشرين الأول ١٩٤٧، كجزءٍ من إلغاء البيوت الإمبراطورية الجانبية.

Fujitani, T. (1998). Splendid monarchy: Power and pageantry in modern Japan. University of California Press.

(٩١) أرملة الإمبراطور تايشو.

(٩٢) حبيب البدوي (٢٠١٧) الدستور الياباني: دراسة مقارنة، بيروت: دار النهضة العربية.

(93) Bix, H. P. (1992). The Showa Emperor's "Monologue" and the Problem of War Responsibility. Journal of Japanese Studies, 18(2), 295–363. https://doi.org/10.2307/132824

(94) Feminism and the Cold War in the U.S. occupation of Japan, 1945 – 19521945–1952. (Accessed November 9, 2019). The Asia-Pacific Journal: Japan Focus. https://apjjf.org/2011/9/7/Mire-Koikari/3487/article.html

(٩٥) Emperor Akihito Heisei-tennō **الإمبراطور أكيهيتو** (١٩٣٣) إمبراطور اليابان الـ١٢٥ وفقا للترتيب التقليدي للخلافة في اليابان. اعتلى عرش الأقحوان من ٧ كانون ثاني ١٩٨٩، عقب وفاة والده الإمبراطور هيروهيتو، حتى تخليه عن العرش في ٣٠ أيار ٢٠١٩ طوعًا. بذلك يكون أول إمبراطور ياباني يتنازل عن العرش منذ قرابة ٢٠٠ سنة. بعد تخليه عن العرش، أصبح يحمل لقب Emperor Emeritus Daijō Tennō **الإمبراطور الفخري**.

Their majesties the emperor emeritus and Empress Emerita - The imperial household agency. (Accessed November 12, 2019). 宮内庁. https://www.kunaicho.go.jp/joko/activity-en.html

(٩٦) Masahito, Prince Hitachi Hitachi-no-miya Masahito Shinnō **الأمير هيتاشي ماساهيتو** (١٩٣٥) هو الشقيق الأصغر للإمبراطور الفخري أكيهيتو. وعم الإمبراطور ناروهيتو، والثالث في تسلسل خلافة ولاية العهد الإمبراطوري.

Their imperial highnesses prince and princess Hitachi - The imperial household agency. (Accessed November 12, 2019). 宮内庁. https://www.kunaicho.go.jp/e-about/history/history04.html

(٩٧) Takahito, Prince Mikasa Mikasa-no-miya Takahito Shinnō **الأمير ميكاسا** (١٩١٥ - ٢٠١٦) أحد أفراد العائلة المالكة اليابانية، رابع أبناء الإمبراطور تايشو وأصغرهم. أخوه الأكبر هو الإمبراطور هيروهيتو. خدم كضابط فرسان في الجيش الإمبراطوري الياباني خلال الحرب العالمية الثانية، وبعد نهاية الحرب تخلى عن صفته العسكرية وانضم إلى الحقل الأكاديمي كباحث ومحاضر غير متفرغ في دراسات الشرق الأوسط واللغات السامية.

Takahito, M. N. (1991). Near eastern studies: Dedicated to H.I.H. Prince Takahito Mikasa on the occasion of his seventy-fifth birthday. Harrassowitz.

(٩٨) Prince Tomohito of Mikasa Tomohito Shinnō **الأمير توموهيتو** (١٩٤٦-٢٠١٢)، هو الأمير الملتحي Hige no Denka، ابن عم الإمبراطور أكيهيتو، وكان سابقًا السادس في خط الخلافة على العرش الياباني. تميز الأمير تومو هيتو بأنه أول أبناء البيت الإمبراطوري في اليابان بلحية كاملة منذ الإمبراطور ميجي.

Their imperial highnesses prince and princess Mikasa and their family - The imperial household agency. (Accessed November 13, 2019). 宮内庁. https://www.kunaicho.go.jp/e-about/activity/activity05.html

(٩٩) Empress Michiko Michiko Jōkōgō **الإمبراطورة ميتشيكو** (١٩٣٤) هي الإمبراطورة زوجة أكيهيتو، الإمبراطور ١٢٥ لليابان الذي حكم من ٧ أيار ١٩٨٩ إلى ٣٠ نيسان ٢٠١٩. كانت أول رائدة من عامة الناس تتزوج فردًا من العائلة الإمبراطورية، إضافة إلى أن عائلتها من الروم الكاثوليك، بخلاف عموم الشعب الياباني. لديها ثلاثة أبناء، أشهرهم ابنها الأكبر الإمبراطور ناروهيتو، الإمبراطور الحالي لعرش الأقحوان.

10 things you didn't know about Empress Emerita Michiko. (2020, October 21). Tokyo Weekender. https://www.tokyoweekender.com/2020/10/10-things-you-didnt-know-about-empress-emerita-michiko/

(١٠٠) Emperor Naruhito Reiwa-tennō **الإمبراطور ناروهيتو** (١٩٦٠) أصبح ناروهيتو رسميًا الإمبراطور الـ١٢٦ لليابان اعتبارًا من منتصف ليل الثلاثاء ١ أيار ٢٠١٩ بعد تنازل والده أكيهيتو عن العرش في ٣٠ نيسان ٢٠١٩، لكنّه خلال الاحتفال القصير الذي استمرّ ستّ دقائق فقط، تسلّم الشارات الإمبراطورية المقدّسة التي تضفي الطابع الرسمي على مكانته كإمبراطور وهي سيف ومرآة وجوهرة.

تخرج الإمبراطور الجديد عام ١٩٨٢ بتخصص في التاريخ من جامعة غاكوشوين في طوكيو، وهي الجامعة التي تفضلها العائلة الإمبراطورية اليابانية، قبل أن يدرس لمدة عامين في جامعة أكسفورد في بريطانيا. تزوج الإمبراطور ناروهيتو من الدبلوماسية السابقة ماساكو عام ١٩٩٣، ولديهم ابنة وحيدة هي الأميرة إيكو، والتي لا تستطيع تولي العرش، لأن قانون الإمبراطورية في اليابان لا يسمح للإناث باعتلاء العرش.

Their majesties the emperor and Empress - The imperial household agency. (Accessed November 22, 2019). 宮内庁. https://www.kunaicho.go.jp/e-about/activity/activity02.html

(١٠١) Fumihito, Prince Akishino, Crown Prince of Japan Akishino-no-miya Fumihito Shinnō **ولي العهد الأمير فوميهيتو** (١٩٦٥). هو الشقيق الأصغر للإمبراطور ناروهيتو والابن الأصغر للإمبراطور الفخري أكيهيتو. في تشرين الثاني ٢٠٢٠، تمَّ الإعلان رسميًا عن كونه وريثًا للعرش.

Staff, R. (2020, November 8). Japan formally proclaims Crown Prince Akishino heir to throne. U.S. https://www.reuters.com/article/uk-japan-royals-idUKKBN27O032

(١٠٢) Yoshihito, Prince Katsura Katsura-no-miya Yoshihito Shinnō الأمير يوشيهيتو(١٩٤٨-٢٠١٤) أحد أبناء البيت الإمبراطوري في اليابان، عانى من اعتلال صحته، كان من أصحاب الثقافة العالية ومشجعي العلم.

His imperial highness prince Katsura - The imperial household agency. (Accessed November 22, 2019). 宮内庁. https://www.kunaicho.go.jp/e-about/history/history07.html

(١٠٣) Norihito Prince Takamado Takamado-no-miya Norihito Shinnō الأمير نوريهيتو (١٩٥٤-٢٠٠٢) أحد أبناء البيت الإمبراطوري في اليابان، وكان الرئيس الفخري للعديد من المنظمات الخيرية المشاركة في رعاية التعاون الدولي، أهتم بالموسيقى، والفن، والرياضة.

ROM's Japanese gallery fit for a prince. (2004, June 12). The Globe and Mail. https://www.theglobeandmail.com/arts/roms-japanese-gallery-fit-for-a-prince/article1000211/

(104) A- **Chichibu:** Their imperial highnesses prince and princess Chichibu - The imperial household agency. (Accessed November 22, 2019). 宮内庁. https://www.kunaicho.go.jp/e-about/history/history12.html

B- **Takamatsu:** Their imperial highnesses prince and princess Takamatsu - The imperial household agency. (Accessed November 24, 2019). 宮内庁. https://www.kunaicho.go.jp/e-about/history/history13.html

(١٠٥) Empress Masako Masako kōgō **الإمبراطورة ماساكو** (١٩٦٣) دبلوماسية يابانية تزوجت من ولي العهد الأمير ناروهيتو في عام ١٩٩٣، وأصبحت إمبراطورة اليابان في أيار ٢٠١٩ مع توليه العرش.

Their majesties the emperor and Empress - The imperial household agency. (Accessed November 24, 2019). 宮内庁. https://www.kunaicho.go.jp/e-about/history/history02.html

(١٠٦) Princess Aiko Toshi Toshi-no-miya Aiko Naishinnō **الأميرة إيكو**(٢٠٠١) هي الطفلة الوحيدة للإمبراطور ناروهيتو. في

شباط ٢٠٢٠، تمَّ قبولها في جامعة غاكوشوين Gakushuin حيث تخصصت في اللغة اليابانية وآدابها.

Princess Aiko to enter Gakushuin University in Tokyo in April: The Asahi Shimbun. (Accessed October 7, 2019). The Asahi Shimbun. https://www.asahi.com/ajw/articles/13153124

(١٠٧) الأميرة نوري Nori، ابنة الإمبراطور أكيهيتو Akihito والإمبراطورة ميشيكو Michiko؛ الأميرات ماكو Mako وكاكو Kako، بنات الأمير أكيشينو Akishino والأميرة كيكو Kiko؛ ابنتان من الأمير توموهيتو Tomohito، وثلاث بنات للأمير تاكامادو Takamado.

Imperial household of Japan. (Accessed October 7, 2019). Main Page. https://www.fact-index.com/i/im/imperial_household_of_japan.html

(١٠٨) الأمير هيساهيتو Prince Hisahito Hisahito Shinnō (٢٠٠٦) هو الابن الوحيد لولي العهد الأمير فوميهيتو Fumihito. وهو ابن شقيق الإمبراطور ناروهيتو Naruhito والثاني في ترتيب ولاية العرش بعد والده.

Farah, L. (2020, August 10). Meet the 13-year-old who may be the future of Japan's monarchy. South China Morning Post. https://www.scmp.com/magazines/style/news-trends/article/3096668/meet-japans-teenage-prince-hisahito-13-year-old-former

(109) The Advisory Council on the Imperial House Law. (2005, November 25). Prime Minister of Japan and His Cabinet. https://japan.kantei.go.jp/policy/koshitsu/051124_e.pdf

(١١٠) شينزو آبي Shinzo Abe (١٩٥٤- ٢٠٢٢) سياسي ياباني شَغَل منصب رئيس وزراء اليابان ورئيس الحزب الليبرالي الديمقراطي (LDP) من ٢٠٠٦ إلى ٢٠٠٧ ومرة أخرى من ٢٠١٢ إلى ٢٠٢٠. وهو رئيس الوزراء الأطول خدمة في تاريخ اليابان. شَغَل آبي أيضًا منصب رئيس مجلس الوزراء من ٢٠٠٥ إلى ٢٠٠٦. لفترة وجيزة شغل موقع زعيم المعارضة في عام ٢٠١٢.

"ABE Shinzo." 自由民主党. Accessed January 15, 2021. https://www.jimin.jp/english/profile/members/114608.html.

(١١١) نوبوسوكي كيشي Nobusuke Kishi (١٨٩٦-١٩٨٧) سياسي ياباني شَغَل منصب رئيس وزراء اليابان من ١٩٥٧ إلى ١٩٦٠. وهو جد شينزو آبي لأمه. خدم كيشي في وقت لاحق في مجلس الوزراء في زمن الحرب كوزير للتجارة ونائب وزير الذخائر، كما شارك في توقيع إعلان الحرب ضد الولايات المتحدة في ٧ كانون الأول ١٩٤١.

"Chapter Three Period of President Kishi's Leadership | Liberal Democratic Party of Japan." 自由民主党. Accessed January 15, 2021. https://www.jimin.jp/english/about-ldp/history/104276.html.

(112) Burrett, Tina. "Abe Road: Comparing Japanese Prime Minister Shinzo Abe's Leadership of his First and Second Governments." Parliamentary Affairs, 2016, gsw015. doi:10.1093/pa/gsw015.

(113) Why has Japan become the world's most long-lived country: insights from a food and nutrition perspective. (Accessed October 10, 2019). Nature. https://www.nature.com/articles/s41430-020-0677-5

(114) Sieg, L. (2019, April 29). Explainer: Japan emperor abdication rare but could set precedent. U.S. https://www.reuters.com/article/us-japan-emperor-abdication-explainer-idUSKCN1S524Z

(115) Japanese emperor Akihito 'wishes to abdicate'. (2016, July 13). BBC News. https://www.bbc.com/news/world-asia-36784045

(116) Message from his majesty the emperor: Message from his majesty the emperor (August 8, 2016) (video) - The imperial household agency. (Accessed October 28, 2019). 宮内庁. https://www.kunaicho.go.jp/page/okotoba/detailEn/12#41

(117) In a rare speech, Japan's emperor hints at abdicating. (2016, August 8). NPR.org. https://www.npr.org/sections/thetwo-way/2016/08/08/489138579/in-rare-speech-japans-emperor-hints-at-abdicating

(118) Abdication Updates - By: Dr. Habib Badawi. (Accessed October 29, 2019). =Solidarity with Japan=. https://www.facebook.com/groups/195172373848321/search?q=%20abdicate

(119) Japan's emperor Akihito to abdicate in April 2019. (2017, December 1). NPR.org. https://www.npr.org/sections/thetwo-way/2017/12/01/567681510/japans-emperor-akihito-to-abdicate-in-april-2019

(120) Japan's emperor will be permitted to abdicate. (2017, June 9). NPR.org. https://www.npr.org/sections/thetwo-way/2017/06/09/532187132/japans-emperor-will-be-permitted-to-abdicate

(121) Emperor Naruhito takes the throne, and a new era arrives in Japan (Published 2019). (2019, May 1). The New York Times - Breaking News, US News, World News and Videos. https://www.nytimes.com/2019/04/30/world/asia/japan-emperor-abdicates-akihito-naruhito.html

(122) The imperial household agency. (2021). The imperial house law. 宮内庁. https://www.kunaicho.go.jp/e-kunaicho/hourei-01.html

التحولات الاجتماعية والاقتصادية والمجالية
عند قبائل زيان زمن الحماية


د. المكي الذهبي
دكتوراه في تاريخ الزمن الراهن
جامعة محمد الخامس
الرباط - المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة لنيل الدكتوراه في العلوم الإنسانية
من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
جامعة محمد الخامس بالرباط.

الباحث:	المكي الذهبي
إشراف:	الأستاذ الدكتور الجيلالي العدناني
	الأستاذ الدكتور جمال الكراكز
التخصص:	تاريخ الزمن الراهن
التاريخ:	يونيو ٢٠٢٣
عدد الصفحات:	٥٦٠ صفحة

ينبع اختيار قبائل زيان كموضوع لهذا البحث من اهتمامنا بالتاريخ الاجتماعي المعاصر وبخاصة بعض القضايا المهملة في متونه، وكذا اهتمامنا ببعض الفئات الاجتماعية المهمشة في كتب التاريخ. وعلاوة على ما سبق، جاء اختيار هذا الموضوع في إطار استمرار اهتمامي بمجال وقبيلة زيان، وهو موضوع سبق الاشتغال عليه في سلك الماستر الأمر الذي يسر إمكانية الاطلاع على بعض وثائق الأرشيف الدبلوماسي المرتبط بالفترة الكولونيالية. مثلت هذه المرحلة باعثًا كبيرًا على تجميع المزيد من وثائق الأرشيفات الأجنبية وتعميق البحث في هذا الموضوع، ومقابلتها بما تزخر به الربائد الدفينة في الخزانات الوطنية ومراكز الأرشيف بالمغرب والخارج. فرضت طبيعة البحث كموضوع تتعدد أبعاده الممتدة في الزمان والمكان، ما يمكن تسميته بالتعددية المنهجية. فقد تم الاعتماد على المنهجين الاستنباطي والاستقرائي في التقاط الإشارات المتناثرة وتركيبها لسد الثغرات والبياضات التي يحبل بها الموضوع، وفي الانتقال من الشمولي إلى المحلي أو العكس في الكثير من محاوره. كما اضطرنا موضوع القبيلة، إلى استخدام المنهج التاريخي بهدف تيسير عملية البحث والتفسير لمجموعة من الظواهر الثقافية والاجتماعية والاقتصادية واستخدام المنهج المقارن انطلاقا من إبراز أوجه التماثل والاختلاف، سواء بين القبيلة من جهة والنسيج القبلي المجاور من جهة ثانية، أو بين مكونات القبيلة نفسها.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.355017

كلمات مفتاحية:
قبائل زيان؛ الموارد الطبيعية والبشرية؛ المقاومة والحركة الوطنية؛ المجال الزياني؛ الأعراف الأمازيغية؛ التنظيم الإداري.

مُقَدِّمَةٌ

تتوزع قبائل زيان إلى أربع مجموعات أو شبه اتحاديات استوطنت مجالاً تميز بالتنوع من حيث خصائصه الطبغرافية وغنى موارده الطبيعية، وتقاسمت نفس العادات والأنظمة الاجتماعية، الأمر الذي فسح المجال لعوامل تاريخية وسياسية ساهمت في توحيدها وانصهارها ضمن اتحادية زيان، وهي واحدة من أقوى اتحاديات حلف آيت أومالو. ولعله من المفيد الإشارة إلى أن التقارير والمذكرات الكولونيالية التي اهتمت بتصنيف قبائل زيان، جاءت ناقصة وغير دقيقة، بل ومتضاربة في بعض الأحيان. ويرجح أن هذه التصنيفات التي أنجزها الرحالة الأوربيون وضباط الشؤون الأهلية، قد تمت على عجل وتحت ضغط الدوافع العسكرية. بيد أن نهاية عمليات "التهدئة" في بداية العقد الثاني من عهد الحماية فسح المجال لمراجعة شاملة للبطاقات الخاصة بقبائل زيان، وتحْيين مهم لمكوناتها.

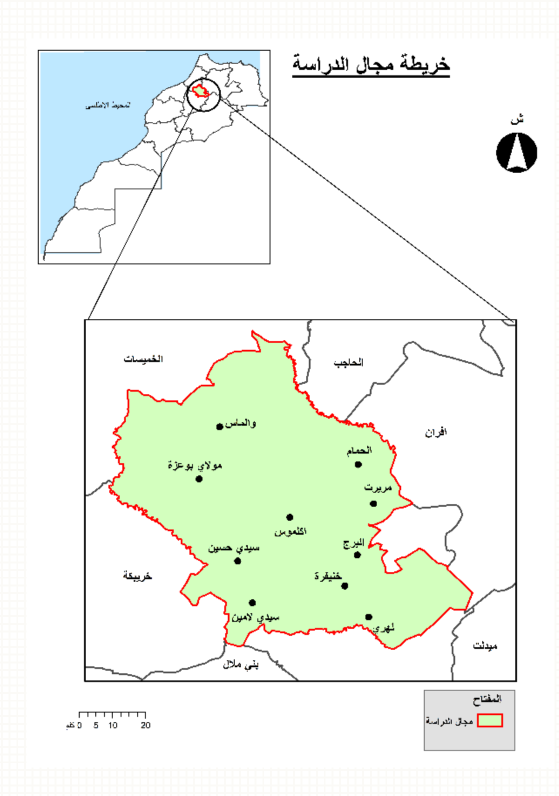
يعتبر استقرار قبائل زيان بمواطنها الحالية حديث العهد، إذ لا يتجاوز ثلاثة قرون. بيد أن تحديد ظروف وصولهم إلى هذا القسم من الأطلس المتوسط والهضبة الوسطى، يعتبر أمرًا صعبًا بالنظر إلى شح المادة المصدرية وضعف المعلومات المتناثرة في بعض النصوص التاريخية. فباستثناء الإشارة التي أوردها إميل لاووس *« E. Laoust »* عن ظهور "إزايان" في المنطقة الممتدة ما بين غريس وأسيف ملول سنة ١٠٠٤م، نكاد لا نجد أثرا لمواطنهم الأولى، ومسار هجرتهم من الجنوب إلى الشمال. لهذا كان لزاما علينا توجيه البحث نحو تاريخ الهجرات القبلية التي عرفها المغرب لتقفي أثر حركية إزايان في المجال، ورصد ظروف وصول الطلائع الأولى من مجموعاتها إلى الأطلس المتوسط والأزغار، نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر الميلادي. وطيلة مسار هذه الهجرة الممتدة في الزمان والمكان، وجدت مجموعة كبيرة من القبائل التي شدت الرحال بشكل جماعي من سهوب الصحراء إلى مراعي الأطلس ضالتها ومبتغاها في هذا المجال الجديد. كانت هذه الكتلة الكبيرة من القبائل تتشكل من زيان وبني آحْسن وزعير وكَروان وزمور وبني مطير وآيت مكَيلد وإشقيرن وآيت مجاط.

وعلى الرغم من وعورة التضاريس وقساوة المناخ تأقلمت قبائل زيان والمجموعات التي رافقتها مع الظروف الطبيعية الجديدة، وهو ما انعكس في اعتماد نمط عيشها على الترحال مع بعض أشكال الاستقرار التي فرضتها ضرورات الزراعة وخزن المحاصيل في المداشر و"تيغرمين". بيد أن النشاط الزراعي في زيان لم يتجاوز دوره كنشاط تكميلي في دورة الحياة الاقتصادية. فعلى الرغم من تعاطي قبائل المنطقة لبعض الزراعات البعلية كالحبوب وزراعات أخرى مسقية، يمكن القول إن ممارسة الرعي ظلت تمثل النشاط الاقتصادي الأساسي لدى الزيانيين وعموم قبائل المغرب الأوسط، وخضعت لحركية مجالية تقوم على التنقل والترحال بين المنطقة الجبلية والأزغار. وعشية الاحتلال الفرنسي للمغرب، كانت قبائل آيت أومالو لاتزال تعيش على وقع الحروب القبلية والعداوات القديمة. غير أن مداهمة القوات الاستعمارية الفرنسية لمجالها القبلي أوقف الصراعات البينية وأرغمها على الاستجابة لدعوات المقاومة والتصدي للاحتلال.

دواعي اختيار موضوع البحث

دوافع ذاتية: الانحدار من جوار منطقة البحث، مما عزز الارتباط بالأمازيغية لغة وثقافة وتراثا، وفرض نوعًا من العرفان بالجميل لثقافة المنشأ التي تعاني من مختلف أشكال الإقصاء والتهميش.

دوافع موضوعية: ينبع اختيار قبائل زيان كموضوع لهذا البحث من اهتمامنا بالتاريخ الاجتماعي المعاصر وبخاصة بعض القضايا المهملة في متونه، وكذا اهتمامنا ببعض الفئات الاجتماعية المهمشة في كتب التاريخ. وعلاوة على ما سبق، جاء اختيار هذا الموضوع في إطار استمرار اهتمامي بمجال وقبيلة زيان، وهو موضوع سبق الاشتغال عليه في سلك الماستر الأمر الذي يسر إمكانية الاطلاع على بعض وثائق الأرشيف الدبلوماسي المرتبط بالفترة الكولونيالية. مثلت هذه المرحلة باعثًا كبيرًا على تجميع المزيد من وثائق الأرشيفات الأجنبية وتعميق البحث في هذا الموضوع، ومقابلتها بما تزخر به الربائد الدفينة في الخزانات الوطنية ومراكز الأرشيف بالمغرب والخارج.



الإطار المجالي للدراسة

يمتد مجال الدراسة على قسم كبير من المغرب الأوسط ليشمل أطراف الشمال الغربي من الأطلس المتوسط وجزء من الهضبة الوسطى. وصلت الطلائع الأولى من قبائل زيان إلى مشارف هذا المجال مطلع القرن السادس عشر الميلادي في إطار هجرة القبائل الصحراوية الصنهاجية والعربية من جنوب المغرب إلى شماله.

إشكالية وأسئلة البحث

لم ينحصر اهتمام هذه الدراسة في مقاربة التحولات التي عصفت بمنطقة زيان وعموم الأطلس المتوسط فحسب، وإنما شملت مجالها القبلي في كل أبعاده الترابية، والطبيعية، والسياسية، والاقتصادية. وقد استوجب رصد مجمل هذه التحولات التي تزامنت مع الاحتلال الفرنسي للبلاد، توجيه البحث إلى قبائل زيان ما قبل الحماية بهدف الوقوف على أوضاعها، وعلاقاتها بالمخزن وبقبائل الجوار. ومن خلال هذه الإشكالية العامة، توخى موضوع البحث الإجابة على مجموعة من الأسئلة يمكن حصرها فيما يلي:

- كيف يمكن مقاربة مجال البحث الذي تواترت بشأنه تسميات مختلفة، وما خصائصه الطبيعية والبشرية في زيان؟ وما مميزات علاقات زيان بالمخزن وبقبائل الجوار؟
- ماهي مميزات الغزو العسكري لبلاد زيان، وما نتائجه على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والمجالية؟
- ما هي سياقات ومراحل نشوء الحركة الوطنية في زيان؟ وكيف تم تطبيق سلطة المراقبة وتثبيت القبائل في المجال؟
- إلى أي حد ساهم التنظيم الإداري الفرنسي في ضبط ومراقبة قبائل زيان ورسم حدود مجالها الترابي والإداري؟

المنهج المعتمد

فرضت علينا طبيعة البحث كموضوع تتعدد أبعاده الممتدة في الزمان والمكان، ما يمكن تسميته بالتعددية المنهجية. فقد تم الاعتماد على المنهجين الاستنباطي والاستقرائي في التقاط الإشارات المتناثرة وتركيبها لسد الثغرات والبياضات التي يحبل بها الموضوع، وفي الانتقال من الشمولي إلى المحلي أو العكس في الكثير من محاوره. كما اضطرنا موضوع القبيلة، إلى استخدام المنهج التاريخي بهدف تيسير عملية البحث والتفسير لمجموعة من الظواهر الثقافية والاجتماعية والاقتصادية واستخدام المنهج المقارن انطلاقا من إبراز أوجه التماثل والاختلاف، سواء بين القبيلة من جهة والنسيج القبلي المجاور من جهة ثانية، أو بين مكونات القبيلة نفسها. ويبقى المنهج التاريخي خيطًا ناظمًا لحدود وتداخل المناهج المعتمدة وانفتاحها على بعضها البعض.

مصادر البحث

المصادر المغربية:

الوثائق الرسمية، ومنها وثائق مديرية الوثائق الملكية بالرباط (رسائل سلطانية)، ووثائق الخزانة الحسنية بالرباط، ووثائق الجريدة الرسمية (ظهائر شريفية وقرارات وزيرية).

مصادر ومراجع مغربية مختلفة، ويندرج معظمها في كتب الحوليات التاريخية التي يكاد ينحصر اهتمامها في التأريخ للأسر التي تعاقبت على الحكم، لكن مع ذلك وجدنا في حديثها عن الانتفاضات القبلية ما يفيد البحث ويضيء بعض العتمات في موضوعاته.

المصادر والمراجع الأجنبية

الوثائق الأجنبية: شكلت التقارير والمستندات التاريخية المحفوظة في الأرشيفات الفرنسية مرجعا أساسيا لهذا البحث، وبالأخص منها وثائق الأرشيف الدبلوماسي في نانت *«Nantes»* الفرنسية، ووثائق أرشيف المغرب بالرباط.

تقارير الرحالين والمستكشفين والضباط الفرنسيين:

شكلت أعمال التعرف والاستطلاع التي أنجزها العديد من الرحالين والسفراء والمبشرين الأوربيين مادة مصدرية مهمة، وكان من أبرزهم كيدنفيلد *« M.Quedenfildt»* وشارل دوفوكو *«Ch. De Foucauld »* ودوسيكَونزاك *«R. de Ségonsac»* وغيرهم ممن توافدوا على بلاد زيان منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

يعود أول اتصال للضباط الفرنسيين بقبائل زيان، من جهة تخومها الغربية، إلى سنة ١٩١٠. فقد ذكر الضابط فلاي سانت-ماري أنه كان على اتصال مع القائد العياشي بمركز مولاي بوعزة خلال هذه السنة، ومع خلفه القائد الشريف الشرقي بن علي الذي قدم له خدمات مهمة كمخبر ومرشد في جولات الاستطلاع والتعرف على المنطقة. وانطلاقًا من مكتب الشؤون الأهلية بمركز مولاي بوعزة، أنجز بول أودينو *« Paul Odinot »* عددا من الدراسات حول بلاد زيان، ولعل أبرزها، في تقديرنا، تلك التي اتخذت من مدينة عوام وقلعة مدينة الكَارة الأثرية موضوعا للبحث والتنقيب سنة ١٩٢١، بتوجيه من هنري دوكاستري *«H.de Castries»* الذي كانت في حوزته العديد من المخطوطات.

يطول المقام لعرض كل الأعمال المنجزة من طرف ضباط الشؤون الأهلية، بيد أنه من المفيد الإشارة إلى الدور الكبير الذي لعبه بعض المستعربين منهم، فضلا عن آخرين تعلموا الأمازيغية كلغة ضرورية للتواصل مع الأهالي في مناطق تعيينهم، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر روبير أسبينيون *«Aspinion R.»* و فيكتوريان لوبينياك *«Victorian Loubignac»*، والقبطان سعيد كَنون *«Guennoun S.»* ورايموند بيروني *«Peyronnet R.»*. ولعله من المفيد الإشارة إلى أن المجال يضيق بعرض كل المنوغرافيات والدراسات الأجنبية التي نهلنا منها بعين ناقدة في إنجاز هذا البحث، وفي مقدمتهم فرانسوا بيرجي والجينرال كَيوم وآخرين.

الدراسات السابقة للبحث

حظي موضوع زيان، كقبيلة وكمجال، باهتمام ثلة من الباحثين المغاربة والأجانب الذين ساهموا في دراسة منطقة زيان في رسائلهم وأطروحاتهم الجامعية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- أطروحة الأستاذ محمد بن لحسن الصادرة باللغة الفرنسية والموسومة ب "المقاومة المغربية للتسرب الفرنسي في بلاد زيان (١٩٠٨-١٩٢١).
- رسالة الأستاذ المالكي الملكي بعنوان "الغزو الاستعماري ومقاومته في تادلا والأطلس المتوسط".
- أطروحة الأستاذ إدريس أقبوش بعنوان "قبائل زيان خلال فترة الحماية- دراسة اجتماعية واقتصادية".
- أطروحة الأستاذ جواد التباعي بعنوان: " نماذج من التراث الثقافي ببلاد زيان من العصر الوسيط إلى الزمن الراهن: دراسة وتثمين".
- أطروحة الأستاذ عبد العزيز بودرة بعنوان "القضاء العرفي بالمغرب خلال عهد الحماية الفرنسية ١٩١٢-١٩٥٦م".
- أطروحة الأستاذ عبد القادر اسويدي بعنوان التحولات الفلاحية في مجال بني مكَيلد الشمالية منذ ١٩٧٠ وأثرها على تدبير الموارد الطبيعية.
- أطروحة الأستاذ إبراهيم ياسين بعنوان آثار التغلغل الفرنسي في جنوب الأطلس الكبير، نموذج مجموعة قبائل آيت واوزكَيت (١٩١٢-١٩٣٩).

وفي إطار رصد وتتبع عمليات الاستطلاع الأولى لبلاد زيان، كان لنا شرف الاطلاع على الدراسة القيمة للأستاذ الجيلالي العدناني حول الصحراء، والاسترشاد بمجموعة من وثائق الأرشيف الفرنسية التي أرخت لتمثيل مجال زيان في الأعمال الخرائطية مع حرصنا الشديد على النهل من نصوص الاستوغرافيا المغربية التي اهتمت بالمنطقة الجبلية، فكان في صدارة هذه الكتابات مساهمات الأستاذ محمد الناصري حول الجبال المغربية ومحمد أدرغال وغيرهما.

أفادتنا أيضًا في إنجاز هذا البحث العديد من الأطروحات الأجنبية التي تناولت بالبحث والدراسة منطقة الأطلس المتوسط أو إحدى قبائلها، وأطروحات أخرى تناولت في سياق موضوعها أو بشكل جزئي قبائل زيان ومجالها الترابي، ومنها على الخصوص:

- أطروحة الأستاذ كَاستون بودي *«Beaudet G.»* في الجغرافيا حول قبائل بني مكَيلد الشمال.
- أطروحة الأستاذة أوريليا دوسير *«Aurélia D.»* في التاريخ حول الأطلس والتعرف على المغرب.
- أطروحة الأستاذ مِيكاييل بيرون *«Peyron,M.»* حول منطقة تونفيت وبلاد آيت يحيى.

خطة البحث

انطلاقًا من الإشكالية الأساس التي أشرنا إليها أعلاه، والتساؤلات التي تفرعت عنها، ارتأينا تقسيم البحث إلى ثلاثة أقسام موزعة إلى ستة عشر فصلا على النحو التالي:

القسم الأول: وتم تخصيص فصوله الأربعة، للتعريف بالإطار الجغرافي والبشري العام لموضوع البحث، وأوْلينا فيه اهتماما خاصا بخصائص بلاد زيان الطبيعية مع التركيز على فازاز كمجال احتضن مواطن قبائل زيان وعموم آيت أومالو. كما أولينا لجانبه الطوبونيمي حيزًا من الرصد والتتبع. وبخصوص الإطار البشري، حاولنا تقديم صورة مركزة عن المكونات القبلية لزيان كاتحادية كبيرة، وذلك وفق مقاربة استحضرت علاقتها بالمجال. وقد استلزم هذا المنظور البحث في جذور القبيلة وتتبع مسار هجرتها من الجنوب إلى الشمال، وصولاً إلى مواطنها التي حطت فيها الرحال، مع ما تخلل هذه اللمحة التاريخية، من رصد لطبيعة ومسار علاقاتها بالسلطة المركزية خلال العهد العلوي.

القسم الثاني: وخصصنا فصوله الستة لدراسة بعض الجوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية في زيان. وتناولنا فيها رغم شح المادة المصدرية الإنتاج الزراعي والنشاط الرعوي، إضافة إلى إبراز نقط الضعف والقوة فيهما. كما خصصنا حيزا من هذا القسم، لدراسة جوانب من الحياة الدينية والاجتماعية، ومنها على الخصوص مكانة الشرع والعرف، ومكانة

الشرفاء في القبيلة، فضلاً عن مختلف المؤسسات والأوفاق التي كانت ترعى هذه الجوانب الروحية.

القسم الثالث والأخير: وتوزع إلى ستة فصول تناولنا فيها الغزو الفرنسي لمنطقة ورد فعل القبائل الزيانية عبر المقاومة العسكرية التي أبلت فيها بلاء مشهودا له، وعبر العمل الوطني السياسي. وبذلك تناولت فصول هذا القسم مراحل التدخل العسكري الفرنسي في زيان والأطلس المتوسط، واندلاع المقاومة الزيانية بقيادة موحا اوحمو. وبقدرما حاولنا إبراز مختلف وسائل الغزو وآليات الإخضاع التي نهجتها قوات الاحتلال الفرنسي، سعينا كذلك إلى رصد وتتبع أشكال المقاومة الزيانية التي استبسلت في الدفاع عن القبيلة وعن مجالها الترابي الذي تم تقطيعه إلى وحدات إدارية من دوائر ومكاتب وملحقات.

وفي محاولة لإبراز دور الجبال المغربية في الدود عن استقلال البلاد، ومساهمة زيان وقبائل الجوار في كسر طوق الحصار والتهميش، ارتأينا إنهاء هذا البحث بفصل خاص بالحركة الوطنية المحلية في محاولة لرصد وتتبع نشوئها، وانخراط نخب وأعيان من زيان والقبائل المجاورة في العمل الوطني.

أهم خلاصات البحث

- أكد البحث على أهمية المنطقة الجبلية في تاريخ المغرب، ليس لكونها الخزان الرئيس للمياه فحسب وإنما شكلت كذلك خزانا ديمغرافيا في أحلك الفترات التي مر منها المغرب من جوائح وحروب وكوارث.
- شكلت جبال زيان وبسائطها وجْهة لتوافد مجموعات من خارج إطار القبيلة، سواء للاستقرار فيها أو للعبور إلى وجهات أخرى، وكان ضمنها مجموعة من الشرفاء والمرابطين والزوايا القادمين من الصحراء.
- عكست حركة الانتجاع التي انتظم في إطارها إيقاع تنقل القطعان تنوع المجال الزياني وتكامل قسميه الجبلي والهضبي. بيد أن سياسة الحماية القائمة على المراقبة والتضييق على هذه الحركية سرعت إلى حد بعيد من وتيرة التحولات التي شملت تدبير المراعي وبروز أشكال من الاستقرار ببعض المراكز.
- لم ينحصر إسهام بلاد زيان وعموم المناطق الجبلية، خلال تصديها للغزو الاستعماري، في المقاومة المسلحة فحسب، بل كان لها إسهام كبير كذلك في المقاومة السياسية عبر العمل الوطني الذي لم يكن حكرًا على كبريات الحواضر والمدن كما يشاع.
- على الرغم من الضغوط الهائلة التي مارستها سلطات الحماية على القواد الزيانيين في بداية الخمسينيات، لم تنقطع جسور اتصال هؤلاء الأعيان بالسلطان. ولعل الاستمرارية التي ميزت هذه العلاقة كانت أحد الأسباب التي جعلت بعض قياد إمحزان يوضعون تحت المراقبة والتتبع للاشتباه في علاقتهم بقادة الحركة الوطنية والمحلية.

التراث المائي بواحات وادي نون
مقاربة تاريخية وإثنوغرافية



د. بنطالب مولود
دكتوراه في التاريخ والتراث
جامعة محمد الأول
وجدة - المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة دكتوراه ضمن تكوين " التراث الثقافي والتنمية"، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول- وجدة (المغرب)، نوقشت بتاريخ ١١ فبراير ٢٠٢٣.

الباحث:	بنطالب مولود
إشراف:	الأستاذ الدكتور النشيوي العربي
التخصص:	التراث الثقافي والتنمية
التاريخ:	فبراير ٢٠٢٣
لجنة المناقشة:	الدكتور بنقدور بن يونس الدكتور أوري لحسن الدكتور مقبوب إدريس الدكتور الكتاني سيدي محمد

أنجزت هذه الأطروحة ضمن تكوين الدكتوراه" التراث الثقافي والتنمية"، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، التابعة لجامعة محمد الأول- وجدة، والتي حضرها الطالب الباحث بنطالب مولود، تحت الإشراف الدكتور العربي النشيوي (جامعة محمد الأول- وجدة). وناقشها كل من السادة الأساتذة الأفاضل، الدكتور بنقدور بن يونس (جامعة محمد الأول بوجدة- رئيسًا) والدكتور أوري لحسن (جامعة سيدي محمد بن عبد الله سايس بفاس- مقرراً) والدكتور مقبوب إدريس (جامعة محمد الأول بوجدة- مقررًا) والدكتور الكتاني سيدي محمد (جامعة سيدي محمد بن عبد الله سايس بفاس- مقررًا)، وذلك يوم ١١ فبراير ٢٠٢٣م، في الساعة العاشرة صباحا بقاعة نداء السلام بمقر الكلية. اِستغرقت المناقشة مدة أربع ساعات كاملة، وبعد تداول لجنة المناقشة برئاسة الدكتور (بنقدور بن يونس)، قررت منح الطالب الباحث (بنطالب مولود) شهادة الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية، تخصص: التاريخ والتراث، بميزة مشرف جدا، وبحضور نائب العميد ومنسق قطب الدكتوراه (الدكتور عبد الجبار المديوني). من حسنات هذه الأطروحة جمعُها بين تخصصيين (التاريخ- التراث والفولكلور والثقافة الشعبية). ويحتوي هذا البحث على أربعة ملاحق (المخطوط- الوثائق المحلية- نوبات الماء- الأضرحة). وقارئ هذه الأطروحة، يرى أن العمل المنجز كله بحث ميداني بالكامل، يضم في متنه صور وخرائط ومئة وثيقة عرفية لملكية الماء والأرض، وتخريج مضمونها إلى الخط الواضح والمقروء، مما يضعنا أمام أطروحة أكثر مصداقية وواقعية في تحضيرها.

كلمات مفتاحية:
التراث المائي؛ واحات وادي نون؛ الجنوب الغربي المغربي؛ مقاربة تاريخية وإثنوغرافية.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.263125 doi

مُقدِّمَة

تتناول أطروحة التراث المائي بواحات وادي نون، أهم الجوانب التاريخية والإثنوغرافية لقضايا الماء. وقد تحكم في عملية اختيار الموضوع، عوامل ذاتية تمثلت في واقع المجال وثقافته الشعبية التي أثرت وأنا أتجول في واحات وادي نون، حيث تتقاطع وتتداخل أمور مختلفة تاريخية أو طبيعية أو بشرية أو ثقافية شعبية، ومن ذلك مثلا: المجال الواحي الوادنوني بتراثه المائي وعاداته الاجتماعية، كما تتجاوز الآثار التاريخية القديمة كأطلال أَكْويدِرْ، وتَكَمِي أُوكْلِيدْ (دار السلطان)، ونُولْ لَمْطَة وتَكَاوسْت، وقصبة أُوخْدَادُوا، وقصبة إرزْ، وقصبة تَاَلْعِينتْ، و المخزن الجماعي إدْعِيسَى، و أَكْلَوِي وقلعة فاصك المبنية بالتراب

المدكوك. ويتداخل في مجال وادي نون أيضا نمطي عيش مختلفان، وهما الاستقرار (أهل القَصْرْ) والترحال (أهل العْرَبْ)، فترى المستقرين متشبثين بمجالهم الحيوي، والرحل الذين ينتجعون بقطعانهم نجعات كبيرة أو صغيرة، ولا يساورهم شك أنهم سيعودون إلى الواحة التي تعني لهم أكثر من مجرد نخيل ومكان للرعي.

وتتعايش في المجال ثقافتان (الأمازيغية والحسانية)، فتسمع أحد السكان يتحدث لهجة تَشَلْحيتْ بطلاقة، وآخر يتكلم الحسانية بفصاحة، وثالث يتكلم بهما معا. فكنت وأنا أتجول بين حقول واحات وادي نون، وألتقي بسكانها، يدفعني الواجب والفضول لكتابة تاريخ تراثها المائي، وتتبع صيرورة تشكل تقنياتها، وتفكيك تداخل طقوسها وعاداتها الاجتماعية، حتى تتضح أهمية الماء كعنصر أساسي للحياة وندرته في الواحات، مما يتطلب تدبير استغلاله بواسطة تقنيات مختلفة.

دوافع اختيار الموضوع

لم تَطغ العوامل الذاتية على موضوع الأطروحة، بل كانت العوامل الموضوعية أقوى، فانطلقت من طرح مجموعة من الأسئلة فرضتها إشكالية البحث، كان أولها طبيعة العلاقة بين الماء ومجتمع واحات وادي نون؟

قد يكون الجواب عن هذا السؤال بديهيا وهو محاولة فهم هذه العلاقة، من خلال وضعها في سياقها التاريخي، والاجتماعي، والإثنوغرافي، والاقتصادي على وجه التحديد. لكون أغلب الواحات تعتمد في اقتصادها بالدرجة الأولى على الماء بمختلف أشكاله، وبالتالي فإن طرق استعماله، وتوزيعه تخضع لقوانين اجتماعية صارمة، تتحدد وفق البُنى القبلية السائدة بالمجال. كما قد يوحي السؤال أعلاه أن بحث الأطروحة سيتجه في إطار العلاقة بين الماء ومجتمع الواحة، وهي الثنائية التي ركزنا عليها من خلال دراسة مختلف الأعراف القبلية، التي تعتبر الإطار القانوني الذي على ضوئه يتم استعمال واستغلال الماء في واحات وادي نون، كما أن موضوع الماء بشكل عام يثير العديد من القضايا حول مصادر المياه وطرق استغلالها ومجالات استعمالها، وبتعدد أنواع مصادر تلك المياه تتعدد طرق استعماله وتوزيعه في واحات وادي نون.

الصعوبات

اعترضت الباحث مجموعة من المشاكل والصعوبات أثناء إنجاز هذا البحث منها:

مشكلة جمع الوثائق المحلية التي بحوزة ساكنة واحات وادي نون، وصعوبات تخريج الوثائق المحلية إلى الخط الواضح والمقروء، بالإضافة إلى امتناع بعض الفلاحين عن الإجابة أثناء المقابلة الشفوية، خاصةً فيما يتعلق بتقنيات توزيع نوبات الماء بين المالكين لها.

١-الإشكالية وفرضيات الأطروحة

سعى مولود بنطالب من خلال أطروحته إلى تناول مشكلة الماء وعلاقته بمجتمع الواحة من جهة، وإلى قضايا أخرى تتعلق في جوهرها بالإطار الجغرافي للمجال المدروس، وأهمية مخزونه من الماء عبر التاريخ، باعتبار الماء هو مدار الحياة التي ترتكز عليه معظم الأنشطة الاقتصادية في الواحات. كما يشد النسيج الاجتماعي للقبائل، بالرغم من الصراعات التي كانت تنشب بين الفينة والأخرى حول الأحقية والأهلية في تملك استعمال واستغلال الماء، وكذا الصراع بين سكان السافلة وسكان الأعالي فيما يتعلق بحصص كل طرف في استغلال الماء.

ويساهم هذا الموضوع في إثارة جملة من القضايا الأخرى، منها رصد أهم المكونات القبلية بهذه الواحات؛ في إطار علاقتها بموضوع الماء، وبما أن المجال يعتبر موطنا لقبائل مستقرة وأخرى مترحلة، وقبائل مالكة لحصص الماء (النَوْبَة) وقبائل لا تملكها، فإن من شأن هذا التباين بين المالكين والمستغلين أن يثير العديد من القضايا المتعلقة بكيفية وكمية الاستغلال. إن مقاربة الماء وعلاقته بمجتمع الواحات، لا يمكن أن تتم بمعزل عن ملكية الأرض، سواء كانت هذه الملكية فردية أو جماعية أو سلالية، على اعتبار أن هناك من مالكي الأراضي الفلاحية المسقية بالواحات من لا يملك حصص الماء، مما سيجعلنا نثير نقطة مهمة تتعلق بالأساس بالتكافل الاجتماعي في إطار المنفعة المتبادلة في تدبير الماء بين الأقطاب الثلاثة: ملكية الأرض وملكية الماء وملكية الأرض والماء معا.

كما سنتناول في هذه الأطروحة الخريطة المائية لهذه الواحات، ومنشآت الري فيها، وكذا الآليات المبتكرة من طرف مجتمع الواحة المتعلق بنظام السقي، لمقارنتها بما كان سائدا من الوسائل التقليدية التي اعتمد عليها سكان الواحة سواء في عملية التوزيع أو الاستغلال، والتي كانت من إرث النظم البدائية العتيقة. ولتوضيح دور الماء بشكل أكثر ارتأينا كذلك إثارة موضوع طبيعة العلاقة بين مجتمع الواحة والطقوس المائية، فساعدنا ربط الموضوع بهذا المحور في إطار الدراسة الشمولية التوقف عند

الثقافة الشعبية، واستثمارها بما فيها من عادات اجتماعية وطقوس مائية كانت تمارس في واحات وادي نون. فإن المرغوب في مثل هذه الدراسات مقاربة موضوع الماء من زاوية تاريخية وإثنوغرافية شمولية، نسعى من ورائها وضع الموضوع في سياقه التاريخي الذي يجمع بين مختلف مكونات وتمفصلات الاجتماعية والقبلية لمجتمع الواحات.

من هذا المنطلق يبدو أن معالجة هذه الإشكالية يجعلنا نطرح العديد من التساؤلات على الشكل الآتي:

- إلى أي حد استوعب المجتمع الوادنوني أعراف وقوانين الماء؟
- كيف يتم توزيع الماء داخل واحات وادي نون؟
- كيف يمكن تحديد المستفيدين من الدورة المائية؟
- هل تملك الأرض يوازيه امتلاك الماء؟
- هل يحق للقبائل الرحيلة التي ترتاد هذه الواحات الانتفاع بالماء أو تملكه عن طريق الشراء أو الرهن؟
- ما دلالات الطقوس المائية التي تمارس داخل واحات وادي نون؟

٢-منهج الأطروحة

يستعصي على الباحث الذي يريد الخوض في التراث المائي بواحات وادي نون وعلاقته بالمجتمع، اختيار مقاربة منهجية وحيدة قد تمكنه من ملامسة مختلف القضايا والإشكالات التي يثيرها موضوع الماء وعلاقته بمجتمع الواحات، واستناداً إلى مختلف المعلومات التي توافرت لدينا حول الموضوع، فإن المنهج التاريخي التحليلي التركيبي هو الذي يمكن من خلاله تناول هذا الموضوع، ولكن بعد تدقيق النظر يتضح أن مثل هذه المواضيع تفرض على الباحث تجاوز هذه النظرة إلى هذا الموضوع من هذا الجانب، وبالتالي فإن مقاربات منهجية أخرى أكثر شمولية تُفرض على الباحث أثناء جمع وتحقيق المعلومات.

إن موضوع التراث المائي بواحات وادي نون، يمكن مقاربته من زوايا نظر مختلفة، ولكنها متكاملة في آن واحد، فعملية الوصف التي اعتمد عليها العديد من الباحثين أصبحت متجاوزة إذا لم يتم تدعيمها بمناهج أخرى أكثر دقة وشمولية، لذلك فموضوع التراث المائي بواحات وادي نون يتطلب من الباحث تبني منهج تاريخي. كما أن عملية تركيب المعلومات، سواء وفق ترتيب كرونولوجي أو موضوعاتي، يعتبر مطلبا أساسيا ومنهجا لا يمكن تجاوزه في هذا الإطار، غير أن هذين المنهجين لا يعدوان أن يكونا اجترارا للدراسات السابقة حول الموضوع، ولتجاوز هذا النقص لابد من وضع كل المعلومات حول التراث المائي في سياقها التاريخي والاجتماعي على وجه التحديد، وذلك في مسعى للإجابة عن مختلف الإشكالات التي يطرحها ويثيرها.

فلا مناص إذن من مقاربة الموضوع من زوايا النظر التحليلية من أجل إعطاء الحدث أو المعلومات بعدها التاريخي والاجتماعي، وتماشيا مع هذا التوجه الذي يفرضه موضوع الأطروحة فإن عملية التركيب والتحليل قصد الاستنتاج تعتبر في نظرنا مقدمة لفهم موضوع التراث المائي وعلاقته بمجتمع الواحات في مجال وادي نون. كما اعتمدنا أيضا على المنهج الإثنوغرافي لما يتح هذا المنهج من آليات كفيلة بتسليط المجهر على الثقافة الشعبية (الطقوس المائية والعادات الاجتماعية) التي تمارس بواحات وادي نون.

٣-المادة المصدرية المعتمدة

لقد وظفت في الأطروحة مادة مصدرية متنوعة، أهمها: المخطوطات والوثائق المحلية، وكتب الرحلات والتواريخ، و الكنانيش، وقد لجأنا في مرات عديدة إلى المتون الشفوية. فكان كل نوع من هذه الأنواع يكمل الآخر، وفي حالة وجود تضارب بينهما، اعتمدنا على مقابلة بعضها ببعض، وترجيح الأكثر ثقة، ويمكن تصنيف المصادر كالتالي:

* المخطوط
* العقود.
* كتب التواريخ.
* كتب الرحلات.
* الدراسات الأجنبية.

٤-التحري الميداني

يكتسي التحري الميداني في مجال الدراسات التاريخية أهمية كبيرة في معرفة المجال المدروس، ولا تقل الأهمية والمشقة عن عملية البحث عن المصادر أو جمع الروايات الشفوية، وهذا التحري الميداني غالبا ما يتم بشكل متوازي مع جمع الروايات من عين المكان، والهدف من هذا التحري هو اكتشاف واحات وادي نون ومعرفة تراثها المائي، كما أن من حسنات هذا التحري هو الوقوف عن كثَب على أهم المنشآت المائية بهذه الواحات، وينابيعها ومصادرها وطرق استغلالها عن طريق السواقي.

ويتطلب التحري الميداني مجهودا عضليا وفكريا، من أجل التأكد من مختلف المعلومات التي وردت في بعض الكتابات الأجنبية حول موضوع الماء في واحات

وادي نون، مع العلم أن هؤلاء الكتاب الأجانب اعتمدوا نفس الأسلوب في جمع المعلومات حول هذه الواحات، والمعتمد أساسا على التحري الميداني وجمع الروايات.

تعتبر الرواية الشفوية من أهم أدوات المؤرخ والباحث في الدراسات الميدانية، فهي تمكن من استجلاء بعض الغموض والعبارات الغامضة التي ترد في معظم الوثائق، ومرد ذلك لغة تلك الوثائق التي يكتبها عادة الفقهاء أو أرباب الزوايا، والتي هي خليط من اللغة العربية والعامية المحلية، والتي لا تعير أي اهتمام لجمالية الأسلوب وقواعد اللغة العربية، كما أنها تتضمن بعض الأعلام البشرية والجغرافية المحلية، والتي لا يمكن فك مضمونها إلا بالاستعانة بكثرة الرواة.

لكن الاستعانة بالرواية الشفوية يتطلب من الباحث الإلمام بلسان القوم ومعرفة البلاد وعاداتهم وتقاليدهم، وهذه الأمور تساعد الباحث على الاقتراب أكثر من المستجوبين وخلق علاقات حميمية معهم. ونظرا لخصوصية الخريطة القبلية لمجال وادي نون، والتي تتوزع بين قبائل تتكلم اللغة الحسانية، أي لغة بني معقل، وقبائل تتكلم اللغة الأمازيغية أو هما معا، فإن عدم الإلمام باللسانين معا قد لا يمُكن الباحث من التواصل ومن تم الحصول على معلومات هامة حول موضوعه، أو أنه قد لا يفهم كلام المستجوب على غير حقيقته، وبالتالي تحريف الحقائق عن غير قصد. أما عن منهجية تقصي الحقائق من أفواه الرواة، فاعتمدنا في هذا الجانب على الاتصال المباشر بالرواة الذين لهم دراية بموضوع التراث المائي، سواء كانوا ملاكا أو مستغلين أو متصرفين في أملاك الغير عن طريق الوصاية، ويعد كبار السن من أعيان القبيلة أو الخماسين، كفئة مستهدفة أثناء جمع الروايات.

٥-الخرائط والصور

تعد الخرائط والصور الدليل الذي يهتدي إليه القارئ قصد الوقوف عند جغرافية البحث، ومعرفة التراث المائي الذي تناولته الأطروحة المنجزة.

٦-حدود الدراسة

* **الضابط الزماني** : (١٨٢٣ إلى ١٩٥١م).

* **الضابط المكاني** : واحات وادي نون (تِغْمَرْتْ وأَسْرِيرْ وتَارْمِكِيسْتْ وفَاصْكْ وتَارْكَا وَسَايْ ولقْصَابِي وتِيسْكْنَانْ وتَكَانْتْ وتِيمُولَايْ وإِفْرَانْ الأَطْلَسْ الصغير وأَدَايْ وأَمْتضِي وتَغَجِيجْتْ وازْرِيول وازْرِيويلَة ووَاعْرُونْ وتَايْسَا وأَفَرْكط ولَبْيَارْ وأَبَايْنُو وتُوتْلِين وإِمِي نْفَاستْ وتَيْدلتْ وتِكْلِيتْ).

* **الضابط البشري** : أَزْوَافِيط وأَيتْ خمّاد واصْبُويَا وأَيتْ لحْسَنْ وإِدَا أُومَسْتَرْ وأَيتْ بْرَايمْ وأَيتْ بْرَاهِيمْ وأَيتْ يَاسِينْ وأَيتْ مُوسَى عْلِي وأَيتْ بُوهُو وأَيتْ بُوعْشرَة وأَيتْ زَكْرِي.

٧-محتويات الأطروحة

قمنا بتقسيم بحث الأطروحة إلى مقدمة، وخمسة فصول، وخاتمة عامة وملاحق.

تَحدثُ في **الفصل الأول إلى دلالة التسمية وادي نون** والاختلاف الحاصل حوله، وإشكالية هذا المعنى كما تناولته العديد من المصادر والدراسات العلمية، نتيجة الغموض الذي اكتنف هذا المصطلح التاريخي الجغرافي. كما ناقشنا أيضا في الفصل بالتحليل والدراسة مجتمع الواحة من خلال المجموعات البشرية التي تتكون منها واحات وادي نون، من حيث مظاهر الحياة البدوية للمجتمع الوادنوني، بالإضافة إلى الوقوف عند نقطة أخرى بخصوص هذا المجال تتمحور حول المداشر والقصبات التاريخية الوادنونية.

أما الفصل الثاني فقد تحدثُ فيه عن خريطة **الموارد المائية** التي تتكون منها واحات وادي نون، كالأودية والعيون والآبار، وكيف ساهمت هذه الموارد في انتعاش المجال الواحي الوادنوني فلاحيا، وفي تعمير الواحات بشريًا.

أما الفصل الثالث الذي خصصناه للحديث عن التدبير **الاجتماعي للموارد المائية** داخل واحات وادي نون، وقد ميزنا مختلف الوسائل المستعملة من طرف المجتمع الواحي الوادنوني في قسمته وتوزيعه للماء بين ذوي الحقوق والمستفيدون من نوباته، وحاولنا تفسير هذه التقنيات التي يلجأ إليها الفلاح الوادنوني في استعمال واستغلال الماء.

وفي الفصل الرابع عملنا على الوقوف عند **المقاربة الإثنوغرافية للطقوس المائية بواحات وادي نون**، التي تعمل على رسم صورة ذهنية للثقافة الشعبية للمجتمع الواحة. كما كان هذا الفصل أيضا مناسبة للتطرق إلى العادات الاجتماعية التي تُقام داخل واحات وادي نون، كما قدمنا بعض المعلومات عن الأضرحة التي لعبت أدوارً رمزية في المجال الواحي الوادنوني.

ودرسنا في الفصل الخامس والأخير الأملاك المائية التي تحتوي عليها كنانيش واحات وادي نون. خاصة الصفحات العدلية التي تثبت استعمال واستغلال ملكية الماء والأرض داخل هذا المجال الواحي. كما ناقشنا

فيه الاعتبار التاريخي والاقتصادي للكنانيش وخصائصها، وعلى ضوء الإشكالية التي تمت مناقشتها، خرجت هذه الأطروحة بخاتمة عامة عبارة عن مجموعة من النتائج والاستنتاجات.

٨-خاتمة عامة

إن دراستنا للتراث المائي بواحات وادي نون، تبين لنا أن الماء لازال مصدر الحياة بالنسبة لسكان واحات وادي نون. لاسيما أن المنطقة شبه جافة وتعرف درجات حرارة مرتفعة في فصل الصيف، تجعل الحياة مستحيلة في ظل غياب الماء، فبالأحرى إقامة أنشطة زراعية. وتتوفر واحات وادي نون على مصادر متنوعة للماء كالأودية، خاصة واد واركنون وواد صياد، والعديد من الآبار، لكن أهم مصدر للماء هو العيون التي تعد الشريان الذي يضخ الحياة في الواحات، واعتمد مجتمع الواحة على تقنيات عتيقة لاستعمال الماء في ممارسة أنشطتهم الزراعية، كما يثير الماء مشكلات عديدة بين قبائل الواحة فيما بينها، وفيما بين الواحات المجاورة، مشكلات حول أحقية استغلال الماء والنسبة المستحقة لكل واحة.

وتُعَدّ الملكية الفردية للماء هي السائدة في واحات وادي نون، حيث تخضع هذه الملكيات لكل الإجراءات الشرعية والقانونية التي تخضع لها الممتلكات الأخرى، من حيث التوريث والبيع والكراء، والشراء، والرهن، فللمالك كامل الصلاحية في التصرف في الماء تصرفا مطلقًا. ويتضح من خلال مقاربة التراث المائي بواحات وادي نون، أن مجتمع الواحة كان نتاجا لمجموعة من العلاقات التي ساهمت في تشكل بنياته الثقافية والاقتصادية. فكانت العلاقة بين المجال والإنسان من هذه العلاقات، إذ تميز وادي نون بخصوصيات طبيعية هامة، كالموقع الاستراتيجي بين سوس والصحراء، والمناخ الملائم نسبيا، فاستقطب المجال منذ عصور طويلة مجموعات بشرية متلاحقة، كانت أولها المستقرون (أهل القصر) الذين استثمروا خصوصيات وادي نون للقيام بأنشطة زراعية كبرى وممارسة الطقوس المائية.

باستحضار التحولات التي شهدها القرن التاسع عشر الميلادي، تبين لنا أن مجتمع واحات وادي نون متنوع الأصول (أمازيغ، عرب). قد يظهر لأول وهلة أنه مجتمع غير منظم، إلا أنه بعد تعميق النظر والتحليل خلصنا إلى أنه مجتمع وحدوي، يعتمد على مجموعة من الاستراتيجيات والرموز المتميزة، كوحدة النسب والقوانين العرفية. كما تلعب الطقوس المائية دورا هاما في المجتمع الواد نوني خاصة الدور النفسي، إذ تشكل الطقوس المائية والدينية (عروسة المطر- تِسْلِيتْ أُونْزَارْ/ السنة الفلاحية-إِضْنْ أُوسْكَاسْ/ عاشوراء-تَاعَشُورْتْ/ العرس-تمّغرًا)، حسب الاعتقاد الذهني للمجتمع طلبا للغيث، فهم من يسقطون المطر، ويخصبون الأرض. وتعد مناسبة للتصالح بين النساء. والطقوس المائية في مجملها ثقافة شعبية، يهدف من ورائها المجتمع الواد نوني تحقيق مصالح دينية واجتماعية.

٩-النتائج

لقد سمحت دراستنا هذه، حول التراث المائي بواحات وادي نون، إلى التوصل بنتائج عامة وأخرى فرعية، واعتبرت الأولى بمثابة العمود الفقري الذي أسست عليه رسالة أطروحتي، أما الثانية فتم استخراجها انطلاقا من جزئيات دقيقة للأطروحة. ويتبين لنا جليا في الفصل الأول أن التاريخ والمجال والإنسان في واحات وادي نون أهم العوامل الرئيسة في تحديد طبيعة الإثنيات البشرية التي استوطنت المجال الواحي الواد نوني، هذا يدل على قوة القبائل قيد الدراسة (أَزْوَافِيطْ وآيتْ لْحسنْ وآيتْ مَسْعُودْ وآيتْ بْرَاهِيمْ وآيتْ يَاسِينْ وآيتْ بُوهُو وآيتْ زَكْرِي وآيتْ بَاعَمْرَانْ وآيتْ مُوسَى عْلي وآيتْ حْمَادْ وإِدَا أُوفْسَتّْ)، التي امتدت جغرافيا في أماكن قرب الأنهار والعيون والآبار والنخيل، مما يبرز مكانة هذه القبائل فلاحيًا واجتماعيًا واقتصاديًا.

لهذا، فإن الماء هو العنصر الأساسي الذي بنيت عليه حضارة واحات وادي نون عبر الزمن، حيث أقيمت على العديد من الموارد المائية التي تطرقنا إليها في الفصل الثاني، الذي شمل موارد متعددة منها: الأودية والعيون والآبار، مما يعطينا فرصة الاشتغال على التاريخ الاجتماعي للقبائل الواد نونية، التي حاولت أن تفرض نفسها في هذا المجال الواحي المرتبط بالماء والأرض، مع أن هناك قبيلة من القبائل السالفة الذكر (قبيلة آيتْ مَسْعُودْ) التي امتدت تاريخيا وجغرافيا، ووضعت آليات التفاعل والتماسك القبلي الذي أُسس لحضارتها عبر استيعاب القيم الإنسانية والثقافية ثم الرمزية، مما يدل على عمق دلالي يطبعه جو الاستقرار والترحال في عالم البداوة بين الواحة والبادية.

لذلك كان على سكان المجتمع الواحي الواد نوني، أن يدبر توزيع الماء ويقوم بوضع منشآت الري من أجل الحفاظ على الثروة المائية، وضمان أحسن لاستغلالها، فرغم قلة المصادر التي أشارت إلى هذه المنشآت (السواقي- المصارف- الساعة المائية- الصهاريج)، إلا

أن هناك رواية شفوية لشيوخ المنطقة، التي قدمت لنا معلومات مهمة حول هذه التقنيات العتيقة. وغير ذلك من المعلومات، كان لابد لنا في الفصل الثالث الوقوف عند طريقة توزيع وتخزين الماء في واحات وادي نون، ثم إلى التقنيات المستعملة آنذاك في الري التقليدي مثل (الطاسة- تَنَاسْتْ/ النوبة- تَوَالاَ/ العصا- أَسْقُولْ)، عوض الري العصري الذي يعتمد على الوسائل الحديثة (الساعة المائية- تِيرْمتْ/ محطة الضخ- الشَّاطُو/ الطاقة الشمسية).

إن ما قدمته الرواية الشفوية والوثائق التاريخية خاصة، من قوانين عرفية وأنظمة الري الماء في واحات وادي نون، يؤكد اهتمام المجتمعات الصحراوية بهذه المنشآت، بكونها الطريقة الناجعة في تقسيم الماء بين ذوي الحقوق. فقد عمد سكان واحات وادي نون الاعتماد على القوانين والأعراف المحلية المعمولة بها قديما، في استعمال واستغلال الماء داخل هذا المجال الواحي، ومن جانب آخر لعبت التقنيات العتيقة دورا مهما في توزيع الماء بين الفلاحين للحد من الصراع بينهم.

لذلك تضمنت الدراسات السابقة آليات ووحدات القياس المعتمدة في تقسيم الماء، نعني بالذكر دراسة أحمد إدا الفقيه في أطروحته (نظام المياه والحقوق المرتبطة بها في القانون المغربي شرعا وعرفا وتشريعا). بدورها شكلت منشآت تخزين المياه دورا بارزا في الري، بكونها تحافظ على الماء لاستغلاله في وقت الجفاف، وتدخل المصارف والسواقي ضمن خانة التوزيع، وإيصال الماء إلى الحقول الزراعية. كما يمكن رصد طريقة استغلال الماء في واحات وادي نون انطلاقا من ملكية الأرض والماء، ومن تقنية الخطارة والآبار.

أما فيما يخص النتائج الفرعية للأطروحة، فيمكن الإشارة إليها كما يلي:

هناك اختلاف لغوي في تسميات بعض منشآت الري في واحات وادي نون، على سبيل المثال نجد: (الطاسة) في واحة أسرير وتغمرت، أما في واحة تغجيجت فيطلق عليها باسم (تَنَاسْتْ-الطاسة)، بالمقابل لا توجد هذه الوحدة بواحة القصابي.

جل أسماء نوبات الماء تُنطق بالأمازيغية (تَاسْضَرتْ/ شجر-إدا ومستر/عرش-مِي رَمَانْ/ أم الجمال-تِيمزْكِدَا/ المسجد- وِيسْ كُوزْ- العدد الرابع).

الاعتماد على وحدة الساعة المائية عوض الطاسة أو تناست في جميع واحات وادي نون (منتصف الثاني من القرن العشرين).

إن حق الاستفادة من الماء في واحات وادي نون مرهون بانتماء الفرد إلى المجال، إلا إذا اشترى النوبة عند فرد من القبيلة.

يمكن القول إن نوبات الماء مرتبطة إلى حد ما بملكية الماء والأرض، من خلال شرائها ورهنها، كما شاهدنا ذلك في بعض واحات وادي نون (القصابي وأسرير).

هناك ملكية مشتركة في نوبات الماء، كما هو معمول به في كل من واحة تغجيجت وأسرير ثم تغمرت.

يسمى الشخص الذي يقوم بتوزيع الماء بين الفلاحين في واحات القصابي وتغمرت وأسرير ب (السَرَّاطْ)، أما في واحة تغجيجت فيطلق عليه ب (بُوتَنَاستْ-صاحب الطاسة).

اختلاف في استغلال الماء في واحات وادي نون، هناك من يعتمد على الخطارات والآبار، أو بالأحرى على ملكية الماء أو الأرض.

يستفيد المجتمع الوادنوني من الموارد المائية (الأودية والعيون والآبار)، من أجل سقي الحقول والنخيل والأراضي البورية البعيدة عن المجال الواحي.

استغلال الماء من أجل تلبية حاجياتهم اليومية، كما رأينا ذلك من خلال المعاينة المباشرة في واحة تغجيجت، حيث قامت الفتاة بجلب الماء من الساقية من أجل غسل الملابس.

استناداً إلى ما تم عرضه سابقًا، وإلى المقارنة التي قمنا بها حول التراث المائي في واحات وادي نون، تبين لنا هناك أوجه التشابه والاختلاف في طريقة استعمال واستغلال الماء داخل هذا المجال الواحي. ومن جهة أخرى يعتمد الفلاح الوادنوني في سقي الواحة، على الري المؤقت والموسمي، وذلك بتشييد سدود تحويلية عبارة عن حواجز، تحول جريان المياه نحو الحقول. ما يمكن قوله عن مصادر الماء في واحات وادي نون، أنها تمزج بين ثلاثة روافد أساسية منها (الأودية- العيون- الآبار). وبالتالي فإن خريطة الموارد المائية في المجال الواحي الوادنوني كثيرة ومنتشرة على نطاق واسع، وفي مختلف أرجاء واحات وادي نون، لكن رغماً من هذه الكثرة فإنها لا توفر كل المطلوب.

على سبيل المثال نجد: واحة القصابي حاليًا تعاني من ندرة الموارد المائية لسقي بعض الحقول الزراعية، والعكس صحيح بالنسبة للواحات الأخرى، ويرجع ذلك إلى ظاهرة موسم الجفاف الذي يُلحق هذا المجال،

وهو ما حذا بمجتمع الواحة إلى وضع مساطر صارمة حول طرق استعمال واستغلال هذه الثروة المائية. ولازالت واحات وادي نون تعمل بنفس الأعراف والقوانين المنظمة للسقي، بخلاف واحة القصابي التي تسقى واحتها بالوسائل العصرية (الطاقة الشمسية)، كما شاهدنا ذلك عند زيارتنا لدوار (مِي رَمَانْ وأم الجمال)، إلا أن السمة الموحدة في واحات وادي نون هي استعمالها لنفس التقنيات العتيقة، مع اختلاف في وحدة قياس الماء. تتشابه وتختلف واحات وادي فيما بينها في بعض منشآت الري، ونوردها على شكل الآتي:

الطاسة: موجودة في كل واحات وادي نون (أسرير وتغمرت وفاصك والقصابي وتكانت وإفران الأطلس الصغير وتِيمُولاَيْ وتَارْكَا وَسَايْ وازْرِيويلَة وأَفرْكَطْ ولَبْيَارْ وتَيْدَالتْ).

تَنَاستْ: تُستعمل في واحة تغجيجت فقط.

النوبة: موجودة في جُل واحات وادي نون.

وحدة النوبة: تختلف من واحة إلى أخرى، نجدها في واحة تغجيجت تسمى (دَنقْ)، أما واحتي أسرير وتغمرت تسمى ب (أُوتَامَة)، في حين نجد واحة القصابي يطلق عليها ب (لِيلَة)، وتسمى في باقي الواحات ب (تِيرمتْ).

الصهريج: هذه التقنية موجودة فقط في واحتي تغجيجت والقصابي.

الساقية: لازالت إلى حد الآن في واحات وادي نون، بعضها قديمة وأخرى حديثة.

كان الهدف المنشود في مقارنتنا لهذه التقنيات (النوبة والساقية والصهريج ووحدة القياس)، هو الكشف عن أوجه التشابه والاختلاف لعملية الري في واحات وادي نون. من جهة أخرى تختلف نسبيا طرق استغلال الماء في هذه المجال من واحة إلى أخرى. على سبيل المثال نجد: واحات تغمرت وأسرير وفاصك وازْرِيويلَة وتكانت وتَارْكَا وَسَايْ وإفران الأطلس الصغير اللواتي تعتمدان على ملكية الماء والأرض، والعكس صحيح لباقي واحتي وادي نون (تغجيجت والقصابي) اللتان تستعملان طريقتان هما (الخطارات والآبار).

بناءً على الوثائق المحلية التي بجعبتنا، والمرتبطة بموضوع التصرف واستغلال الماء في واحات وادي نون، **نستنتج أن هناك أوجه التشابه والاختلاف في التقنيات** التي يستعملها الفلاح الوادنوني داخل هذا المجال الواحي، نوردها كما يلي:

الخطارة: موجودة في جميع واحات وادي نون.

الآبار: موجودة أيضا في واحات وادي نون.

أَمْكَرُوضْ: تكاد تكون منعدمة هذه التقنية في واحتي القصابي وتغمرت، والعكس صحيح في باقي واحات وادي نون.

هكذا يختلف استغلال الماء في واحات وادي نون نظرا لاختلاف الوسائل المستعملة في التدبير، ففي واحة تغجيجت يتم الاعتماد على تقنية الخطارة والسد التحويلي (أَكُوكْ)، عكس الواحات الأخرى التي تكتفي بتقنية الآبار وملكية الماء والأرض. وتنظر الساكنة إلى هذه التقنيات من جانب التقني الزراعي، التي تتخذها كمبدأ أساسي للعلاقات الاجتماعية بين ذوي الحقوق من الماء. من جهة أخرى تشكل إحدى الطرق الناجحة في استغلال وتدبير المياه داخل الحقول الزراعية، النابعة من التقاليد المحلية المعمولة بها داخل المجتمع الواحي الوادنوني. الذي يعبر على التضامن الاجتماعي بين كافة تشكيلات ساكنة واحات وادي نون.

إن الهدف الرئيس الذي رافقنا خلال مقاربة التراث المائي في الصحراء من منظور إثنوغرافي، هو محاولة الكشف عن الطقوس المائية التي كانت تمارس وسط مجتمع الواحة. وتقترن هذه الطقوس المائية والعادات الاجتماعية بطلب الغيث، عندما يصل الأمر بالفلاح الوادنوني في موسم الجفاف إلى حد اليأس. وبذلك يتهيأ مجتمع الواحة لإقامة هذا الطقس (عروسة المطر- تِسْلِيتْ أُونْزَارْ أوتَلْغَنْجَا) في موكب تشارك فيه النساء والأطفال، يرددون الأهازيج والأدعية، ويطوفون عبر الدواوير والقرى والأضرحة. وفي الطريق يتم رش الدمية (تَلْغَنْجَا) بالماء من أعالي البيوت، تدرعا من الله عزوجل أن يغثهم بالمطر، ومن جانب أخر يحتفل سكان واحات وادي نون في اليوم العاشر من شهر محرم بمناسبة تسمى (عيد عاشوراء وتَاعَشُورتْ)، الذي يتخلله صراع بالماء بين الشباب، حيث يقومون برش كل من يصادفونه، وهو مظهر ثقافي من مظاهر الموروث الشعبي الذي يقام في هذا المجال الواحي.

قد توصلت في هذه المقاربة الإثنوغرافية للتراث المائي في الصحراء، إلى العادات الاجتماعية التي تقام آنذاك في مكان جلب المياه وسط هذا المجال الواحي، ومن بينها نذكر: عادة الزواج- تَمّغْرَا/ عادة الخطوبة-إِسِيكَالْ. وتتم هذه العادتان بعد اتفاق الابن مع البنت في ساحة الفرجة والرقص (أَحْوَاشْ)، وخلال مدة الخطوبة يُنفق الابن على أهل البنت لمدة سنة

كاملة، رغم ذلك فقد تم استبدال ظاهرة (عروسة المطر- تِسْلِيتْ أُونْزَارْ)، بطقس المَعْرُوفْ الذي يقام في وسط الضريح (معروف نْشِيخْ) أو ساحة المسجد (معروف نتمزكيدا)، حيث تقوم مجموعة من النساء بجمع الزيت والدقيق، من أجل تحضير هذا المعروف. وكل ذلك من أجل الفوز برضى وبركة هذا المكان المقدس، الذي يقام فيه هذا الطقس طلبا للغيث.

وقد سجلنا في هذا الصدد، أوجه التشابه والاختلاف للطقوس الدينية والمائية التي تمارس داخل مجتمع الواحة، نوردها كما يلي:

طقس عروسة المطر-تِسْلِيتْ أُونْزَارْ: تمارس في واحات (تغجيجت وفاصك وتيدالت وتكانت وتيمولاي وإفران الأطلس الصغير).

السنة الفلاحية-إِضِي أُوسْكَاسْ: يقام هذا الطقس في جميع واحات وادي نون.

عيد عاشوراء-تَاعَشُورتْ: تمارس في جل واحات وادي نون.

الزواج-تمّغرَا: تقام هذه العادة في واحات (فاصك تكانت وإفران الأطلس الصغير وتغجيجت وتيمولاي).

المعروف-الوَلِيمَة: يقام في مختلف واحات وادي نون.

حامة أَبَايْنو: توجد هذه الحامة في واحة أباينو، التي تعرف بخصائصها الاستشفائية لمعالجة الأمراض الجلدية والروماتيزمية، حسب الاعتقاد الشعبي لساكنة هذه الواحة.

حامة خُفُّو حْمَادْ بواحة أسرير: تستعمل مياهها لعلاج بعض الأمراض الجلدية. وبجانبها ولي صالح يسمى سيدي خفو حماد أو مُولْ سَبعْ عيُون، كما يتوفر على بيتان للمأوى، محاطان بالعديد من النخيل وأشجار الدفلة.

حامة لالة مْلُوكَة بواحة أَدَايْ: توجد حامة لالة ملوكة بواحة أداي، على بعد خمس عشرة كيلومترات من واحة إفران الأطلس الصغير، وهي من بين الحامات المعدنية التي تتوفر عليها واحة أداي، وتعد قبلة للعديد من السياح المحليين والأجانب. وتدخل ضمن الحامات العلاجية والاستشفائية من الأمراض الجلدية والنفسية.

عين أَبَرْبُورْ (سْخُونَة) بواحة تغمرت: تقع على بعد عشر كيلومترات من دوار آيت بكو بواحة تغمرت، وهي من العيون المعدنية التي يقصدونها سكان واحتي تغمرت وفاصك من أجل الاستشفاء والعلاج، وتحتوي مياهها على الكبريت الذي يقضي على الأمراض الجلدية.

رغم أن الموضوع محدود المقاربات، إلا أن للبحث في التراث المائي في الصحراء وادي نون أنموذجا أهمية كبرى، إذ سيساهم في إضافة لبنة في مشروع كتابة تاريخ الفئة الاجتماعية لواحات وادي نون، إلا أن المشروع مازال في بدايته، فهناك مجموعة من القضايا التي تحتاج إلى مزيد من البحث العلمي، وتوسيع المقاربة المنهجية لتكون النتائج أدق، وبهذا نكون قد أنهينا هذا البحث المتواضع، على أن نكون قد وفقنا في تقديم عمل جدي ومفيد في حل بعض الإشكالات المطروحة في مجال التراث المائي بواحات وادي نون.





https://kan.journals.ekb.eg

Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal,
indexed and abstracted in several
international databases.

https://portal.issn.org/resource/ISSN/2090-0449
https://www.facebook.com/historicalkan